

فريدريك إنجلز

حال الطبقة العاملة في انجلترا

ترجمة: فخري لبيب



دار الثقافة الجديدة

فريدريك انجلز

حال الطبقة العاملة في انجلترا

من المشاهدة الشخصية والمصادر الرسمية (١)

ترجمة: فخري لبيب

الناشر
دار الثقافة الجديدة
٣٢ شارع صبرى أبو علم — القاهرة
ت : ٧٤٠٤٧١ — ٧٤٢٨٨٠

غلاف : محمد عزام

حال الطبقة العامل
في انجلت

رقم الايداع ٤٠٥٨ / ١٩٨٠

مطبعة عابدين
٩ ش المقاول ت ٩٠٢٧٧٤

إلى الطبقات العاملة فى بريطانيا العظمى (٢)

أيها العمال !

إليكم أهدى عملا حاولت فيه أن أضع أمام مواطنى الألمان صورة أمينة عن وضعكم ، عن معاناتكم ونضالاتكم ، عن آمالكم ومطامحكم . لقد عشت فيما بينكم ردحا من الزمن كافيا لأعرف شيئا ما عن ظروفكم ، ولقد كرست بجدية جل إنتباهى للتعرف عليها ، لقد درست الوثائق الرسمية وغير الرسمية المختلفة ، بقدر ما كان فى مقدورى أن أحصل عليها ، ولم أكن راضيا بهذا ، كنت أريد أكثر من مجرد معرفة مجردة عن الموضوع الذى أتناوله ، كنت أود أن أراكم فى منازلكم ، أن أعاينكم وأنتم تمارسون حياتكم اليومية ، أن أتحدث معكم عن وضعكم ومظلماتكم ، لأشاهد نضالاتكم ضد سيطرة مضطهديكم الاجتماعية والسياسية . ولهذا فقد قمت : بنبذ الصحبه ومآدب الغداء ، ونبيذ وشمبانيا الطبقة الوسطى ، وكرست ساعات فراغى بالكامل تقريبا للاختلاط بالرجال العاملين البسطاء ، وإننى لسعيد وفخور لفعلى مافعلت ، سعيد لأنى بهذا قد حفزت على قضاء ساعات عديدة سعيدة فى تحصيل معرفة بحقائق الحياة — ساعات عديدة ، كان من الممكن أن تتبدد لولا ذلك ، فى حديث دارج ورسميات مملة ، فخور ، لأنى قد نلت بذلك فرصة إنصاف طبقة من الرجال المضطهدين المفترى عليهم . والذين رغم كل أخطائهم ، وفى ظل كل ظروف أوضاعهم غير المواتية ، يستحوذون على احترام كل إمرىء عدا تاجر المال الانجليزى ، فخور أيضا ، لأنى بذلك قد وضعت فى موقع يمكننى من تجنيب الشعب الانجليزى المهانة المتزايدة والتى نمت فى القارة الأوربية كنتيجه ضرورية للسياسة الأنانية بصورة جهنمية والسلوك العام لطبقتكم الوسطى الحاكمة .

كما كان لدى فى ذات الوقت فرصة سانحه لمراقبة الطبقات الوسطى، خصومكم، وسرعان ماوصلت إلى النتيجة ، أنكم على صواب ، على صواب تماما فى عدم توقع أى مساندة مهما كانت منهم ، إن مصحلهم تتعارض ومصالحكم على خط مستقيم ، رغم أنهم سيحاولون دوما زعم النقيض ، والعمل على أن تؤمنوا بأن جل تعاطفهم القلبى مع مصائركم . إن أعمالهم تحدد موقفهم . وآمل أن أكون قد جمعت أكثر من دليل كاف عن حقيقة أن الطبقات الوسطى — مهما كانت أقوالها — لاتنتوى فى الواقع شيئا آخر غير ثرائها عن طريق عملكم طالما كان فى وسعها أن تبيع ناتجه ، وأن تترككم للموت جوعا حالما تعجز عن تحقيق ربح من تلك التجارة المستترة باللحم الآدمى . ماذا فعلوا ليثبتوا حسن نيتهم الذى جاهروا به نحوكم ؟ هل أعطوا فى أى وقت من الأوقات ، أى إهتمام جاد لمظلماتكم ؟ هل فعلوا أكثر من دفع نفقات نصف دستة من اللجان المنتدبة للتحرى والاستقصاء ، والتى قضى على تقاريرها الضخمه بأن ترقد رقدة أبدية بين أكوام الأوراق المهملة فوق أرفف المكتب الوطنى؟ هل قاموا حتى بقدر مايمكن، بتجميع كتاب واحد مقروء من كل تلك الكتب الزرقاء الغثة، يمكن لأى أمرىء أن يحصل منه بسهولة عن حالة الغالبية العظمى من « البريطانيين الذين ولدوا أحرارا ؟ » ليسوا هم من يفعل ذلك فى الحقيقة ، فتلك أشياء لايحبون خوض الحديث فيها — لقد تركوها لأجنبى لينبىء العالم المتحضر عن الحالة المتردية التى عليكم أن تعيشوها .

أجنبى بالنسبة « لهم » ، وليس كذلك بالنسبة « لكم » ، كما آمل . فرغم أن إنجليزيتى ليست خالصة ، غير أنى آمل ، أن تجدوها انجليزية بسيطة . إن أحدا من العمال فى انجلترا — أو فى فرنسا — والشىء بالشىء يذكر ، لم يعاملنى قط كأجنبى . ولقد لاحظت بسرور بالغ أنكم متخلصين من تلك اللعنة المدمرة ، من التعصب الوطنى والعجرفة القومية ، والتى رغم كل شىء لا تعنى إلا الأنانية الشاملة — لقد لاحظت أنكم تتعاطفون مع كل امرىء وضع قواه بجدية فى خدمة تقدم البشرية — إنجليزيا كان أم لم يكن — وتعجبون بكل ماهو عظيم وخير ، سواء تربى على تربة بلدكم أم لا — لقد وجدت أنكم أكثر من مجرد رجال انجليز ، أعضاء أسرة واحدة منعزلة ، لقد وجدت أنكم رجال ، أعضاء

فى الأسرة البشرية العالمية الكبيرة، يعرفون أن صالحهم وصالح الجنس البشرى بأجمعه واحد . وبناء على ذلك ، وباعتبار أنكم أعضاء فى هذه العائلة من الجنس البشرى ، الواحد الذى لايتجزأ ، كآدميين بكل ماتحمله الكلمة من إصرار ، مثلكم فى ذلك مثلى ، ومثل آخرين عديدين فى القارة الأوربية، يحبون تقدمكم فى كل اتجاه ويتمنون لكم نجاحا عاجلا — استمروا إذن ، كما فعلتم حتى الآن، إن كثيرا من البقايا يجب إخضاعها ، كونوا صابرين ، كونوا غير هيابين — فنجاحكم مؤكد ، ولن تضيع أى خطوة تخطونها فى مسيرتكم نحو الأمام ، أنها خطوة من أجل قضيتنا المشتركة ، قضية الإنسانية .

بارمن (ريتان بروسيا)

١٥ مارس ١٨٤٥

كتبها انجلز بالانجليزية

ونشرت بالطبعة الألمانية الأولى

عن وضع الطبقة العاملة فى انجلترا

ليبزيج ، ١٨٤٥

فردريك انجلز

طبعت طبقا لنص الكتاب

تقديم للطبعة الألمانية الأولى

إن الكتاب الذى أقدم له بالصفحات التالية يعالج موضوعا كنت أنوى فى الأصل أن أتناوله فى فصل واحد من عمل أكثر شمولا يتناول التاريخ الاجتماعى لإنجلترا . على أن أهمية ذلك الموضوع سرعان ماحتمت على تقصيه منفردا .

إن وضع الطبقة العاملة هو القاعدة الحقيقية ونقطة التحول لكل الحركات الاجتماعية فى الحاضر، لأنه الذروة العليا والأكثر إفصاحاً عن البؤس الاجتماعى الموجود فى عصرنا . إن شيوعية الطبقة العاملة الفرنسية والألمانية هى نواتجها المباشرة ، كما أن مذهب فورييه والاشتراكية الإنجليزية ، كذا شيوعية البورجوازية الألمانية المثقفة هى نواتجها غير المباشرة . إن معرفة أوضاع البروليتاريا ضرورية للغاية ، حتى يكون فى الوسع توفير أرض صلبة للنظريات الاشتراكية ، هذا من ناحية ، ولإصدار أحكام عن حقها فى التواجد، من ناحية أخرى ، ولوضع نهاية لكل الأحلام العاطفية والأوهام ، ما لها وما عليها . غير أن أوضاع البروليتاريا تتواجد فى شكلها الكلاسيكى ، فى شكلها الكامل ، فقط فى الامبراطورية البريطانية ، وعلى الخصوص فى انجلترا ذاتها . فضلا عن ذلك ، فإنه فى انجلترا وحدها قد جمعت بصورة تامة كل المادة اللازمة ، وتم تدوينها بواسطة "تحقيقات رسمية ، على نحو يوفر بشكل دائم مايلزم لأى دارس لتقديم عرض مستفيض للموضوع .

لقد واتتنى الفرصة مدة واحد وعشرين شهرا لأتعرف بالبروليتاريا الانجليزية، كدحها، أحزانها وأفراحها، لأراها عن كثب، من خلال الملاحظة الشخصية والمخالطة الشخصية، وفى ذات الوقت، أكمل ملاحظاتى مستعينا بالمصادر الرسمية الضرورية. إن كل مارأيته، وسمعته وقرأته قد تم بحثه فى هذا الكتاب. إننى مستعد، ليس فقط لرؤية وجهات نظرى تهاجم فى كثير من الأجزاء، بل أيضا الحقائق التى أوردتها، خاصة عندما يصل الكتاب إلى أيدى الانجليز. إننى أعرف جيدا بالمثل، بأنه ربما يثبت خطأى هنا أو هناك فى بعض التفاصيل التى لا أهمية لها، شىء ما — حتى بالنسبة للرجل الانجليزى — لا يمكن تجنبه نظرا لطبيعة الموضوع الشاملة وإفتراضاته بعيدة المرمى، حيث أنه حتى فى انجلترا لايوجد مؤلف واحد، مثل مؤلفى، يتناول كل العمال. غير أننى — دون لحظة تردد واحدة — أتحدى البورجوازية الانجليزية، أن تثبت أننى قد ارتكبت جرم عدم الدقة ولو حتى فى مثال واحد، لأى نتيجة أوضحت بها وجهة نظرى ككل، وأن تثبت ذلك بالبيانات الرسمية، كبياناتى.

إن وصف الشكل الكلاسيكى، الذى اتخذته ظروف حياة البروليتاريا فى بريطانيا لهام جداً، وخاصة من أجل ألمانيا، وعلى وجه الدقة فى اللحظة الراهنة. إن الاشتراكية والشيوعية الألمانية، قد إنبعثت أكثر من غيرها، من إفتراضات نظرية، إننا معشر الألمان المهتمين بالعلوم النظرية، مازلنا نعرف القليل جداً عن العالم الحقيقى، وتسوقنا العلاقات الواقعية مباشرة، إلى معالجة هذه « الحقيقة السيئة » بالإجراءات الإصلاحية. وعلى أية حال فإن أحداً من أبطال تبرير تلك الإصلاحات لم يبلغ الشيوعية، ماعدا من سلك طريق انحلال الفيورباخى للفكر الهيجلى. إن الأوضاع الحقيقية لحياة البروليتاريا معروفة فيما بيننا بقدر ضئيل للغاية، حتى أن حسن النية التى تعالج به خطأ، بورجوازيتنا اليوم، المشكلة الاجتماعية « بتجمعات تنهض بالطبقات العاملة »، يبدأ دائما من أشد الأحكام سخفا وبعدا عن الصواب فيما يخص أوضاع العمال. إننا معشر الألمان نحتاج إلى معرفة الحقائق التى تخص تلك المشكلة أكثر من غيرنا. وفى حين أن أحوال معيشة البروليتاريا الألمانية لم تتخذ الشكل الكلاسيكى الذى

اتخذته فى انجلترا ، فإن لدينا مع ذلك، نفس النظام الاجتماعى عند القاع، والذى سيصل إن آجلا أو عاجلا إلى نفس الدرجة من الحدة التى بلغها بالفعل عبر البحر الشمالى ، إن لم يهد ذكاء الأمة السبيل أمام إختيار تدابير قادرة على أن تعطى أسس جديدة لكل النظام الاجتماعى . إن العلل الجذرية والتى كانت تتيحها فى إنجلترا تعاسة وقهر البروليتاريا ، إنما هى كائنة أيضا فى ألمانيا ، ولابد أن تؤدى فى المدى الطويل إلى نفس النتائج . وخلال ذلك ، على أية حال ، سوف تستحثنا الحقيقة الراسخة عن الأوضاع التعسة فى انجلترا إلى أن نرسخ نحن أيضا فى ألمانيا حقيقة الأوضاع التعسة ، كما سوف تمدنا بمعيار يمكننا من قياس مدى إتساعها وحجم الخطر — الذى وضعته فى الأضواء إضطرابات سيليسيا وبوهيميا(٢) — الذى يهدد مباشرة طمأنينة ألمانيا وهدوءها من تلك الناحية .

وأخـــيرآ ، فمازالت هنالك ملاحظتان أود أن أضعهما : أولا ، إننى قد استخدمت طول الوقت كلمة Mittelklasse بالمعنى الانجليزى لكلمة الطبقة الوسطى (أو الطبقات الوسطى كما يقال دائما على وجه التقريب) ، مثل الكلمة الفرنسية bourgeoisie والتى تعنى الطبقة المالكة ، وبنوع أخص تلك الطبقة المالكة والتى تميز عن تلك التى تدعى بالأرستقراطية — الطبقة التى تقبض فى فرنسا وانجلترا على السلطة السياسية بشكل مباشر ، وفى ألمانيا بشكل غير مباشر ، حيث تصور على أنها ممثلة للرأى العام . وبالمثل استخدمت تعبيرات الرجال العاملين (Arbeiter) والبروليتاريون ، الطبقة العاملة، طبقة المعدمين، والبروليتاريا ، كتعبيرات مناظرة لبعضها البعض . ثانياً ، إننى فى حالة جل الإقتباسات ، أشرت إلى الحزب الذى ينتمى إليه المؤلف ، حيث يحاول الليبراليون فى كل مناسبة تقريبا أن يؤكدوا على التعاسة الموجودة فى المناطق الريفية وأن يستبعدوا من جدلهم تلك الكائنة فى المراكز الصناعية . بينما على نقيض ذلك ، يقر المحافظون بالشقاء الكائن بالمراكز الصناعية ، غير أنهم ينكرون أية معرفة عنه فى المناطق الزراعية . ولنفس السبب ، فضلت على الدوام أن أقدم دليلا من مصادر ليبرالية كلما أعوزتنى الوثائق الرسمية التى تصف وضع عمال الصناعة

حتى أحزم البورجوازية الليبراليه بقذف كلماتها فى أسنانها . واستشهدت « بالمحافظين » أو « الميثاقيين » كسند لى فقط عندما كان فى وسعى أن أثبت صحتهم من خلال ملاحظة شخصية أو أقنعتنى صدق الحقائق المقتبسه بسبب السمعة الشخصية أو الأدبية للهيئات التى استشهدت بها .

بارمن ١٥ مارس ١٨٤٥

ف . انجلز

نشرت بالطبعة الألمانية لوضع الطبقة العاملة فى انجلترا

ليبزج ، ١٨٤٥

طبعت طبقا لنص الكتاب

مترجمة عن الالمانية

مقدمة :

يبدأ تاريخ البروليتاريا في انجلترا مع النصف الثاني من القرن الماضي مع اختراع الآلة البخارية وآلة تشغيل القطن . لقد سببت تلك الاختراعات ، كما هو معروف جيداً ، ثورة صناعية ، ثورة غيرت كل المجتمع المدني ، ثورة تبدأ الآن فقط ، معرفة أهميتها التاريخية . إن انجلترا هي التربة الكلاسيكية لمثل هذا التحول ، الذي كان من أقوى التحولات ، وأكثرها مضيا في سكون ، ولذا ، فإن انجلترا هي أيضاً الأرض الكلاسيكية ، لناتجها الأساسي ، البروليتاريا ، إنه في انجلترا وحدها ، يمكن دراسة البروليتاريا في كل علاقاتها ، ومن جميع الجوانب.

إننا لسنا ، هنا والآن ، بصدد التعرض ، لتاريخ هذه الثورة ، ولا بصدد أهميتها الضخمة بالنسبة للحاضر أو المستقبل. إن مثل هذا التحديد يجب إدخاره لعمل أكثر شمولا في المستقبل ، يجب بالنسبة للدراسة الحالية ، أن نحدد أنفسنا بالقليل الضروري لفهم الحقائق الناتجة ، لفهم الحالة الراهنة للبروليتاريا الانجليزية .

كان غزل ونسج المواد الخام ، يتم قبل إدخال الآلة ، في منزل العامل . فتقوم الزوجة والابنة بغزل خيط الغزل الذي يقوم الأب بنسجه ، أو يبيعاه ، إن لم ينجز الأب العمل بنفسه . كانت عائلات النساجين تعيش في الريف المجاور للمدن، وكان في وسعهم الحصول على أجور جيدة إلى حد ما ، حيث كان السوق الوطني يكاد أن يكون السوق الوحيد ، ولم تكن القوة الساحقة للمنافسة والتي جاءت فيما بعد ، يصاحبها قهر الأسواق الأجنبية وإتساع التجارة ، تضغط على الأجور ، كان هنالك ، فوق ذلك ، ازدياد دائم في الطلب ، للسوق الوطني ، تمشياً مع

الزيادة البطيئة فى السكان وتشغيل كل العمال ، كما كان هنالك أيضاً استحالة وجود منافسة شديدة بين العمال وبعضهم البعض ، نتيجة تشتت دو هم فى القرى . ولذا كان النساج على الدوام فى وضع يمكنه من أن يدخر شيئاً ما ستأجر قطعة صغيرة من الأرض ، يقوم على فلاحتها فى ساعات فراغه ، و كان لديه منها الكثير ، ليختار منها ما يريد ، حيث كان فى وسعه أن ينسج وقتما شاء ، وطالما يشاء هو ذلك . حقاً ، لقد كان مزارعاً سيئاً ، دبر شئون أرضه بطريقة قاصرة ، ولم يكن يحصل فى الغالب إلا على محصولات هزيلة ، ومع ذلك فإنه لم يكن بروليتاريا ، كان له ركيزة فى الريف ، حيث يقيم بصفة دائمة ، كان يشغل فى المجتمع درجة أعلى من الدرجة التى يشغلها العامل الانجليزى اليوم .

وبهذا نبت العمال عبر وجود مريح الى حد لا بأس به ، يمارسون حياة ورعة آمنة بكل تقوى واستقامة ، وكان وضعهم المادى أفضل بكثير من خلفائهم ، لم يكونوا فى حاجة إلى أن يجهدوا أنفسهم ، لم يكونوا يعملون أكثر مما اختاروا ليعملوه ، بيد أنهم يكسبون قدر حاجتهم . كان لديهم وقت فراغ للعمل الصحى فى الحديقة أو الحقل ، العمل الذى كان فى حد ذاته استجماماً لهم ، وكان فى وسعهم ، بالإضافة إلى ذلك ، أن يشاركوا فى عمليات الترويح عن النفس وفى ألعاب جيرانهم ، وكل تلك الألعاب — من باولينج ، كريكيت وكرة قدم . . . الخ ، أسهمت فى صحتهم البدنية ومناعتهم . لقد كانوا بشكل عام ، قوماً أقوياء ، أشداء ، وكان يوجد فرق بسيط أو لا يوجد أى فرق واضح ، بين بنيتهم الجسدية وبنية جيرانهم الفلاحين . لقد نما أبناؤهم فى هواء الريف النقى ، وحتى لو كان فى وسعهم أن يساعدوا والديهم فى العمل ، فقد كان ذلك لماماً فقط ، لم تكن لديهم مشكلة عمل ، مدته ثمانى أو إثنى عشرة ساعة .

ويمكن التكهن بما كانت عليه أخلاق هذه الطبقة وحالتها الفكرية ، كان أفرادها فاقدى الصلة بالمدينة ، إذ لم يدخلوها أبداً ، فقد كانت خيوط الغزل والقماش الذى غزلوه يسلم إلى عملاء متنقلين مختصين بدفع الأجور — كانوا معزولين حتى أن الرجال المسنين ، والذين عاشوا كلية قرب المدينة ، لم يذهبوا إلى هناك أبداً ، حتى سلبوا من حرفتهم ، بإدخال الآلة ، وأجبروا على البحث حولهم عن عمل فى المدينة — إن النساجين يقفون على الأرضية الأخلاقية والفكرية للفلاحين الملاك

والذين كانوا على إرتباط دائم مباشر بهم من خلال ممتلكاتهم الضئيلة . كانوا ينظرون إلى صاحب ضيعتهم ، أكبر مالك أرض فى المنطقة ، على أنه أرفعهم منزلة ، يطلبون منه النصح ، يضعون أمامه نزاعاتهم الصغيرة لتسويتها ، وينسبون الفضل له ، كما تقتضى مثل هذه العلاقة الأبوية . كانوا قوماً « محترمين » ، أزواج وآباء صالحين ، يقضون حياتهم بطريقة أخلاقية ، حيث لم يكن هناك مايغريهم كى يكونوا فسقة ، لم تكن هناك حانات ، ولا دور منحطة فى جوارهم ، وكان صاحب الفندق الذى يطفئون ظمأهم فى خانة ما بين الحين ، والحين رجلا محترماً أيضاً ، وغالباً ما يكون مزارعاً مستأجراً كبيراً ، يعتز بنظامه الجيد ، وبيرته الجيدة ، وأوقاته المبكرة . كانوا يبقون أولادهم طوال اليوم بالمنزل ، وينشئونهم على إطاعة ومخافة الله ، وظلت العلاقة الأبوية ، لا يشوبها كدر ، طالما ظل الأبناء غير متزوجين . وكان الشباب يشبون فى بساطة ريفية شاعرية وألفة مع أقرانهم حتى يتزوجوا ، ولو أن ممارسة الجنس كانت تكاد لا تنقطع قبل الزواج تقريباً ، إلا أن ذلك كان يحدث فقط عندما يكون الالتزام الأخلاقى بالزواج معروفاً لدى الطرفين ، فتعاد الأمور إلى نصابها بعقد قران لاحق . وباختصار ، عاش العمال الصناعيون الانجليز وفكروا خلال ذاك الزمن ، على نفس النمط الذى ما يزال موجوداً فى ألمانيا هنا وهناك ، عاشوا فى عزلة وخلوة ، دون أى نشاط ذهنى ودون تقلبات عنيفة فى وضعهم من الحياة . نادراً ماكان فى وسعهم أن يقرأوا ، وأكثر ندرة أن يكتبوا . يذهبون بانتظام إلى الكنيسه . لم يتحدثوا مطلقاً فى السياسة ، لم يتآمروا البتة ، لم يفكروا أبداً ، سعداء بالتمارين الرياضية ، مستمعين إلى الإنجيل عندما يقرء فى تبجيل متوارث ، مفرطين فى ميولهم الحسنة نحو الطبقات العليا . غير أنهم كانوا من الناحية الثقافية أمواتاً ، يعيشون فقط ، من أجل مصالحهم الخاصة الجزئية ، من أجل أنوالهم وحدائقهم ، لا يعرفون شيئاً عن الحركة الجبارة والتى كانت تعصف بالجنس البشرى خارج أفقهم . كانوا ناعمين بخضرتهم الهادئة ، ولولا الثورة الصناعية لما غادروا هذا الوجود مطلقاً ، والذى رغم كونه رومانطيقياً بطريقة مريحة ، إلا أنه لم يكن جديراً بالبشر ، وفى الحقيقة ، فأنهم لم يكونوا بشراً ، كانوا مجرد آلات تعمل فى جهد وعناء فى خدمة القلة الإرستقراطية ، والتى وجهت التاريخ هبوطاً حتى ذلك الحين ، وأوصلت الثورة الصناعية هذا الوضع فى بساطة إلى منتهاه المنطقى ، بأن جعلت عمال

الآلات خالصين وبسطاء ، آخذة منهم آخر بقايا النشاط المستقل، وبهذا فرضت عليهم أن يفكروا وأن يطالبوا بمكانة جديرة بالرجال . ويحدث فى الصناعة الآلية فى انجلترا ، وفى حركة المجتمع المدنية بشكل عام ، ما يحدث فى الأمور السياسية بفرنسا ، إذ أن دوامة التاريخ ، تجر آخر الطبقات التى ظلت غارقة فى لا مبالاة بليدة ، نحو الاهتمامات العالمية للجنس البشرى .

إن أول إختراع تسبب فى تغيير جذرى فى حالة العمال الانجليز كان دولاب الغزل ، اخترعه نساج يدعى « جيمس هارجريفز » من « ستاندهيل » ، قرب « بلاكبورن » ، فى شمال « لانكشاير » عام ١٧٦٤ . كانت تلك الآلة هى البداية الفجة ، لآلة غزل القطن التى اخترعت فيما بعد ، وكان يتم تحريكها باليد ، وبدلا من المغزل الواحد ، كما الحال فى دولاب الغزل العادى ، كانت تحمل ستة عشر أو ثمانية عشرة مغزلا ، يشغلها بمهارة عامل واحد ، وغدا من المستطاع بفضل هذا الاختراع ، تسليم خيط غزل أكثر مما كان فيما مضى . ومع أن نساجاً واحداً ، كان يوظف لديه ثلاث غزالين ، غير أن خيط الغزل لم يكن كاف البتة ، وكان النساج يضطر فى غالب الأحيان لإنتظارة ، أما الآن فأن خيط الغزل المتوفر ، أكثر مما يمكن نسجه بواسطة العمال الموجودين . إن الطلب على البضائع المنسوجة فى إزدياد بالفعل، لقد إزداد حتى الآن أكثر ، نتيجة رخص تلك البضائع، والتى كان رخصها بالتالى ، محصلة التكلفة المخفضة لإنتاج خيط الغزل . زاد الاحتياج على النساجين ، وارتفعت أجورهم . فهجر النساج زراعتـه وأعطى كل وقته للنسيج ، حيث أصبح فى وسعه الآن أن يربح أكثر من منساجه . فى ذلك الوقت كان فى وسع عائلة مكونه من أربع أشخاص بالغين وطفلين (والذين أجلسوا للف الخيوط على البكر) أن يكسبوا من وراء عشر ساعات عمل يومياً ، أربعة جنيهات استرلينية فى الأسبوع ، وغالباً أكثر من ذلك ، إن راجت التجارة وإزداد ضغط العمل . وكثيراً ما حدث ، فى غالب الأحيان، أن نساجاً واحداً حصل على جنيهين اثنين بالعمل على منساجه . وبالتدريج إختفت كلية طبقة النساجين المزارعين ، وأدمجت فى طبقة النساجين الصاعدة حديثاً ، والتى تعتمد كلية على الأجور . ليس لديها عقار مهما كان ، ولا حتى الملكية غير الحقيقية لقطعة أرض، وهكذا صاروا رجالا عاملين، صاروا بروليتاريين وبالإضافة إلى

ذلك تحطمت العلاقة القديمة بين الغزال والنساج ، وهكذا ، فإن خيط الغزل ، كان حتى ذلك الوقت يغزل وينسج تحت سقف واحد طالما كان ذلك مستطاعاً . والآن حيث أن آلة الغزل ، مثلها فى ذلك مثل المنساج ، تحتاج إلى ساعد قوى ، بدأ الرجال يغزلون ، وعاشت أسر كاملة على عملية الغزل ، بينما ألقت غيرها جانباً بدولاب الغزل العتيق الذى أبطل استعماله ، وأجبرت على الحياة معتمدة على أجور الآباء ، إن لم تكن لديها دخولا تفى بشراء آلة غزل . وهكذا بدأ الغزل والنسيج ، منذ ذلك الحين ، عملية تقسيم العمل تلك ، تقسيما محكماً للغاية .

بينما كانت البروليتاريا الصناعية تتطور على هذا النمط ، مع أول آلة ماتزال قاصرة للغاية ، تسببت نفس الآلة فى ظهور البروليتاريا الزراعية . كان هناك حتى الآن ، عدد كبير من ملاك الأراضى الصغار ، والفلاحين الملاك ، الذين نبتوا فى نفس الركود الذهنى ، الذى نبت فيه جيرانهم النساجين المزارعين. كانوا يفلحون نتفا من الأراضى بنفس النمط القديم القاصر الذى جرى عليه أسلافهم ، وعارضوا كل تغيير بعناد يتسم به أمثال هؤلاء من صنائع العادة ، بعد أن مكثوا ساكنين جيلا بعد جيل. كان بينهم عديد من صغار الملاك أيضاً، لم يكونوا كباراً بالمعنى الحالى للكلمة ، بل كانوا أناساً انتقلت إليهم الأرض عن آبائهم ، إما بعقد إيجار موروث ، أو بقوة العرف القديم ، وكانوا حتى الآن يقبضون على تلك الأرض بأحكام ، وكأنها كانت بالفعل ملكهم الخاص . لقد أصاب التبطل عدداً كبيراً من قطع الأرض الصغيرة ، عندما انسحب العمال الصناعيون من الزراعة ، وفوق تلك القطع ، وطدت الطبقة الجديدة من كبار المستأجرين نفسها ، كانوا مستأجرين وفق إرادتهم ، وقد اقتنوا خمسين ، مائة ، مائتين أو أكثر من الأكرات ، كانوا عرضة للطرد فى نهاية العام ، غير أنهم كانوا قادرين بالفلاحة الحسنة والزراعة الأوسع أن يزيدوا عائد الأرض . كان فى وسعهم أن يبيعوا منتجهم بسعر أرخص من الفلاح المالك ، والذى لا يتبقى له شىء غير بيع مزرعته ، إن هى كفت عن القيام بنفقته ، ويحصل على آلة غزل أو منساج ، أو يشتغل كعامل زراعى فى خدمة مزارع كبير . إن بطئه الموروث ، وطرق الفلاحة القاصرة التى خلفها أسلافه ، لم تترك له بديـلا عندما أجبر على منافسة رجال يديرون أراضيهم طبقاً لقواعد حصيفة بالإضافة إلى المزايا التى تحققها الزراعة على نطاق واسع ، وتوظيف رأس المال فى تحسين التربة .

وفى تلك الأثناء لم تتوقف الحركة الصناعية عند هذا الحد. لقد بدأ رأسماليون أفراد فى تجميع آلات الغزل فى أبنية كبيرة واستخدام قوة الماء فى تحريكها ، وبذا أصبحوا فى وضع يمكنهم من إنقاص عدد العمال ، وبيع خيط الغزل بسعر أرخص من السعر الذى يستطيع الغزالون الأفراد أن يبيعوا به ، ولقد كان يدير هؤلاء ، ماكيناتهم باستخدام اليد ، كانت هناك تحسينات مستمرة فى آلة الغزل ، حتى أن الآلات كانت تتقادم باستمرار ، ولزم تعديلها أو طرحها جانباً ، ورغم أنه كان فى وسع الرأسماليين أن يصمدوا ، وذلك باستخدام الماء كقوة محركة حتى مع الآلات القديمة ، إلا أن ذلك كان مستحيلا بالنسبة للغزال الفرد. واستقبل نظام المصنع ، والذى كانت بدايته قد وضعت توسعاً جديداً فى عام ١٧٦٧ ، بواسطة آلة الغزل التى إخترعها « ريتشارد آركرايت » وهو حلاق من « بريستون » الواقعة شمالى « لانكشاير » . وتعتبر هذه الآلة أهم إختراعات القرن الثامن عشر بعد الآلة البخارية . لقد أعدت منذ البداية كى تعمل بالقوة الميكانيكية المحركة ، وأقيمت على قواعد جديدة تمام الجدة . وفى عام ١٧٨٥ إستنبط « صامويل كرومبتون » من « فيروور » ، « لانكشاير » ، آلة غزل القطن ، وذلك بمزج الصفات المميزة ، لكلا من دولاب الغزل ، وآلة الغزل ، وكذا اخترع « أركرايت » آلة التمشيط ، وأطر التجهيز فى نفس الوقت تقريباً . وغـــدا نظام المصنع هو النظـام السائد فى عملية غزل القطن . وهيأت تلك الآلات تدريجياً ، عن طريق تعديلات طفيفة ، لغزل الصوف ، وفيما بعد (فى العقد الأول من هذا القرن) لغزل الكتان أيضاً ، وبذا حلت هنا أيضاً ، محل العمل اليدوى . وحتى حينذاك لم تكن النهاية قد حلت بعد . ففى سنى نهاية القرن الماضى ، اخترع « د . كارترايت » ، وهو راعى كنيسة ريفية ، المنساج الذى يعمل بالقوة المحركة ، وفى قرابة عام ١٨٠٤ كان قد إتقن إختراعه إلى حد كبير ، حتى غدا فى مقدوره منافسة المنسج اليدوى بنجاح ، وضاعفت الآلة البخارية التى اخترعها « جيمس وات » ع م ١٧٦٤ من أهمية كل تلك الآلات ، حيث استخدمت لتوفير طاقة محركة للغزل منذ عام ١٧٨٥ .

وبهذه الاختراعات ، والتى كان يتم تحسينها منذ ذلك الحين ، من عام إلى عام ، تحقق النصر للعمل الآلى على العمل اليدوى فى الفروع الأساسية للصناعة

الإنجليزية ، ويروى تاريخ الأخيرة ، كيف أنه منذ ذلك الوقت وما تلاه ، ساقت الآلة ، العمال اليدويين من وضع إلى وضع آخر . وكانت نتائج ذلك ، هبوط سريع فى أسعار كل السلع المصنوعة، إزدهار التجارة والصناعة ، إخضاع كل الأسواق الأجنبية غير المحمية تقريباً وتضاعف رأس المال والثروة القومية، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، تضاعفت البروليتاريا فى هدوء وبسرعة أكبر ، تدمير كل ملكية الأرض ، وكل ضمان لتشغيل الطبقة العاملة ، إفساد الأخلاق ، الهياج السياسى ، وكل تلك الحقائق التى ينفر منها الإنجليز غاية النفور ، فى ظل ظروف مريحة ، والتى علينا أن نضعها فى الإعتبار ، فى الصفحات التالية . أما وقد رأينا أى تغيير صنعته آلة واحدة قبيحة كدولاب الغزل ، فى الحالة الإجتماعية لطبقات الدنيا ، فإنه ليس هناك مبرر للدهشة لما يحدثه نظام كامل يعتمد على بعضه البعض ، لآلات تم نه يلها ببراعة ، آلات تتلقى المواد الخام لتنتج بضائع منسوجة .

دعونا نتابع بدقة أكثر ، نوعاً ما ، تطور الصناعة الإنجليزيه(*) فى تلك الأثناء ، مبتدئين بصناعة القطن ، فى سنوات ١٧٧١ — ١٧٧٥ كان يجلب سنوياً إلى انجلترا ما يقل عن ٥,٠٠٠,٠٠٠ رطل من القطن الخام تقريباً ، وفى عام ١٨٤١ جلب ٥٢٨,٠٠٠,٠٠٠ رطل ، بينما يصل الوارد فى عام ١٨٤٤ إلى ٦٠٠,٠٠٠,٠٠٠ رطل على الأقل . وقد صدرت انجلترا فى عام ١٨٣٤ ٥٥٦,٠٠٠,٠٠٠ ياردة من السلع القطنية المنسوجة ، ٧٦,٥٠٠,٠٠٠ رطلا من غزل القطن ، ومن الملابس التحتية القطنية ماقيمته ١,٢٠٠,٠٠٠ جنيه استرلينى ، وفى نفس العام كان يعمل فى خدمة صناعة القطن أكثر من ٨,٠٠٠,٠٠٠ مغزل

(*) طبقاً لكتاب « بورتر » عن «التقدم والأمة » ، لندن ١٨٣٦ — الجزء الأول، ١٨٣٨ — الجزء الثانى ، ١٨٤٣ — الجزء الثالث (بيانات رسمية) ، ومصادر أخرى، رسمية فى الأساس ، [إن الخطوط التاريخية للثورة الصناعية ، كما هى واردة أعلاه ، ليست بالضبط فى تفصيل معين ، غير أنه لم تكن هنالك فى ١٨٤٣ — ٤٤ مصادر متاحة أفضل من ذلك (أضيفت فى الطبعة الألمانية — لعام ١٨٩٢)] .

بآلات الغزل، ١١٠,٠٠٠ قوة محركة و ٢٥٠,٠٠٠ نول يدوى ، ولم تدخل المغازل اليدوية فى الحسبان ، وطبقاً لإحصاء « ماك كيولوك » فإن ما يقرب من مليون ونصف المليون آدمى، كان يقوم هذا النوع من الصناعة بإعالتهم ، والذين كان يعمل ٢٢٠,٠٠٠ منهم فى المصانع ، التى كانت يستخدم فيها البخار كقوة محركة ، قوة تعادل قوة ٣٣,٠٠٠ حصان ، وقوة المياه التى تعادل ١١,٠٠٠ حصان . أن هذه الأرقام فى وقتنا الحالى بعيدة عن الحقيقة ، ويمكن الإدعاء باطمئنان ، أن القوة المحركة وعدد الماكينات وعدد العمال فى عام ١٨٤٥ يفوق تلك الكائنة عام ١٨٣٤ بأكثر من نصفها . إن المركز الرئيسى لهذه الصناعة هو « لانكشاير » حيث نشأت ، لقد أحدثت هذه الصناعة ثورة كاملة فى هذا الإقليم، محولة إياه من مستنقع خامل تساء فلاحته ، إلى منطقة مزدحمة مزدهرة، يتضاعف عدد سكانها إلى عشرة أمثال ، خلال ثمانين عاما ، باعثة مدن عملاقة مثل « ليفربول » « ومانشستر » واللتان كان يسكنهما ٧٠٠,٠٠٠ نسمة ، والمدن التى تجاورهما ، « بولتون » وسكانها ٦٠,٠٠٠ ، « روكدال » وسكانها ٧٥,٠٠٠ ، « أولدهام » وسكانها ٥٠,٠٠٠ ، « برستون » وسكانها ٦٠,٠٠٠ ، « أشتون » و « وستالبيريدج » وسكانها ٤٠,٠٠٠ ، وبوغت قائمة كاملة من المدن الصناعية الأخرى ، وكأنما كل ذلك ، قد تم بلمسة سحرية ، إن تاريخ جنوب « لانكشاير » يشمل على بعض من أعظم الأعاجيب فى الأزمنة الحديثة ، غير أن أحداً لم يذكرها على الإطلاق ، وتلك كل المعجزات إنما هى نتاج صناعة القطن. كما إزداد أيضا تعداد « جلاسجو » قلب مركز القطن فى « إسكتلندا » ، أما بالنسبة « للانكشاير » و « ريفريشاير »، فقد إزداد من ٣٠,٠٠٠ نسمة إلى ٣٠٠,٠٠٠ نسمة منذ دخلت الصناعة . وأمدت أسعار الغزل المنخفضة ، صناعة الجوارب فى « نوتينجهام » و « دربى » بدفعة جديدة ، تلتها دفعة أخرى ، نتجت عن تحسين منساج الجوارب الطويلة ، والذى غدا من الممكن بواسطته نسج جوربين طويلين فى المرة الواحدة ، وغدت صناعة المخرمات أيضا ، فرعا هاما من فروع الصناعة ، بعد إختراع آلة المخرمات عام ١٧٧٧ ، وسرعان ما اخترع « ليندلى » بعد هذا التاريخ آلة شبكة الرؤوس المدببة ، وفى عام ١٨٠٩ اخترع « هيثكوت » آلة شبكة البكر والتى تلاها تبسيط شديد فى صنع المخرمات ، وارتفع الطلب فى تناسب مع انخفاض التكلفة ، حتى أن هذه الصناعة غدت

حالياً تكفل ٢٠٠٠٠٠ شخصاً . ان المراكز الرئيسية لهذه الصناعة هى « نوتنجهام » ، « ليستر » وغرب إنجلترا ، «ويلتشاير» ، «ديفونشاير» .. الخ. وتواجد إمتداد مقابل ، فى الفروع التى تعتمد على صناعة القطن ، فى الصباغة . وفى التبييض وطباعة القماش . التبييض باستخدام غاز الكلور بدلا من أوكسجين الجو ، الصباغة والطباعة بالتطوير السريع للكيمياء ، والطباعة بعدد من الاختراعات الآلية الأكثر ما تكون براعة ، بيد أن تقدما أكبر ، صاحب توسيع تلك الفروع ، نتيجة نمو صناعة القطن ، قد رفعها إلى درجة من الازدهار لم تعرف من قبل .

وأفصح نفس النشاط عن نفسه فى صناعة الصوف ، وهى التى كانت ، حتى الآن ، الفرع القائد للصناعة الانجليزية ، غير أن الكميات التى سبق إنتاجها لم تكن شيئاً إذا قورنت بتلك التى تصنع حالياً . فى عام ١٧٨٢ كان المحصول الكلى للصوف خلال السنوات الثلاث السابقة يرقد بلا استخدام لنقص العمال ، وكان من الممكن أن يستمر فى رقدته تلك ، ما لم تهب الآلات المخترعة حديثاً لنجدته ، وتقوم بغزله . إن مواءمة تلك الماكينات للقيام بعملية غزل الصوف ، قد أنجز بنجاح بالغ . ثم بدأ نفس التطور المفاجىء ، والذى رأيناه فى مناطق صناعة القطن ، بدأ فى مناطق صناعة الصوف . ففى عام ١٧٣٨ كان هناك ٧٥٠٠٠ قطعة من الملابس الصوفية . المنتجة فى « الوست ريدينج» التابعة «ليوركشاير» ، وفى عام ١٨١٧ بلغ عدد القطع ٤٩٠٠٠٠ قطعة ، وهكذا كان تمديد الصناعة سريعاً ، حتى أن المنتج زاد فى عام ١٨٣٤ بمقدار ٤٥٠٠٠٠ قطعة عما كان عليه فى عام ١٨٢٥ . فى عام ١٨٠١ كان قد تم تصنيع ١٠١٠٠٠٠٠٠ رطلا من الصوف (منها ٧٠٠٠٠٠٠ رطل مستوردة) ، وفى عام ١٨٣٥ تم تصنيع ١٨٠٠٠٠٠٠٠ رطلا من الصوف منها ٤٢٠٠٠٠٠٠ رطلا مستوردة . وكان المركز الرئيسى لهذه الصناعه فى « الوست ريدينج » التابعة « ليوركشاير » حيث كان يتم ، وخاصة فى « برادفورد » ، تحويل الصوف الانجليزى الطويل إلى غزل الجوخ ... الخ ، بينما فى مدن أخرى مثل ، « ليدز » ، « هاليفاكس » و « هدرسفيلد » .. الخ كان يحول الصوف القصير إلى غزل النسيج الخشن ونسيج الملابس . ثم يأتى الجزء المجاور « للانكشاير » منطقة « روكدال » ، حيث تنتج الكثير من الأقمشة الصوفية ، بالاضافة إلى صناعة القطن ، وغرب

إنجلترا والذى يقدم أرقى الملابس . هنا أيضاً يغدو النمو السكانى أمراً يستحق الرصد :

برادفورد	بقطنها فى ١٨٠١	٢٩٫٠٠٠	وفى عام ١٨٣١	٧٧٫٠٠٠ نسمة
هاليفاكس	« « «	٦٣٫٠٠٠	« « «	١١٠٫٠٠٠ «
هدرسفيلد	« « «	١٥٫٠٠٠	« « «	٣١٫٠٠٠ «
ليدز	« « «	٥٣٫٠٠٠	« « «	١٢٣٫٠٠٠ «
وكل الوست ريديج	« « «	٥٦٤٫٠٠٠	« « «	٩٨٠٫٠٠٠ «

تعداد لابد أنه قد زاد منذ عام ١٨٣١ بنسبة لا تقل عن ٢٠ إلى ٢٥٪ . وفى عام ١٨٣١ إستخدمت صناعة غزل الصوف ١٫٣١٣ مصنعاً ، يعمل بها ٧١٫٣٠٠ عاملا ، ولم يكن هذا الرقم الأخير غير جزء صغير من العدد الغفير الذى تعوله صناعة الصوف بشكل مباشر أم غير مباشر ، مع إستبعاد كل النساجين تقريباً .

وتطور التقدم فى صناعة الكتان فيما بعد ، حيث أن طبيعة المادة الخام قد جعلت تطبيق آلية الغزل أمر صعب للغاية . لقد بذلت محاولات فى الأعوام الأخيرة من القرن الماضى فى إسكتلنده ، غير أن الفرنسى « جيرارد » ، والذى أدخل غزل الكتان فى عام ١٨١٠ ، كان أول من نجح عملياً فى ذلك ، وحتى آلات « جيرارد » بلغت ما تستحقه من أهمية ، أولا فوق الأرض البريطانية بواسطة التحسينات التى أجريت عليها فى إنجلترا ، وشمول استخدامها فى « ليدز » ، « روندى » و « بلفاست » . ومنذ ذلك الوقت اتسمت صناعة الكتان الإنجليزية فى سرعة فقد تم فى عام ١٨١٤ إستيراد ٣٫٠٠٠ طن من الكتان ، وفى عام ١٨٣٣ قرابة ١٩٫٠٠٠ طن من الكتان و ٣٫٤٠٠ طن من القنب . وإرتفعت صادرات الكتان الايرلندى إلى بريطانيا العظمى من ٣٢٫٠٠٠٫٠٠٠ ياردة فى عام ١٨٠٠ إلى ٥٣٫٠٠٠٫٠٠٠ عام ١٨٢٥ ، والتى تم اعادة تصدير جزء كبير منها . وإرتفعت صادرات السلع الكتانيه المنسوجه الانجليزيه والأسكتلندية من ٢٤٫٠٠٠٫٠٠٠ ياردة عام ١٨٢٠ إلى ٥١٫٠٠٠٫٠٠٠ ياردة عام ١٨٣٣ . وكان عدد مؤسسات غزل الكتان فى عام ١٨٣٥ ، ٣٤٧ مؤسسة توظف ٣٣٫٠٠٠

عامل ، وكان نصف هذه المؤسسات يقع فى جنوب اسكتلندا ، وأكثر من ٦٠ وحدة فى الوست ريدينج « بيوركشاير » ، « ليدز » والمناطق المحيطة ، ٢٥ فى « بلفاست » . ايرلندا والباقى فى « دورست » « ولنكشاير » . إن عملية النسج تتم فى جنوب اسكتلنده وهنا وهناك فى انجلترا ، لكنها تتم بشكل أساسى فى إيرلندا

وحول الانجليز انتباههم إلى صناعة الحرير بنجاح مماثل . كانت المادة الخام التى تم غزلها تستورد من جنوب أوربا وآسيا ، إن العمل الرئيسى هنا يكمن فى الخيوط الدقيقة وحتى عام ١٨٢٤ كان رسم الاستيراد الباهظ ، بمعدل أربع شلنات لرطل المواد الخام ، يعوق بشدة تطور صناعة الحرير الانجليزية بينما كانت الأسواق الانجليزية واسواق المستعمرات محمية لحسابها .

وفى ذلك العام ، خفض الرسم إلى بنس واحد ، وازداد التوعدد المصانع بصورة كبيرة . لقد ازداد عدد المغازل القائمة فى عام واحد من ٧٤٠,٠٠٠ إلى ١,١٨٠,٠٠٠ ورغم أن أزمة ١٨٢٥ التجارية ، أصابت هذا الفرع من الصناعة بالكساح لحين محدد غير أن انتاج عام ١٨٢٧ زاد عن أى عام آخر ، إن مهارة الانجليز فى الآلات وخبرتهم قد ضمنت لآلات الفتل الخاصة بهم ، إحراز التفوق على أجهزة منافسيهم العسرة الاستخدام . كانت الامبراطورية البريطانية فى عام ١٨٢٥ تمتلك ٢٦٣ من مصانع الفتل التى توظف ٣٠,٠٠٠ عاملا ، وهى تقع أساساً فى « تشاير » ، فى « ماكلسفيلد » ، « كونجليتون » والمناطق المحيطة وفى « مانشستر » « وسومرستشاير » وإلى جوار تلك ، يوجد العديد من المصانع التى تقوم بتشغيل الفضلات والتى كان يصنع منها صنف معين يعرف باسم الحرير المغزول ، والذى كان يمد به الانجليز غيرهم ، حتى نساجو « باريس » « وليون » إن نسج الحرير المفتول والمغزول كان يجرى فى « بايسلى » وأماكن أخرى من إسكتلندا ، وفى « سبيتالفيلدز » ، « لندن » ، وكذلك أيضاً فى « مانشستر » وأماكن أخرى . ورغم ضخامة التقدم الذى أحرزته الصناعة الإنجليزية منذ عام ١٧٦٠ ، فإنها كانت قاصرة على إنتاج حاجيات الملبوسات . لكن ما أن توفر الحافز ، حتى سرى فى كل فروع النشاط الصناعى ، ونالت العديد من الاختراعات التى لا علاقة لها كلية بتلك الواردة هنا ، أهمية مضاعفة ، من واقع أنها أنجزت فى قلب الحركة الشاملة . غير انه ما أن ظهرت عمليا الأهمية القصوى للقوة الميكانيكية ، حتى ركزت كل طاقة فى محاولة لاستغلال هذه

القوى من كل الاتجاهات ، ولاستغلالها لصالح المخترعين الأفراد وأصحاب المصانع ، ودعى الطلب ، على الالات والوقود والأدوات ، أعداد كبيرة من العمال وعدد من الحرف إلى مضاعفة نشاطها . لقد أعطت القاطرة التجارية أهمية لحقول الفحم الانجليزية الواسعة أولا . وبدأت الان ، ولأول مرة ، صناعة الالات . ومعها نشأ إهتمام جديد بمناجم الحديد التي تمدها بالمادة الخام . إن الإستهلاك المتزايد للصوف نشط تربية الأغنام الإنجليزية ، وكذا دعى تزايد استيراد الصوف ، الكتان والحرير إلى توسيع صناعة النقل البحرى البريطاني .
وكان أضخمها نمو إنتاج الحديد . كانت رواسب حديد التلال الإنجليزية ، قد تم تطويرها حتى الان تطويراً محدوداً ، كان الحديد يصهر دائما بواسطة فحم الخشب ، والذى غدا بالتدريج أكثر تكلفة ، حيث كانت تتحسن الزراعة ، وتحصد الغابات . كانت بداية إستخدام فحم الكوك فى صهر الحديد قد عمل بها فى القرن الماضى ، واخترعت فى عام ١٧٨٠ طريقة جديدة لتحويل الحديد المنصهر بفحم الكوك إلى حديد مطاوع يمكن استخدامه ، والذى كان حتى ذلك الحين يحول إلى حديد الزهر فقط . وتقوم هذه الطريقة والتى تعرف باسم « تحريك الحديد الذائب » ، على سحب الكربون الذى إختلط بالحديد أثناء عملية الصهر ، وفتح حقل جديد تمام الجدة أمام انتاج الحديد الإنجليزى . وبنيت أفران صهر أكبر من سابقاتها بخمسين مرة ، وبسطت عملية الصهر بإدخال دفعات حارة ، وبهذا أصبح من الممكن إنتاج حديد رخيص ، حتى أن العديد من الأشياء التى كانت تصنع من قبل من الحجارة أو الأخشاب قد أصبحت تصنع الان من الحديد .

وشيد « توماس بين » ، الديمقراطى الشهير ، فى عام ١٧٨٨ ، أول كوبرى حديدى فى « يوركشاير » ، والذى لحقه عدد آخر كبير ، حتى أن كل الكبارى الان تقريباً ، وخاصة تلك المعدة لحركة السكك الحديدية ، قد شيدت من حديد الزهر ، بينما فى لندن ذاتها ، شيد كوبرى « سوثوارك » عبر نهر « التيمس » من هذه المادة . وإستخدمت الأعمدة الحديدية ودعامات الالات . . . الخ ، فى كل مكان ، وفتحت منافذ جديدة لمنتجات الحديد الانجليزى منذ إدخال غاز الاضاءة وخطوط السكك الحديدية . وأدخلت بالتدريج صناعة المسامير والقلاووظ آليـاً . وفى عـام ١٧٦٠ اخترع « هانتسمان » ، وهو مواطن من « شيفيلد »

طريقة لسبك الفولاذ ، مما وفر الكثير من العمل ، وصار إنتاج بضائع رخيصة جديدة تمام الجدة عملية سهلة . والآن ، ولأول مرة ، حظت الصناعة المعدنية الإنجليزية بالأهمية ، وذلك عبر نقاوة أكثر المادة الموضوعة تحت تصرفها ، والأدوات الأكثر إتقانا ، الالات الجديدة والتقسيم الدقيق للعمل . ونما تعداد سكان «بيرمينجهام» من ٧٣٫٠٠٠ فى عام ١٨٠١ إلى ٢٠٠٫٠٠٠ فى عام ١٨٤٤ ، وتعداد « شيفيلد » من ٤٦٫٠٠٠ فى عام ١٨٠١ إلى ١١٠٫٠٠٠ فى عام ١٨٤٤ ، وبلغ استهلاك الفحم فى المدينة الأخيرة وحدها ٥١٥٫٠٠٠ طن فى عام ١٨٣٦ . وتم فى عام ١٨٠٥ تصدير ٤٫٣٠٠ طن من منتجات الحديد و ٤٫٦٠٠ طن من الحديد الخام ، وفى عام ١٨٣٤ ١٦٫٢٠٠ طن من منتجات الحديد و ١٠٧٫٠٠٠ طن من الحديد الخام ، وبينما بلغ كل انتاج الحديد فى عام ١٧٤٠ ، ١٧٫٠٠٠ طن فقط ، فانه ارتفع فى عام ١٨٤٣ إلى ما يقرب من ٧٠٠٫٠٠٠ طن . وتستهلك عملية صهر الحديد الخام وحدها أكثر من ٣٫٠٠٠٫٠٠٠ طن من الفحم سنويا . وبلغت مناجم الفحم فى مجرى الستين عاما الأخيرة أهمية ، بالكاد يمكن تصورها . أن كل الرواسب الانجليزية والاسكتلندية يجرى الان تشغيلها ، وتغل مناجم « نورثومبرلاند » و « رونهام » أكثر من ٥٫٠٠٠٫٠٠٠ طن سنويا للشحن ، وتوظف من أربعين إلى ٥٠٫٠٠٠ من الرجال . وطبقا « للدورهام كرونيكل » ، فانه كان يتم تشغيل ١٤ منجما فى عام ١٨٥٣ ، ٤٠ منجما فى عام ١٨٠٠ ، ٧٦ منجما فى عام ١٨٣٦ ، ١٣٠ منجما فى عام ١٨٤٣ ، فى تلك المقاطعتين ، يضاف إلى ذلك ، أن كل المناجم يتم تشغيلها حاليا ، بهمة أكثر بكثير من ذى قبل . وطبق بالمثل نشاط متزايد فى تشغيل القصدير والنحاس والرصاص وإلى جوار إتساع صناعة الزجاج ، نما فرع جديد من الصناعة فى إنتاج الفخار ، والذى غدا هاما نتيجة جهود «جوسياه ودجوود» حوالى عام ١٧٦٣ . لقد أقام هذا المخترع كل صناعة الفخار على أسس علمية ، فقدم ذوقا أفضل ، وأسس فاخورات « نورث ستافورد شاير » ، وهى ناحية تبلغ مساحتها ثمانى أميال إنجليزية مربعة ، كانت فيما سبق صحراء قفراء ، فبذرت الان بالأعمال والمساكن ، وتقوم على أود أكثر من ٦٠٫٠٠٠ من البشر .

وانجذب كل شىء الى داخل تلك الدوامة الشاملة من النشاط . فأحرزت الزراعة تقدما مماثلا . اذ أن الملكية العقارية لم تنتقل فقط ، كما رأينا بالفعل ،

إلى أيدى ملاك وزراع جدد ، بل أن الزراعة قد تأثرت أيضاً ، بطريقة أخرى . لقد استخدم كبار الملاك رأس المال فى تحسين التربة ، وهدموا الأسوار التى لا لزوم لها ، واستخدموا الصرف والسماد ، وأدوات أفضل ، وطبقوا مناوبة المحاصيل . واقبل عليهم تقدم العلم يعينهم أيضا ، وطبق « سير همفرى دافى » استخدام الكيمياء فى الزراعة بنجاح ، وأغدق تطور العلم الالى على المزارع الكبير العديد من المزايا . كما أن الطلب على المنتجات الزراعية قد إزداد أيضا ، نتيجة أزدياد السكان بمثل هذا المعيار ، حتى أنه فى المدة ما بين عام ١٧٦٠ ، ١٨٣٤ تم استصلاح ٦٫٨٤٠٫٥٤٠ أكر من الأراضى البور ، ورغم هذا ، فقد تحولت إنجلترا من بلد مصدر للحبوب ، إلى بلد مستورد للحبـــوب .

وتطورت اقامة طرق المواصلات بنفس الهمة . . فقد شيدت فى انجلترا وويلز ما بين عام ١٨١٨ وعام ١٨٢٩ ، ١٠٫٠٠٠ ميل إنجليزى من طرق المركبات ، بعرض قدره ٦٠ قدما ، وهو العرض المقرر قانونا ، وأعيد على وجه التقريب ، تشييد كل الطرق القديمة على غرار نظام « ماك آدم » الجديد . وفى اسكتلندا ، شيدت مصلحة الأشغال العمومية منذ عام ١٨٠٣ ، حوالى ٩٠٠ ميلا من طرق المركبات وأكثر من ١٠٠٠ كوبرى ، غدا سكان المرتفعات فجأة عن طريقها فى مرمى الحضارة ، كان أهل المرتفعات ، بشكل أساسى ، حتى ذلك الحين ، لصوص صيد ومهربين ، فغدوا الآن مزارعين وعمال يدويين ورغم أن المدارس الكلتية قد نظمت بغرض الحفاظ على اللغة الكلتية ، لكن اللغة والعادات الكلتية ـ السلتية كانت تختفى سريعا أمام إقتراب الحضاره الإنجليزية . كـذا فى إيرلنده أيضـا ، كانت ترقد فيما بين أقاليم « كورك » ، « ليمريك » ، « وكرى » منطقة قفر لا توجد بها طرق متداولة على الاطلاق ، وكان يستفاد منها ، بسبب عدم إمكان الوصول إليها ، كمأوى لكل المجرمين ، وملاذا رئيسيا للقومية السلتية ـ الايرلنديه من جنوب أيرلندا . والآن تشق الطرق العامة هذه المنطقة وبذا وجدت الحضارة من يعترف بها ، حتى فى هذه المنطقة الموحشة . إن الامبراطورية البريطانية كلها ، وخاصة إنجلترا ، والتى كان لديها حتى ٦٠ عاما مضت ، طرقا سيئة كتلك الطرق التى فى فرنسا أو ألمانيا ، قد غدت الآن مغطاة بشبكة من أبدع طرق المركبات ، وتلك الطرق أيضا ،

قبل كل شيء آخر فى انجلترا تقريبا، هى من عمل المشروع الخاص ، حيث أن ما فعلته الدولة ، فى هذا الإتجاه ، قليل للغاية .

قبل عام ١٧٥٥ لم يكن لدى انجلترا أية قنوات على وجه التقريب ، وفى ذلك العام ، شيدت قناة فى «لانكشاير» ، تمتد من «سانكى بروك» إلى «سانت هيلينز» وفى عام ١٧٥٩ شيد «جيمس برندلى» أول قناة هامة ، قناة «دوق بريدج واتر» والتى تمتد من مانشستر ، ومناجم فحم المقاطعة ، إلى مدخل . « مرسى » ، مارة بقرب « بارتون » ، من خلال ممر مائى فوق نهر « الايرول » . وبهذا الانجاز ، يؤرخ ابتداء القنوات فى إنجلترا ، وله أعطى « بريندلى » أول اعتبار . والآن تشيد القنوات . وتمد الأنهار لتغدو صالحة للملاحة فى كل الاتجاهات . فى إنجلترا وحدها يوجد ٢٫٢٠٠ ميل من القنوات ، ١٫٨٠٠ ميلا من الأنهر الصالحة للملاحة . وفى اسكتلندا شقت القناة الكاليدونية مباشرة عبر الريف ، وفى إيرلندا شيدت عدة قنوات . وكل تلك الإصلاحات ، مثلها فى ذلك مثل خطوط السكك الحديدية وطرق المركبات ، من عمل الأفراد الخاص والشركات .

لقد شيدت خطوط السكك الحديدية حديثا فقط . وفى عام ١٨٣٠ فتحت أول قناة كبرى ما بين « ليفربول » و « مانشستر » ، ومنذ ذلك الحين ، ربطت كل المدن الكبرى بواسطة السكك الحديدية . « لندن » و « بسوثهامبتون » ، « بريتون » ، « دوفر » ، كولشستر » ، « اكسيتر » و « بيرمينجهام » ، وبيرمينجهام « بجلوسستر » ، « ليفربول » ، « لانكستر » (طريق « نيوتن » « وويجان » ، وطريق « مانشستر » « وبولتن ») . كذلك « بليدز » (طريق « مانشستر » « وهاليفاكس » ، وطريق « ليسستر » ، « دربى » « وشيفيلد ») « ليدز » ، « بهول » « ونيوكاسل » (طريق يورك) . كذلك هناك عدد من الطرق الثانوية التى تنشأ أو يقترح انشاؤها ، والتى ستجعل السفر فى القريب ، بين « ادينبورج » و « لندن » ممكنا خلال يوم واحد .

وكما حول البخار سبل المواصلات فى اليابسة ، كذلك أحدث ادخال البخار ثورة فى السفر بالبحر وأنزل إلى الماء أول قارب بخارى عام ١٨٠٧ فى « الهدسون » ، فى أمريكا الشمالية ، وأنزل أول قارب فى الامبراطورية

البريطانية فى عام ١٨١١ فى « الكلايد » . ومنذ ذلك الحين شيد فى انجلترا أكثر من ٦٠٠ قارب وفى عام ١٨٣٦ كان أكثر من ٥٠٠ قارب تتردد من والى الموانىء البريطانية .

ذلك ، فى إختصار ، هو تاريخ التطور الصناعى الانجليزى فى الستين عاما الماضية ، تاريخ ليس له نظير فى تواريخ الانسانية . كانت أنجلترا منذ ستين ، ثمانين عاما مضت ، بلادا تماثل كل بلاد أخرى ، بها مدن صغيرة صناعات قليلة ووسيطة وكثافة قليلة ، غير أنها كبيرة نسبياً ، من العاملين بالزراعة وهى اليوم بلاد لا تماثلها أى بلاد ، لها عاصمة يقطنها إثنان ونصف مليون من السكان ، ومدن صناعية واسعة بها صناعة تمد العالم ، وتنتج كل شىء على وجه التقريب ، بواسطة أكثر الالات تعقيدا ، بها كثافة سكانية جدة وذكية ، يعمل ثلثاها فى الصناعة والتجارة ، وتتألف من طبقات جد مختلفة ، مشكله ، فى الحقيقة ، مع عادات أخرى واحتياجات أخرى أمة مختلفة عن إنجلترا تلك الأيام . ان للثورة الصناعية فى انجلترا نفس أهمية الثورة السياسية لفرنسا والثورة الفلسفية لألمانيا والفرق بين انجلترا فى عام ١٧٦٠ ، وعام ١٨٤٤ كبير على الأقل ، كبر الفرق بين فرنسا فى ظل النظام القديم واثناء ثورة يوليو . غير أن أقوى نتائج هذا التحول الصناعى بأسا هو البروليتاريا الإنجليزية .

لقد رأينا قبلا كيف دعيت البروليتاريا إلى الوجود بعد ادخال الالة واحتياج الاتساع السريع للصناعة إلى الأيدى ، فارتفعت الأجور ، وهاجرت أفواج من الرجال العاملين من المناطق الزراعية الى المدن . وتضاعف السكان بصورة هائلة ، وأخذت الزيادة كلها على وجه التقريب مكانها فى صفوف البروليتاريا . فضلا عن ذلك ، فإن ايرلندا قد شرعت فى تطور منظم منذ بداية القرن الثامن عشر فقط . وهنالك أيضا السكان الذى تضاعفوا الان فى سرعة أكثر من أهلكهم العنف الانجليزى فى الإضطرابات المبكرة ، وخاصة بعد أن بدأ تقدم الصناعة فى جذب كتل من الأيرلنديين نحو انجلترا وهكذا ، قامت مدن الإمبراطورية البريطانيه الصناعية والتجارية الكبرى ، والتى ينتمى ثلاثة أرباع سكانها على الأقل الى الطبقة العاملة ، بينما تتكون الطبقه الوسطى الدنيا من أصحاب حوانيت صغار ، وعدد قليل جدا من الحرفيين . حيث أن الصناعة

الصاعدة نالت الأهميـة الأولى بتحويل الأدوات الى ماكينات ، حجرات العمل الى مصانع ، وبالتبعية حولت الطبقة الوسطى الدنيا الكادحة الى بروليتاريا كادحة ، والتجار الكبار السابقين إلى أصحاب مصانع ، بيد أن الطبقة الوسطى الدنيـا كانت قد سحقت أيضا على نحو مبكر ، واختزل السكان إلى العنصرين المتعارضين ، العمال والرأسماليون . لقد حدث ذلك أيضا خارج نطاق الصناعة الخالصة ، فى مناطق الحرف اليدوية وتجارة التجزئة وصل كبار الرأسماليين والرجال العاملين والذين لا مطمح لهم للصعود فوق طبقتهم ، محل المعلمين وصبية الصنعة . واستمر العمل اليدوى بعد أسلوب عمل المصنع ، وطبق تقسيم العمل بدقة ، وأضطر صغار الموظفين الذين عجزوا عن منافسة المؤسسات الكبيرة للهبوط إلى وسط البروليتاريا . وفى نفس الوقت فإن تحطيم نظام العمل اليدوى السابق ، وإختفاء الطبقة الوسطى الدنيا قد حرم العامل ذاته من كل إحتمال للصعود إلى الطبقة الوسطى . لقد كان قبلئذ يتطلع دائما إلى تأسيس نفسه على نحو ما ، كمعلم صاحب صنعة ، ربما يوظف أجراء وصبية صنعة ، أما الآن ، وقد أزاح اصحاب المصانع ، المعلمين أصحاب الصنع ، عندما صار رأس المال الكبير ضروريا لاستمرار العمل على نحو مستقل ، فإن الطبقة العاملة قد غدت ، ولأول مرة ، طبقة متكاملة مستقرة من السكان ، بينما كانت فى الماضى . مجرد مرحلة إنتقال تؤدى إلى البورجوازية . الآن ، لم يعد لمن ولد ليكدح ، أى تطلع آخر غير أن يظل كادحا طوال حياته وغدت البروليتاريا الآن ولأول مرة ، ولهذا السبب ، فى وضع يلزمها بالحركة المستقلة .

وبهذه الوسيلة توحدت كل تلك الكتل الواسعة من العمال والذين يملأون الآن أرجاء الامبراطورية البريطانية ، والذين فرضت أحوالهم الإجتماعية نفسها يوما بعد يوم ، على إنتباه العالم المتحضر . إن وضع الطبقة العاملة الانجليزية هو وضع الأغلبية الكبيرة للشعب الإنجليزى . والسؤال : إلا ما تصير تلك الملايين المعوزة ، هؤلاء الذين يستهلكون اليوم ما كسبوه بالأمس ، هؤلاء الذين خلقوا عظمة إنجلترا باختراعاتهم وكدحهم ، هؤلاء الذين غدوا بمرور كل يوم أكثر وعيا بقوتهم ، ويطالبون ، بالحاح يتزايد يوما بعد يوم ، بنصيبهم من مزايا المجتمع ؟ لقد غدا هذا ، منذ « لائحة الاصلاح » ، هو السؤال القومى . وربما اختزلت كل المناقشات البرلمانية التى لها أهمية ما إلى هذا السؤال ، مع أن الطبقة

الوسطى الإنجليزية لا تعترف به حتى الان ، ومع أنهم يحاولون تجنب هذا السؤال الكبير ، وأن يقدموا مصالحهم الخاصة على أنها المصالح القومية الحقيقية ، إلا أن عملهم هذا عقيم تام العقم . ومع كل دورة إنعقاد برلمانية فإن الطبقة العاملة تكسب أرضا ، إن مصالح الطبقة الوسطى تتضاءل فى الأهمية ، ورغم حقيقة أن الطبقة الوسطى هى القائدة ، هى القوة الوحيدة فى واقع الأمر فى البرلمان ، فإن الدورة الأخيرة لعام ١٨٤٤ ، كانت جدالا متصلا حول موضوعات تمس الطبقة العاملة ، « لائحة معونة الفقراء » ، « لائحة المصنع » ، « لائحة الاسطوات والأجراء » ، وكان « توماس دونكومب » النائب عن العمال فى مجلس العموم هو رجل الدورة البارز ، بينما الطبقة الوسطى الليبرالية بتحركها لإبطال « قوانين القمح » ، والطبقة الوسطى الراديكالية بعزمها على رفض الضرائب ، قد لعبت أدوارا مزرية . حتى المناقشات حول أيرلندا ، كانت فى الاساس مناقشات حول البروليتاريا الأيرلندية ووسائل تقديم العون لها . لقد آن الأوان ، ايضا ، للطبقة الوسطى الانجليزية لتقدم بعض التنازلات إلى العمال ، الذين لم يعودوا يتوسلون بل يهددون . لأنه ربما خلال زمن قصير يكون الوقت قد فات .

أنه برغم كل هذا ، فأن الطبقة الوسطى الأنجليزية . وخاصة الطبقة الصناعية ، والتى أثرت مباشرة عن طريق إفقار العمال ، تصر على تجاهل هذا الفقر . ان هذه الطبقة ، وهى تحس بنفسها الطبقة الممثلة القوية للأمة ، انخجل من طرح لطخة انجلترا الموجعة ، عارية أمام أنظار العالم ، ان تعترف حتى لنفسها بأن العمال فى بلاء ، حيث أن أصحاب العقارات ، طبقة أصحاب المصانع يجب أن يتحملوا المسئولية الأدبية عن هذا البلاء . ومن هنا كانت البسمه المزوية التى يدعيها مثقفو الانجليز (وهم ، الطبقة الوسطى ، المعروفون وحدهم فى القارة) عندما يبدأ أحد الحديث عن وضع الطبقة العاملة ، ومن هنا التجاهل التام للطبقة الوسطى لكل شىء يخص العمال ومن هنا الحمقة السخيفة التى يفعلها رجل هذه الطبقة ، داخل البرلمان وخارجه عندما يطرح وضع البروليتاريا المناقشة . ومن هنا الخلاص الأحمق من القلق ، والذى ترقد به الطبقة الوسطى فوق تربة من الشهد ، والتى يمكن فى أى يوم أن تنهار ، ان انهيارها السريع مؤكد تأكد برهان رياضى أو ميكانيكى ، من هنا معجزة ، أن الانجليز ليس

لديهم بعد كتاب عن أحوال عمالهم ، رغم أنهم كانوا يفحصون ويرمون الوضع القديم للأمور ، لسنين لا يعرف أحد عددها ، ومن هنا أيضاً السخط الشديد العميق لكل الطبقة العاملة ، من « جلاسجو » إلى « لندن » ، ضد الأغنياء . الذين نهبوها بإنتظام ، وتركوها بلا رحمة لمصيرها ، سخط شديد سوف يندلع ، قبل مضى وقت طويل للغاية ، وقعه يكاد يكون فى مقدور المرء أن يتنبأ به ، فى ثورة سوف تثبت الثورة الفرنسية وعام ١٧٩٤ أنهما بالنسبة لها لم يكونا غير لعب أطفال .

البروليتاريا الصناعية

إن ترتيب دراستنا الأقسام المختلفة للبروليتاريا ، انما هو ناتج بالطبع عن التاريخ السابق على قيامها ، لقد إرتبط البروليتاريون الأول بالصناعة ، ولدوا بها ، وطبقا لذلك ، فإن هؤلاء الذين عملوا فى الصناعة ، فى تطوير المواد الخام سوف يسترعون إنتباهنا أولا . إن انتاج المواد الخام والوقود للصناعة ، قد نال أهميته فقط ، نتيجة للتغيير الصناعى ، وولدت بروليتاريا جديدة ، هى عمال مناجم الفحم والمعادن . ثم ، وفى المكان الثالث ، أثرت الصناعة على الزراعة ، وفى الرابع ، الوضع فى أيرلندا . وطبقا لذلك ، سوف نجد أجزاء البروليتاريا المنتمية الى كل قسم ، مكانها . ولسوف نجد أيضا ، أنه بالاستثناء الممكن للايرلنديين ، فأن درجة ذكاء العمال المختلفين تتناسب مباشرة مع علاقتهم بالصناعة ، فعمال المصنع هم أكثر استنارة بما يخص مصالحهم ، وبدرجة أقل على نحو ما ، عمال المناجم ، أما عمال الزراعة فإنهم لا يكادون البتة . ولسوف نجد نفس الترتيب مرة أخرى بين عمال الصناعة ، سوف نرى كيف أن عمال المصنع ، أكبر أبناء الثورة الصناعية ، قد شكلوا منذ البداية وحتى يومنا الحاضر نواة « حركة العمل » ، وكيف أن الآخرين قد لحقوا بهذه الحركة . بقدر يتناسب فقط ، مع غزو التقدم الآلى لصنعتهم اليدوية . وهكذا سوف نتعلم الدلالة التاريخية للصناعة ، من المثل الذى تقدمه لنا انجلترا ، من الخطوة المتساوية التى تحافظ عليها حركة العمل مع حركة التطور الصناعى .

ومع ذلك ، فحيث أن كل البروليتاريا الصناعية منغمسة الى حد كبير فى الحركة فى وقتنا الراهن كما أن هناك الكثير المشترك ، فى حال اقسامها المنفصلة ، حيث أنها جميعاً صناعية ، فإننا سنبدأ بفحص حالة البروليتاريا الصناعية ككل

حتى يمكننا فيما بعد أن نلاحظ بصورة أكثر خصوصية ، كل قسم منفصل بصفاته المميزة .

لقد عرضت للبحث بالفعل ، مسألة أن الصناعة تركز الملكية في أيدى القلة. إنها تحتاج الى رأس مال كبير تؤسس به المؤسسات الضخمة التي تدمر البورجوازية الصغيرة ، والذى به تضم إلى خدمتها قوى الطبيعة ، طاردة العمل اليدوى للعامل المستقل ، خارج السوق . إن تقسيم العمل ، واستخدام الماء وخاصة البخار ، واستخدام الالة هى الأذرع الثلاث الكبيرة ، التى انهضت بها الصناعة ، منذ منتصف القرن الماضى ، واضعة العالم فى حالة من التفكك . لقد خلقت الصناعة الطبقة الوسطى على نطاق ضيق ، وخلقت الطبقة العاملة على نطاق واسع ، ورفعت صفوة الطبقة الوسطى إلى العرش ، ولكن فقط لتلقى بهم بكل تأكيد عندما يحين الوقت . وفى تلك الأثناء ، فهنالك حقيقة لا تنكر ، ومن السهل تفسيرها ، وهى أن العديد من صغار الطبقة الوسطى الذين يحنون الى « الأيام الخوالى الطيبه » قد ابادتهم الصناعة ، وذابوا فى الرأسماليين الأغنياء من ناحية والعمال الفقراء من الناحية الأخرى *

ان اتجاه الصناعة للتمركز ، لا يتوقف ، مع ذلك ، عند هذا الحد . ان السكان يتمركزون . على نحو طبقى للغاية ، مثلما يتمركز رأس المال ، حيث ننظر ببساطة ، الى الانسان ، الى العامل فى الصناعة ، كجزء من رأس المال ، يدفع له صاحب المصنع فائدة ، تحت اسم الاجور ، فى مقابل استخدامه . ان مؤسسة صناعية تحتاج الى عمال عديدين ، يعملون معا فى مبنى واحد ، ويعيشون الى جوار بعضهم البعض ، ويشكلون من أنفسهم قرية ، ذلك فى حالة مصنع ذى حجم لا بأس به . هؤلاء لهم حاجات ، يلزم لاشباعها ، أناس آخرين ، مستقرين بالقرب منهم ، اصحاب حرف ، صانعى أحذية ، خياطين

---

* قارن ما يخص هذه النقطة ، مع مقالتى « خطوط عريضة لنقد الإقتصاد السياسى » المنشورة فى الـ « ديوتش ــ فرانزوسيش جاربوشر » . (انظر ماركس / انجلز ، جيسا متوسجاب الأول ، المجلد الثانى ، من صفحة ٣٧٩ — ٤٠٤ ــ الناشر .) [ان « المنافسة الحرة » ، فى هذا المقال ، هى نقطة البداية ، غير أن الصناعة ، هى مجرد تطبيق المنافسة الحرة ، والأخيرة فقط ، هى أس الصناعة . (أضيفت الى الطبعة الألمانية .)]

خبازين ، نجارين وبنائين بالحجر . إن سكان القرى وخاصة الجيل الاصغر سنا ، قد عودوا أنفسهم على العمل بالمصنع ، انهم يشبون مهرة فى عملهم . وعندما يعجز أول مصنع عن تشغيلهم جميعا ، تهبط الاجور ، وتكون النتيجه ، وفود أصحاب مصانع جدد . وهكذا تنمو القرية إلى مدينة صغيرة ، والمدينة الصغيرة الى واحدة كبيرة . وكلما كبرت المدينة ، كلما كبرت ميزاتها . إنها تقدم الطرق ، والسكك الحديدية ، والقنوات ، وتزداد باستمرار فرص اختيار العامل الماهر ، كما يصبح من الممكن بناء مؤسسات جديدة أكثر رخصا ، بسبب المنافسة بين البنائين والميكانيكيين اللذين هم فى متناول اليد ، عنه فى مناطق الريف النائية ، حيث يلزم إحضار الخشب ، والآلة والبنائين والصناع ، إنها تقدم سوقا يتزاحم عليه المشترون ، وإتصال مباشر بالأسواق التى تمدها بالمادة الخام أو تطلب السلع المنتجة . ومن هنا كان النمو السريع الرائع للمدن الصناعية الكبرى . ويتميز الريف ، من الناحية الأخرى ، بأن الأجور فيه دائما أقل من المدينة ، ولذا فإن المدينة والريف فى حالة تنافس دائم ، وإن كانت الميزة فى جانب المدينة اليوم ، فغدا تهبط الأجور فى الريف ، حتى أنه يصبح من الممكن ، القيام هناك باستثمارات أكثر ربحا . غير أن الاتجاه الى مركزة الصناعة يستمر بكل قوته ، وكل مصنع جديد يبنى فى الريف يحمل معه جرثومة مدينة صناعية . ولو كان فى الإمكان ، استمرار هذه الهجمة الجنونية للصناعة ، بنفس هذا المعدل ، لمدة قرن آخر ، لتحول كل حى صناعى فى انجلترا إلى مدينة صناعية كبيرة ، ولالتقت « مانشستر » و « ليفربول » عند « واربنجتون » أو « نيوتون » ، لأنه فى التجارة أيضا ، تسير مركزة السكان ، بدقة ، على نفس الطريق ، ومن هنا يحتكر ميناء أو ميناءين كبيرين مثل « هول وليفربول » ، « بريستول ولندن » غالبية التجارة البحرية لبريطانيا العظمى .

وحيث ان التجارة والصناعة قد نالتا أكمل تطور لهما ، فى هذه المدن الكبرى ، فإن تأثيرهما على البروليتاريا يمكن ملاحظته هنا على أبلغ نحو ، هنا تبلغ مركزة الملكية أعلى درجة ، هنا محيت تماما اخلاقيات وعادات الأيام الغابرة الطيبة على وجه التقريب ، هنا سارت الأمور بعيدا إلى حد أن الاسم ، « انجلترا المرحة القديمة » ، لا يعكس اى معنى ، لأن إنجلترا القديمة نفسها ، قد غدت تجهلها

الذاكرة وقصص أجدادنا . ولذا أيضا . تتواجد هنا فقط ، طبقة الفقراء ، لان الطبقة الوسطى الدنيا تختفى أكثر وأكثر ، مع كل يوم يمر . وهكذا ، صارت الطبقة الاكثر ثباتا فيما سبق ، هى الطبقة الاكثر قلقا . إنها تتكون اليوم من بقايا ضئيله لزمن مضى ، وعدد من الناس متلهف على صنع الثروات ، الصناعيون « الميكاوبريون » * ، والمضاربون والذين يمكن لواحد منهم أن يجمع ثروه ، بينما يفلس التسعه والتسعين ، ويعيش أكثر من نصف التسعه والتسعين فى فشل دائم التكرار .

غير أن البروليتاريين فى تلك المدن هم الاغلبية اللانهائية ، أما كيف جرى بهم الحال ، وأى تأثير فرضته المدينة الكبيرة عليهم ، فان هذا ما سنبحثه الآن .

---

* هؤلاء الذين يثقفون فى وقوع أمر ما طيب وجيد (من شخصيات ديكينز)

المدن الكبرى

إن مدينة مثل لندن ، حيث يمكن المرء أن يتجول لساعات دون أن يصل إلى بداية النهاية ، دون أن يلق أية بادرة يمكن أن تقود إلى الإستدلال على أن هناك ريف منبسط عن كثب ، إنما هي شيء غريب . هذا التمركز الهائل ، هذا التكدس لإثنين ونصف مليون من البشر معا في نقطة واحدة ، قد ضاعف قوة هذين المليونين ونصف إلى مائة ضعف ، قد رفع لندن لتكون العاصمة التجارية للعالم ، التي خلقت الأحواض العملاقة وجمعت آلاف السفن التي تغطي باستمرار نهر التيمس . إنني لا أعرف شيئاً أكثر جلالا من المنظر الذي يقدمه التيمس عند الصعود من البحر إلى كوبرى لندن . إن كتل المباني ، ومراسى السفن على كلا الجانبين ، وخاصة في « وولويش » فصاعدا ، السفن التي لا حصر لها على كلا الشطين ، تتزاحم بسبب تراصها وقربها من بعضها البعض ، حتى أنه ، في النهاية ، لا يتبقى غير معبر ضيق في وسط النهر ، ممر تمرق من خلاله مئات السفن البخارية واحدة بعد الأخرى وكل هذا فسيح إلى حد ، مؤثر إلى حد أن المرء لا يستطيع أن يلم شتات نفسه ، بل يتوه في معجزة عظمة انجلترا قبل أن يضع قدما فوق التراب الانجليزي* .

غير أن التضحيات التي كلفها كل ذلك تغدو ظاهرة فيما بعد . بعد التجوال في شوارع العاصمة يوما أو يومين ، متقدما بصعوبة عبر الاضطراب البشري والصفوف اللانهائية للعربات ، بعد زيارة أحياء العاصمة القذرة ، يعرف المرء لأول مرة أن هؤلاء اللندنيين قد أجبروا على التضحية بأفضل صفات طبيعتهم

---

* ينطبق هذا على زمن السفن الشراعية . إن نهر التيمس الآن عبارة عن مجموعة من السفن التجارية القبيحة الكئيبة .

البشرية لينجزوا كل أعاجيب الحضارة التى تزحم مدينتهم ، إن مائة طاقة كانت قد استكانت فى داخلهم وظلت عاطلة . وأنهم قد كبتوا ، حتى يمكن لقلة أن تتطور إلى أقصى درجة ، وأن تتضاعف من خلال وحدتها بأولئك الذين فى المدن الاخرى . إن إضطراب الشوارع ذاته فيه شىء تشمئز النفس منه ، شىء تأباه الطبيعة البشرية . إن مئات الآلاف من كل الطبقات والدرجات تزاحم بعضها البعض ، أليسوا جميعا بشراً لديهم نفس الصفات والطاقات ، ولهم نفس الرغبة فى أن يكونوا سعداء ؟ وأليس لهم ، فى نهاية الأمر ، أن ينشدوا السعادة على نفس الطريق ، وبنفس الأساليب ، أنهم ما زالوا يزاحمون بعضهم البعض ، وكأن لا شىء مشترك بينهم ، لا شىء يفعله الواحد منهم مع الاخر ، واتفاقهم الوحيد هو إتفاق ضمنى ، أن يحتفظ كل منهم بناصيته من الرصيف حتى لا يعطل سيول الزحام المقابلة ، بينما لا يحدث لأى منهم أن يشرف الاخر ولو بقدر لمحة . إن اللامبالاة الوحشية ، والتفرد القاسى لكل فى مصالحه الخاصه ، لهو أكثر تنفيرا وسوءاً ، كلما كثر تزاحم هؤلاء الأفراد معا فى إطار حيز محدود . ومهما كبر إدراك المرء بأن هذه العزلة الفردية ، هذا البحث الضيق عن الذات هو المبدأ الأساسى لمجتمعنا ، فإنه لا يوجد فى أى مكان ، هذا القدر من الصفاقة الوقحة ، هذا القدر من الشعور بالذات ، كما هو هنا فى زحام المدينة الكبيرة . إن تحلل الجنس البشرى إلى أحادياته ، لكل واحدة منها مبدؤها المنفصل وهدفها المنفصل ، إن عالم الذرات ، إنما ينفذ هنا إلى آخر مداه .

ومن هنا يأتى ، أيضاً ، أن الحرب الإجتماعية حرب كل واحد ضد الجميع ، قد أعلنت هنا جهارا . مثلما يقول كتاب « ستيرز » الذى صدر حديثاً ، فان الناس ينظرون إلى بعضهم البعض كأشياء مفيدة فقط ، كل يستغل الاخر ، ونهاية كل ذلك ، أن يطأ الأقوى الأضعف تحت قدمه ، وأن الأقوياء القلة ، الرأسماليين ، يقبضون على كل شىء لأنفسهم ، بينما الضعاف الكثرة ، الفقراء ، لا يكاد يتبقى لهم الوجود المجرد .

وما يصح عن لندن ، يصح عن « مانشستر » ، « بيرمينجهام » ، « ليدز » ويصح كذلك عن كل المدن الكبرى . لا مبالاة ، وحشية ، وأنانية عسرة فى كل مكان ، هذا من ناحية ، ومن الناحية الأخرى تعاسة لا توصف ، صراع

إجتماعي في كل مكان ، منزل كل أمرىء في حالة من الحصار ، السلب المتبادل في كل مكان تحت حماية القانون ، والشكل يقر علنا وفي وقاحة بأن المرء ينكمش أمام نواتج وضعنا الاجتماعي ، كما تعلن عن نفسها هنا في سفور ، ولا يمكنه إلا أن يعجب ، لأن كل هذا النسيج المهروس ما يزال متماسكا .

وحيث أن رأس المال ، المسيطر ، بشكل مباشر أو غير مباشر ، على وسائل ضرورات الحياة والانتاج ، هو السلاح الذى يباشر به هذا الصراع الاجتماعي ، فانه من الواضح أن كل مساوىء مثل هذه الحاله ، لابد وأن تقع على الفقير . إن أحدا لا يهتم به أدنى اهتمام . إنه وقد ألقى به في هذه الدوامة ، عليه أن يناضل قدر استطاعته حتى النهاية . فان كان سعيدا للغاية لعثوره على عمل ، اى كرمته البورجوازيه فأثرت بإستخدامه ، فان ما ينتظره من أجور يكفيه بالكاد ، للحفاظ على الجسد والروح معا ، فان لم يستطع العثور على عمل ، فإنه قد يسرق إن لم يخش الشرطة ، أو يموت جوعا ، وفى هذه الحالة ستراعى الشرطة أنه قد فعل ذلك بطريقة هادئة ، لا تضير أحدا . لقد مات خلال إقامتى فى إنجلترا عشرون أو ثلاثون شخصا على الأقل ، من الجوع فقط ، فى ظل أكثر الظروف إثارة للاشمئزاز ، وكان من النادر العثور على محلفين يملكون الشجاعة ، لينطقوا بالحق الواضح فى هذا الأمر . دع شهادة الشهود واضحة لا لبس فيها بشكل لم يسبق له مثيل ، فان البورجوازية ، والتى ينتخب منها المحلفين ، ستجد على الدوام ، بابا خافيا تهرب خلاله من القرار المخيف ، قرار الموت جوعا . إن البورجوازية لا تجرؤ فى مثل تلك الأحوال ، على نطق الحقيقة ، لأنها سوف تنطق إدانتها ، غير أن كثيرين قد ماتوا بشكل غير مباشر أكثر بكثير ممن ماتوا بشكل مباشر ، حيث تسببت الحاجة المستمرة للتغذية الصحيحة لمدة طويلة ، فى أمراض قاتله ، إنها بانتاجها مثل ذاك الوهن ، الذى يمكن لأسبابه أن تظل عديمة الفاعلية ، قد جلبت المرض المبرح والموت . ان العمال الإنجليز يسمون هذا « بالقتل الإجتماعي » ، انهم يتهمون مجتمعنا كله بإقتراف هذه الجريمة بشكل دائم . هل هم مخطئون ؟ .

حقا . ان أفرادا ، هم الذين ماتوا جوعا ، ولكن أى ضمان للعامل بان دوره لن يحل غداً ؟ من يضمن له عملا ، من يكفل له لو أن سيده ومولاه قد طرده

غدا ، لأى سبب أو بدون سبب ، بإستطاعته النضال مع هؤلاء الذين يعولهم حتى يمكنه العثور على شخص آخر « يعطيه خبزا » . من يضمن أن الرغبة فى العمل كافية للحصول على العمل ، وأن الاستقامة ، وحسن التدبير ، وباقى الفضائل التى توصى بها البورجوازيه » هى حقا طريقه للسعادة ؟ لا أحد . إنه يعرف أن لديه شيئاً اليوم ، وأن الأمر لا يتوقف عليه إن كان سيكون لديه شيئاً غدا . إنه يعرف أن كل نسمة تهب ، وكل نزوة لمخدومه ، وكل دورة سيئة فى الصناعة قد تطوح به القهقرى فى الدوامة العنيفة التى أنقذ نفسه منها مؤقتا . وأنه من العسير ، وغالبا من المستحيل ، أن يحتفظ برأسه فوق الماء . وهو يعرف ، أنه رغم احتمال حصوله على سبل للحياة اليوم ، فان إحتمال حصوله على سبل غدا ، أمر غير مؤكد على الإطلاق .

وفى تلك الاثناء ، دعنا نتقدم إلى بحث أكثر تفصيلا ، عن الحال التى وضع فيها الصراع الاجتماعى ، الطبقة التى لا تملك . دعنا نرى ما يقدمه المجتمع للعامل مقابل عمله . فى صورة مسكن ، ملبس ومأكل ، أى نوع من الوجود يتفضل به على هؤلاء الذين أعطوا الكثير لدعم المجتمع ، دعنا أولا نتأمل مسألة المساكن .

إن لكل مدينة، حى أو أكثر من الأحياء القذرة ، حيث يزدحم العمال معا . حقا أن الفقر يقطن فى أزقة مختفية بجوار قصور الأغنياء ، غير أنه يخصص له ، عموما ، مكانا بعيدا منفصلا ، حيث يكون فى وسعه أن يناضل قدر طاقته ، بعد إبعاده عن مرأى الطبقات السعيدة . إن هذه الأحياء القذرة منظمة بشكل متماثل إلى حد ما ، فى كل المدن الكبرى فى انجلترا ، اسوأ المنازل فى اسوأ أحياء المدن. غالباً أكواخ من طابق أو طابقين فى صفوف طويلة ، ربما بها أقبية تستخدم كمساكن ، وهى على وجه التقريب ، مبنية دائما بطريقة غير منتظمة ، إن هذه المنازل المكونة من ثلاث أو أربع حجرات ومطبخ ، تشكل فى طول إنجلترا وعرضها ، باستثناء بعض أجزاء لندن ، المساكن العامة للطبقة العاملة . إن الشوارع عموما غير ممهدة ، وعرة وقذرة . مليئة بفضلات الخضار والحيوان ، لا توجد بها مزاريب ولا بالوعات ، ولكنها مزودة ، بدلا من ذلك ، بالعفن والبرك الآسنة . بالاضافة الى ذلك ، فإن الطريقة المضطربة السيئة ، لبناء الحى كله ، تعرقل التهوية ، إذ حيث يعيش العديد من البشر هنا ، مزدحمين فى حيز

محدود ، فإنه يمكن بالفعل ، تصور حال الهواء السائد فى أحياء العمال تلك ، فضلا عن ذلك ، فإن الشوارع تستخدم كمناطق تجفيف ، عندما يتحسن الطقس ، إذ تمد الحبال عبرها ، من منزل إلى آخر ، وتعلق عليها الملابس المبتلة .

دعنا نبحث بعض الأحياء القذرة، بترتيب متسلسل. تأتى لندن فى المقدمة. *
وفى لندن توجد أوكار « سانت جيلز » الشهيرة ، والتى توشك الآن ، أن تخترقها أخيرا ، شارعان عريضان . ان « سانت جيلز » تقع فى وسط أكثر أجزاء المدينة كثافة بالسكان ، تحيط بها الشوارع العريضة الواسعة ، حيث تتراخى حولها حياة لندن الزاهية ، فى الجوار المباشر لشارع « أوكسفورد » ، شارع « ريجنت » الممتد من ميدان « الترافالجار » والمرفأ . انها مجموعة غير منتظمة من المنازل العالية المكونة من ثلاث أو أربع طوابق ، شوارعها عوجاء قذرة تعج بحياة تماثل تلك التى تعج بها شوارع المدينة الرئيسية ، باستثناء أن من يرى هنا ، هم فقط أهل الطبقة العاملة . وتقام سوق الخضار فى الشارع ، حيث تعترض سلال الخضر والفاكهة الطوار الى أبعد مدى ، وهى كلها بالطبع رديئة ، ونادرا ما تصلح للاستعمال ، كما يتصاعد منها ، مثلما يتصاعد من بسطات تجار السمك ، رائحة بشعة . ان المنازل مسكونة من القبو تحت الارض الى غرف الأسطح ، انها قذرة من الداخل والخارج ، لها مظهر يجعل من العسير على أى من البشر أن يرغب فى الحياة بداخلها . غير أن كل هذا ، يعتبر لا شىء ، اذا قورن بالمساكن الموجودة فى الدروب والأزقة ، فيما بين الشوارع ، والتى يتم الدخول اليها ، عبر ممرات مغطاة فيما بين المنازل ، والتى تتجاوز فيها القذارة والخرائب الآيلة للسقوط كل وصف . من النادر وجود لوح زجاجى كامل فى شباك ، الجدران متداعية ، قوائم الابواب وأطر النوافذ سائبة ومحطمة ، أبوابه من ألواح قديمة مسمره معا ، أو معدومة كلية فى حى اللصوص هذا ،

---

* إن الوصف الوارد فيما بعد كان قد تم كتابته بالفعل ، عندما صادفت مقالة فى « الايلوميناتدماجازين » (أكتوبر ١٨٤٤) تتناول أحياء الطبقة العاملة فى لندن والتى تتطابق — بالحرف تقريباً فى مواضع كثيرة ، وفى كل جزء من السياق العام — مع ما قلته . وكان عنوان المقالة « مساكن الفقراء ، من تذكرات M.D. » . (ملحوظة فى الطبعة الألمانيـــة) .

حيث لا حاجة إلى الأبواب ، إذ ليس هناك ما يسرق . أكداس من الزبالة والرماد ترقد فى كل النواحى ، والسوائل القذرة التى أفرغت أمام الأبواب تتجمع فى برك نتنه . هنا يعيش أفقر الفقراء ، أسوأ العمال أجراً مع اللصوص وضحايا الدعارة ، مكدسين معا بلا تمييز . الغالبية إيرلنديين ، أو من أصل إيرلندى ، وهؤلاء الذين لم ينغمسوا بعد ، فى دوامة الدمار الخلقى التى تحيط بهم ، يغوصون يوميا إلى الأعمق ، يفقدون يوميا مزيدا من قدرتهم على مقاومة إفساد الأخلاق بتأثير الحاجة والعفن ، والشرور المحيطة .

ليست « سانت جيلز » هى الحى القذر الوحيد فى لندن ، فهناك فى الشبكة الممتدة بلا حدود ، مئات وآلاف الحوارى والأزقة التى تخطها منازل أردأ من أن يعيش فيها أى أحد ، أى أحد ما يزال فى وسعه أن ينفق أى شىء ، مهما كان ، من أجل منزل مناسب للبشر . وإلى جوار منازل الاثرياء الفاخرة يمكن أن يوجد ، فى أغلب الأحوال ، مكان يقبع فيه أشد أنواع الفقر مرارة . وهكذا وصفت ، منذ زمن قليل مضى ، منطقة مجاورة لميدان « بورتمان » ، وهو أحد الميادين المحترمة غاية الاحترام ، بأنها مأوى لعدد غفير من الايرلنديين ، اللذين افسد الفقر والعفن أخلاقهم ، وذلك بمناسبة تحقيق رسمى ، اجراه مأمور للتحقيق الجنائى . وهكذا يمكن أن يوجد أيضا ، فى شوارع مثل « لونج آرك » وغيرها ، وهى شوارع محترمة ، رغم انها ليست على النمط الحديث ، عدة كبير من ساكنى الأفنيه ، والتى يخرج منها الى ضوء النهار ، أطفال أصابهم الهزال ونساء رثة الثياب . وتوجد إلى جوار مسرح « دروری لين » مباشرة ، المسرح الثانى فى لندن ، بضعة من أسوأ شوارع العاصمة كلها ، شوارع « تشارلز ستريت » « كينج ستريت » و « بارك ستريت » ، حيث يقتصر سكنى منازلها ، من القبو الى غرف السطح على عائلات فقيرة . لقد كان يعيش فى أبرشية « سانت جون » و « سانت مرجريت » فى عام ١٨٤٠ ، وطبقا لما جاء فى « مجلة جمعية الإحصاء » ، ٥٫٣٦٦ عائلة من عائلات العمال ، فى ٥٫٢٩٤ مسكنا (إن كانت تستحق ذلك الاسم !) . الرجال والنساء والأطفال ملقون معا دون تميز لسن أو جنس ، ٢٦٫٨٢٠ شخصا تم عدهم جميعا ، وثلاثة أرباع تلك العائلات لا يحوزون غير حجرة واحدة . ويعيش فى ابرشيه « سانت جورج » الارستقراطية « بميدان هانوفر »

طبقا لنفس المرجع ، ١٤٦٥ر١ عائلة من عائلات العمال ، ما يقرب من ٦٠٠٠ر٦ شخصا ، تحت نفس الظروف ، وهنا ، أيضا ، يتكدس معا ، ما يزيد عن ثلثي العدد الاجمالي ، بمعدل أسرة واحدة ، في حجرة واحدة . أما كيف كانت تستغل طبقة ملاك العقارات ، فقر هؤلاء المنكودين بطرق قانونية ، هؤلاء الذين لا يجد لديهم حتى اللصوص ما يسرقونه ، فقد كان يتم كالآتي : إن منازل « دروري لين » ، والتي ذكرت آنفا تقدم الإيجارات الاسبوعية التالية : ثلاث شلنات لمسكن من قبوين ، أربع شلنات لحجرة واحدة بالطابق الأرضي ، أربع شلنات وست بنسات للطابق الثاني ، أربع شلنات للطابق الثالث ، ثلاث شلنات لحجرة فوق السطح ، حتى أن قاطني « تشارلز ستريت » الجياع ، يدفعون وحدهم لملاك المنازل أتاوة سنوية قدرها ٠٠٠ر٢ جنيه استرليني ، وتدفع الـ ٣٦٦ر٥ أسرة ، والتي ذكرت أنفا في « ويستمينستر » إيجارا سنويا قدره ٠٠٠ر٤٠ جنيها استرلينيـــا .

ويرقد أكثر الأحيـاء العمالية إتساعا ، شرقي « الحصن » ، في « هوايت شـابل » و « بثنال جرين » ، حيث تعيش أكبر تجمعات لندن العمالية . دعنا نسمع ما يقول مستر « ج. الستون » واعظ « سانت فيليب » « بثنال جرين » عن حال ابرشيته : ـ

« انها تحتوى على ٤٠٠ر١ منزلا ، تقطنها ٧٩٥ر٢ أسرة ، أو ما يقرب من ٠٠٠ر١٢ شخصا . أن الحيز الذي يقطن فوقه هذا العدد الكبير من السكان ، أقل من ٤٠٠ ياردة مربعة (٢٠٠ر١ قدما مربعا) ، وليس بغريب أن تجد في هذا الحشد المكتظ ، رجلا وزوجته وأربع او خمس أطفال ، وأحيانا كلا الجدين ، كل هؤلاء جميعا ، في غرفة واحدة ، مساحتها من عشرة الى احدى عشرة قدما مربعا ، حيث يأكلون ، ينامون ويعملون ، وانني لأومن بأنه أمام أسقفية لندن أن توجه انتباهها الى هذه الابرشية التي هي أكثر ابرشية أخنى الدهر عليها ، ان أهل « الوست اند » ليعرفون عنها قدرا تبلغ ضآلته ، ضآلة القدر الذي يعرفه عنها متوحشو أستراليا أو جزر البحر الجنوبي . ولو تعرفنا على هؤلاء التعساء ، من خلال الملاحظة الشخصية ، اذا شاهدناهم أثناء تناولهم

طعامهم القليل ، اذا رأيناهم وقد أضناهم المرض والحاجة للعمل ، فإننا سنجد كتلة ما ، من العجز والشقاء ، حتى أن أمة كامتنا يجب أن تخجل ، من أن مثل هذه الأمور ممكنة الحدوث . لقد كنت قسيسا قرب « هدرسفيلد » خلال ثلاث سنوات ، كانت فيها المصانع على أسوأ حال ، غير أنى لم أرى بتاتا ، عجزا كاملا كعجز الفقراء فى « بشنال جرين » . لا يوجد أب عائلة واحدة ، من كل عشر ، فى كل الجوار ، لديه ملابس اخرى غير بزة العمل ، وهى بزة سيئة ورثة إلى أقصى حد ، إن كثيرين فى الحقيقة ، لا يملكون غطاء لليل ، غير تلك الأسمال ، ولا سرير غير جوال من قش ونشارة »[1] .

إن الوصف السابق ، يقدم فكرة عن المنظر الداخلى لتلك المساكن . لكن دعونا نتابع واحدا من الموظفين الإنجليز ، اللذين يتجولون أحيانا هناك ، فى واحد أو اثنين من منازل العمال تلك .

روت الصحافه ، بمناسبة التحقيق القضائى المنعقد فى ١٤ نوفمبر ١٨٤٣ ، بواسطة مستر « كارتر » ، قاضى التحقيق فى «سورراى» ، عن جثة «آن جالواى» التى تبلغ من العمر ٤٥ عاما ، التفاصيل التاليه ، وهى تفاصيل تخص المتوفاة : كانت تعيش فى ٣ « هوايت ليون كورت » ، « برموندزى ستريت » ، لندن ، مع زوجها ، وابن فى التاسعه عشر من عمره ، فى حجرة لم يكن بها سرير ، أو أى أثاث آخر . كانت ترقد ميتة بجوار إبنها ، على كومة من الريش ، الذى كان متناثرا فوق جسدها الذى يكاد يكون عاريا ، لم تكن هناك ملاءة ولا غطاء فراش . كان الريش ملتصقا بصورة وثيقة بكل الجسد حتى أن الطبيب لم يستطع فحص الجثة قبل تنظيفها ، وحينئذ وجد أنها قد ماتت من الجوع وأن بها جراحا ناتجة عن لدغات الحشرات . كان جزءا من أرضية الحجرة منزوعا وقد استخدمت العائلة كلها ، هذه الفتحة فى الأرضية كمرحاض . »

وفى يوم الإثنين ١٥ يناير ١٨٤٤ أحضر صبيين أمام مأمور قضائى الشرطة كانا فى حالة جوع شديد ، فسرقا من دكان ، كارعه * لم تكن قد نضجت بعد

---

* رجل عجل (المترجم)

والتهماها فى الحال . وأحس المأمور القضائى ، بضرورة تقصى الحالة أبعد من ذلك ، فتلقى من رجل الشرطة التفصيلات التاليه :

أن أم الصبيين كانت أرملة جندى سابق ، أصبح فيما بعد من رجال الشرطة وأنها قد عاشت فترة عصيبة للغاية منذ وفاة زوجها ، حتى يمكنها أن تعول إبناءها التسعة ، إنها تعيش فى فقر مدقع ، فى ٢ « بولز بلاس » ، « كواكر كورت » ، « سبيتفيلدز » . وعندما جاءها رجل الشرطة ، وجدها وستة من أبنائها ، مكومين معا ، بالمعنى الحرفى للكلمة ، فى حجرة خلفية صغيرة خالية من الأثاث ، ما عدا كرسيين قش قديمين ، ذهبت مقاعدهما ، ومنضدة صغيرة بها ساقين مكسورين ، وقدح مكسور وطبق صغير . وبالكاد كان على أرضية الموقد شرارة نار ، وفى أحد الأركان رقدت كمية كبيرة من الاسمال البالية ، كمية تكفى ملىء ميدعة (مريلة) إمرأة ، والتى كانت تستخدمها الأسرة كلها كسرير . أما ملابس الفراش ، فلم يكن لديهم غير الملابس الهزيلة التى يرتدونها أثناء النهار . وأخبرته المرأة الفقيرة ، أنها قد اضطرت الى بيع سريرها فى العام الماضى ، حتى تشترى طعاما . أما فرش السرير ، فقد رهنته عند مورد المواد الغذائية من أجل الطعام . فأمر المأمور القضائى ، بأن يصرف للمرأة قدر وافر من تموين صندوق الفقراء .

وفى فبراير ١٨٤٤ وضعت « تيريزا بيشوب » ، ارملة فى الستين من عمرها وإبنتها المريضة البالغة من العمر ٢٦ عاما ، تحت رحمة المأمور القضائى للشرطة ، فى « ماداليورو ستريت » . إنهما تعيشان فى ٥ « براون ستريت » ، « جروسفنور سكوير » ، فى حجرة خلفية ، لا تزيد سعتها عن سعة مرحاض . ولا يوجد بها قطعة واحدة من الأثاث ، وفى أحد أركانها ترقد بعض الاسمال التى ينام عليها كليهما ، وصندوق يستخدم كصندوق ومقعد . وتكسب الأم القليل من إعمل يومى . لقد قال صاحب البيت ، انهما عاشا على هذا النحو منذ مايو ١٨٤٣ ، وأنهما قد باعا ورهنا بالتدريج ، كل ما لديهما ، وأنهما رغم ذلك ، لم يدفعا أى إيجار . وقد خصص لهما المأمور القضائى مبلغ جنيهاً واحدا إسترلينيا ، من صندوق الفقراء .

اننى لا أزعم ، أن كل عمال لندن ، يعيشون فى مثل حاجة الأسر الثلاث ، سالفة الذكر . إننى اعرف جيدا ، أن هنالك عشرة أحسن حالا ، الى حد ما ، فى

حين أن واحدا ، قد وطالمجتمع تماما تحت قدميه ، لكننى أزعم أن آلاف الكادحين والأفاضل من الناس - وهم أكثر جدارة ، وكذا أكثر مدعاة للاحترام من كل أثرياء لندن - ليجدون أنفسهم فى وضع غير لائق بالبشر ، وأن كل بروليتارى ، كل فرد ، دون استثناء ، معرض لمصير مماثل دون أدنى خطأ من ناحيته ، وبرغم كل الجهد الذى فى وسعه أن يبذله .

وبرغم كل هذا ، فان هؤلاء اللذين لديهم ، قدر ما من ملاذ ، إنما هم محظوظين ، محظوظين عند مقارنتهم بهؤلاء اللذين لا مأوى لهم البتة . إن فى لندن ، خمسون الفا من البشر يستيقظون كل صباح ، لا يدرون اين يضعوا رؤوسهم بالليل وأسعد هذه الكثرة هم أولائك اللذين نجحوا فى الاحتفاظ ببنس أو إثنين حتى المساء ، ليدخل نزل ، كتلك التى تكثر فى المدن الكبرى ، حيث يجدوا سريرا ولكن أى سرير ! إن هذه المنازل مملوءة بالأسرة من القبو حتى غرف السطح ، أربع ، خمس ، ست سرر ، أكثر ما يمكن تكديسه فى حجرة واحدة . وفى كل سرير يكدس أربع ، خمس ، ست ، أكثر ما يمكن رصه من البشر ، مرضى وأصحاء ، صغار وكبار ، سكارى وغير سكارى ، رجال ونساء ، تماما كما جاءوا بلا تمييز . ثم يأتى التشاحن ، اللكمات والجراح ، او ان يتفق زملاء الفراش هؤلاء ، وبهذا يصبح الامر أكثر سوء ، إذ تنظم السرقات ، أو أن تجرى أشياء ترفض لغتنا ، وقد نمت إنسانيا أكثر من أفعالنا أن تسجلها . وهؤلاء اللذين يعجزون عن الدفع لمثل هذا الملاذ ؟ إنهم ينامون حيث يجدون مكانا ، فى الطرقات والبواكى وعند النواصى ، حيث لا يزعجهم البوليس والملاك . إن قليلا من الأفراد يجد طريقه إلى الملاجىء التى تدار هنا وهناك ، بواسطة أعمال البر الخاصة ، وينام البعض الآخر على الدكك فى الحدائق قريبا من أسفل نوافذ الملكة فيكتوريا . دعونا نسمع ما تقول «التيمس» اللندنية .

« يظهر من التقرير الوارد باعمدة صحيفتنا بالأمس ، عن الاجراءات الجارية فى محكمة شرطة « مارليبورو ستريت » ، ان هنالك فى المتوسط خمسين إنسانا من كل الأعمار ، يتزاحمون معا فى الحدائق كل ليلة ، ليس لهم من مأوى آخر غير ما تقدمه الأشجار ، وبضع تجاويف فى جسر النهر . وغالبية هؤلاء من الفتيات

الصغيرات ، اللاتى أغواهن الجنود من الريف ، ليسرحوا فى المجتمع ـ كل عوز الفقر المدقع الذى لا صديق له ، وكل تهور الرذيلة المبكرة .

« إن هذا لأمر فظيع حقا ! الفقراء هناك ، لا بد وأن يكونوا فى كل مكان . إن الفاقه ستجد طريقها وتنصب صرحها البشع فى قلب مدينة كبيرة مرة أخرى فى وسط آلاف الحوارى والشوارع الجانبية لعاصمة آهلة بالسكان ، لا بد أن يوجد دائما ، كما نخشى ، كثير من المعاناة ـ كثير يؤذى العين ـ وكثير يكمن فى اخفاء .

« أما داخل نطاق الثراء والبهجة والأزياء الحديثة ، وليل الأبهة الملوكية فى « سانت جيمس » ، الذى يلتئم مع البهاء الفاخر « لبيزداتر » ، على حدود مساكن الأرستقراطية القديمة والجديدة ، فى حى تمسك فيه ، الرقة الحذره للتخطيط الحديث ، عن إبداع دار واحدة رخيصة للفاقة ، فيبدو ، كما كان ، موقوفاً على المتعة المطلقة للثراء ، أما هؤلاء « هناك » ، فيجب أن تبث الحاجة والجوع والمرض والرذيلة وما شابه من فظائع فيما بينهم ، حتى يستنفد البدن بالبدن ، والروح بالروح !

إنها حقا لأمور بشعة ! الاستمتاع إلى أقصى الحدود ، حتى أن الاسترخاء الجسدى ، والإثارة الذهنية ، او أكثر متع الحس براءة ، يمكنها أن تغذى شهوة الانسان ، وأن تقوده إلى الاحتكاك المباشر بذاك الشقاء الذى لا شفيع له . فالثراء فى صالاته المضيئة يضحك ـ ضحكة طائشة بريئة ـ على جراح العوز المجهولة . السرور يسخر بقسوة ، لكن دون وعى ، من الألم الذى يئن أسفله . كل الاشياء المتناقضة تسخر من بعضها البعض ـ كل المتناقضات ما عدا الرذيلة التى تغرى والرذيلة التى يغرر بها .

« لكن دع كل الرجال يتذكرون هذا ـ أنه من أكثر الدوائر ظرفا لأغنى مدينة على أرض الله ، يمكن أن يوجد هناك ، ليلة بعد ليلة ، وشتاء إثر شتاء ، نساء ـ صغار السن ـ مسنين فى الرذيلة ، ويعانين ـ وقد نبذهن المجتمع ـ التفسخ من الجوع الشديد ، العفن والمرض . دعهم يتذكرون هذا . وأن يتعلموا الا

يضعوا النظريات بل يعملوا ، إن هناك مجال كبير للعمل فى أيامنا تلك * » .

لقد أشرت إلى المآوى للذين بلا مأوى . إن مثلين يمكن أن يوضحا كيف كان هؤلاء مكتظين أشد الإكتظاظ . إن مأوى للذين بلا مأوى، قدشيد حديثا فى «أوجل ستريت» العلوى ، إنه فى وسعه أن يأوى ثلاثة آلاف شخص كل ليلة ، وقد استقبل منذ إفتتاحه فى ٢٧ يناير حتى ١٧ مارس ١٨٤٤ ، ٢٧٤٠ر٢ شخصا لمدة ليلة أو أكثر ، وكان عدد المتقدمين للإقامة فى هذا المأوى فى إزدياد ، كذا فى ملاجىء « هوايت كروس ستريت » و « وابينج » . وكانت تطرد كل ليلة جمهرة من اللذين لا مأوى لهم لعدم وجود حجرات ، رغم أن الموسم كان يتقدم على نحو أكثر مواتاة . وفى مأوى آخر ، الملجأ المركزى فى «بلاى هوس يارد» كانت تقدم السرر هناك ، بمتوسط ٤٦٠ سريراً فى الليلة ، وقد تم أيواء ٦٨١ر٦ شخصا خلال الثلاثة أشهر الأولى من عام ١٨٤٤ ، كما تم توزيع ٩٦ر١٤١ قطعه من الخبز . ومع ذلك فإن مجلس المديرين قد أعلن ، أن هذه المؤسسة ، قد بدأت تستجيب لضغط المعوزين بشكل محدود ، فقط عندما أفتتح «الملجا الشرقى» أيضاً .

دعونا نغادر لندن ، ونتقصى حال المدن الكبرى الأخرى ، فى الممالك الثلاث ، طبقا لترتيبها . دعونا نبدأ أولا « بدبلن » ، إنها مدينة ، يماثل جلال سحرها عند الاقتراب منها من ناحية البحر ، سحر لندن ، إن خليج « دبلن » لهو أجمل خليج فى كل مملكة الجزيرة البريطانية ، حتى أن الأيرلنديين يقارنونه بخليج « نابلس » . إن المدينة تمتلك مغريات كبيرة ، أحياؤها الارستقراطية أفضل ، وهى مخططة فى ذوق أفضل من أى مدينة بريطانية أخرى . وعلى أى الأحوال ، تقع أحياء دبلن الاشد فقرا ، عند اجراء عملية مقاصة ، بين أكثر الأحياء التى ترى فى العالم بشاعة وقبح منظر . حقا ، ان السجية الايرلندية ، والتى ترتاح فقط ، فى ظل بعض الظروف ، الى القذارة ، تتحمل مساهمة جزئية فى هذا ، غير أننا ، كما نجد آلاف الايرلنديين فى كل مدينة كبيرة فى إنجلترا واسكتلاندا ، وكما يغوص بالضرورة ، كل السكان الفقراء بالتدريج ، فى نفس القذارة ، فان بؤس

---

* التيمس فى ١٢ أكتوبر ١٨٤٣ .

« دبلن » ، ليس شيئاً خاصاً بها ، ليس شيئاً غريباً عن « دبلن » ، لكنه شيء مشترك ، بين كل المدن الكبرى . أن أحياء « دبلن » الفقيرة ممتدة للغاية ، وهى تفوق فى قذارتها ، وعدم صلاحية منازلها للسكنى ، واهمال الشوارع فيها ، كل وصف . ويمكن تكوين فكرة ما ، عن الطريقة التى يتكدس بها الفقراء معاً هنا ، من حقيقة أنه فى عام ١٨١٧ ، وطبقا لتقرير مفتش دور تشغيل الفقراء* « فإن ١,٣١٨ شخصاً يعيشون فى « بارال ستريت » ، فى ٥٢ منزلا ، بها ٣٩٠ حجرة ، وأن ١,٩٩٧ شخصا يعيشون فى « شيرش ستريت » وقربها ، فى ٧١ منزلا ، بها ٣٩٣ حجرة ، حتى أنه :

« يوجد فى هذه الأحياء ، والأحياء المجاورة لها ، حشد من الحوارى والأزقة العفنة ، وتتلقى كثير من الأقبية كل ما ينفذ اليه من ضوء عبر الباب ، بينما ينام السكان فى الكثير منها فوق الأرض العارية ، رغم أن غالبيتهم يمتلكون سررا على الأقل ، أما حارة « نيكولسون » ، مثلا ، فإنها تحتوى على ثمان وعشرين حجرة صغيرة ، يسكنها ١٥١ شخصا ، يعانون أشد العوز ، ولا يوجد هنالك فى الحارة كلها غير سريرين وملاءتين » .

إن الفقر لشديد فى « دبلن » ، حتى أن مؤسسة خيرية واحدة ، هى « اتحاد التسول » ، تقوم بإعانة ٢,٥٠٠ شخصا يوميا ، أى واحد فى المائة من السكان تستقبلهم وتقدم لهم طعام اليوم ثم تطردهم ، عندما يحل الليل .

ويصف دكتور « اليسون » ، وضعاً مماثلا لذلك الوضع فى « إدينبورج » ، والتى أكسبها وضعها الفاخر ، اسم « أثينا الحديثة » ، والتى تتناقض مساكنها الارستقراطية المتلألئة فى « المدينة الجديدة » ، تناقضا شديدا مع التعاسة العفنة للفقراء فى « المدينة القديمة » . ويزعم « أليسون » أن هذه المساكن الممتدة ، إنما هى مساكن قذرة وبشعة ، مثلها فى ذلك مثل أسوأ أحياء « دبلن » ، بينما

---

* اقتبسها الدكتور و . ب . اليسون F.R.S.E. زميل ورئيس سابق للكلية الملكية للاطباء ، الخ ، الخ . « ملاحظات عن سبل التصرف مع الفقراء فى اسكتلندا ، وتأثيراتها على الحالة الصحية بالمدن الكبرى (اينبرج) ، ١٨٤٠ . والكاتب رجل متدين ، وأحد أعضاء حزب المحافظين ، وهو شقيق المؤرخ ، (اركيبالد أليسون) .

سيكون على « اتحاد القسه ل » أن يساعد قدراً كبيرا من المحتاجين فى «إدينبرج» مثلما يفعل فى العاصمة الايرلندية . وهو يزعم عن حق ، أن الفقراء فى اسكتلندا وخاصة فى « ادينبرج » و « جلاسجو » ، أسوأ حالا من أى منطقة أخرى فى الممالك الثلاثة . ويقرر دكتور « لى » واعظ الكنيسة القديمة فى «إدينبرج» عام ١٨٣٦ ، أمام « وكالة التثقيف الدينى » ، أنه : -

« لم ير من قبل مثل هذا الشقاء الذى يراه فى إبرشيته ، حيث الناس بلا أثاث ، بلا أى شىء ، وحيث يشترك إثنان من المتزوجين فى حجرة واحدة ، فى غالب الأحوال . لقد زار فى يوم واحد سبعة منازل، لم يكن فيها كلها أى سرير، بل ولم يكن هناك فى بعضها ، حتى كومة قش . وقد نام المسنون ، واللذين يبلغون من العمر ثمانين عاما ، فوق الأرض الخشبية ، ناموا جميعا ، وعلى وجه التقريب ، بنفس الملابس التى يرتدونها خلال النهار . لقد وجد فى أحد حجرات الأقبية عائلتين قادمتين من نواحى الريف الأسكتلندى ، مات منهم طفلان بعد فترة وجيزة من وصولهم إلى المدينة ، وكان الثالث فى طريقة إلى الموت ساعة زيارته . كان لكل عائلة كومة قش قذرة ترقد فى أحد الأركان ، وكان القبو يأوى ، بالاضافة الى العائلتين ، حماراً . كان أيضاً مظلما ، حتى أنه يستحيل تمييز شخص من آخر خلال النهار ، وأعلن دكتور « لى » أن رؤية مثل هذا الشقاء فى بلد كاسكتلندا ، لأمر كاف ، لادماء قلب رقد من صخر » .

ويتناول دكتور « هـنن » فى « الجريدة الطبية والجراحية » الصادرة فى « ادينبرج » حالة مماثلة لتلك الحالة . إذ يتضح ، نقلا عن تقرير برلمانى *، أن مساكن فقراء « ادينبرج » ، تفتقر إلى سيادة النظافة ، كما يجب أن يكون متوقعا فى ظل مثل تلك الظروف . الكتاكيت تجثم على أعمدة السرير بالليل ، وتشارك

* تقرير إلى وزارة الداخلية من أعضاء لجنة قانون الفقراء ، بخصوص استقصاء الحالة الصحية للطبقات العاملة فى بريطانيا العظمى . ملحق بالتقرير (تذييل) . وقد قدم التقرير إلى كلا من مجلس البرلمان فى يوليو ١٨٤٢ ، 3 Vals. Falio . (تم جمعه وترتيبه من التقارير الطبية التى كتبها (إدوين شادويك) سكرتير اعضاء لجنة قانون الفقراء. (مضاف فى النسخة الألمانية) .

الـكلاب والخيل ، الآدميين مأواهم ، والنتيجة الطبيعية لذلك ، رائحة كريهة ، فظيعة ، عفنة ، وأسراب من الحشرات . إن البنيه السائدة «لايدينبرج» لتساعد هـذه الأحوال البشعة أيما مساعدة . إن « المدينة القديمة » مقـامة على منحدرى أحد التلال ، الذى يجرى الشارع الرئيسى على قمته . وينحدر من الشارع الرئيسى عـديد من الحوارى الضيقة الملتوية ، التى تسمى بالأزقة لـكثرة دورانهـا . إن منازل المدن الاسكتلندية ، بشكل عام مكونة من ابنية ذات خمس أو ست طوابق مثلهـا مثل باريس ، وهى فى ذلك تتنـاقض مـع انجلترا ، حيث يوجد بقدر المستطاع ، منزل منفصل لـكل أسرة ، وهكذا يتكثف زحام البشر فوق مساحة محـــدودة .

« هذه الشوارع » ، كما تقول جريدة انجليزية * فى مقال عن الحالة الصحية للعمال فى المدن ، غالبا ما تكون ضيقة إلى حد أن المرء يمكن أن يخطو من نافذة منزله إلى نافذة جاره المقـابل ، بينما المنازل مكومة بشـكل مرتفع ، طابق فوق طابق ، حتى أن الضوء نادراً ماينفذ إلى الحارة أو الزقاق الرافد بينهما . ولا توجد فى هذا الجزء من المدينة ، أى مجارى ، وأى نظام آخر للصرف ، ولا حتى مراحيض خاصة بالمنازل . وبالتـالى فإن فضلات ، ونفـايات ، وبراز ... ٥٠,٠٠٠ شخصا على الأقل ، يلقى بها فى القنوات كل ليلة ، حتى أنه ، رغم كل ما يكنس من الشوارع ، تولد كتلة من القذارة المجففة والروائح العفنة ، التى لا تؤذى فقط البصر والشم ، ولـكنها أيضا تهدد ، صحة المواطنين بالخطر إلى أقصى درجة . وما يثير التساؤل ، هو كيف أهملت كل اعتبـارات الصحة والأخلاق ، وحتى الاحتشام العادى للغاية ، أهملت تماما فى مثل تلك الأماكن ؟ وعلى العكس ، فإن كل من تعرف على حالة السكان عن كثب ، سوف يشهد المدى البعيد الذى بلغه المرض والشقاء وإنحـدار الأخلاق هنا . إن المجتمع فى مثل تلك الأحيـاء ، قد غاص إلى مستوى يائس منحط إلى حد لا يمكن وصفه . إن منازل الفقراء قذرة بشكل عام ، ومن الواضح أنها لا تنظف أبدا . انها تتكون فى أغلب الأحوال من حجرة واحدة ، تخضع لاسوأ تهوية ، ومع ذلك ، فهى على الدوام باردة ،

---

* الأرتيزان « الصنائعى » ، فى ١ كتوبر سنة ١٨٤٣ ، وهى مجلة شهرية .

حيث النوافذ محطمة أو سيئة التركيب ، وهى أحيانا رطبة ، وتقع تحت مستوى المياه الجوفيه على نحو ما ، وهى دائما ما تكون رديئه الأثاث ، وغير مريحة على الاطلاق ، وغالبا ماتستخدم الأسرة كلها ، كومة قش كرقد لها ، وفوق هذه الكومة ينام الرجال والنساء ، الصغار والكبار ، فى إختلاط منفر . ويمكن الحصول على الميـاه من المضخات العامة فقط ، وتغذى بالطبع ، صعوبة الحصول عليها ، كل القـذارة الممكنة » .

إن ما يشاهد فى مدينتى المرفأين الكبيرين الآخرين ، لا يفضل ما يرى فى المدن الأخرى ، « فليفربول » بكل تجارتها ، وثروتها ، وأبهتها ، تعامل عمالها بنفس الهمجية . ان اكثر من ٤٥,٠٠٠ من البشر ، يشكلون أربعة أخماس السكان بالتمام ، يعيشون فى اقبية ضيقة ، مظلمة ، رطبة ، سيئة التهوية ، يوجد منها بالمدينة ٧,٨٦٢ قبوا . ويوجد الى جوار تلك الأقبية المسكونة ٢,٢٧٠ زقاقا وقد أقيمت المبانى على أركانها الاربعة مغطية مساحات صغيرة ، ولا سبيل إلى دخولها إلا من مدخل واحد ، ممر ضيق مغطى ، وكل هذا كالعـاده قذر للغاية ، وسكانه بالكامل من البروليتاريين . إن لدينا ، عندما يأتى الدور على « مانشستر » مـا يفوق ذلك من حديث عن تلك الأزقة ، وفى « بريستول » ، تمت زيارة ٢,٨٠٠ عـائلة فى وقت واحد ، فوجد أن ٤٦٪ منهـا يحتل حجرة واحـدة ، حجرة واحدة لكل أسرة .

وتسود المدن الصناعية نفس تلك الأوضاع ، بطريقة مطابقة تمام التطابق . ففى « نوتنجهـام » يوجد بشـكل كلى ، ١١,٠٠٠ منزلا ، منهـا ما يتراوح من ٧,٠٠٠ إلى ٨٠٠٠ منزلا مبنية ظهرا لظهر ، ذات حوائط مشتركة ، حتى يستحيل توافر التهوية من خلالها ، بينما يقوم مرحاض واحد فى العادة ، على خدمة عدد من المنازل ولقد وجد خلال إحدى عمليات الإستقصاء التى إنجزت منذ فترة قريبة ، أن العديد من المنازل قد تم بناؤه فوق مجارى ضحلة لايغطيها إلا ألواح خشب الأرضية . وتجرى الأمور على نفس النحو فى « ليسيستر » ، « دربى » و « شيفيلد » . أمـا عن « بيرمنجهـام » ، فإن مقالة « الارتيزان » المستشهد بهـا آنفا تقرر : ـ

«توجد فى الأجزاء الأكثر قدما فى المدينة، أحياء عديدة سيئة ، قذرة ومهملة، مليئة بالبرك الآسنة وأكوام الفضلات . الأزقة عديدة فى « بيرمينجهام » ، حتى أن عددها يصل إلى ألفى زقاق ، تحوى العدد الأكبر من عمال المدينة . وهى فى العادة ضيقة ، موحلة رديئة التهوية ، سيئة الصرف ويحد كل زقاق من ثمانية إلى عشرين منزلا ، وهى عادة يمكن تهويتها من ناحية واحدة ، حيث أن حوائطها الخلفية مشتركة . ويوجد عادة فى خلفية كل زقاق ، كومة رماد أو ما شابه ، كومة قذرة إلى حد لا يمكن وصفه . وعلى أى الأحوال ، فانه يجب ملاحظة أن الأزقة الأكثر جدة يتم بناؤها بطريقة أكثر معقولية ، كما يتم الحفاظ عليها بطريقة أكثر لياقة ، وحتى فى الحوارى القديمة ، فان الأكواخ أقل إزدحاما عنها فى « مانشستر » و « ليفربول » ، ولهذا تسلك « بيرمينجهام » طريقا أقل عفة بكثير عن « وولفرهامبتون » ، « دودلى » و « بيلستون » ، مثلا ، وهى التى تبعد عنها مسافة أميال قليلة فقط ، وذلك حتى أثناء إنتشار وباء ما . إن الأقبية كملاجىء للسكن ، أمر غير معروف أيضا فى « بيرمينجهام » ، رغم أن عدداً قليلا من الأقبية يستخدم بطريقة سيئة كحجرات عمل . إن المنازل المفروشة لسكنى البروليتاريا عديدة ، نوعا ما ، (أكثر من أربعمائة منزل) وهى أساسا فى الأزقة الكائنة فى قلب المدينة . إنها كلها على وجه التقريب قذرة بدرجة مقززة ، وكريهة الرائحة ، إنها مأوى المتسولين ، واللصوص ، والصعاليك والمومسات اللذين يأكلون ويشربون ويدخنون وينامون هنا ، دون أى إعتبار للإحتشام أو الراحة فى جو لا يحتمله فقط إلا أمثال هؤلاء ، من سقط البشر» .

وتشبه « جلاسجو » ، « أدينبورج » فى كثير من الوجوه ، حاوية نفس الأزقة ، ونفس المنازل العالية وتلاحظ « الارتيزان » على تلك المدينة : ـ

« أن الطبقة العاملة ، تشكل هنا ما يقرب من ٧٨٪ من إجمالى سكانها (حوالى ٣٠٠,٠٠٠ نسمة) ، وهى تعيش فى أجزاء من المدينة تفوق فى حقارتها وبؤسها أحط أركان « سانت جيلز » و « هوايتشابل » ، خرابات « دبلن » وأزقة « أدينبرج » . هناك العديد من مثل تلك الأماكن فى قلب المدينة ، جنوبى «الترونجات» وغرب «السالت ماركت» ، فى «كالتون» وبعيداً عن «الهاى ستريت» ومتاهات لا نهاية لها من الطرقات أو المطفات ، والتى يصب فيها ، عند كل

خطوة تة يبأ ، حوارى وأزقة مغلقة ، تشكلها أكوام عالية من منازل خربة ، سيئة بلا مياه . وتعج هذه المنازل ، بالمعنى الحرفى للكلمة ، بالسكان . ويحتوى كل طابق ثلاث أو أربع أسر ، ربما يصل عددها إلى عشرين شخصا . وفى بعض الحالات يوجد كل الطابق كأماكن للنوم ، حتى يمكن رص خمسة عشرة أو عشرون شخصا ، رأس كل منهم حيال رأس الآخر ، إننى لا أستطيع القول ، أنهم يسكنون فى غرفة واحدة . إن هذه الأحياء ، تأوى أفقر وأتفه أعضاء المجتمع وأكثرهم خسة ، ويمكن النظر إليها باعتبار أنها مصدر كل تلك الأوبئة المخيفة التى تبدأ من هنا وتنشر الدمار فوق (جلاسجو) » .

دعنا نستمع إلى « ج ك . سيموندس » مفوض الحكومة لإستقصاء حالة النساجين اليدويين ، وهو يصف تلك الأجزاء من المدينة * .

« لقد رأيت الشقاء فى بعض أسوأ أطواره ، هنا وفوق القارة ، لكننى ، وحتى زيارتى لأزقة « جلاسجو » ، لم أكن لأصدق ، أنه يمكن ان يوجد إثم ، وتعاسة ومرض بهذه الوفرة فى اى بلد متحضر . فى تلك المنازل المفروشة المنحطة ، ينام عشرة ، اثنى عشرة ، واحيانا عشرون شخصا من كلا الجنسين ومن كل الأعمار ، وبدرجات مختلفة من العرى ، مكومين معا فوق ارض الحجرة ، دون اى تمييز . وعادة ما تكون تلك الملاجىء رطبة للغاية وقذرة وآيلة للسقوط ، حتى ان المرء لا يحب وضع حصانه فى واحد منها » .

وفى مكان آخر

« تحتوى ازقة « جلاسجو » على عدد من السكان يتراوح ما بين خمسة عشر وثلاثين الفا من البشر ، وتتكون تلك الأجزاء كلية ، من حوارى ضيقة واحواش مربعة ، فى وسط كل منها كومة روث . لقد اثار المظهر الخارجى لتلك الأحواش إشمئزازى ، لكن لم اكن قد تأهبت بعد لما فى الداخل من قذارة

---

* « الصبغ والصناعية ، فى الوطن وفى الخارج » ، بقلم ج . ك . سيموندس ، أدينبرج ، ١٨٣٩ ، والكاتب نفسه ، كما يبدو ، إسكتلندى ، ليبرالى ، وبالتالى يعارض بهوس كل حركة عماليه مستقلة . والصفحات المذكورة هنا موجودة فى الصفحة ١١٦ .

وتعاسة . ففي بعض الأماكن التى زرناها ليلا (كابتن موالر ، مشرف البوليس وسيموانس) وجدنا طبقة كاملة من البشر ممدة فوق الأرض ، وهى فى الغالب مكونة من خمسة عشرة إلى عشرين شخصا ، من الرجال والنساء دون تمييز ، بعضهم يرتدى الملابس ، والبعض الآخر عار . كان فراشهم سبلة قش عطن مخلوط بأسمال . كان هناك القليل من الأثاث أو لم يكن هناك أى أثاث . وكان الشىء الوحيد الذى يمنح هذه الأشياء الغبية أى بصيص من صلاحية للسكنى ، هو نار موضوعة على أرضية الموقد . إن اللصوصية والدعارة تشكل المكونات الأساسية لكيان هؤلاء السكان . ولا يبدو ان أحدا يأخذ على عاتقه نظافة هذا الإصطبل « الأوجينى » ، هذه البؤرة من الشر والفساد ، هذه الشبكة من الجريمة والقذارة والوباء ، فى قلب ثانى مدن المملكة . وامتدت عملية الاستقصاء إلى أحط الأحياء فى مدن أخرى . غير أنها لم تسفر عن شىء يعادل نصف هذا السوء ، سواء فى الحدة الخلقية أو الفساد الصحى أو الكثافة النسبية للسكان . ولقد أعلن « مجلس النقابة » أن غالبية منازل هذا الجزء ، آيلة للسقوط ، كما أنها غير صالحة للسكن ، غير أنها بدقة تامة ، أكثر المناطق إزدحاما بالسكان ، حيث أنها طبقا للقانون غير مطالبة بأى إيجار » .

إن الحى الصناعى الكبير فى قلب الجزر البريطانية ، ذلك الإمتداد الآهل بالسكان « لوست يوركشاير » و « سوث لانكشاير » ، بمدنه الصناعية الكبرى ، لم يفرز شيئا إذا قورن بما أفرزته مدن كبرى أخرى . أن حى صناعة الأصواف فى « الوست رايدينج » التابعة « ليوركشاير » ، عبارة عن منطقة فاتنة ، إنها ريف أخضر جميل يقع فوق ربوة تزداد إرتفاعاتها وعورة نحو الغرب ، حتى تصل إلى أعلى نقاطها ، عند « سلسلة الجسور » التابعة « لبلاك ستون ادج » ، عند خط تقسيم المياه بين « البحر الايرلندى » و « المحيط الألمانى » . إن وديان الـ « أير » ، التى تمتد على جانبها « ليدز » ، ووديان الـ « كالدر » ، التى يجرى خلالها شريط « مانشستر ـ ليدز » للسكك الحديدية ، هى من بين أشد الأماكن جاذبية فى انجلترا ، وقد نثرت المصانع والقرى والمدن فيها . فى كل منحى . إن المنازل المشيدة من الأحجار غير المصقولة الرمادية اللون ، لتبدو غاية فى الإتقان والنظافة ، إذا ما قورنت بمنازل « لانكشاير » المبنية من القرميد الذى اسود لونه ، حتى إنها تمتع الناظر اليها ، غير أنه عند دخول المدن ذاتها ، فإن

المرء أن يجد فيها ، مما يسر ، إلا القليل . ان « ليدز » كما تصفها « الارتيزيان » ، وكما تأكد لي عند البحث والتقصي ، ترقد : -

« على منحدر معتدل الميل ، يهبط الى وادي الـ « اير » . وينساب هذا الجدول خلال المدينة لمسافة ميل ونصف تقريباً ، وهو عرضه للفيضانات العنيفة ، أثناء ذوبان الجليد أو الأمطار الغزيرة . وتعتبر الأجزاء الغربية وهي الأكثر إرتفاعا في المدينه ، نظيفة بالنسبة لمثل هذه المدينة الكبرى . غير أن الأحياء الراقدة أسفل ، على طول النهر وجداول روافده ، ضيقة وقذرة ، وهي كافية في ذاتها ، أن تختزل حياة السكان وخاصة الأطفال . يضاف إلى هذا ، تلك الحالة المقززة التي توجد عليها الأحياء العمالية في « كيرك جيت » ، « مارش لين » ، « كروس ستريت » وريشموندرود » والتي ترجع أساسا إلى شوارعها غير الممهدة ، الخالية من البالوعات ، وممارها غير المنتظم ، وأزقتها وحواريها العديدة ، وافتقادها الكامل لأغلب وسائل النظافة العادية ، وكل هذا معا ، يقدم تفسيرا كافيا للوفيات التي تتجاوز الحد في تلك المواطن الشقية ، للتعاسة القذرة وينتج عن فيضان نهر الـ « أير » (والذي يجب أن يضاف ، مثل كل الأنهار الأخرى ، إلى خدمة الصناعة ، فهو ينساب في أحد أطراف المدينة صافيا رقراقا وينساب عند الطرف الآخر غليظا أسودا عكرا ، تفوح منه رائحة كل الفضلات الممكنة) أن امتلاء المنازل والأقبية بالماء ، إلى حد يجعل ضخها أمرا ضروريا . في مثل تلك الاوقات يرتفع الماء أيضا ، حتى حيث توجد المجاري ، ليفيض منها إلى الاقبية * مولداً ابخرة فاسدة مشبعة للغاية بكبريتيد الايدروجين ، تاركا وراءه بقايا مقززة ، غاية في الخطورة على الصحة . ولقد كان الاثر الذي تسبب فيه طفح المجاري أثناء فيضانات الربيع عام ١٨٣٩ ضارا للغاية ، حتى انه طبقا لتقرير مسجل المواليد والوفيات لهذا الجزء من المدينة ، كانت هناك ثلاث وفيات مقابل ولادتين ، بينما كان الوضع في كل الاجزاء الاخرى من المدينة ، خلال نفس الشهور الثلاث ، هو ثلاث مواليد ، مقابل وفاتين . كما توجد أيضا أحياء اخرى مكتظة بالسكان ، لا توجد بها اي مجاري

---

* يجب أن نضع نصب أعيننا أن تلك الأقبية ليست مجرد غرف خزين للنفاية ، لكنها مأوى للبشر أيضا .

أى حال من الأحوال ، أو أن تلك المجارى معدة إعداداً سيئاً إلى حد أنه لا يمكن انتزاع منفعة ما منها . وفى بعض صفوف المنازل ، نادراً ما تجف الأقبية ، وتغطى شوارع أحياء معينة بطبقة من الطين اللزج التى تبلغ القدم سمكا . ولقد بذل السكان محاولات عديمة الجدوى ، من وقت إلى آخر ، بهدف ترميم تلك الشوارع بجراريف ملآى برماد الفحم ، غير أنه رغم كل تلك المحاولات فان الروث يتكوم، وبرك المياه القذرة التى أفرغت من المنازل ، تملأ كل الحفر ، حتى تجففها الريح والشمس(*) . إن ما يحتله كوخ عادى فى « ليدز » ، لا يزيد عن خمس ياردات مربعة من الأرض ، وهو يشتمل عادة على قبو ، وغرفة للمعيشة وحجرة نوم واحدة . وتلك المساكن المؤجرة ، التى تمتلىء ليل نهار بالبشر ، إنما تشكل بالمثل ، نقطة خطرة ، على أخلاق وصحة السكان » .

ويقدم « التقرير الخاص بالحالة الصحية للطبقة العاملة » ، والذى اقتبست منه آنفا ، البينة ، على المدى الذى بلغه زحام تلك الأكواخ .

« لقد وجدنا فى « ليدز » ، الأخوة والأخوات ، والنزلاء من كلا الجنسين يشاركون الوالدين حجرة النوم ، حيث تنجم نتائج ، ترتعد لها مشاعر الإنسان ، إن فكر فيها » .

وهكذا أيضاً « برادفورد » التى تبعد عن « ليدز » سبعة أميال فقط ، عند ملتقى عدة وديان ، راقدة فوق شطئان مجرى مائى عفن الرائحة ، أسود بلون الفحم ، إنها تغلف خلال أيام الأسبوع بسحابة رمادية من دخان الفحم ، غير أنها تعطى ، فى أيام الآحاد اللطيفة ، صورة رائعة ، عندما ترى من المرتفعات المحيطة . أما وسطها ، فيوجد به نفس الارهاق والقذارة الكائنة فى « ليدز » . إن الأجزاء القديمة من المدينة ، مبنية فوق جوانب كتل شديدة الانحدار ، وهى ضيقة وغير منتظمة . وترقد أكوام الوسخ والأنقاض ، فى الأزقة والحوارى والعطفات ، كما أن المنازل قذرة وبائسة ، وآيلة للسقوط . ولقد وجدت قرب النهر وفى قاع الوادى مباشرة ، العديد منها ، مهجور تماما ، وقد دفن طابقه

(*) قارن تقرير « مجلس المدينة » الصادر فى الـ « ستاتيستكال جورنال » ، مجلد ٢ صفحة ٤٠٤ .

الأرض ، حتى منتصفه ، فى جانب التل . وعلى العموم فان الأجزاء الموجودة فى قاع الوادى ، والتى تزدحم فيها أكواخ العمال ، بين المصانع المرتفعة ، إنما هى من أقذر الأحياء وأسوأها أبنية فى المدينة كلها . أما الأحياء الأكثر جدة من هذه ، كما الحال فى مدينة صناعية ، فان الأكواخ أكثر إنتظاما ، وهى مشيدة فى صفوف ، إلا أنها تشارك هنا أيضاً ، فى كل الشرور الملازمة للطريقة المألوفة فى تقديم ملاجىء للعمال ، شرور ستواتينا الفرصة للحديث عنها بصورة أكثر خصوصية ، عندما نناقش الوضع فى « مانشستر » . ويصبح نفس الأمر بالنسبة للمدن المتبقية من الـ « وست ريدينج » ، وخاصة « بارنسلى » ، « هاليفاكس » . و « هدرسفيلد » . وتعتبر الأخيرة أظرف بكثير من كل المدن الصناعية فى « يوركشاير » و « لانكشاير » ، بسبب موقعها الآخاذ ومعمارها الحديث ، ورغم ذلك فللمدينة جزءها السىء أيضاً ، ففى ٥ أغسطس ١٨٤٤ كتبت لجنة ، عن إجتماع المواطنين لمسح المدينة ، تقريراً تقول فيه :

« تشتهر « هدرسفيلد » ، بوجود شوارع كاملة وعدد كبير من الحوارى والعطفات غير ممهدة وليست مزودة بالبالوعات أو وسائل أخرى للصرف ، حتى أن الفضلات والركام والوسخ من كل نوع ترقد متجمعة لتنتفخ وتتعفن ، كما أن المياه الراكدة تتجمع فى برك فى كل مكان تقريباً ، وبالتالى ، لابد وأن تكون الملاجىء المجاورة رديئة وقذرة ، حتى أن المرض ينشأ فى مثل تلك الأماكن ويهدد صحة المدينة كلها » .

إننا إن قطعنا « بلاكستون إدج » أو اخترقناها مع إمتداد الخط الحديدى ، فإننا نبدأ فى ولوج تلك التربة الفذة ، التى أنجزت عليها الصناعة البريطانية أبرع عمل لها ، ومنها إنبعثت كل الحركات العمالية ، أعنى ، جنوب « لانكشاير » بمدينته المركزية « مانشستر » . إننا سنجد مرة أخرى الريف القائم على ربوة يتدرج انحدارها من خط المياه غربا ، متجه ناحية البحر الأيرلندى ، ووديان « الريبل » و « الايرويل » و « المرسى » وروافدها الخضراء الساحرة ، ريف كان منذ مائة عام مضت ، مجرد أرض قليلة السكان ، تغطيها المستنقعات بشكل أساسى ، وهى الآن أكثر شريط ريفى فى انجلترا ، إزدحاما بالسكان ، وقد إنتشرت فيه المدن والقرى . ففى « لانكشاير » ، وخاصة فى « مانشستر » ، وجدت

الصناعة الإنجليزية نقطة بدايتها ومركزها في وقت واحد . إن عمليات التبادل التي تقوم بها « مانشستر » إنما هي ميزات لكل التقلبات التجارية . إن المهارة الصناعية الحديثة قد بلغت كمالها في « مانشستر » . إن استخدام قوى الطبيعة ، وإحلال الآلة محل العمل اليدوي (وخاصة النول الذي يعمل بالقوة المحركة ، وآلات الغزل ذاتية الحركة) ، وتقسيم العمل في صناعة القطن في جنوب « لانكشاير » قد بلغ الذروة . ولو عرفنا إن هذه العناصر الثلاث ، هي التي تميز الصناعة الحديثة ، لوجب علينا الإعتراف بأن صناعة القطن قد ظلت متقدمة عن كل فروع الصناعة الأخرى ، منذ البداية حتى وقتنا الحالي . إن تأثيرات الصناعة الحديثة على الطبقة العاملة كان لا بد وأن تتطور هنا على نحو أكثر حرية وكمالاً ، وقدمت البروليتاريا الصناعية نفسها في كامل كمالها البارع ، إن الحطة التي أدى إليها إستخدام طاقة البخار ، الآلة وتقسيم العمل والتي قهرت العامل ، ومحاولات البروليتاريا كي ترتفع فوق هوانها ، يجب أن تبلغ بالمثل ، وبكل وعي ، أعلى موضع . وحيث أن « مانشستر » هي النموذج الفذ للمدينة الصناعية الحديثة . ولأني أعرفها بألفة كتلك التي اعرف بها مسقط رأسي ، ألفة تفوق الألفة التي يعرفها أغلب قاطنيها الآن ، فاننا سنقف هنا وقفة أطول .

إن المدن المحيطة « بمانشستر » تختلف قليلاً عن المدينة المركزية ، تختلف بالقدر الذي تختص به مناطق العمال ، فيما عدا أن الطبقة العاملة تشكل ، إن أمكن جزءاً أكبر من السكان . وهذه المدن مدن صناعية بحتة ، وهي تسير كل أعمالها من خلال « مانشستر » ، التي يعتمدون عليها من جميع النواحي ، لذلك فانها مسكونة فقط ، بالعمال وصغار التجار ، بينما يقطن « مانشستر » عدد كبير للغاية من التجاريين ، وخاصة العاملين بالسمسرة وباعة القطاعي « المحترمين » . ومن ثم ، فإنه رغم أن « بولتون » ، « برستون » ، و « بجان » ، « بوري » ، « روكدال » ، « ميدلتون » ، « هايوود » ، « أولدهام » ، « أشتون » ، « ستاليبريدج » ، و « ستوك بورت » . . . إلخ ، بلدان يتراوح سكانها جميعاً من ثلاثين ، إلى أربعين إلى سبعين وتسعين ألفا ، فإنها ، في الغالب ، مناطق عمالية بحتة ، نشأت فقط مع نشوء الصناعة ، إنها مكونة من عدد قليل من الشوارع العموميه التي تحدها الحوانيت ، وعدد قليل من الحواري التي تتناثر حولها

حدائق ومنازل أصحاب المصانع كالفيلات . إن المدن ذاتها مشيدة بطريقه سيئه وغير منتظمة ، بها عطفات وحوارى وأزقة خلفية عفنة ، تعج بدخان الفحم ، كابيه بشكل خاص ، ومرجع ذلك أساساً ، إلى الطوب الأحمر الفاتح ، الذى هو المادة العامة للبناء هنا ، وقد غدا أسوداً بفعل الزمن . إن استخدام الأقبية كأماكن سكنية أمر شائع هنا ، إذ يتم بناء هذه الكهوف تحت الارضية ، أينما كان ذلك مستطاعا بأى شكل من الأشكال ، حيث يقطن فيها ، قطاع هام للغاية من السكان .

تعتبر «بولتون» ، التى تقع على بعد إحدى عشر ميلا شمالى غرب « مانشستر » من بين أسوأ تلك المدن بعد « بريستون » و « أولدهام » ، إذ لا يوجد بها ، كما لاحظت على قدر إستطاعتى خلال زياراتى المتكررة ، غير شارع رئيسى واحد ، شارع قذر للغاية ، إنه « الديترجيت » ، الذى يستخدم كسوق ، وهو عبارة عن جحر مظلم منفر حتى فى ظل أرق الأحوال الجوية ، إذ لو تركنا المصانع جانباً ، فإن جوانبه تتكون من منازل واطئه كل منها مكون من طابق أو طابقين . إن الجزء القديم من المدينة بشكل خاص ، هنا كما هو الحال فى كل مكان ، بائس وآيل للسقوط . وينساب عبر المدينه جسم سائل داكن اللون ، يترك من يشاهده فى حيرة ، إذا ما كان ذلك الذى يراه جدول ماء ، أم خيط من الطفح الراكد الذى يعاون بنصيبه فى تلويث الهواء ، والذى كان الهواء بالقطع ، نقياً بدونه .

وهنالك أيضاً « ستوك بورت » والتى تقع إلى جانب « شيشاير » ، على وادى «المرسى» ، غير إنها ، مع ذلك ، تنتمى إلى الحى الصناعى فى « مانشستر» . إنها تقع فى واد ضيق على امتداد « المرسى » ، حتى أن الشوارع تنحدر إلى أسفل ربوة حادة الميل من ناحيه ، وتصعد إلى أعلى ، نفس القدر من الانحدار من الناحيه الأخرى ، بينما يمر الخط الحديدى المار من « مانشستر » إلى « بريمنجهام » على قنطرة عاليه فوق المدينه والوادى كله . وتعرف « ستوك بورت» فى المنطقه كلها ، كواحدة من أكثر الجحور قتامه ودخاناً ، وتبدو حقيقة ، مثيرة للاشمئزاز إلى حد بالغ ، خاصه ، إذا ما نظر إليها من عند القنطرة . إلا أن الاكواخ والاقبيه التى تقطنها الطبقه العامله ، والتى تمتد فى خطوط طويله

عبر كل أجزاء المدينة من قاع الوادى حتى قمة الربوة ، تبدو شنيعة إلى حد أبعد من ذلك . انى لا أتذكر أننى قد رأيت مثل هذا العدد الكبير من الأبنية التى تستخدم كمساكن فى أى مدينة أخرى ، كذلك العدد الذى رأيته هنا .

وعلى بعد أميال معدودة شمالى شرق « ستوك بورت » ، تقع « أشتون - أندر - لاين » ، واحدة من أحدث المدن الصناعية فى هذه المنطقة . إنها تقف على تل ، تجرى أسفله قناة ونهر « التيم » Tame ، وهى مشيدة ، بشكل عام ، على أحدث وأكثر أشكال التصميم نظاما . تمتد فيها خمسة أو ستة شوارع متوازية ، بامتداد الربوة ، تقطعها بزاوية قائمة ، شوارع أخرى ، تمتد إلى أسفل عند الوادى . وبهذه الطريقة أمكن استبعاد المصانع من المدينة الأصلية ، كذلك فإن قرب النهر ومجرى القناة ، لم يستدرجها كلها إلى الوادى حيث تقف هناك متزاحمة ، تنفث الدخان الأسود خارج مداخنها . إن « أشتون » مدينة لهذا التنظيم بمظهرها الذى تفوق جاذبيته كثيراً ، معظم المدن الصناعية ، فشوارعها عريضة وأكثر نظافة ، وتبدو الأكواخ جديدة ، حمراء فاتحة ، تبعث على الراحة . غير أن النظام الحديث لبناء أكواخ العمال عيوبه ، فلكل شارع زقاقه الخلفى المنزوى والذى يقود إليه ممر ضيق ، وهى كلها أقذر من بعضها البعض . ورغم أنى لم أر أية أبنية ، عند دخولى ، غير القليل منها ، وهى أبنية يزيد عمرها عن الخمسين عاما ، غير أنه يوجد ، حتى فى شوارع « أشتون » بيوت تسير نحو الاسوأ ، حيث لم يعد ترميم زوايا المنازل متينا ، بل أخذ فى التحالل ، وقد تشققت الجدران ولم تعد بقادرة على الحفاظ على الطلاء الداخلى الكلى الابيض ، شوارع ، منظرها القذر والذى لونه الدخان لا يختلف على الاطلاق عن مثيلها من مدن المنطقه ، غير أن ذلك فى « آشتون » ، هو الاستثناء وليس القاعدة .

وتقع « ستالى بريدج » أيضاً على « التيم » ، على بعد ميل واحد ناحيه الشرق . ويجد المسافر من « أشتون » ، حال عبوره التل عند القمه ، على يمينه ويساره حدائق كبيرة جميلة ، بها فى وسطها منازل أشبه بالفيلات الفاخرة ، مشيدة عادة على النمط الإليزابيثى ، وهو بالنسبه للنمط القوطى ، مثلما تكون الكنيسه الإنجليكانيه بالنسبه لبابوية الرومان الكاثوليك بالضبط . وتكشف « ستالى بريدج » عن نفسها فى الوادى ، على بعد مائه خطوة ، حيث تتناقض

تناقضاً صارخاً مع أكواخ « آشتون » المتواضعة ! ترقد « ستالى بريدج » فى وهدة ملتوية ضيقة ، أكثر ضيقاً حتى فى الوادى القائم عند « ستوك بورت » ، وتحتل مجموعات من الأكواخ والمنازل والمصانع غير المنتظمة جانبى تلك الوهدة . والأكواخ التى يجدها المرء ، أول ما يدخل ، عتيقة ، آيلة للسقوط وقد سخمها الدخان ، ثم يأتى باقى المدينة كلها ، مثلها مثل تلك المنازل الأولى . وفى قاع الوادى يرقد عدد قليل من الشوارع ، يقطع أغلبها بعضه البعض ، مختلط ، أعلى التل وأسفله ، وبسبب حالة الانحدار تلك ، فإن الطابق الأرضى لكل المنازل تقريباً ، نصف مدفون فى الأرض . ويمكن رؤية ما ينتج عن مثل هذه الطريقة المشوشة فى البناء ، من حشود المعطفات ، والأزقة الخلفية ، والزوايا السحيقة ، عندما ينظر المرء بعين طائر ، إلى المدينة حيثما هى ، هنا وهناك ، وهى واقف على قدميه فوق التلال . تضاف إلى ذلك ، القذارة الفظيعة ، والأثر المنفر الذى تثيره « ستالى بريدج » ، والذى يمكن تصوره فى الحال ، رغم البيئة الجميلة التى تجاورها .

هنالك العديد من تلك المدن الصغيرة ـ لكل منها خصائصها ، لكن الطبقة العاملة ، عموما ، تعيش فيها جميعاً كما تعيش فى « مانشستر » . ومن ثم فقد أجملت بشكل خاص ، تركيبها المميز لها فقط ، ويمكن ملاحظة ، أن كل المشاهدات الأكثر عمومية ، عن حالة العاملين القاطنين فى « مانشستر » ، تتطابق تمام التطابق مع تلك التى فى المدن المحيطة .

ترقد « مانشستر » أسفل المنحدر الجنوبى لسلسلة من التـــلال ، تمتد من « أولد هام » حتى هنا ، وكانت آخر قممها المسماه « كيرسال مور » ، حلبة سباق ، وهى فى ذات الوقت جبل « مانشستر » المقدس(٦) . وترقد « مانشستر » الأصلية على الضفة الغربية « للايرويل » ، فيما بين ذلك المجرى والمجريين الأصغر منه ، مجرى « الايرك » ومجرى « المدلوك » والذان يصبان هنا فى « الايرويل » . وترقد « سالفورد » على الضفة اليمنى « للايرويل » ، تحدها إنحناءة النهر الحادة ، وتقع « بندلتون » شرقا أبعد مدى من ذلك ، كما ترقد « بروتون » العليا والسفلى نحو الشمال من « الايرويل » ، كما تقع « شيتام هيل » شمالى « الإيرك » ، وترقد « هولم » جنوبى « المدلوك » ، و « كورلتون » ، أبعد مدى نحو الشرق على « المدلوك » ،

وتقع « اردويك » أكثر بعداً من ذالك ، شرقى « مانشستر » إلى حد ما ويطلق على مجموعة المبانى كلها ، بشكل عام ، إسم « مانشستر » ، وهى تشتمل على حوالى ٤٠٠,٠٠٠ ساكن ، لا أقل من ذلك إن لم يكن أكثر . والمدينة ذاتها ، مشيدة بطريقة خاصة ، حتى أنه يمكن لشخص ما ، أن يقيم فيها لسنوات ، أن يدخل فيها ويخرج منها يومياً ، دون أن يلتقى بحى العمال أو حتى بالعمال أنفسهم ، طالما قصر نفسه على عمله ، أو على نزهات التسلية . ولقد نشأ ذلك أساسا من حقيقة ، أن أحياء العمال مفصولة بشكل حاد عن باقى قطاعات المدينة المحتجزة للطبقة الوسطى ، باتفاق ضمنى لا إرادى ، وبنفس القدر أيضاً ، بقرار صريح إرادى ، وإن لم يفلح ذلك ، تواروا خلف عباءة البر والسماحة . ويوجد فى قلب « مانشستر » سوق تجارى يمتد بعض الشىء ، ربما بلغ طوله نصف ميل وعرضه نفس القدر أيضا ، ويتكون كله على وجه التقريب ، من مكاتب ومستودعات بضائع . والحى كله تقريباً ، بلا سكان ، موحش ومهجور بالليل ، لا يسير فى حواريه الضيقة إلا الخفراء ورجال الشرطة بفوانيسهم المعتمة ، وتقطع هذا الحى طرق عمومية معينة ، تتركز فوقها حركة المرور الضخمة ، وتحدها الحوانيت المتلألئة ، والتى تصطف فى الأدوار الأرضية . والأدوار العلوية من هذه الشوارع ، مشغولة هنا وهناك ، ويتواجد فيها قدر كبير من الحياة حتى ساعة متأخرة من الليل . إن كل « مانشستر » الأصلية ، كل « سالفورد » و « هولم » وجزء كبير من « بندلتون » و « كورلتون » وثلثى « أردويك » ، ومساحات منفردة فى « شيتهام هيل » و « بروتون » أماكن لا تختلط فيها مساكن العمال بمساكن غيرهم ، إنها تمتد كحزام حول السوق التجارى ، بعرض قدره ميل ونصف فى المتوسط . وهناك فى الخارج ، فيما بعد هذا الحزام ، تقطن البورجوازية العليا والوسطى ، تعيش البورجوازية الوسطى فى شوارع منتظمه تمتد فى القرب من الأحياء العمالية ، خاصة فى « كورلتون » والأجزاء الدنيا من « شيتهام هيل » . وتعيش البورجوازية العليا فى فيلات متناثرة تحيطها الحدائق فى « كورلتون » و « أرديك » ، أو فوق مرتفعات « شيتهام هيل » ، « بروتون » ، و « بندلتون » التى تهب عليها نسائم هواء الريف الصحى المنطلق ، فى منازل ناعمة مريحة ، لا يمر بها غير أتوبيس متجه إلى المدينة ، كل ربع أو نصف ساعة . إن أبرع ما فى هذا الترتيب ، هو أنه فى وسع أفراد هذه الأرستقراطية المالية ، أن

يسلكوا أقصر طريق عبر وسط كل الأحياء العمالية ، إلى حيث أماكن أعمالهم دون أن يروا أنهم فى قلب الحزام التعس الذى يقبع عن يمين وعن شمال . أما الطرق العمومية التى تفضى من البورصة إلى كل الاتجاهات خارج المدينة ، فإنها محددة ، على كلا الجانبين ، بسلسله لا تكاد تنقطع من الحوانيت ، وهى بهذا مستبقاة تحت سيطرة البورجوازية الوسطى والدنيا ، والتى تحرص ، من زاوية مصالحها الشخصية ، على مظهر خارجى وقور ونظيف ، وهو مظهر ، فى وسعها ، الحفاظ عليه . حقا ، إن هذه الحوانيت تحمل بعضاً من قرابة للأحياء التى ترقد خلفها ، وهى أكثرظرفا فى المناطق التجارية والسكنية ، عنها فى الأماكن التى تحجب فيها مساكن العمال القذرة ، وإن كانت تساعد فى إخفاء التعاسة والقذارة عن أعين الرجال والنساء الميسورين ذوى الأمعاء القوية والأعصاب الواهنة ، تلك التعاسة والقذارة التى تكمل ثروتهم . وهكذا على سبيل المثال فإن « ديترجيت » والذى يفضى فى الكنيسة القديمة إلى الجنوب مباشرة ، تحده أولا : المصانع ومستودعات البضائع ، ثم تتلوها ، ثانيا ، المتاجر وحانات الجعة وعندما يترك المرء الحى التجارى ، متجها إلى مدى أبعد نحو الجنوب ، تصبح الحوانيت أقل جاذبية ، وأكثر قذاره ، كما يزداد تواجد مشارب البيرة وقاعات الجن ، حتى يصل إلى الطرف الجنوبى فلا يدع له مظهر الحوانيت أى شك ، فى أن العمال والعمال وحدهم هم زبائن تلك الحوانيت . وهكذا أيضاً ، ينطلق شارع السوق ، من عند البورصة ، متجها نحو الجنوب . تبدأ أولا ، أفضل أنواع الحوانيت المتألقة ، ومعها مكاتب الحسابات ، تعاوها مستودعات البضائع ، وعلى الامتداد توجد فنادق « البيكاديللى » البالغة الأبهة ومستودعات البضائع ، ثم على الامتداد أكثر بعداً من ذلك ، يوجد « طريق لندن » ، قرب « مدلوك » حيث المصانع ، وحانات الجعة ، وحوانيت البورجوازية الأكثر تواضعاً ، والعمال القاطنين هناك ، ومن هذه النقطة قدما ، تبدأ الحدائق الكبيرة وفيلات التجار وأصحاب المصانع الاكثر ثراء . وبهذه الطريقة يستطيع أى امرىء يعرف « مانشستر » أن يستدل على الاحياء المجاورة ، من خلال منظر الطريق العمومى ، غير أنه نادراً ما يكون المرء فى وضع يمكنه ، وهو على الطريق ، من إدراك حقيقة ما يجرى فى الاحياء العمالية . إننى أعرف تمام المعرفه أن هذه الطريقه الزائفه شائعه ، بصورة أو أخرى ، فى كل المدن الكبرى ، إننى أعرف

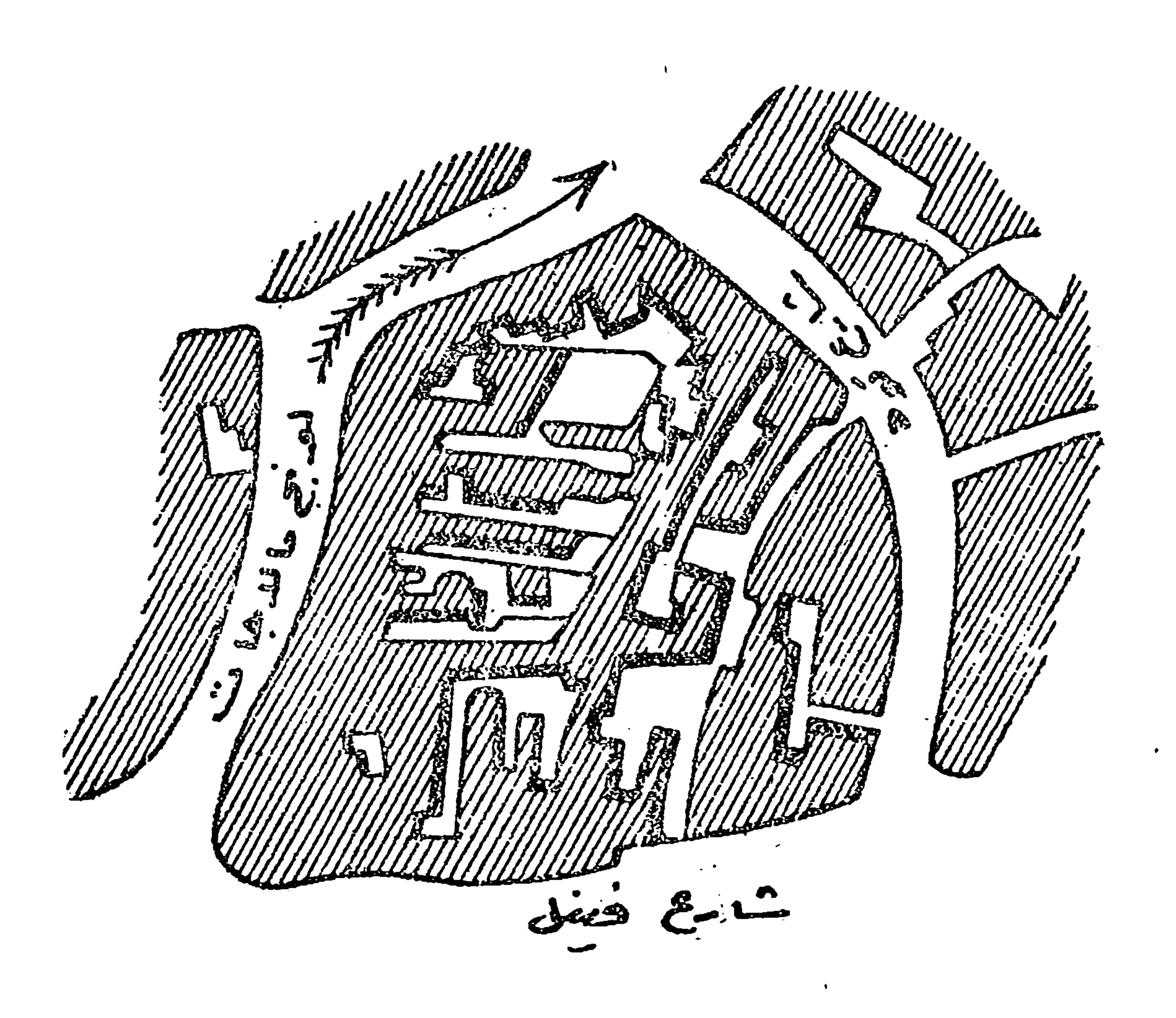
أيضاً أن تجار التجزئة يجبرون بحكم عملهم على وضع أيديهم على الطرق العمومية الكبيرة ، كما أعرف أن عدد المنازل الجيدة ، والواقعة على مثل تلك الطرق فى كل مكان، أكثر عدداً من تلك الرديئة، وأن ثمن الأرض قربها أكثر من ثمنها فى الأحياء النائية ، غير أنى فى نفس الوقت لم أرى على الإطلاق مثل هذا الحجب المنظم للطبقة العاملة ، بعيداً عن الطرق العمومية ، مثل هذا الإخفاء المهذب لكل ما يمكن أن يسىء إلى مقلة عين وأعصاب البورجوازية ، كما رأيت فى « مانشستر » .
ومع ذلك فإن « مانشستر » ، لم تنل ، طبقاً لوجهات نظر أخرى ، حظها من الاهتمام لتشيد على أساس خطة ما ، إنها طبقاً للنظم الرسمية ، مجرد نمو قدمته الصدفة ، وهى فى ذلك قد تفوقت على أية مدينة أخرى ؛ أننى عندما أتأمل ما يصدر عن الطبقة الوسطى ، فى هذا الخصوص ، من تأكيدات حماسية ، مفادها أن الطبقة العاملة تتصرف بطريقة حسنة للغاية ، لا أملك أن أمنع ما تحس به نفسى ، من أن أصحاب المصانع الليبراليين ؛ والكبار ذوى الشعور المستعارة فى « مانشستر » ، ليسوا رغم ، كل شىء ، أبرياء من تلك الطريقة التى تراعى الأحاسيس فى أعمال البناء والتشييد .

وربما حان لى أن أذكر الآن قبل أن أشرع على الفور فى وصف الأحياء العمالية ؛ أن المصانع كلها ، تقع على وجه التقريب ، ملاصقة للأنهار والقنوات التى تتشعب متفرقة فى أنحاء المدينة . أولا وقبل كل شىء ، هناك « المدينة القديمة » فى « مانشستر » والتى ترقد بين الحد الشمالى للحى التجارى و « الايرك » . هنا الشوارع ، حتى أفضلها ، ضيق متعرج مثل « تودستريت » ، « لونج مالاجات » ، « ويثى جروف » و « شود هيل » ، والمنازل قذرة ، عتيقه ، وآيلة للسقوط ، كما أن بنيان الشوارع الجانبية بشع للغاية — عندما يتجه المرء متجولا من « الكنيسه القديمه » إلى « لونج مالاجات » فإنه سيلتقى على الفور ، بصف من المنازل العتيقه الطراز ، التى تقع إلى يمينه ، منازل لم يحتفظ أى منها بمستواه الأصلى ، إنها بقايا « مانشستر » ما قبل الصناعه ، والتى تركها سكانها السابقين وذراريهم إلى أحياء أفضل تشييداً . لقد تركوا تلك المنازل ، التى لم تكن كافيه الصلاحيه ، لسكان آخرين من الطبقه العاملة ، تختلط الدماء الأيرلندية . بقوة ، بدمائهم . هنا يجوس المرء فى حى عمالى سافر على وجه التقريب ، حتى أن

الحوانيت ومشارب البيرة لا تزعج نفسها بإظهار أدنى درجات الاهتمام بالنظافة، غير أن كل هذا لا يساوى شيئاً إذا قورن بما فى المعطفات والحوارى الخلفيه ، والتى لا يمكن الوصول إليها إلا عبر ممرات مغطاة ، والتى لا يمكن أن يمر فيها إثنان من البشر ، فى ذات الوقت . أما عن حشر المنازل معاً ، بلا نظام ، بطرق تتحدى كل خطة منطقية ، أما عن الشبكة المعقدة التى يحتشدون فيها واحداً فوق الآخر ، بالمعنى الحرفى للكلمة ، فإنه لمن العسير أن ينقل المرء أية صورة ذهنية . إنها ليست الأبنية التى ما زالت تعيش منذ أزمنة « مانشستر » القديمة ، التى تلام على ذلك ، فالارتباك قد بلغ مداه فقط ، منذ عهد قريب ، عندما رمم كل منحدر خال ، ترك طبقاً لطريقة البناء القديمة ، وملىء لآخره ، حتى لم يعد هناك قدم واحد من الأرض ، يمكن شغله .

ولتأكيد بيانى فقد رسمت هنا قطاعا مصغرا لخريطة « مانشستر » — إنه لا يمثل أسوأ بقعة بها ، كما أنه لا يمثل عشر المدينة القديمة كلها[٧] (أنظر الرسم).

إن هذا الرسم يكفى لوصف وتحليل الأسلوب غير المنطقى الذى شيد به الحى كله ، وخاصة ذلك الجزء القريب من « الايرك » .



إن الضفة الجنوبية « للايرك » تبدو هنا شديدة الانحدار ، بارتفاع يتراوح ما بين خمسة عشر وثلاثين قدما . وعلى هذا الجانب المنحدر من التل ، زرعت

ثلاث صفوف من المنازل ، أسفلها يصعد مباشرة من النهر ، بينما الحوائط الأمامية لأعلاها ، تقف عند قمة التل فى « لونج مالاجات » . وتقع المصانع على النهر فيما بينها ، وباختصار ، فإن طريقة البناء هنا ، مزدحمة وغير منتظمة كتلك التى فى الجزء السفلى من « لونج مالاجات » . ويفضى عدد وافر من الممرات المغطاة ، والتى تقع يميناً وشمالاً ، يفضى من الشارع الرئيسى إلى العديد من العطفات ، وذلك الذى يتجه إلى هناك يدخل فى القذارة والوسخ المقزز ، والذى ليس له من نظير . خاصة فى العطفات التى تتجه إلى أسفل ، إلى « الايرك » . والتى تحتوى بالكامل أشد المساكن التى شاهدتها حتى الآن ، بشاعة . ففى مدخل واحد من تلك العطفات يوجد مرحاض بلا باب ، إنه قذر إلى حد أن السكان لا يستطيعون الدخول أو الخروج من العطفة ، إلا بعد المرور عبر برك عفنة من البول الراكد والبراز . تلك هى اول عطفة على « الايرك » فوق قنطرة « دوسى » لمن شاء أن أن يهتم بالنظر داخلها . ويوجد أسفلها ، عند النهر ، عدد كبير من مدابغ الجلود التى تملأ كل الجوار برائحة عفن الحيوان الكريهة . إن السبيل الوحيد لدخول أغلب المنازل الواقعة أسفل قنطرة « دوسى » هو السلالم الضيقة القذرة ، عبوراً فوق أكداس من الفضلات والقذارة . أن أول عطفة أسفل قنطرة « دوسى » والمعروفة بعطفة « ألن » ، كانت على مثل هذا الحال فى زمن وباء الكوليرا ، حتى أن الشرطة الصحية أمرت بتفريغها ونزحها وتطهيرها بكلوريد الجير . ويقدم الدكتور « كاى » وصفا رهيبا لحالة تلك العطفة فى ذاك الوقت(*) . ويبدو أنه منذ ذلك الحين ، تم هدمها وإعادة بناؤها جزئياً ، إن عابر قنطرة « دوسى » يرى على الأقل وهو ناظرمنها إلى أسفل ، العديد من أطلال الجدران وأكوام الأنقاض ، مع بضع منازل جديدة . ومن حسن الحظ أن جداراً يبلغ إرتفاعه طول الرجل ، يحجب المشهد من الكوبرى عن قصار القامة ، وتلك صفة تميز الحى كله . وهناك عند القاع ينساب ، أو بالأحرى ، يركد « الايرك »

(*) الحالة الخلقية والصحية للطبقة العاملة التى تعمل فى صناعة القطن فى « مانشستر » بقلم جيمس ف . كاى طبيب بشرى . الطبعة الثانية ١٨٣٢ .

وبشكل عام فان الدكتور كاى يخلط ما بين الطبقة العاملة وعمال المصانع ، وما عدا ذلك فهو كتيب رائع .

مجرى ضيق ، أسود بلون الفحم ، عطن الرائحة ، ملىء بالانقاض والفضلات التى يرسبها على ضفته اليمنى وهى الأكثر ضحالة . وعندما يجف الطقس ، يستمر متخلفاً عند هذه الضفة ، خيط طويل من البرك الموحلة ، ذات اللون الأخضر المائل للسواد ، والتى تثير أقصى درجات الاشمئزاز ، ومن أعماق تلك البرك تتصاعد باستمرار فقاعات أبخرة غازية فاسدة ، تفوح منها رائحة غير محتملة ، حتى عند القنطرة ، على ارتفاع أربعين أو خمسين قدما فوق سطح المجرى . إلا أنه إلى جوار ذلك ، فإن المجرى نفسه محكوم كل بضع خطوات بسدود عالية ، حيث تتراكم الأوحال والفضلات فى كتل خلفها ، وتتعطن هناك. وتوجد فوق القنطرة ، مدابغ الجلود ، مطاحن العظام ومعامل غاز الاستصباح والتى تصب مصارفها وفضـــلاتها فى « الإيرك » الذى يتلقى فضلا عن ذلك ، محتويات المراحيض والمجارى المجاورة . وبهذا يمكن لنا أن نتصور فى سهولة ، أى نوع من البقايا سيرسب فى المجرى . كما ترى أسفل القنطره على الضفة اليمنى المنحدرة ، أكوام الأنقاض والفضلات والقذارة وزبالة المعطفات ، هنا كل منزل محشور خلف الآخر الذى يجاوره ، فلا يبدو للعيان إلا جزء من كل منزل، وهى كلها سوداء ، يغطيها الدخان ، متداعية ، عتيقة ، وقد تكسر زجاج نوافذها وأطره ، وخلفية كل ذلك مكونة من أبنية مصانع قديمة تشبه الثكنات. وهناك أسفل الضفة اليمنى ينتصب صف طويل من المنازل والمصانع ، كان المنزل الثانى منها أطلالا بلا سقف ، مكدس بالأنقاض ، أما الثالث فمنخفض إلى حد أن أسفل طابق فيه لا يمكن سكناه ، فضلا عن ذلك فانها منازل بلا نوافذ أو أبواب. هنا تشتمل الخلفية ، على جبانة الفقراء ، محطة ليفربول وخط « ليدز » الحديدى، وفى مؤخرة هذا تقع ، « دار تشغيل الفقراء » ، « باستيل قانون الفقراء » فى « مانشستر » إنها تشبه قلعة ، تطل من أعلى التل ، من خلف جدرانها العالية ومتاريسها ، إلى أسفل ، على حى العمال ، مهددة . وفوق قنطرة « دوسى » تزداد الضفة اليسرى انبساطا والضفه اليمنى انحدارا ، غير أن حالة المساكن على كلا الضفتين تزداد سوءاً لا تحسناً . وهنا ، يضل الشخص الذى يترك الشارع الرئيسى ، « لونج مالاجات » ، وينحرف فى سيره إلى اليسار ، إنه يهيم من حارة إلى أخرى ، يدور حول نواحى لا حصر لها ، يمر بلا شىء غير زوايا ضيقة قذرة ، وحوارى ، حتى يفقد بعد قليل من الدقائق ، كل دليل على طريقه ،

ويغدو غير عارف إلى أين يتجه . المنازل فى كل مكان مهدمة بالكامل أو حتى منتصفها ، بعضها غير مسكون بالفعل ، وهذا يعنى الكثير هنا ، فنادرا ما ترى أرضية خشبية أو حجرية فى تلك المنازل ، فهى غالباً محطمة على نسق واحد ، نوافذها وأبوابها غير مناسبة . والقذارة سائدة . فى كل مكان أكوام من الأنقاض ، والفضلات والزبالة ، والمجارى برك راكدة ، وتفوح منها رائحة وحدها ، لأن تجعل الحياة مستحيلة ، فى مثل هذا الحى ، على أى إنسان ، على أى قدر من الحضارة . إن إمتداد خط « ليدز » الحديدى ، والدى تم إنشاؤه حديثا ، والذى يجتاز «الايرك» هنا ، قد أزاح بعض تلك العطفات والحوارى ، تاركا البعض الآخر عار تماما للعيان . وللحال ظهرت عطفه أسفل قنطرة الخط الحديدى ، تبذ قذارتها وأهوالها كل ماعداها بمراحل ، وذلك فقط، لأنها كانت حتى تلك اللحظة ، مقطوعة الإتصال ، معزولة ، حتى أنه ما كان من الممكن العثور عليها دون قدر كبير من المتاعب . أنا نفسى ما كان فى وسعى أن أكتشفها لولا ما حطمه الخط الحديدى ، رغم اعتقادى بأننى أعرف المنطقة كلها حق المعرفة . إن المرء ليخترق ، أثناء مروره على طول «ضفة الوعرة ، بين الخوازيق وحبال الغسيل ، تلك الفوضى من أكواخ صغيرة مكونة من طابق واحد ، من حجرة واحدة ، لا يوجد فى أغلبها أية أرضية صناعية ، كما يتجمع المطبخ وغرفة المعيشة والنوم فى حجرة واحدة . ولقد وجدت فى مثل هذه الحفرة التى تكاد يبلغ طولها خمسة أقدام وعرضها ستة أقدام ، سريرين - ويالهما من هياكل أسرة أو أسرة ! - يملآن ومعهما السلم ومكان المدخنة ، الحجرة بالضبط والتمام . وفى أكواخ أخرى عديدة ، لم أجد أى شىء على الإطلاق . بينما يقف الباب مفتوحا وقد استند السكان إليه . والفضلات والزبالة أمام الأبواب فى كل مكان ، حتى أنه لو كانت هناك أية أجزاء من الطرق ممهدة ، لما أمكن رؤيتها ، فقط يمكن للمرء أن يحس بها بقدمه ، هنا أو هناك . أن كل تلك المجموعة من حظائر الحيوان للتى يقطنها البشر ، محاطة بالمنازل وأحد المصانع فى ناحيتين ، ويحدها البحر من الناحيه الثالثة ، ويوجد ، عدا الدرج الضيق الذى يصعد الضفة ، مدخل ضيق ، يؤدى بمفرده إلى آخر ، لا يقل ، فى الغالب ، عن تيه المساكن ، سوء بناء وسوء رعاية .

كفى ! فكل جانب « الايرك » مشيد على هذا النحو ، خليط معقد غير

مخطط من المنازل ، على حافة الفقر تقريبا ، تتسق بواطنه غير النظيفة تمام الاتساق مع ما يحيط بها من قذارة خارجية . وكيف يمكن للقوم أن يكونوا نظيفين ، دون فرصة حقيقة لإشباع أكثر حاجاتهم عادية وطبيعية ؟ فالمراحيض هنا نادرة إلى حد أنها إما أن تفيض كل يوم ، أو نائية جداً ، حتى أن غالبية السكان لا يمكن أن يستخدمونها ، كيف يمكن للناس أن تغتسل إذا لم يكن فى متناول أيديهم غير مياه « الايرك » القذرة ، بينما المضخات وأنابيب المياه موجودة فى الأجزاء المحترمة وحدها فى المدينة ؟ وفى الحقيقة ، فانه لا يمكن إلقاء اللوم على عاتق عبيد المجتمع الحديث هؤلاء ، إن كانت نظافة مآويهم لا تزيد عن نظافة زرائب الخنازير التى ترى هنا وهناك فيما بينهم . إن الملاك لا يخجلون من تأجير مآوى مثل الأقبية التى تتسع لستة أو سبعة أشخاص ، والتى توجد قرب مرسى السفن أسفل كوبرى « اسكتلندا » ، إن أرضيات تلك الأقبية تقع أسفل أقل منسوب لنهر « الايرك » ، الذى ينساب على بعد لا يزيد عن ستة أقدام منها ، أو مثل الطابق العلوى فى منزل الحكر الموجود على الشط المقابل أعلى الكبرى مباشرة حيث يقف طابقه الأرضى ، والذى لا يصلح للسكنى بتاتاً ، مجرداً من كل لوازم النوافذ والأبواب ، وهى حالة ليست نادرة على أى حال فى تلك المنطقة حيث يستخدم كل الجوار هذا الطابق الأرضى المفتوح كمرحاض لقضاء الحاجة وكمرافق أخرى .

وإن تركنا «الايرك» واتجهنا مرة أخرى للجانب المواجه من «لونج ملاجات» إلى وسط المآوى العمالية ، فاننا سنصل إلى حى أكثر جدة إلى حد ما ، حى يمتد من كنيسة « سانت ميشيل » إلى « ويثى جروف » و « شود هيل » هنا نظام أفضل نوعا ما . هنا نجد على الأقل ، بدلا من فوضى الأبنية ، حوارى وأزقة أو عطفات طويلة مستقيمة ، شيدت طبقاً لخطة ما ، وهناك ميدان على الدوام ولكن ، إن كانت المنازل قد بنيت فى الحالة السابقة بطريقة عشوائية ، فالحوارى والعطفات هنا قد شيدت دون ارتباط ، بحالة مثيلاتها المجاورة . انها تنساب فى هذا الاتجاه مرة وفى ذاك الاتجاه مرة أخرى ، حتى أن المرء ان تجول ، يدخل الى حارة مسدودة كل دقيقتين ، أو يجد نفسه حيث بدأ اذا استدار عند أحد النواصى ، والشىء المؤكد أن الذى لم يعش مدة كافية فى هذا التيه لن يستطيع أن يجد طريقه خلاله .

إن استخدمت أنا الكلمة ، البتة ، عند الحديث عن هذا الحى ، فان تهوية تلك الشوارع والعطفات ، قاصرة تماما ، نتيجة لهذا الارتباك ، مثلها فى ذلك مثل منطقة « الايرك » ، ومع ذلك ، فان كان من الممكن القول فان هذا الحى به بعض المزايا ، تفوق تلك التى فى « الايرك » ، فهى أن المنازل أكثر جدة ، كما توجد ، أحيانا بالوعات فى الشوارع ، كما أن لكل منزل ، من الناحيه الأخرى ، قبو يتخذ مسكنا ؛ وهو شىء يندر وجوده فى حى « الايرك » ، بسبب أنها أقدم عمرا ، وأن بناء المنازل قد تم بطريقة أكثر إهمالا . أما عن الباقى ، عن القذارة ، والأنقاض ، وأكوام الزبالة ، والبرك فى الشوارع ، فإنها مشتركه بين كلا الحيين ، كما أنه توجد فى الحى الذى نحن بصدد الحديث عنه ، ظاهرة أشد خطورة على نظافه السكان ، ألا وهى أعداد الخنازير الهائلة التى تجوب الحوارى تنبش أكوام الزبالة ، أو تحتجز فى زرائب ضيقة . هنا ، كما فى أغلب الأحياء العماليه فى « مانشستر » يستأجر عالفو الخنازير العطفات ويبنون زرائب الخنازير فيها ، ففى كل عطفة تقريباً ، توجد واحدة أو أكثر من تلك الزرائب ، وفيها يلقى سكان العطفة بكل فضلاتهم وزبالتهم ، حيث تسمن الحلاليف ، ويفسد الجو الحاصر تماما ، من الجهات الأربع ، من عفن الحيوانات والخضروات . ولقد تم شق شارع عريض محترم إلى حـــد واضح عبر هذا الحى ، هو « ميلرزستريت » ، وقد أخفيت خلفية هذا الشارع إلى حد ما بنجاح ، غير أنه لو قاد حب الاستطلاع أحد ، ليمر عبر واحد من الممرات العديدة التى تؤدى إلى العطفات . لوجد تلك الزرائب تتكرر كل عشرين خطوة .

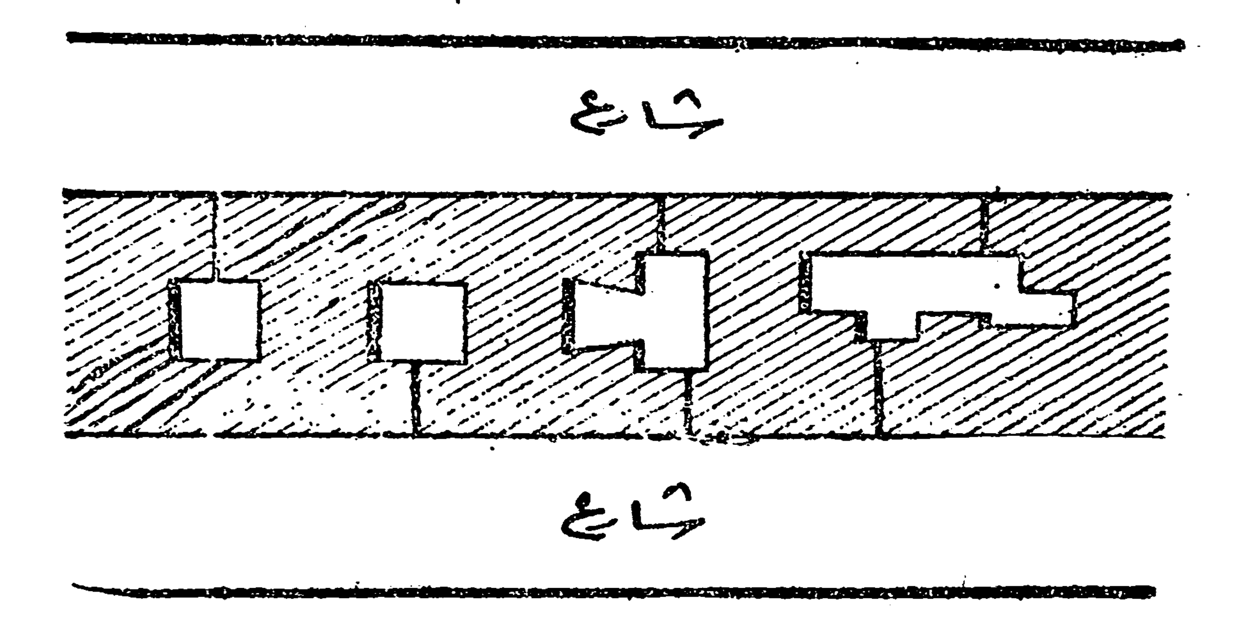
تلك هى حال « المدينة القديمة » فى « مانشستر » ، وإنى لأجد نفسى ، عند قراءة ما وصفت مرة أخرى ، مجبراً على الاعتراف ، بأنه بدلا من المبالغة فى الوصف ، فإنى قد نأيت به عن القتامة بقدر كاف ، لنقل إنطباع صادق عن القذارة والخراب والقفر ، عن قصور كل اعتبارات النظافة والتهوية والصحة ، وهى التى تميز بنيان هذا الحى المنفرد ، والذى يضم من عشرين إلى ثلاثين ألفا من السكان على الأقل . ومثل هذا الحى موجود فى قلب ثانى مدينة فى انجلترا ، وأول مدينة صناعية فى العالم . وإن شاء أحد أن يرى مدى ضيق الحيز الذى يمكن للإنسان أن يتحرك فيه ، مدى قلة الهواء — وياله من هواء — الذى يستطيع أن يتنفسه ، مدى ضحالة الحضارة التى يمكن أن يشارك فيها ، ورغم ذلك

يعيش ، فما عليه إلا أن يرحل إلى هنا . حقاً تلك هى « المدينة القديمة » ، ويهتم أهل « مانشستر » بهذا الأمر الواقع كلما تحدث إليهم أحداً عن الحالة المخيفة لهذا « الجحيم فوق الأرض » ولكن ما الذى تثبته تلك الحالة ؟ إن كل شيء هنا مثير للفزع الموجـدة ، إنما هو حديث النشأة ، وينتمى إلى المرحلة الصناعية . إن المساكن منزل التى تنتمى إلى « مانشستر » القديمة ، قد هجرها سكانها الأصليين ، والمرحلة الصناعية وحدها هى التى حشدتها بحشود العمال ، فصارت مأواهم الحالى المرحلة الصناعية وحدها ، هى التى بنت كل بقعة بين تلك المنازل القديمة لتكسب غطاء لتلك الكتل التى جـذبتها إلى هنا من الأماكن الزراعية ومن أيرلندا ، والمرحلة الصناعية وحدها ، هى التى مكنت ملاك حظائر الماشية تلك ، من تأجيرها للبشر بأسعار عالية ، لتنهب فقر هؤلاء العمال ، لتقوض صحة الآلاف وليثرى الملاك وحدهم . خلال المرحلة الصناعية وحدها ، غدا من الممكن استخدام العامل ، الذى تحرر بالكاد من عبودية الإقطاع ، كمجرد مادة ، بمجرد قناع ، غدا عليه أن يحشر نفسه فى مأوى سيئة جداً لا تصلح لسكنى أحد ، وأن يبتاع مع ما ينال من أجور يكسبها بالجهد الشاق ، حق الإهمال الكلى حتى الدمار . إن هذه الصناعة قد أدركت ، أنه بدون هؤلاء العمال ، بدون هذا الفقر ، بدون هذه العبودية ، ما كان فى وسعها أن تعيش . حقا ، لقد كان التكوين الأصلى لهذا الحى رديئاً ، وما كان من الممكن استخلاص شيء جيد منه غير القليل ، ولكن ، هل قام الملاك أو البلدية بفعل أى شيء لتحسينها عند إعادة بنائها ؟ على العكس ، فقد بنت منزل حينما وجدت زاوية أو ركن خال ، وأينما ظل ممر بلا ضرورة ، تم تشييده ، وارتفعت قيمة الأرض مع إزدهار الصناعة ، وكلما ارتفعت ، كلما زاد جنون أعمال البناء ، دون اعتبار لصحة أو راحة السكان ، باعتبار وحيد ، هو تحقيق أكبر قدر ممكن من الربح ، طبقاً لقاعدة إنه لا يوجد ثقب بالغ السوء ، إذ لابد إن كائنا تعسا سيتخذه مسكنا ، لأنه لا يستطيع أن يدفع أجر شيء أفضل . وعلى أى الأحوال فتلك هى « المدينة القديمة » وبهذه الصورة تسعد البورجوازية . وبناء على ذلك . دعونا نرى ، المدى الذى تفضل به « المدينة الجديدة » عن تلك « المدينة القديمة » .

تعرف « المدينة الجديدة » أيضا « بالمدينة الأيرلندية » ، وهى تمتد فوق تل طينى خلف « المدينة القديمة » فيما بين « الايرك » وطريق « سان جورج » . هنا

تفتقد كل ملامح المدينة . صفوف متفردة من المنازل أو مجموعات من الشوارع قائمة هنا وهناك ، مثل قرى صغيرة ، فوق التربة الطينية العارية ، الخالية حتى من العشب النامى ، نظام المنازل ، أو بالأحرى العشش ، نظام ردىء ، إنها لا ترمم أبداً ، قذرة ، ذات أقبية للإقامة ، رطبة ووسخة ، الحارات ليست ممهدة كما لا توجد بها أى مجارى للمياه ، بالإضافة إلى مستعمرات الخلاليف العديدة عند المرفأ ، وهى إما محبوسة فى زرائب أو أفنية ضيقة ، أو تتجول بلا قيود عبر الجيرة . والطين فى الشوارع عميق، حتى أنه ليتعذر على السائر أن يتجنب الغوص فيه حتى المفصل فى كل خطوة يخطوها من غير أشد الأجواء جفافاً . وتتدانى المنازل فى جور « طريق سان جورج » مقتربة من بعضها البعض أكثر فأكثر ، حتى تنتهى إلى حارات ، وأزقة مسدودة ، وحارات خلفية ، وعطفات منفصلة ، تزداد إزدحاماً وتداخلاً أكثر فأكثر ، كلما اقتربت من قلب المدينة . حقاً ، إنها هنا غالباً ما تكون ممهدة أو مزودة بأرصفة ممهدة ومجارى مياه ، غير أن القذارة ونظام المنازل السىء ، وخاصة نظام الأقبية ، يظل كما هو .

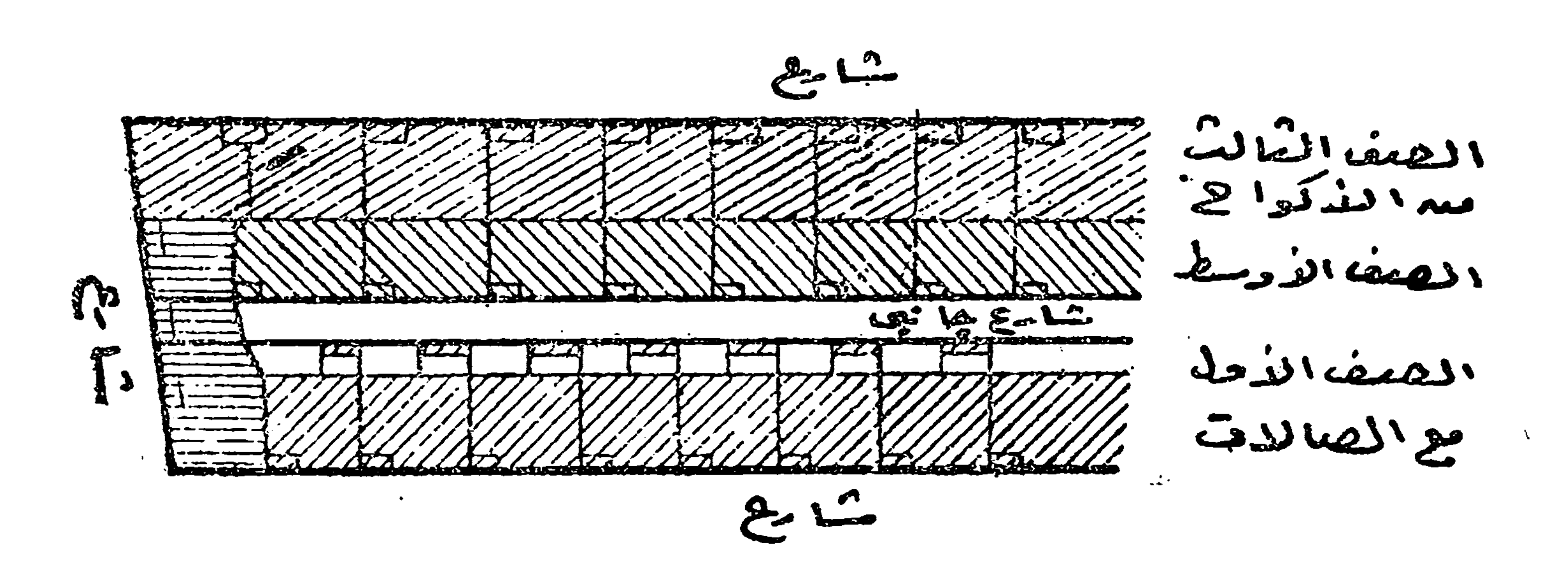
ربما لا يكون خارجاً عن الموضوع أن نبدى هنا بعض الملاحظات العامة عن التركيب المعتاد لأحياء العمال فى « مانشستر » . لقد رأينا كيف أن الصدفة المحضة هى التى تكوم المنازل بشكل عام . فكل منزل مشيد دون اعتبار لأى منزل آخر ، والمنحدرات الخالية فيما بينها قد سميت بالعطفات . لعدم وجود إسم آخر . وفى الأجزاء الأكثر جدة ، إلى حد ما ، فى نفس الحى ، وفى أحياء أخرى عمالية ، يمكن العثور على ترتيب أكثر نظاماً ، إلى حد ما ، إبتداء من الأيام الأولى للنشاط الصناعى . لقد قسمت المسافة بين شارعين إلى أقسام أكثر نظاماً عادة بعطفات مربعة .



لقد شيدت تلك العطفات، على هذه الطريقة، منذ البداية، وهى تتصل بالشوارع عن طريق ممرات مغطاة، وبالتالى فإن كان البنيان غير المخطط ضاراً بصحة العمال لمنعـــه عملية التهوية، فان تلك الطريقة، التى غدوا بواسطتها محبوسين داخل عطفات تحيطها الابنية من كل ناحية، لاشد ضرراً بمراحل. ان الهواء فى بساطة لا يستطيع الخروج، والمخرج الوحيد الذى يصرف من خلاله هواء العطفات المحتجز. هو مداخن المنازل، وهى تؤدى تلك المهمة فقط طالمـا كانت مشتعلة(*). وبالإضافة الى ذلك، فإن المنازل المحيطة بمثل تلك العطفات مبنية عادة، ظهراً لظهر، ذات حوائط خلفيه مشتركة، وتلك الظاهرة وحدها تـكفى لحجب أى تهويه كافيه، ولمـا كانت الشرطة المـكلفه برعاية الشوارع. لاتزعج نفسها بالحالة داخل تلك العطفات، حيث يرقد كل شيء هادئاً حيث ألق به، فانه ليس هناك من سبب حتى تجوس فى القذارة وأكداس الرماد والقمامة الموجودة هناك. لقد مررت بعطفات، فى «ميلر ستريت»، ينخفض منسوبها نصف قدم على الاقل عن منسوب الطريق العام، ولا يوجد بها أى مجارى لتصريف المياه التى تتجمع بها عندما تمطر السماء. ولقد تم حديثاً تبنى طريقة أخرى مختلفة للتشييد، غدت الآن طريقة عامة. أن أكواخ العمال لا تبنى عادة بصورة منفردة، بل يبنى منها على الدوام اثنى عشر أو عشرين، ان مقاولا واحداً. يقوم فى وقت واحد، ببناء شارع أو شارعين. وتلك يتم تنظيمها كالآتى: تشكل واجهة واحدة من الاكواخ على أفضل مستوى، انها محظوظة حتى انها تحتوى على باب خلفى وحوش صغير؛ وتلك يطلب فيها أعلى الإيجارات. وتمتد عند مؤخرة تلك الاكواخ حارة ضيقة، هى الشارع الخلفى وقد بنيت نهايتاه، ويوجد به طريق أو ممر مغطى يؤدى الى اتجاه واحد. وتطلب أقل الايجارات فى تلك الاكواخ التى تقع على الشارع الخلفى، وتلك

(*) ومع ذلك فإن ليبراليا انجليزيا متفلسفا يصرح، فى «تقرير لجنة تشغيل الأطفال» أن تلك العطفات هى رائعة المجلس البلدى فى فن المعمار، لأنها، مثل العديد من المتنزهات الصغيرة، تحسن تهويتها ودورة الهواء فيها! بالتأكيد، لو كان لـكل عطفة مدخلين أو أربع مفتوحة عريضة وتواجه بعضها البعض، حتى يمكن للهواء أن يصب من خلالها، إلا أنه لم يكن لها مدخلين على الإطلاق، ومن النادر مدخل واحد، وعادة ممر ضيق مغطى فقط.

الاكواخ هي الاكواخ المهملة أكثر من غيرها . أن حوائطها الخلفية مشتركة مع الصف الثالث من الاكواخ التي تطل على الشارع الثاني ، وهي التي يطالب فيها ايجاراً أقل من للصف الاول وأكثر من الصف الثاني وتمتد الشوارع، إلى حد ما ، على النحو التالي :



وبهذه الطريقة في البناء ، يمكن للصف الاول من الاكواخ أن ينال تهوية جيدة نسبياً ، اذا قورنت بالطريقة السابقة في البناء ، كما أن الصف الثالث لن يكون أكثر سوءا . أما الصف الاوسط ، من الناحية الاخرى ، فهو ، على الاقل على نفس القدر من سوء التهوية الكائن في منازل المطفات ، كما أن الشارع الخلفي في حالة دائمة من القذارة واثارة التقزز التي توجد عليها الشوارع الخلفية . ان المقاولين يفضلون هذه الطريقة لأنها توفر لهم وسائل نهب العمال ذوى الأجور الأفضل ، من خلال ايجارات أعلى لأكواخ الصف الأول والثالث ، أن هذه الأشكال الثلاث المختلفة لبناء الأكواخ موجودة في كل مكان في « مانشستر » ، وفي كل جزء من «لانكشاير» و « يوركشاير » ؛ وهي غالباً مختلطة معا ، ولكنها دائما مفصولة عن بعضها بقدر يكفي لتحديد العمر النسبي لكل جزء من أجزاء تلك المدن . ويسود النظام الثالث ، ذي الازقة الخلفية . الاحياء العمالية الكبيرة الى حد كبير ، شرقي « طريق سان جورج » و « آنكوتس ستريت » ، كما أنه النظام الذي يتواجد على نحو غالب ، في الاحياء العمالية الاخرى في « مانشستر » وضواحيها .

وتنتصب في الحي العريض ، الذي ذكر آنفاً ، متضمناً تحت اسم «أنكوتس» أكبر مصانع « مانشستر » والتي تحد القنوات ، وأضخم الابنية التي تتكون

من ستة أو سبعة طوابق ، والتي تشمخ عاليا بمداخنها المشوقة فوق أكواخ العمال الواطئة . وعلى ذلك ، فإن سكان الحى ، يتشكلون أساساً من عمال المصانع ، كما يقطن أسوأ الشوارع عمال النسيج اليدويين . إن أكثر الشوارع قربا من قلب المدينة هو أقدمها ، وبالتالى أردأها ، إنها على أية حال ، شوارع ممهدة ومزودة بمصارف للمياه . إننى أضم إلى تلك الشوارع ، أقرب الشوارع الموازية « لاولدهام رود » « وجريت أنكوتس ستريت » . ونقع ، أبعد من ذلك ، نحو الشمال الشرقى ، شوارع عديدة تم تشييدها حديثاً ، هنا تبدو الأكواخ مرتبة ونظيفة ، الأبواب والنوافذ جديدة وقد تم دهانها حديثاً ، الحجرات الداخلية مطلية حديثاً باللون الأبيض ، الشوارع ذاتها أفضل تهوية ، ومساحات الأرض الخالية فيما بين الأبنية أوسع وأكثر . إلا أن هذا القول لا ينطبق إلا على أقلية من المنازل فقط ، فى حين أن الأقبية التى تتخذ كمآوى ، تتواجد أسفل كل كوخ تقريباً ، كما أن العديد من الشوارع غير ممهدة ولا توجد بها مجارى لصرف المياه ، والأسوأ من كل ذلك ، أن المظهر المنسق إنما هو شىء ظاهرى تماما ، سرعان ما يختفى فى غضون السنوات العشر الأولى . أما عن بناء الأكواخ على نحو متفرد فهو لا يقل سوءاً عن خطة تشييد الشوارع ، إن كل تلك الاكواخ تبدو فى بداية الامر متينة ومنسقة . إن جدرانها المصمتة المبنية من الآجر تخدع العين ، إذ عندما يمر المرء عبر شارع من الشوارع العمالية حديثة البناء ، دون أن يستعيد فى ذهنه الحوارى الخلفية وبناء المنازل ذاتها ، فانه سيميل إلى الموافقة على ادعاء أصحاب الليبراليين ، بأن العمال ، لا يتوفر لهم المسكن الطيب فى أى مكان ، مثلما يتوفر فى إنجلترا . غير أنه ، يصبح واضحا ، عند الفحص عن كثب ، أن جدران تلك الاكواخ رقيقة إلى أقصى حد مستطاع وأن الجدران الخارجية ، وجدران الاقبية ، والتى تتحمل وزن الطابق الارضى والسقف ، يبلغ سمكها سمك طوبة واحدة على الاكثر ، والطوب يرقد وقد تلامست جوانبه الطويلة | | | | | | ، غير أنى قد رأيت الكثير من الاكواخ لها نفس الإرتفاع ، رأيت بعضها خلال عملية البناء ، كانت حوائطها الخارجية بسمك نصف طوبة فقط ، كان الطوب لا يرص على جوانبه ، ولكن بطوله وقد تلامست نهاياته الضيقة (| | | |) ، إن الهدف من ذلك هو توفير المواد ، غير أن هنالك سبباً آخر لذلك ، أعنى بالتحديد . حقيقة أن

المقاولين لا يمتلكون الارض أبدا ، ولكنهم يستأجرونها ، طبقاً للعرف الإنجليزى ، لمدة ثلاثين ، أربعين ، خمسين أو تسع وتسعين عاما ، ثم تعود بكل ما عليها بعد انقضاء تلك المدة إلى حيازة المالك الاصلى ، الذى لا يدفع شيئا فى مقابل ما أدخل عليها من تحسينات . ولذا فإن المستأجر يجرى حساباته على أساس أن تكون قيمة التحسينات التى يجريها تساوى أقل ما يمكن ساعة إنتهاء أجل التعاقد . وحيث أن مثل تلك الاكواخ تشيد قبل الاجل بعشرين أو ثلاثين عاما فقط ، فإنه يمكن بسهولة تصور عدم إقدام المقاولين على أى اتفاق لاموجب له على تلك التحسينات . يضاف إلى ذلك ، أن هؤلاء المقاولين وهم عادة نجارين وبنائين أو أصحاب مصانع ، ينفقون القليل أو لاشىء على أعمال الترميم ، وذلك جزئياً ، لتجنب انقاص حصيلة ايجاراتهم ، وجزئيا لان الإصلاحات ستؤول مستقبلا الى المالك ، بينما تظل شوارع بأكملها فى الغالب خالية ، وتتهاوى الاكواخ الى الخراب والقفر ، اثر الازمات التجارية وما يليها من فقدان للعمل وبشكل عام ، فإنه يقدر لاكواخ العمال أن تدوم لمدة أربعين عاما فقط ، فى المتوسط . ويبدو هذا الامر غريبا للغاية ، عندما يرى المرء الجدران الجميلة المصمتة للمنازل حديثة البناء ، والتى تبدو وكأنها تبشر بالبقاء قرنين من الزمان الا أن الحقيقة تظل قائمة ، وهى أن التقتير فى الانفاق الاصلى ، واهمال كل أعمال الترميم ، وبقاء الاكواخ خالية لفترات طويلة ، والتغير المستمر للسكان ، والإتلاف الذى يقوم به القاطنون خلال السنوات العشر النهائية ، وهم عادة أسر ايرلندية ، لا تتردد فى استخدام الاجزاء الخشبية من المبانى كوقود ، فإن وضع كل هذا معا ، تحقق الدمار الكامل للاكواخ ، حتى نهاية الاربعين عاما ، ولذلك فإن « الانكوتس » . والذى شيد أساسا منذ النمو المفاجىء للصناعة ، خاصة خلال القرن الحالى ، يحتوى على عدد كبير من المنازل الخربة ، معظمها ، فى الحقيقة ، من آخر مراحل القفر . اننى لن أسهب فى الحديث عن كمية رأس المال الضائع بالتالى ، أو فى الإنفاق الإضافى المحدود على التحسينات الاصلية وعلى أعمال الترميم ، والذى كان يكفى للمحافظة على الحى نظيفا . محترما ومأهولا لسنوات . يجب على أن اتناول حالة المنازل وقاطنيها . وهنا يجب الاعتراف بأنه لم تكتشف بعد طريقة للاسكان العمالى أكثر اضرارا وافسادا للآداب فى هذه

الطريقة المحكمة . إن العامل يجبر على شغل مثل تلك المواطن الخربة ، لأنه لا يستطيع أن يدفع إيجار غيرها ، ولأنه لا يجد غيرها فى جوار مصنعه ، أو وربما أيضاً لأنها تخص مستخدمه ، الذى يستخدمه فقط بشرط أن يقيم فى مثل هذا الكوخ . إن الحساب الخاص بمدة الأربعين عاما للكوخ ، ليس دائما بالطبع دقيق تمام الدقة ، إذ لو كانت المساكن ، فى جزء كثيف الأبنية ، من المدينة وكان هناك إحتمال حقيقى لوجود سكان ثابتين لها ، بينما إيجار الأرض مرتفع ، فان المقاولين يفعلون شيئا ما للحفاظ على الأكواخ مسكونة حتى انقضاء الأربعين عاما ، وعلى أى حال ، فانهم لا يفعلون شيئا أكثر مما لا يمكن تجنبه إطلاقا ، وتكون المساكن المرممة على هذا النحو ، هى أسوأ المساكن كلها . ومن حين لآخر عندما يهدد وباء ما ، فان ضمير الشرطة الصحية الغافل ، يتململ قليلا على عكس ما إعتاد . فيشن غارات على الأحياء العمالية ، حيث تغلق صفوف كاملة من الأكواخ والأقبية ، كما حـــدث فى حالة عديد من الحارات القريبة من « أولد هام رود » ، غير أن هذا لا يدوم طويلا ، إذ سرعان ما تجد الأكواخ المدانة سكان جدد ، ويرحب الملاك كثيراً بتأجيرها ، بينما الشرطة الصحية لن تعود مرة أخرى فى القريب العاجل . أن تلك النواحى الشمالية والشمالية الشرقية من « مانشستر » ، هى النواحى التى لم تبنى البورجوازية لنفسها فيها أية مبانى ، إذ أن الرياح الجنوبية والجنوبية الغربية تدفع بدخان كل المصانع إلى هنا طوال عشرة أو إحدى عشر شهرا فى العام ، وبهذا يصبح فى وسع العمال وحدهم أن يتنفسوها .

ويقع إلى الجنوب من « جريت أنكوتس ستريت » ، حى عمالى كبير مشتت ، مساحة جبلية جرداء من الأرض ، تحتلها صفوف أو مربعات من المنازل غير منتظمة البناء والمتباعدة عن بعضها البعض ، والمساحات الخالية فيما بين الأبنية غير ممهدة ومكونة من الطفلة دون أى عشب ، والتى بالكاد يمكن إجتيازها فى الطقس الممطر . إن كل الأكواخ قذرة وعتيقة وتعيد « المدينة الجديدة » إلى ذهن المرء . وتشكل المساحة التى يخترقها خط « بيرمينجهام » ، أشد المناطق المبنية كثافة

وأردأها . هنا ينساب « المدلوك » بمنحنياته التى لاحصر لها عبر الوادى ، ويماثل منسوبه فى بعض الأماكن منسوب وادى « الايرك » . ويمتد بطول ضفتى المجرى الأسود فى لون الفحم ، الراكد الكريه الرائحة ، حزام عريض من المصانع ومساكن العمال ، وتلك الأخيرة كلها فى أسوأ حال . والضفة فى الأساس منحدرة وقد تم تشييد المبانى عليها حتى حافة الماء ، كما رأينا آنفا بطول « الايرك » ، بينما تتماثل المنازل فى الرداءة ، سواء بنيت ناحية « مانشستر » أو فى « الأردويك » « كورلتون » أو فى « هولم » . غير أن أشد البقع فظاعة (ولو كان على أن أصف بالتفصيل كل البقع المنفصلة عن بعضها البعض . لما انتهيت أبدا) تقع فى ناحية « مانشستر » ، جنــوب غربى « أوكسفورد رود » مباشرة ، وتعرف باسم « إيرلندا الصغرى » . فى جحر عميق بعض الشىء ، يقع فى واحدة من منحنيات نهر « المدلوك » ، يحيط به من جهاته الاربع مصانع طويلة وأرصفة عالية ، تغطيها المبانى ، تقف مجموعتان من الاكواخ التى تكاد تبلغ المائتى عددا ، والتى يقطنها أربعة آلاف من البشر ، جلهم من الأيرلنديين . الاكواخ عتيقة ، قذرة ، ومن أصغر الانواع ، الشوارع غير ممهدة ، هابطة على شكل أخاديد ، خالية فى بعض أجزاءها من مجارى الصرف وأرصفة الشوارع ، وترقد كتل الفضلات ، والنفايات والقذارة المقززة فيما بين البرك الراكدة من جميع النواحى ، وتسمم الروائح الكريهة المتصاعدة منها الجو ، كما يثقل الجو ويظلم من دخان عشرات مداخن المصانع العالية وجمع من النساء والاطفال مهلهلى الثياب يحتشد هنا ، قذر كالخنزير الذى يترعرع فى الاوحال ، وعلى اكوام القمامة . وفى إيجاز ، فإن كل مجمع المجهور هذا ، يكون مشهدا بغيضا منفرا ، حتى أنه لا يمكن مناظرته بسهولة مع أسوأ عطفات « الايرك » . والسلالة التى تعيش فى تلك الاكواخ الخربة ، خلف نوافذ محطمة ، رتقت بالمشمع ، وأبواب وثابة ، وألواح أبواب عفنة ، أو فى الافنية المظلمة الرطبة ، فى قذارة ونتن لاحد لها . هذه السلالة لابد وأن تكون قد بلغت أدنى مراحل الإنسانية . هذا هو الانطباع ، واتجاه التفكير الذى يفرضه المظهر الخارجى لهذا الحى على المشاهد له . ولكن ماذا

يعتقد المرء ، عندما يسمع أنه فى كل حظيرة من تلك الحظائر ، التى تتكون من حجرتين على الاكثر ، على حجرة أعلى البناء وقبوة ، يعيش عشرون من البشر فى المتوسط ، وأنه يصعب فى العادة أن يتاح لكل مائة وعشرين شخصا مرحاض واحد ، وأنه رغم كل عظات الاطباء ، ورغم الهمة التى غمرتها وباء الكوليرا الشرطه الصحية ، بسبب الحالة فى « أيرلندا الصغرى » ، ورغم كل شىء ، فان عام ١٨٤٤ ، عام النعمة ، كانت الحالة على وجه التقريب . لتلك التى كانت فى عام ١٨٣١ ! ويشهد « دكتور كاى »* ، بأن الطوابق الاولى وليست الاقبية وحدها ، كل منازل هذا الحى ، كانت رطبة ، وأن عددا من الاقبية ، سبق وامتلأ بالأتربة ، قد أفرغ منها الآن ، وعاد يحتله بعض الأيرلنديين ، وأنه فى أحد الأقبية ، كانت المياه تسيل على الدوام من ثقب قد سد بالطين ، وكان القبو يرقد أسفل منسوب النهر ، وبذا كان على شاغله ، وهو نساج يدوى أن ينزح المياه من مأواه كل صباح ، ويصبها فى الشارع !

وهناك أسفل ، أبعد من ذلك ، على الضفة اليسرى « للدلوك » ، يقع « هولم » والذى إن تحدثنا عنه كما ينبغى ، فانه واحد من أحياء العمال الكبيرة ، والذى تكاد حالته تتطابق بالضبط مع حالة « الأنكوتس » ، فالمناطق الكثيفة الأبنية رديئة من الأساس ، وتقترب من الدمار ، والمناطق الأقل سكانا وإن كانت ذات تكوين أكثر عصرية ، غير أنها عموما كانت غارقة فى القذارة . وعلى الجانب الآخر من « الدلوك » فى « مانشستر » الحقة ، يقع حى عمالى ثان كبير ، يمتد على جانبى « دينزجيت » حتى الحى التجارى ، وهو فى أجزاء معينة منه ينافس « المدينة القديمة » ، خاصة فى الجوار المباشر حتى الحى التجارى بين شارعى « كواى » و « بريدج » ، وشارعى « برنسيس » و « بيتر » ، حيث تتجاوز الأبنية المتزاحمة ، فى بعض الأماكن ، عطفات « المدينة القديمة » . هنا توجد حوارى طويلة ضيقة ، تجرى بينها عطفات وممرات متقاصة متعرجة ، مداخلها غير منتظمة حتى أن المستكشف لتلك المناطق يصطدم بزقاق مسدود ، أو يصل

* دكتور « كاى » المدينة المحلية .

إلى غير ما كان يتوقع ، ما لم يكن عارفا بالضبط وعلى حدة ، لكل عطفة وكل زقاق . وطبقا « للدكتور كاى » ، فان أكثر الطبقات فساد أخلاق فى كل « مانشستر » ، تعيش فى تلك الاحياء المهدمة القذرة ، إنهم إناس يحترفون السرقة والدعارة ، وبناء على كل المظاهر، فإن شهادته ما تزال حقيقية ، فى وقتنا الراهن ولقد وجدت الشرطة الصحية عندما قامت بحملتها هنا فى عام ١٨٣١، أن القذارة وافرة وفرتها فى « أيرلندا الصغرى » أو على طول « الايرك » (وفى وسعى أن أقرر أنها ليست أفضل كثيرا فى أيامنا تلك) ، ومن ضمن الامور الاخرى التى وجدتها ، أنه لا يتوفر غير مرحاض واحد لكل ثلاثمائة وثلاثين شخصا من سكان « شارع البرلمان » ، ولكل ثلاثين منزلا كثيف السكان من منازل « ممر البرلمان » .

وسنجد إن عبرنا « الايرويل » إلى « سالفورد » شبه جزيرة كونها النهر « فوقها مدينة يبلغ تعداد سكانها ثمانية آلاف نسمة ، وهى ، أن تحدثنا كما ينبغى ، حى عمالى واحد كبير يخترقه شارع واحد عريض ، و « سالفورد » كانت يوما ما ، أكثر أهمية من « مانشستر » ، كانت حينئذ هى المدينة القائدة لكل الحى المجاور ، والذى مازالت تمنحه إسمها « سالفورد هندرد » . ومن ثم فهى عتيقة ، وبالتالى فهى ضارة صحيا للغاية ، قذرة ، وتوجد هنا منطقة خربة « ترقد فى مواجهة « كنيسة مانشستر القديمة » وهى فى حالة سيئة كحالة « المدينة القديمة » الواقعة على الجانب الآخر من « الإيرول » . ويرقد بعيدا عن النهر « الجزء الجديد ، والذى هو على أى حال ، قد تجاوز بالفعل حد الاربعين عاما المقررة لعمر الكوخ ، وبالتالى فهو متهدم بما فيه الكفاية ، لقد شيدت « سالفورد » كلها من حوارى وأزقة ضيقة ، ضيقة إلى حد أنها كانت تذكرنى « بأضيق ما رأيت ، بحوارى «جنوا» الصغيرة . إن متوسط البناء فى « سالفورد » طبقا لوجهة النظر تلك لاسوأ بكثير من ذلك الذى فى « مانشستر » ، وكذلك الامر بالنسبة للنظافة . وإن كانت الشرطة فى « مانشستر » تشن من وقت الى آخر ، كل ست أو عشر سنوات ، غارة على الاحياء العمالية ، وتغلق أسوأ

المساكن » وتفرض تنظيف أقذر البقع فى الإسطبلات « الأوجيانية » ، فإنها فى « سالفورد » كما يبدو . لم تفعل أى شيء على الإطلاق . إن الأزقة الجانبية وعطفات « شابل ستريت » ، « جرين جيت » ، « وجرفل اين » لم تنظف بالقطع منذ بناؤها ، على وجه الإطلاق ، وأخيرا تم إنشاء خط « ليفربول » الحديدى ليمر فوق جسر ، عبر وسطهـــا ، وليزيح كثيرا من أقذر زواياها ، ولكن ما الجدوى التى عادت من ذلك ؟ إن كل من يعبر الجسر وينظر إلى أسفل ، سيرى الكفاية من القذارة والشقاء ، وإن تحمل أى امرىء مشقة المرور عبر تلك الأزقة ، وألقى نظره من خلال الأبواب والنوافذ المفتوحة إلى داخل المنازل والأفنية ، ففى وسعه أن يقنع نفسه مجددا مع كل خطوة يخطوها ، أن عمال « سالفورد » يعيشون فى مساكن تستحيل فيها النظافة والراحة . وتوجد نفس الأوضاع بالضبط ، فى المناطق الأكثر بعدا من « سالفورد » ، فى « إيسلنجتون » على إمتداد « ريجنت رود » ، وخلف سكة « بولتون » الحديدية . إن مساكن العمال فيما بين « أولدفيلد رود » و « كروس اين » ، حيث توجد جمهرة من الأزقة والعطفات ، لفى أسوأ حال ممكن ، إنها تنافس « المدينة القديمة » فى القذارة والاكتظاظ . لقد وجدت ، فى هذا الحى ، رجلا يبدو فى الستين من عمره على وجه التقريب ، ويعيش فى زريبة للبقر . لقد بنى مدخنة ما لحظيرته المربعة ، التى لا يوجد بها أى نوافذ أو سقف أو أرضية ، لقد أحضر سريرا وعاش هناك ، رغم أن المطر ينفذ من خلال سطحها المتفسخ . هذا الرجل كان متقدم فى العمر وأضعف من أن يمارس عملا منتظما ، كان يعول نفسه بنقل السباخ على عربة يد ، وكانت أكوام الروث ترقد إلى جوار قصره !

تلك هى أحياء « مانشستر » العمالية المختلفة ، والتى حدث أن رصدتها شخصيا خلال عشرين شهرا . ولو صنفنا فى إيجاز ، نتائج جولاتنا ، فيجب علينا أن نعترف بأن ٣٥٠,٠٠٠ من عمال « مانشستر » وضواحيها يعيشون كلهم على وجه التقريب ، فى أكواخ بائسة ، رطبة وقذرة ، وأن الشوارع التى تحيط بهم فى أسوأ حال من الشقاء والقذارة ، وقد رصت دون أدنى اعتبار للتهوية ،

الاعتبار الوحيد الذى يحكمها هو ضمان ربح المقاول . وفى كلمة واحدة ، يجب أن نعترف بأن مساكن العمال فى « مانشستر » وقد خلت من النظافة والراحة ، وبالتالى إستحالت بها أى حياة أسرية هانئة ، ففى مثل تلك المساكن ، لا يحس بالراحة أو المواطنة ، غير سلالة انحطت ماديا ، سلبت من كل آدميتها ، حقرت وردت أخلاقيا وصحيا إلى البهيمية والوحشية ، ولست وحدى الذى يقدم هذا التحقيق . فلقد رأينا « الدكتور كاى » ، وهو يقدم نفس الوصف بالتمام ، ورغم أن فى ذاك الكفاية ، غير أنى إقتبست أيضاً كلمات ، ليبرالى معروف ، ويقدره أصحاب المصانع كرجع عالى القدر ، ومعارض متعصب لكل الحركات العمالية المستقلة* .

« بينما أمر خلال مساكن العمال فى « المدينة الأيرلندية » ، « أنكوتس » و« أيرلندا الصغرى » ، انتابتنى الدهشة فقط ، لأنه فى الإمكان المحافظة على حالة صحية معقولة ، فى مثل تلك المنازل . إن هذه المدن — وهى مدن لإمتدادها وعدد سكانها — قد تم تشييدها دون اكتراث على الإطلاق لأى شىء غير النفع المباشر ، للمضارب الذى قام بالبناء . إن نجارا وبناءا يتحدان لشراء سلسلة من مواقع الأبنية (إنهما يستأجرانها لعدد من السنين) ويغطيانها بما يسمى بالمنازل . إننا نجد فى أحد الأماكن شارعا بأكمله يتبع أحد الأخاديد ، لأنه بهذه الطريقة يمكن الحصول على أقبية عميقة دون تكاليف حفر ، أقبية لتخزين السلع أو سقط المتاع ولكن لإستخدامها كمساكن للبشر . إن منزلا واحدا من هذه المنازل لم يفلت من الكوليرا وعموماً ، فإن شوارع تلك الضواحى غير ممهدة ، يوجد الروث فى وسطها فى أكوام أو فى أخاديد ، البيوت مبنية ظهرا لظهر ، دون تهوية ، أو مصارف مياه ، وتنحصر عائلة كاملة ، فى ركن فى قبوة ، أو فى غرفة فوق السطح » .

ولقد أشرت آنفا إلى النشاط غير العادى الذى أعلنته الشرطة الصحية خلال زيارة الكوليرا ، لقد أمسك ذعر شامل ببورجوازية المدينة ، عندما كان الوباء

---

* ناسو و . الكبير « رسائل عن لائحة المصنع الى السيد المحترم رئيس مجلس إدارة النقابة » . (شارلز بوليت طومسون) لندن ، ١٨٣٧ ، ص ٢٤ .

يقترب . لقد تذكر الناس مساكن الفقراء غير الصحية ، وانتفضوا أمام اليقين بأن كل من تلك الأحياء الفقيرة سيغدوا مركزا للوباء ، ومنه سوف ينشر الدمار فى كل النواحى عبر منازل الطبقة المالكة . وللحال عينت « لجنة صحية » لفحص تلك الأحياء ، وكتابة تقرير عن حالتها إلى « مجلس المدينة » . وكان « دكتور كاى » شخصيا عضوا فى تلك اللجنة ، وقد زار بنفسه ، كل الأحياء المنفصلة للشرطة ، ما عدا واحد ، هو الحادى عشر ، واقتبس إستخلاصات من تقاريرها : لقد تم فحص إجمالى لـ ٦,٩٥١ منزلا - بالطبع فى « مانشستر » الأصلية وحدها ، مع إستبعاد « سالفورد » والضواحى الأخرى . منها ٦,٥٦٥ منزلا تحتاج إلى بياض من الداخل على وجه السرعة ، ٩٦٠ منزلا عاطلا من أعمال الترميم ، ٩٢٩ لا توجد بها وسائل صرف كافيه ، ١,٤٣٥ رطبة ، ٤٥٢ سيئة التهوية ، ٢,٢٢١ بدون مراحيض ومن ٦٨٧ شارعا تم فحصها ، وجد أن ، ٢٤٨ شارعا غير ممهد ، ٥٣ شارعا ممهد تمهيدا جزئيا ، ١١٢ سيء التهوية ، ٣٥٢ به برك راكدة ، أكوام من الأنقاض والنفايات .. الخ . كانت مسألة تنظيف مثل ذلك الاسطبل « الأوجيني » قبل وصول الكوليرا ، بالطبع ، أمر خارج عن الموضوع . ولذا فقد تم تنظيف بعض من الزوايا السيئة للغاية وترك الباقى كله كما كان من قبل . لقد انبثت البقع التى تم تنظيفها ، كما حدث فى « أيرلندا الصغرى » إن حالة القذارة القديمة تعود كما كانت خلال شهرين . أما عن الوضع الداخلى لتلك المنازل فإن نفس اللجنة تقرر ، أن حالها ، يماثل ذلك الذى لقيناه آنفا فى « لندن » ، « ايدينبورج » ومدن أخرى* .

غالباً ما يحدث أن تتكوم عائلة أيرلندية كاملة فى سرير واحد ، وغالباً ما يغطى الكل كومة من القش القذر أو أغطية من زكائب قديمة ، تغطى الكل وقد تكوموا بلا تمييز ، حيث يتماثل الجميع فى مهانة الحاجة والعبن والشقاء . وغالباً ما وجد المفتشون عائلتين فى حجرتين بمنزل واحد ، إنهم جميعا ينامون فى واحدة ، ويستخدمون الأخرى على المشاع كمطبخ وحجرة طعام . وغالبا ما تعيش أكثر من عائلة فى قبو واحد رطب ، والذى كان يتكدس معا ، فى جوه الفاسد ، من إثنى عشر إلى ستة عشر شخصا . وإلى مصادر المرض تلك

---

* « كاى » المدينة المحلية ، ص ٣٢ .

يجب أن يضاف ، إنهم كانوا يحتفظون بالخنازير ، كما كانت توجد أشياء مقززة تثير أشد أنواع الاشمئزاز .

ويجب أن نضيف أن كثيرا من العائلات ، التى لا تحتل غير غرفة واحدة لنفسها ، كانت تستقبل نزلاء مؤقتين أو مقيمين فى تلك الحجرة ، وكان مثل هؤلاء النزلاء المؤقتين ، من كلا الجنسين ، نادرا ما يشاركون الزوجين نفس السرير ، وأنه قد تم الالتقاء طبقا « للتقرير الخاص بالحالة الصحية للطبقة العاملة » بحالة الرجـــل الذى ينام هو وزوجته وأخته غير الشقيقة ، ست مرات فى « مانشستر » ، والمنازل العامة المؤجرة للنزلاء أيضا ، عديدة للغاية ، ويقدر « دكتور كاى » عددها فى عام ۱۸۳۱ بـ ۲۰۷ فى « مانشستر » الأصلية ، وهى لابد قد زادت كثيرا منذ ذلك الحين . وتستقبل كل منها من عشرين إلى ثلاثين ضيفا ، حتى أنها جميعا تأوى من خمسة إلى سبعة آلاف إنسان كل ليلة . ولتلك المنازل وسكانها نفس السمة الموجودة فى البلدان الأخرى . خمسة الى سبعة مراقد دون أسرة فوق الأرض فى كل حجرة ، وعليها ينام أكبر عدد من الأشخاص الواردين دون تميز . اننى لست فى حاجة الى تناول الجو الأخلاقى والصحى الذى يسود تلك الجحور . ان كل من تلك المنازل انما هو بؤرة للجريمة ، انها مسرح للإفعال التى تثور ضدها الطبيعة البشرية ، والتى كان من الممكن الاتقع ، لولا ذلك التركيز الجبرى للخطيئة* .

---

* ب . جاسكل « شعب الصناعة فى إنجلترا : أخلاقياته ، حالته الاجتماعية والصحية ، التغييرات التى نجمت عن استخدام الآلة البخـــارية ، مع بحث تشغيل الأطفال » . « ميات جوستبتا » ، ۱۸۳۳ — يصور أساساً حالة الطبقة العاملة فى « لانكشاير » . المؤلف ليبرالى ، غير أنه كتب عن العمال . وهو بناء على ذلك غير متحامل و،فى وسعه أن يوجه الأنظار إلى شرور الوضع الراهن الامور ، وخاصة لنظام المصنع . ومن الناحية الأخرى ، فقد كتب من قبل « لجنة تحرى المصانع » وتبنى ، عن مصادر غير أهل للثقة تصريحات عديدة نقضها « تقرير اللجنة » . وهذا العمـــل ، رغم أنه عمل قيم بوجه عام ، إلا أنه لا يمكن بالتالى استخدامه إلا بفطنة وإدراك ، خاصة وأن الـكاتب ، مثله فى ذلك مثل « كاى » قد يخلط كل الطبقة العاملة مع المصانع اليدوية . إن تاريخ تطور البروليتاريا والذى ضمن فى مقدمة العمل الحالى ، قد أخذ أساساً من عمل « جاسكل » هذا .

ان « جاسكل » يقدر عدد الأشخاص الذين يعيشون فى الأقبية فى « مانشستر » الأصلية بـ ٢٠,٠٠٠ شخص . وتقدر « الويكلى ديسباتش » عددهم « طبقا للتقارير الرسمية » بنسبة ١٢ ٪ من الطبقه العاملة حينذاك ١٧٥,٠٠٠ من العمال وتشكل الـ ١٢ ٪ منهم ٢١,٠٠٠ من العمال . كما أن عدد قاطنى الأقبية فى الضواحى يناظر على الأقل هذا العدد ، وبالتالى فإن عدد الأشخاص المقيمين فى الأقبية فى « مانشستر » — باستخدام اسمها بمعناه العريض — لا يقل عن أربعين الى خمسين ألفا . انه أكثر بكثير من طاقة مساكن العمال فى أكبر المدن والبلدان .
ان الطريقة التى تشبع بها الحاجة الى ملاذ أو مأوى ، لتؤثث معيارا ، للطريقة التى تقدم بها كل الاحتياجات الأخرى . ان الخاتمة المأمونة الجانب ، وهى الحقيقة أيضا ، انه لا يمكن أن يسكن فى تلك الجحور القذرة الا اناسا رثى الثياب سيئ التغذية . إن ملابس العمال ، فى أغلب الحالات ، فى حاله سيئة للغاية إن المادة المستخدمة فى صنعها ليست ملائمة تمام الملائمة . فالصوف والكتان قد إختفيا تقريبا من خزانه ثياب كلا الجنسين ، وحل القطن محلهما . القمصان مصنوعة من أقمشة قطنية بيضاء أو ملونة . الأردية النسائيه مكونة أساسا من أقمشة قطنية مطبوعة ، ومن النادر رؤية تنورات (ملابس نسائية داخلية) صوفية معلقة على منشر الغسيل . ويرتدى الرجال أساسا سراويل من أقمشة قطنية وبرية ، أو أقمشة قطنية ثقيلة ، وسترات ومعاطف من نفس النوع ، لقد غدت الأقمشة القطنية الوبرية الزى الأمثل للعمال الذين أطلق عليهم « ذوى السترات القطنية الوبرية » ، لقد أطلقوا على أنفسهم ذلك الإسم تميزا لهم عن السادة الذين يرتدون الجوخ ، وتستخدم الكلمات الأخيرة ، كتعبير خاص ، تكنى به الطبقة الوسطى . وعندما قدم « فيرجوس أوكونور » ، القائد الإصلاحى إلى « مانشستر » أثناء تمرد عام ١٨٤٢ ، ظهر ، وسط تصفيق العمال الذى يصم الآذان ، مرتديا بزة من قماش قطنى وبرى . ان القبعات هى غطاء الرأس العام فى انجلترا ، حتى للعمال ، قبعات ذات أشكال شديدة التباين ، مستديرة ، عالية ذات حافة عريضة ، ذات حافة ضيقة ، أو بدون حواف — ان الشباب فقط فى المدن الصناعية ، هم الذين يرتدون القلنسوات . ان كل من لا يملك قبعة ، يطوى لنفسه قلنسوة مربعة رخيصة من الورق .

ان كل ثياب الطبقة العاملة ، حتى لو أدعى أنها فى حالة جيدة ، لا تلائم

الطقس الا قليلا ، ان الهواء الرطب فى انجلترا ، وتغيرات درجة حرارته المفاجئة والذى يعتبر أكثر من غيره سببا فى نزلات البرد هو الذى يجبر الطبقة الوسطى كلها على وجه التقريب ، على ارتداء الأقمشة الصوفية فوق الجلد ، حول الجسد ، كما أن القمصان والأوشحة الصوفية ، تكاد تكون عامة الاستخدام . ان الطبقة العاملة ليست فقط محرومة من هذه الوقاية ، بل انها تكاد تكون فى أى وقت من الأوقات فى وضع يمكنها من استخدام فتلة من ثياب صوفية . ورغم أن الملابس القطنية ، أسمك وأغلظ وأثقل من الثياب الصوفية ، الا أنها تعطى قدرا من الحماية ضد البرد والبلل أقل بكثير، انها تظل رطبة مدة أطول بسبب سمكها وماهية قماشها ، ولأنه ليس فيه شيء من الكثافة المحكمة ، للملابس المصنوعة كلية من الصوف . لو حدث مرة واشترى واحد من العمال لنفسه سترة صوفية ، حتى يرتديها فى أيام الآحاد ، فلا بد له وأن يحصل عليها من أحد الحوانيت الرخيصة ، حيث يجد ثيابا رديئة ، يطلق عليها « تراب الشيطان » ، وهى قد صنعت للبيع لا للاستخدام ، اذ انها معرضة للتمزق أو البلى خلال أسبوعين ، أو عليه أن يشترى من عند تاجر ملابس قديمة ، سترة نصف ملبوسة ، سبق لها ورأت أفضل أيامها ، ولا تدوم إلا أسابيع قليلة . فضلا عن ذلك ، فإن ملابس العمال ، فى غالب الأحوال ، فى حالة سيئة ، وهناك الحاجة المتكررة فى الغالب لوضع أفضل القطع منها فى دكان المرابى . غير أن الملابس الشائعة ، بين عدد كبير منهم ، وخاصة الايرلنديين ، تتكون كلية من خرق ، ليس فى الإمكان إصلاحها فى غالب الاحوال، أو أنها مرقعة ، حتى أنه لم يعد فى الإمكان تبين لونها الأصلى . ومع ذلك فان الانجليز والإنجلو ايرلنديين يداومون على عملية الترقيع تلك ، وقد رفعوا هذا الفن إلى ذروة جديرة بالاعتبار ، إنهم يضعون الصوف أو الخيش على الملابس القطنية الوبرية أو العكس ، فالعملية سواء بالنسبة لهم . وللحقيقة ، فإن المتوطنين الايرلنديين ، نادرا ما يرقعوا ملابسهم ، إلا فى حالة الضرورة القصوى ، عندما تهدد أرديتهم بأن تتساقط مزقا . وعادة ما تبرز خرق القميص من نتوف السترة أو السروال . إنهم يرددون ، كما يقول « توماس كارليل »* :

---

* توماس كارليل « الميثاقية » ، لندن ١٨٤٠ ، ص ٢٨ .

« بزة من ملاهيل ، يمكن القول أن ارتدائها وخلعها يمثل عملية عسرة ، تتم فقط وقت الاحتفالات ومواسم العام الجليلة » .

ولقد أدخل الايرلنديون ، أيضاً ، عادة لم تكن معروفة فى انجلترا من قبل ، ألا وهى التجول بأقدام عارية . ففى كل مدينة صناعية ، يرى الآن عديد من الناس ، وخاصة النساء والأطفال ، يتجولون حفاة الأقدام . ويحتذى أفقر الإنجليز ، بالتدريج ، ذلك المثل .

وينطبق على مسألة الغذاء ، ما جاء فى مسألة الكساء . إن العمال يحصلون على ما لا تريده الطبقة المالكة ، لأنه ردىء بالنسبة لها . وفى المدن الكبرى الانجليزية يمكن الحصول على كل ما هو أفضل ، إلا أن ذلك يكلف مالا ، والعامل الذى عليه أن يحافظ على بيته مفتوحاً ببنسين ، لا يستطيع أن يواجه نفقات كثيرة ، يضاف إلى ذلك أنه يتسلم أجره مساء السبت ، لأنه رغم ما بدىء به من دفع الأجور يوم الجمعة ، فان ذلك الترتيب الرائع ليس عاما على الإطلاق وبالتالى فإن العامل يحضر إلى السوق فى الخامسة أو حتى فى السابعة ، فى حين أن المشترين من الطبقة الوسطى لديهم فرصة الاختيار الأولى أثناء الصباح ، عندما يكون السوق مكتظا بالأفضل من كل شىء ، وبذا فعندما يصل العمال ، يكون الأفضل قد اختفى ، وإن ظل منه شيئاً ، فالأرجح أنه ليس فى مقدورهم شراءه ، لأن البطاطس التى يشتريها العمال هزيلة دائماً ، والخضروات ذابلة ، والجبن قديمة ومن نوع ردىء ، ولحم الخنزير المملح زنخ ، واللحمة عجفاء ، ناشفة ، من أبقار عجوزة ، غالبا مريضة أو ربما ماتت موتا طبيعيا ، وحتى حينذاك فإنها ليست طازجة ، ولكنها فى الغالب فاسدة . والباعة دائما ، من صغار الباعة الجائلين ، الذين يشترون السلع الدنيا ، وهم الذين فى وسعهم أن يبيعوها بسعر رخيص ، بسبب رداءتها . إن أفقر العمال مجبرين على استخدام حيلة أخرى ، للحصول على الأشياء التى يحتاجونها ببنساتهم القليلة . إن شيئا لا يباع يوم الأحد ، وعلى كل المتاجر أن تغلق أبوابها فى الحادية عشر مساء السبت ، وبذا فإن الأشياء التى لا يمكن حفظها حتى يوم الاثنين ، تباع بأى ثمن فيما بين الساعة العاشرة ومنتصف الليل . غير أن تسعة أعشار ما يباع الساعة العاشرة ، لا يصلح للاستخدام فى صباح الأحد ، ومع ذلك فإنها بالتحديد ، الزاد الذى يشكل غذاء

الطبقة الأفقر . فغالباً ما يكون اللحم الذى اشتراه العمال غير صالح للإستعمال ، ولكن ما داموا قد اشتروه ، فعليهم أن يأكلوه . ففى السادس من يناير عام ١٨٤٤ (إذا لم أكن مخطأ خطأ جسيما) انعقدت هيئة المحكمة فى « مانشستر » . عندما حكم بغرامة مالية على أحد عشرة بائع لحم ، لأنهم باعوا لحماً فاسداً . كان لدى كل منهم ثورا أو خنزيرا كاملا ، أو عدد من الاغنام . أو قدرا يتراوح من خمسين إلى ستين رطلا من اللحم ، والتى تم ضبطها جميعا وهى فى حالة فاسدة . وفى إحدى الحالات أمسك بستة وأربعين أوزة محشوة ، من أوز عيد الميلاد ، لم تبع فى « ليفربول » فروجت فى « مانشستر » ، حيث أحضرت إلى السوق وهى عفنة وكريهة الرائحة . وقد نشرت فى حينها ، كل التفاصيل ، والأسماء والغرامات المالية فى جريدة « المانشستر جارديان » . وقد نشرت فى نفس الصفحة ثلاثة حالات مماثلة ، خلال ستة أسابيع ، من أول يوليو حتى الرابع عشر من أغسطس وطبقا لما جاء فى « الجارديان » ، فإنه قد تم القبض على جزارفى « هاى وود » ، لانه قطع وعرض للبيع خنزيرا ميتا عفنا ، كان يزن مائتى رطل . وطبقا لما جاء فى عدد ٣١ يوليو فإنه قد تم توقيع غرامة على جزارين ، كان أحدهما قد أدين من قبل بنفس التهمة ، بمبلغ جنيهين استرلينيين ، وثلاث جنيهات إسترلينية وذلك لعرضهما للبيع لحما فاسدا ، وطبقاً لما جاء فى عدد ١٠ أغسطس فقد تم ضبط ستة وعشرين فخذ خنزير مملح ، عند تاجر فى « بوالتن » حيث تم حرقها علنا ، وغرم التاجر عشرين شلنا . غير أن تلك ، ليست هى كل الحالات ، إنها لا تشكل حتى متوسطا أمينا لفترة ستة أسابيع ، والتى يمكن بناء عليها تكوين المتوسط العام . إذ توجد مواسم كثيرة ، يأتى فى كل عدد من أعداد « الجارديان » شبه الاسبوعية ، ذكر حادثة مماثلة ، وجدت فى « مانشستر » أو فى المناطق المجاورة لها . وعندما يفكر المرء فى الحالات العديدة التى لابد قد أفلتت من الضبط فى الأسواق الواسعة التى تمتد بطول واجهة كل شارع رئيسى ، والتى تقع تحت رقابة مفتشى الأسواق الواهية — وإلا فكيف يمكن للمرء أن يفسر الجرأة التى تطرح بها للبيع حيوانات كاملة ؟ — وعندما يضع المرء فى الاعتبار عظم الاغراء ، بالنظر إلى الغرامات الضئيلة على نحو غير مفهوم كما ذكر فى الحالات السابقة ، وعندما يفكر المرء فى الحال الذى وصلت إليه قطعة من اللحم ، حتى جاء المفتشون لضبطها ، فإنه يستحيل على المرء أن يصدق ، أن العمال يحصلون

على لحم جيد ومغذى ، وباعتبار أن هذا هو الأمر العادى غير أن العمال حتى الآن ، يحتال عليهم ، ويغشهم الشره للمال ، الذى تتصف به الطبقة الوسطى . إن التجار وأصحاب المصانع يغشون كل أنواع المأكولات بطريقة شنيعة ، ودون أدنى التفات إلى صحة المستهلكين ، لقد أصغينا إلى ما تقوله « المانشستر جارديان » حول هذا الموضوع ، دعونا نسمع إلى عضو آخر من أعضاء الطبقة الوسطى - إننى ابتهج بشهادة معارضى - دعونا نسمع « الليفربول ميركيورى » :

« يباع الزبد المغشوش على أنه زبد طازج ، إذ تغطى الأقراص بطبقة من الزبد الطازج ، أو يوضع رطل من الطازج على السطح المذاق ، بينما المغشوش يباع بعد هذا التذوق ، أو تطلى الكتلة كلها وتباع على أنها طازجة . كما يخلط السكر بالأرز المدقوق ، ومواد أخرى رخيصة مغشوشة ، ويباع الكل بالسعر كاملا . كما تخلط أيضاً نفايات منشآت الصابونات ، مع أشياء أخرى وتباع على أنها سكر . وتخلط القهوة المطحونة بالشيكوريا وبعض المواد الرخيصة ، كما تخلط القهوة غير المطحونة بحبوب البن الصناعى . ويغش الكاكاو غالبا بإضافة أتربة بنية اللون ناعمة ، وتعالج ببعض الدسم حتى يمكن أن يلتبس أمرها بسهولة مع الكاكاو الحقيقى . ويخلط الشاى بأوراق الخوخ البرى مع بعض النفايات ، أو تحمص أوراق الشاى المستخدمة فوق صفائح من نحاس ساخن ، حتى تستعيد لونها الطبيعى وتباع على أنها طازجة . ويخلط الفلفل بقشر الجوز المطحون ، ويصنع النبيذ الأحمر مباشرة (بلا كحول ولا مواد صبغية . . إلخ) ، وبينما هو سوء السمعة فإن مايستهلك منه فى إنجلترا وحدها يفوق مايقدم فى البرتغال ، ويخلط الدخان بمواد مقززة ، من كل الأنواع ، وفى كل الصور الممكنة ، التى ينتج فيها الصنف » .

ويمكننى أن أضيف ، أن عدداً من أكثر تجار الدخان إحتراما فى « مانشستر » قد أعلنوا جهاراً فى الصيف الماضى ، أنه لايمكن لأى شركة تجارية ، أن تواصل العمل دون غش ، بسبب الغش السائد فى الدخان ، وأنه لا يمكن أن يكون ثمن أى سيجار مصنوع من الدخان كلية ، أقل من ثلاث بنسات ، إن أعمال الغش والاحتيال تلك ، ليست قاصرة على مواد الغذاء ، رغم أننى قادر على ذكر العشرات من الحالات الأخرى ، كالدناءة التى تتم بخلط الدقيق بالجبس والجير .

إن الغش والاحتيـــال يمارس فى بيع الأشياء من كل نوع — فالفانلات والجوارب .. إلخ . تمط ثم تنكمش بعد أول غسيل ، وتباع الأقمشة الضيقة العرض ، على أنها أعرض من حقيقتها ، بما يتراوح من بوصة ونصف إلى ثلاث بوصات ، والأوانى الفخارية ، مطلية بطبقة ملساء رقيقة إلى حد أنه طلاء لا يصلح لشىء ، وهى تتشقق على الفور ، ومئات أخرى من أعمال السفالة والدناءة تماما كما يحدث فى بلدنا . غير أن العمال هم الذين ينالوا نصيب الأسد ، من النواتج الآثمة لأعمال الغش تلك . الأثرياء يخدعون أقل ، لأنه فى وسعهم أن يدفعوا الأسعار العالية للمتاجر الكبيرة ، التى لها سمعة تخشى عليها ، والتى ستسىء إلى نفسها أكثر مما تسىء إلى زبائنها ، لو أنها إقتنت سلع رديئة أو مغشوشة ، كما أن الاغنياء أيضا مدللين باعتيادهم الطعام الجيد ، وبذا فانهم يكتشفون الفاسد منه بأذواقهم الحساسة فى سهولة أكثر . أما الفقراء ، العمال ، هؤلاء الذين يمثل قلسين بالنسبة لهم شيئا هاما ، هؤلاء الذين عليهم أن يشتروا أشياء كثيرة بنقود قليلة ، هؤلاء الذين لا يقدرون على فحص نوعية ما يشترون عن كثب ، وليس فى إمكانهم أن يفعلوا ذلك فى أية حاله أو ظرف ، حيث لم تتح لهم الفرصة ليهذبوا ذوقهم ، فانهم الذين تقع من نصيبهم كل المؤن الفاسدة والمسممة ، إذ يتوجب عليهم التعامل مع صغار الباعه ، وربما كان عليهم أن يشتروا بالاجل ، وهؤلاء الباعة الصغار الذين ليس فى مقدورهم أن يبيعوا ، حتى نفس النوعية من السلع ، بسعر رخيص مثلما يفعل الباعة الكبار ، وذلك بسبب صغر رأسمالهم والضخامة النسبية لنفقات تجارتهم ، يتوجب عليهم أن يشتروا ، بوعى ، أو بدون وعى ، سلعا فاسدة ، حتى يمكنهم أن يبيعوها بأدنى الاسعار اللازمة ، وحتى يمكنهم منافسة الآخرين . وفوق ذلك ، فان تاجر "قطاعى الكبير ، والذى يستثمر رأسمال واسع فى أعماله ، يتحطم وتتحطم معه سمعته ، إذا تبين مزاولته لأعمال الغش ، لكن ، أى ضرر يلحق ببقال صغير ، تنحصر زبائنه ، فى حدود شارع واحد فقط ، إذا ما ثبتت أعمال الغش عليه ؟ إنه إن فقد ثقة زبائنه فى « آنكوتس » ، فانه ينتقل إلى « كورلتون » أو « هولم » ، حيث لا يعرفه أحد ، وحيث يستمر فى الغش كما كان من قبل ، بينما الغرامات القانونية ، تنصب على عدد محدود من أعمال الغش ، ما لم تشتمل على إحتيال فى الدخل والإيرادات . إن العامل الإنجليزى لا يلاق السلب والاحتيال من النوع وحده ، بل إنه يلقاه بالمثل

فى كم البضائع التى يشتريها . إذ يوجد دائما ، عند التجار الصغار ، أوزان ومكاييل زائفة ، ويمكن قراءة عدد لا يصدقه العقل من الاحكام فى مثل تلك المخالفات من تقارير الشرطة . إن الإقتباس من « المانشستر جارديان » ، يمكن أن يوضح ، إلى أى مدى يسود هذا النوع من الغش فى الاحياء الصناعية . إنه يغطى فقط مرحله قصيرة ، وحتى هنا ، فإننى لا أضع يدى على كل الاعداد :

الجارديان فى ١٦ يونيو ١٨٤٤ ، « جلسات روكديل » — تغريم أربعه باعه من خمس إلى عشر شلنات لإستخدامهم أوزان خفيفه . « دورات ستوكبورت » تغريم بائعين شلن واحد ، أحدهما بسبب وجود سبعه موازين خفيفه وميزان زائف لديه ، وقد حذر كلاهما .

الجارديان فى ١٩ يونيو « جلسات روكديل » - تغريم بائع خمسه شلنات ، ومزارعين عشرة شلنات .

الجارديان فى ٢٦ يونيو « جلسات آشتون » — تغريم أربعه عشر بائعا ومزارعا من شلنين وست بنسات إلى جنيه واحد . « جلسات هايد بتى » - حكم على تسع بائعين ومزارعين بدفع النفقات ، وغرامات قدرها خمس شلنات .

الجارديان فى ٩ يوليو « مانشستر » - حكم على سته عشر بائعا بدفع النفقات وغرامات لا تزيد عن عشرة شلنات .

الجارديان فى ١٣ يوليو « مانشستر » — تغريم تسع باعه من شلنين وسته بنسات إلى عشرين شلنا .

الجارديان فى ٢٤ يوليو « روكديل » — تغريم أربعه باعة من عشر إلى عشرين شلنا .

الجارديان فى ٢٧ يوليو « بولتون » — حكم على إثنى عشر بائعا وصاحب فندق بدفع النفقات .

الجارديان فى ٣ أغسطس « بولتون » — تغريم ثلاث بائعين شلنين وسته بنسات ، وخمس شلنات .

الجارديان فى ١٠ أغسطس « بولتون » — تغريم بائع واحد خمس شلنات.

إن نفس الأسباب ، التى جعلت من الطبقة العاملة ، المكابدين الأساسين من أعمال غش نوعية السلع ، قد جعلتهم الضحايا الدائمين لأعمال الغش فى مسألة الكمية أيضاً .

إن الغذاء المعتاد للعامل الفرد ، يختلف بالطبع طبقاً لراتبه . إن العمال الذين ينالون أجرا أفضل من غيرهم ، وخاصة هؤلاء اللذين فى وسع كل فرد من أفراد أسرهم أن يتكسب شيئا ما ، يحصلون على غذاء طيب لمدة تطول بدوام هذه الحالة ، اللحم يوميا ، ولحم الخنزير اسبوعيا ، وتزداد كميات الخبز والبطاطس . وإذا انحدرنا بالتدريج ، فإننا نجد أن الغذاء الحيوانى قد تناقص إلى قطعة صغيرة من لحم الخنزير ، مقطعة إلى قطع أصغر ومخلوطة مع البطاطس ، وإذا استمر الهبوط ، إختفت تلك القطعة أيضاً ، ويبقى الخبز وحده مع الجبن والحساء والبطاطس ، حتى إذا وصلنا إلى أدنى السلم بين الايرلنديين ، وجدنا أن البطاطس تشكل الغذاء الوحيد . ويصاحب الغذاء عادة شاى خفيف ، وربما به قليل من السكر واللبن أو المشروبات الروحية . والشاى فى انجلترا ، وكذا فى أيرلنده ، كالقهوة فى المانيا ، شىء لا يمكن الاستغنـــاء عنه . وحينما يختفى الشاى من الاستخدام ، فإن الفقر المر هو الذى يكون سائداً حينذاك . غير أن كل هذا يفترض مسبقاً ، أن يكون لدى العامل عملا ، فإن لم يكن لديه ما يعمله البته ، فهو حينئذ يقع بالكامل تحت رحمه الصدفة ، إنه يأكل ما يعطى له ، ما يستطيع أن يستجديه أو يسرقه . فإن لم يجد أى شىء ، فهو فى بساطة ، يتضور جوعا كما رأينا . إن كمية الطعام تتفاوت بالطبع ، مثلما تتفاوت فى النوع ، طبقاً لمعدل الأجور ، حتى أن الجوع يسود بين العمال ذوى الأجر الهزيل ، رغم إتصال العمل وانتظامه ، ورغم عدم كبر عدد أفراد الأسرة ، إن عدد هؤلاء الهزيلى الأجر الكبير للغاية . إن هذه الطبقة عديدة للغاية ، خاصة فى لندن ، حيث ترتفع المنافسة بين العمال بسبب إزدياد عدد السكان ، غير أن نفس الحالة قائمة أيضا ، فى مدن أخرى . وفى مثل تلك الحالات ، تستخدم كل أنواع الحيل ، إن الحاجة إلى الطعام تدفع إلى أكل قشر البطاطس ونفايات الخضروات ،

والخضروات العطنه* ، وإلى جمع كل ما يحتمل أن يحتوى ذرة واحدة من غذاء ، فى نهم وشراهة . وإن استنفدت أجور الأسبوع قبل نهايته ، فغالباً ما تجد العائلة لنفسها فى أواخر أيامه ، من القوت ، إن وجد ، ما يكفى بالكاد فقط للحفاظ عليها من التضور جوعا . وبالطبع فإن مثل هذه الطريقة من الحياه ، تولد عديدا من الأمراض التى لا مفر منها . وعندما تظهر تلك الأمراض ، فإن الأب ، ذلك الذى تعتمد الأسرة أساسا على عمله ، والذى يحتاج بشدة إلى التغذية وبسبب مايعانيه من إجهاد بدنى ، يكون أول من يستسلم . وعندما يعجز الأب كلية ، فإن الشقاء يبلغ ذروته ، وحينئذ ، تكشف بالكامل عن نفسها ، تلك الوحشية التى يتخلى بها المجتمع عن أعضائه ، فى لحظة حاجتهم الشديدة .

ولإجمال الحقائق التى سبق ذكرها فى إيجاز ، فإن المدن الكبرى مسكونة بالعمال أساساً ، حيث يوجد فى أحسن الأحوال بورجوازى واحد مقابل كل عاملين ، وغالبا ما يكون مقابل ثلاثه ، وهنا وهناك مقابل أربعة ، ولا يحوز هؤلاء العمال اية ملكية خاصة بهم على أى صورة من الصور ، إنهم يعيشون كلية على الأجور ، والتى تذهب دائما من اليد إلى الفم . والمجتمع الذى يتكون بصورة كلية من جزئيات ، لا يدر خاطره من أجلهم ، إنه يتركهم يرعون أنفسهم وأسرهم ، لكنه لا يمدهم بالوسائل التى تمكنهم من ذلك بطريقة فعالة ودائمة . وبالتالى فإن كل عامل ، حتى أفضلهم حالا ، معرض لأن يفقد العمل والطعام ، معرض لأن يموت جوعا ، وكثيرون هم الذين يهلكون على هذا النحو . إن مساكن العمال فى كل مكان سيئة التخطيط ، رديئة البنيان ، رديئة التهوية ، رطبة وضارة بالصحة ، وهى مستبقاة على أسوأ حال . السكان محصورين فى أصغر مساحة ممكنة ، وكل حجرة تشغلها على الأقل عائلة واحدة . إن النظام الداخلى للمساكن مصاب بشتى درجات الفقر ، وصولا إلى الافتقار الكلى لأشد الأثاثات ضرورة . أما ملابس العمال فهى عادة غير كافيه ، أما ملابس الكثرة فليست غير هلاهيل . الغذاء بشكل عام ردىء ، وفى الغالب الأعم لا يصلح للاستعمال ، كميته عادة ، أو على الأقل فى بعض الأوقات ، غير كافية ، حتى أن

(*) ويكلى ديسباتش فى أبريل أو مايو عام ١٨٤٤ ، طبقاً لما جاء فى تقرير أعده دكتور « سوثوود سميث » عن حالة الفقراء فى لندن (ملحوظة من الطبعة الألمانية) .

الحالات الحادة تؤدى إلى الموت جوعا . وهكذا فإن الطبقة العاملة فى المدن الكبرى ، تقدم معياراً لظروف الحياة ، وهذا المعيار المتدرج فى أفضل الحالات هو وجود عمل مؤقت محتمل وشاق وأجوره جيده ، أى أنه من وجهة نظر العمال ، جيد ومحتمل ، وهو فى أسوأ الحالات ، حاجة مرة تبلغ حد التشرد والموت جوعا . أما الحالات المتوسطة فهى أقرب كثيراً إلى الحالة السيئة منها إلى الحالة الأفضل . وهذا التتابع لا يخص قطاعات ثابتة ، حتى أنه لا يسع المرء أن يقول ، هذا الجزء من الطبقة موفق فى عمله ، كان دائما هكذا ، وسيظل كذلك . وإن كانت الحالة هكذا هنا وهناك ، إن كان لفروع منفردة من العمل عامة ، ميزة على الفروع الأخرى ، فان حالة العمال فى كل فرع معرضة لتقلبات شديدة ، حتى أن عاملا واحداً يمكن أن يمر بالسلسلة كلها ، من الراحة النسبية إلى الحاجة القصوى حتى الموت جوعا ، بينما يمكن لكل عامل إنجليزى فى غالب الأحوال ، أن يروى حدوته عما أصاب حظه من تغييرات واضحة . دعونا ، إلى حد ما ، نفحص أسباب هذا بطريقة أكثر قربا .

المنافســـة

لقد رأينا فى المقدمة ، كيف أن المنافسة قد خلقت البروليتاريا منذ البداية الأولى للحركة الصناعية ، وذلك بزيادة أجور النساجين ، نتيجة الطلب المتزايد على السلع الصوفية ، وبذا أغرى الفلاحون النساجون بهجرة مزارعهم ، وكسب مزيد من النقود ، وذلك بتكريس أنفسهم لمناسجهم . لقد رأينا كيف أنها أزاحت المزارعين الصغار عن طريق نظام المزارع الكبيرة ، ثم نزلت بهم إلى صفوف البروليتاريا ، وجذبتهم جزئيا إلى المدن ، وكيف أنها حطمت ، فيما بعد ذلك ، البورجوازية الصغيرة ، إلى حد كبير ، ونزلت بأفرادها إلى مراتب البروليتاريا أيضا ، كيف أنها ركزت رأس المال فى أيدى القلة ، والسكان فى المدن الكبرى ، تلك هى السبل والوسائل التى خلقت المنافسة بواسطتها — عندما بلغت دلالتها الكاملة وتطورها الحر فى الصناعة الحديثة — البروليتاريا ومددتها . إننا سنرصد الآن تأثيرها على الطبقة العاملة التى خلقت بالفعل . وهنا يجب علينا أن نبدأ ، بمتابعة نتائج منافسة عمال افراد مع بعضهم البعض .

المنافسة هى التعبير الاكمل عن معركة الكل ضد الكل ، وهى التى تتحكم فى المجتمعات المدنية الحديثة . إن هذه المعركة ، إنما هى معركة من اجل الحياة ، من اجل الوجود ، من اجل كل شىء ، وإن املت الضرورة ، فهى معركة حياة وموت . إن قتالها لا يكون قاصرا فقط فيما بين طبقات المجتمع المختلفة ، لكن يقوم ايضا بين الاعضاء الافراد لهذه الطبقات . إن كلا منهم يقف فى طريق الآخر . وكلا منهم يسعى لإزاحة كل الذين يقفون فى طريقه كى يضع نفسه علهم . إن العمال فى حالة منافسة دائمة فيما بينهم ، شأنهم فى ذلك شأن افراد

البورجوازية فيما بينهم . إن نساج المنساج الآلى ، ينافس نساج المنساج اليدوى ونساج المنساج اليدوى العاطل أو محدود الأجر ينافس ذلك الذى يعمل ، أو الذى يحصل على أجر أفضل ، كل يحاول إزاحة الآخر والحلول محله . غير أن هذه المنافسة الجارية فيما بين العمال وبعضهم البعض ، هى أسوأ ما فى الأوضاع الراهنة ، من زاوية تأثيرها على العامل ، إنها أحد سلاح فى يد البورجوازية ضد البروليتاريا . ومن هنا كان جهد العمال لإحباط هذه المنافسة بتكوين الجمعيات ، ومن هنا كانت الكراهية التى تكنها البورجوازية تجاه تلك الاتحادات وإبتهاجها قصراً لكل هزيمة تحل بها .

البروليتارى عاجز إن ترك لذاته ، إنه لا يستطيع الحياة يوماً واحداً . لقد حققت البورجوازية إحتكاراً لكل سبل الوجود ، بأوسع ماتعنيه هذه الكلمة من معنى . إن مايحتاجه البروليتارى، لا يمكنه الحصول عليه إلا من البورجوازية ، التى تحمى سلطة الدولة احتكارها . وبناء على ذلك ، فالبروليتارى قانوناً وبحكم الواقع ، عبد البورجوازية، التى فى مقدورها أن تحكم حياته أو تقتله . إنها تقدم له سبل الحياة ، لكن فقط نظير عمله . إنها تتركه يبدو كأنه يتصرف من منطلق إختيار حر ، يبرم عقداً بحرية ، يوافق دون إكراه ، وكأنه عميل مسئول بلغ سن الرشد والإدراك .

حرية بارعة ، حيث لا يوجد أمام البروليتارى من إختيار غير تقبل الشروط التى تقدمها له البورجوازية ، أو التضور جوعا ، والتجمد حتى الموت ، والنوم عاريا وسط وحوش الغابات ! نظير بارع متميم طبقاً لمشيئة البورجوازية ! وإن وجد البروليتارى الأحمق ، الذى يتقبل التضور جوعا ، بدلا من الموافقة على العروض العادلة للبورجوازية « سيدته الطبيعية »* ، فإنه من السهولة بمكان ، العثور على غيره ليأخذ مكانه ، ففى العالم ما يكفى من البروليتاريين ، وهم ليسوا جميعاً مجانين إلى حد تفضيل الموت على الحياة .

لدينا هنا منافسة العمال بعضهم البعض . إذ لو أعلن كل البروليتاريين إصرارهم على التضور جوعا بدلا من العمل لحساب البورجوازية ، فإن الأخيرة لابد وأن

* تعبير مستحب عند أصحاب المصانع الانجليز (ملحوظة فى الطبعة الانجليزية) .

تتنازل عن إحتكارها . إلا أن المسألة ليست كذلك — وهي في الحتمية مسألة مستحيلة إلى حد ما — حتى أن البورجوازية مازالت مفادحة . إن هذه المنافسة بين العمال ليس لها إلا حد واحد ، وهو ألا يعمل عامل بأقل مما يحتاجه للبقاء . فإن كان عليه أن يتضور جوعا ، فالأفضل له أن يتضور جوعا وهو عاطل عن أن يقع له ذلك وهو كادح . حقاً إن هذا الحد نسبي ، فإن فردا ما يحتاج أكثر مما يحتاج الآخر . فالإنجليزي ، والذي ما يزال متحضرا بعض الشيء ، يحتاج أكثر من الايرلندي الذي يرتدي الاسمال ، ويأكل البطاطس وينام في زريبة خنازير . غير أن ذلك لا يمنع منافسة الايرلندي للإنجليزي، وإجبار معدل الأجور، ومعه المستوى الحضاري للإنجليزي ، إلى الانخفاض التدريجي إلى مستوى الايرلندي . إن بعض أنواع العمل يحتاج إلى درجة « معينة » من التحضر، وإلى هذه الأنواع من العمل تنتمي كل أشكال المهن الصناعية ، وبالتالي، فإن مصلحة البورجوازية تقتضي في مثل تلك الأحوال ، أن تكون الأجور عالية بالقدر الذي يمكن العامل من المحافظة على نفسه عند المستوى المطلوب .

إن الأيرلندي المهاجر حديثاً ، والذي يحط رحاله في أول اسطبل يلقاه ، أو يلقى به إلى قارعة الطريق بعد أسبوع واحد ، حيث سينفق كل شيء على الشراب، ويعجز عن دفع قيمة الإيجار ، هذا الأيرلندي المهاجر سيكون يداً صناعية فقيرة وبناء على ذلك فإن تلك اليد الصانعة يجب أن تنال من الأجر، مايكفي فقط، لتمكينها من تقديم أبنائها إلى العمل المنتظم وليس أكثر من ذلك ، وإلا ففي وسع هذا الأيرلندي أن يواصل الحياة دون حاجة للإعتماد على أجور أبنائه ، وبالتالي يكون في وسعه أن يصنع منهم شيئاً غير العمال . هنا أيضاً ، أقصى وأدنى أجر ، أمر نسبي . إذ عندما يعمل كل فرد من أفراد الأسرة ، فإن تقدم العامل الفرد يكون بنسبة أقل ، وتعمل البورجوازية على جعل فرص تشغيل النساء والأطفال التي يتيحها العمل الصناعي مربحة . ليس متاحا لكل أسرة بالطبع ، أن يعمل كل أفرادها ، ويصبح من هم في وضع مخالف لذلك في حالة سيئة ، إن هم اضطروا للإستمرار بهذا الحد الأدنى من الأجر والمتاح لعائلة عاملة بكاملها . وبالتالي ، فإن الأجور العادية تشكل معدلا تستمر العائلة التي يعمل كل أفرادها طبقاً له ، في وضع حسن إلى حد ما ، أما العائلة التي تضم عدداً قليلا من القادرين على العمل فإنها تستمر في وضع سيء إلى حد ما . غير أن كل عامل ، في أسوأ الأحوال

يفضل التخلى عن الجزئيات المترفة التى كان معتاداً عليها ، عن ألا يعيش على الإطلاق ، يفضل حظيرة الخنازير ، عن مأوى بلا سقف ، يفضل إرتداء الاسمال عن السير عار بلا لباس ، يفضل أن يقتصر طعامه على البطاطس عن أن يتضور جوعا . إنه يقنع نفسه بنصف أجر وأمل فى أزمان أفضل ، عن أن يلقى به إلى الشارع ليهلك أمام أنظار العالم ، كما فعل الكثيرون ، الذين لم يكن لديهم أى عمل كان . وبناء عليه ، فإن هذه الجزئية ، هذا الشىء الذى لايزيد عن لا شىء ، إنما هو أدنى الأجور . وإن حدث وكان هنالك عمال متوفرين فى متناول اليد ، أكثر مما يلزم تشغيلهم كما تعتقد البورجوازية ، وإذ بقى فى نهاية معركة المنافسة ، عمالا لايجدون ما يعملونه ، فما عليهم ببساطة إلا أن يتضوروا جوعا ، فالبورجوازى لا يحتمل إعطائهم عملا ، إن لم يكن فى مقدوره أن يبيع ناتج عملهم ، بيعاً مربحاً .

من هذه الناحية يتضح ماهى أدنى الأجور . أما أقصى الأجـــور ، فإن ما يحددها ، هو المنافسة فيما بين البورجوازيين وبعضهم البعض . لأنهم يجب ، كما رأينا ، أن يتنافس كل منهم الآخر أيضاً . فالبورجوازى يستطيع تنمية رأسماله فقط من خلال التجارة والصناعة ، وفى كلا الحالين هو محتاج إلى العمال . وحتى فى حالة إستثماره لرأسماله بالفائدة ، فإنه محتاج لهم بطريق غير مباشر ، لأنه بدون صناعة أو تجارة ، لن يدفع أحد له فائدة عن رأسماله ، لأن أحداً لن يكون فى وسعه إستخدام هذا الرأسمال . لذا فإن البورجوازى بالتأكيد ، فى حاجة إلى العمال ، حتا هذه الحاجة ليست حاجة خاصة بحياته المباشرة ، حيث فى وسعه عند الحاجة أن يستهلك رأسماله ، لكنه محتاج إليهم كما نحتاج نحن إلى أداة تجارية ، أو إلى دابة من دواب الحمل — إنه يحتاج إليهم كوسيلة للربح . إن البروليتاريا تنتج السلع التى يبيعها البورجوازى فيحقق فائدة . ولذا فعندما يزيد الطلب على تلك السلع ، يوظف كل العمال المتنافسين ، بل ربما كان المزيد منهم أمراً يعود بالفائدة ، وهنا تتهاوى المنافسة بين العمال ، ويبدأ البورجوازيون أنفسهم منافسة بعضهم البعض . إن البورجوازى وهو يبحث عن العمال ، يعرف جيداً أن ربحه يزداد بارتفاع الأسعار ، نتيجة تزايد الطلب على سلعه ، فيزيد من أجور العمال زيادة طفيفة ، بدلا من إفلات كل الربح منه . إنه يرسل الزبد ليحضر الجبن . فإن حصل على الأخير ، ترك الزبد عن طيب خاطر للعمال . وهكذا يطارد رأسمالى بعد رأسمالى آخر العمال ، وترتفع الأجور ، ولكن إلى الحد الذى تسمح به زيادة

الطلب فقط . ولو حدث أن واحداً من الرأسماليين ضحى راغباً بجزء من ربحه غير العادى ، فوقع فى خطر التضحية بأى جزء من معدل ربحه العادى ، فإنه يحتاط بشدة حتى لا يدفع أزيد من معدل الأجور .

من هذا يمكننا تحديد معدل سرعة الأجور . ففى ظل الأحوال المتوسطة ، عندما لا يكون لدى العمال والرأسماليين سبباً للمنافسة ، وخاصة فيما بينهم ، عندما يكون هناك تقريباً ، العدد الكافى من العمال ، الموجودين فى متناول اليد ، والذين يمكن تشغيلهم فى إنتاج السلع المطلوبة بالضبط ، فإن الأجور تقف فوق مستوى أدنى الأجور بقليل . ويتوقف المدى الذى يمكن أن ترتفعه عن أدنى الأجور ، على معدل الاحتياجات ، ودرجة تحضر العمال . فإن كان العمال معتادين أكل اللحم عدة مرات فى الأسبوع ، فعلى الرأسماليين أن يعدوا أنفسهم لدفع مرتبات تجعل هذا الطعام شيئاً يمكن الحصول عليه ، وليس أقل من ذلك ، لأن العمال لا ينافسون بعضهم البعض وليس لديهم من باعث يقنعهم بذلك الأقل ، كما أنه لن يكون أكثر من ذلك ، لأن الرأسماليين ، فى غياب المنافسة فيما بينهم ، ليس لديهم الباعث على جذب العمال ، بإعطاء هبات غير عادية .

إن معيار معدل الإحتياجات ، ومعدل تحضر العمال، قد غدا معقداً للغاية، بسبب تعقيدات الصناعة الإنجليزية ، وهو مختلف ، تبعاً لاختلاف أنواع العمال كما أشرنا آنفاً . إن معظم المهن الصناعية تحتاج إلى مهارة ونظام خاصين ، ومن أجل تلك الصفات التى تنطوى على درجة معينة من التحضر ، فإن معدل الأجور يجب أن يكون على نحو يغرى العامل باكتساب مثل تلك المهارة ، وأن يخضع نفسه لمثل ذلك النظام . ومن هنا ، فإن معدل أجور العمال الصناعيين أعلى من هؤلاء الذين يعملون فقط ، شياليين أو عمال باليومية ... الخ ، أعلى بوجه خاص من أجور العمال الزراعيين . إنها حقيقة تسهم فيها ، إلى حد ما ، التكلفة الإضافية لاحتياجات الحياة فى المدن . وفى كلمات أخرى ، فإن العامل ، قانوناً وفى الواقع ، عبد للطبقة القابضة على زمام الملكية ، إنه بصورة حاسمة ، عبد يباع مثل قطعة من بضاعة ، ترتفع قيمته وتنخفض مثل السلع . فإن زاد الطلب على العمال ، إرتفع سعر العمال ، وإن هبط ، هبطت أسعارهم ، وإن هبط إلى حد كبير ، وصار عدد منهم دون بيع ، لو تركوا كمخزون من البضاعة ، فإنهم ببساطة يتركون للبطالة ،

وبما أنهم لا يقدرون على الحياة، إعتماداً على ذلك الوضع، فإنهم يموتون جوعاً. لأننا، إن تحدثنا بلسان الإقتصاديين، فإن النفقـــة المتكبدة اصياناتهم، لن «تستعاد». إنها نقود مهدرة، وليس هنالك من رجل يقدم رأسماله، ليصل إلى تلك النهاية، وإلى هنا، فإن نظرية «مالتس» عن السكان كانت صائبة تماماً. الفرق الوحيد، إن قورنت بالنظرية القديمة للعبودية الصريحة، أن عامل اليوم يبدو حراً، لأنه لا يباع دفعة واحدة، لكنه يباع قطعة فقطعة، أثناء اليوم والأسبوع والعام. وحيث لا يوجد مالك واحد يبيعه إلى مالك آخر، فإنه مجبر على أن يبيع نفسه بهذه الطريقة البديلة، إنه ليس عبداً لشخص بذاته، لكنه عبد للطبقة القابضة على زمام الملكية كلها. الأمر بالنسبة إليه، ثبات في القاع، وإن كان هذا المظهر في الحرية يمنحه بالضرورة بعضاً من الاستقلال من ناحية، فإنه في الناحية الأخرى يسبب له الضرر، لأن أحداً لا يضمن له وجوده، إنه في خطر أن تتنكر له سيدته البورجوازية في أي وقت، ويترك للموت جوعاً، إن لم تجد البورجوازية منفعة لها في استخدامه ووجوده. والبورجوازية من ناحية أخرى، أفضل حالاً إلى حد بعيد في ظل النظام الحالي عنه في ظل النظام العبودي القديم، ففي وسعها أن تفصل باختيارها العاملين لديها، دون التضحية برأسمال المستثمر، وتنجز عملها بطريقة أرخص بكثير مما لو كان العمل عبودياً، كما أشار إلى ذلك «آدم سميث» مواسياً(*).

ومن ثم، فإن «آدم سميث» بناء على ذلك، كان مصيباً تماماً في تصريحه :-

«إن الطلب على الرجال، يشابه ذلك الذي على أي سلعة أخرى، إنه ينظم

(*) «آدم سميث» «ثروة الأمم» طبعة ١. ماك كولوك، في مجلد واحد، قسم ٨، صفحة ٣٦. «لقد قيل، إن استهلاك العبد، إنما يتم على حساب سيده، ولكن استهلاك الخادم الحر، يتم على حسابه الخاص. إن استهلاك الأخير في الحقيقة، إنما يتم على حساب سيده بنفس القدر الذي كان عليه السيد السابق. أن الأجور التي تدفع إلى العاملين باليومية والخدم من كل نوع، يجب أن تكون بالقدر الذي يمكنهم من استمرار سلالة إجراء المياومة والخدم طبقاً لاحتياج المجتمع بالزيادة أو النقصان، أو وجود حالة من السكون. ورغم أن استهلاك الخادم سيكون بالمثل على حساب سيده، إلا أنه بشكل عام، يكلفه أقل بكثير من تكلفة العبد، إن المال المخصص لاستبدال أو ترميم استهلاك العبد، أن جاز لي القول، إنما هو مال يديره عادة، سيد مهمل أو ملاحظ لا مبالي».

بالضرورة إنتاج الرجال ، إنه يستعجله إن مضى فى بطىء شديد ، ويوقفه إن تقدم فى سرعة شديدة » .

تماماً ، كما الأمر فى حالة أية سلعة أخرى ! إذ لو كان هنالك عدد قليل جداً من العمال فى متناول اليد ، فإن الأسعار والأجور ترتفع ، ويغدو العمال أكثر يسراً ، فتتكاثر الزيجات ، ويولد المزيد من الأطفال ، ويزداد نمو الحياة ، حتى يضمن عدد كاف من العمال . وإن كان هنالك الكثير جداً منهم فى متناول اليد » فإن الأسعار تهبط ، وترتفع الحاجة للعمل ، والفقر والمجاعة والأمراض التى تلى ذلك ، ويزاح من الطريق « فائض السكان » . ويكون « مالتس » الذى حمل رأى « سميث » سالف الذكر إلى مدى أبعد ، على صواب أيضاً — على طريقته — فى إعلان إن هنالك على الدوام فائضاً فى السكان ، بأن هنالك على الدوام أناساً كثيرين جداً فى العالم . لقد كان مخطئاً فقط ، عندما صرح بأن هنالك فى متناول اليد ، أناساً أكثر مما يمكن الإبقاء عليهم بوسائل الوجود المتاحة . إن فائض السكان قد وجد ، بسبب منافسة العمال لبعضهم البعض ، تلك المنافسة التى تفرض على كل عامل بمفرده ، أن يعمل يومياً بأقصى ما يمكن أن تسمح به قوته . إذ لو كان فى وسع صاحب مصنع أن يشغل عشرة أيدى تسع ساعات فى اليوم ، ففى وسعه أن يشغل تسع عمال إذا اشتغل كل واحد منهم عشر ساعات ، وبذا يمضى العاشر جائعاً . وإذا استطاع صاحب المصنع أن يجبر التسع عمال على العمل يومياً ساعة إضافية بنفس الأجر ، وذلك بتهديدهم بالفصل فى وقت لا يوجد فيه طلب كبير على الأيدى العاملة ، فإنه سيطرد اليد العاشرة ، وبذا يوفر كثيراً من الأجور ، تلك هى العملية على نطاق ضيق ، وهى التى تمارس فى الأمة على نطاق واسع . إن إرتفاع إنتاجية كل يد إلى أعلى قد يسبب منافسة العمال لبعضهم البعض ، وتقسيم العمل ، وإدخال الآلة ، وتطويع قوى الطبيعة ، قد حرم العديد من العمال من الخبز . ثم يزاح هؤلاء العمال الجوعى من السوق . إنهم لا يستطيعون شراء أى شىء ، ولم تعد تطلب كمية السلع الإستهلاكية التى كانوا يحتاجونها من قبل ، وبالتالى لم تعد هنالك حاجة لإنتاجها ، وحينئذ يطرد العمال الذين كانوا يعملون فى إنتاجها ، وكذا يزاحون من السوق أيضاً . هكذا تسير الأمور ، دائماً نفس الدورة القديمة ، أو أنها بالأحرى تسير هكذا ما لم تتداخل عوامل أخرى .

إن إدخال القوى الصناعية التى أشرنا إليها من قبل لزيادة الإنتاج ، تؤدى مع مجرى الزمن ، إلى انخفاض أسعار السلع المنتجة ، وبالتالى إلى زيادة الاستهلاك ، وبذا فإن جزءاً كبيراً من العمال المشردين ، يجد بعد طول معاناة ، عملا مرة أخرى . وإن حدث بالإضافة إلى ذلك ، أن عملية قهر الأسواق على نحو دائم وسريع ، قد أدى إلى زيادة الطلب على السلع المصنوعة ، كما كان الحال فى انجلترا خلال الستين عاماً الماضية ، فإن الطلب على الأيدى العاملة يزداد ، كما يزداد السكان فى تناسب مع ذلك . وبذا بدلا من التناقص فى عدد سكان الإمبراطورية البريطانية فإن العدد قد إزداد ، وبسرعة غير عادية . ومع ذلك ، ورغم إتساع الصناعة ورغم إزدياد الطلب على العمال بشكل عام ، فإنه يوجد طبقاً لاعتراف كل الأحزاب السياسية الرسمية (حزب المحافظين ، حزب الأحرار ، والراديكاليين) فائضاً دائماً أزيد من حاجة السكان ، ذلك إن المنافسة بين العمال أشد دوماً ، من المنافسة لتأمين العمال .

من أين يأتى عدم التطابق هذا ؟ إنه يكمن فى طبيعة المنافسة الصناعية ، والأزمات التجارية التى تنبع منها . ففى ظل الإنتاج الحالى غير المنظم ، وتوزيع ضرورات العيش بطريقة غير منظمة ، وهى لا تنتج مباشرة من استهداف الحرص على سد الاحتياجات ، ولكن من استهداف الربح ، فى ظل نظام يعمل كل من فيه من أجل نفسه بهدف إثراء نفسه ، فإن الإضطرابات التى لا مفر عنها تنشأ فى كل لحظة . مثلا ، تقوم انجلترا بمد عدد من البلدان بأكثر السلع تبايناً ، ورغم أن رجل الصناعة يعرف كم يستهلك سنوياً من كل سلعة فى كل بلد ، فإنه لا يستطيع معرفة ما هو موجود تحت يده فى كل لحظة معينة ، بل والذى يعرفه أقل من ذلك ، هو الكمية التى يصدرها منافسوه إلى هناك . إنه قادر فقط على إستنتاج إستدلالات بعيدة عن اليقين إلى حد كبير ، من خلال تقلبات الأسعار التى لا تنتهى ، بسبب الكميات الموجودة تحت يده ، واحتياجات اللحظة . يجب أن يركن إلى الحظ عند تصدير سلعة ما . كل شىء يتم بطريقة عشوائية ، عمل قائم على التخمين وتحت رحمة الصدفة على وجه التقريب . إن كل يصدر قدر ما يستطيع عند ورود تقرير موات إلى حد ما ، وقبل مضى كثير وقت يكون مثل هذا السوق قد اكتظ ، فتتقف المبيعات ، ويظل رأس المال خاملا ، وتهبط الأسعار ،

ولا يصبح لدى الصناعة البريطانية مزيداً من التشغيل لأيديها العاملة . كانت تلك الصدمات قاصرة فى بداية التطور الصناعى على فروع منفردة وأسواق منفردة ، إلا أن الميل إلى مركزة المنافسة ، والذى يدفع بالأيدى المطرودة من فرع ما إلى بعض الفروع الأخرى التى يمكن الإنتقال إليها فى سهولة أكبر ، وتنقل السلع التى لا يستطاع تصريفها فى سوق ما إلى أسواق أخرى ، قد قرب الأزمات الثانوية المنفردة من بعضها البعض بالتدريج ، ووحدها فى أزمة واحدة دورية متكررة . إن مثل تلك الأزمة ، تتكرر مرة كل خمس سنوات ، بعد مرحلة قصيرة من النشاط والإزدهار العام ، ويكتظ السوق الوطنى ، مثله فى ذلك مثل كل الأسواق الأجنبية ، بالبضائع الانجليزية التى لا يمكن امتصاصها إلا فى بطء فقط ، وتصل الحركة الصناعية إلى ركود فى كل فرع تقريباً ، ويسقط أصحاب المصانع والتجار الصغار ، الذين لا يستطيعون امتداد تجمد رأسمالهم المستثمر ، ويعطل الكبار منهم أعمالهم أثناء أسوأ موسم ، إنهم يغلقون مصانعهم ، أو يعملون وقتاً قصيراً ، ربما نصف يوم ، وتهبط الأجور بسبب منافسة المتعطلين وإنقاص وقت العمل وانتقاد المبيعات المربحة ، وتصبح الحاجة عامة بين العمال ، وتستهلك فى سرعة المدخرات المحدودة التى كونها الأفراد ، وتتحمل المؤسسات الخيرية فوق طاقتها ، وتتضاعف معدلات الفقراء مثنى وثلاثة ، والعدد ما يزال غير كاف ، ويزداد عدد اللذين يتضورون جوعا ، ويضغط الحشد الكلى « لفائض » السكان فى أعداد مخيفة ليبرز إلى مقدمة الصورة . وتستمر هذه الحالة لفترة ما ، ويظل هذا « الفائض » قدر ما يستطيع أو يهلك . وتساعد الأعمال الخيرية و « قانون الفقراء » على إطالة البقاء المؤلم للكثيرين منهم . ويجد آخرون وسائل محدودة للعيش هنا وهناك ، فى بعض أنواع العمل المطروحة للمنافسة فى أدنى صورها ، وهى الأكثر بعداً عن الصناعة ، أى قدر زهيد يمكن أن يحافظ به الإنسان ، لزمن ما ، على الجسد والروح معاً ! ثم تتحسن الأحوال بالتدريج ، وتستهلك أكداس السلع ، ويحول الكساد العام بين رجال التجارة والصناعة من إشباع الأسواق بسرعة شديدة . وأخيراً تبدأ الأسعار فى الصعود ، ويتجدد النشاط بوصول تقارير موانية من كل الجهات . إن معظم الأسواق بعيدة ، وهى تطلب المزيد ، وترتفع الأسعار بثبات بينما تصل الصادرات الأولى ، ويتقاتل الناس من أجل السلع الأولى ، وتنعش

المبيعات الأولى التجارة أيضاً على نحو أكثر ، والبضائع الرائجة تبشر أيضاً بأسعار أعلى ، وأمام توقع المزيد من الإرتفاع ، يبدأ التجار فى الشراء بهدف المضاربة . وهكذا وهكذا يبدأون فى سحب سلع معينة من الاستهلاك ، فى الوقت الذى تكون الحاجة إليها على أشدها ، وتفرض المضاربة على الأسعار مزيداً من الإرتفاع ، وذلك بتشويق وحث آخرين على شراء وامتلاك بضائع مستوردة جديدة فوراً . كل هذا تصل به تقارير إلى انجلترا ، ويبدأ رجال الصناعة فى الإنتاج بعزم ، فتقام مصانع أخرى وتوظف كل الوسائل للإستفادة إلى أقصى حد بتلك الحالة المواتية . وترتفع المضاربة هنا أيضاً ، باذلة نفس تأثيرها على الأسواق الأجنبية ، رافعة الأسعار ، ساحبة البضائع من الاستهلاك ، مستحثة الصناعة فى كلا الطريقين إلى قمة الجهـــد . ثم يأتى المضاربون المغامرون الذين يعملون برأسمال وهمى ، يعيشون على حسن السمعة ، ويصيبهم الدمار إن لم يبيعوا فى سرعة ، إنهم يلقون بأنفسهم فى هذا السباق العام المضطرب من أجل الأرباح ، يضاعفون الاضطراب ، تدفعهم حدتهم الجامحة إلى سوق الأسعار والإنتاج إلى الجنون . إنه صراع مسعور ، يجرف معه حتى أكثرهم دربة وهدوء أعصاب ، السلع تغزل ، تنسج ، تطرق ، وكأن البشرية كلها يجب أن تجهز من جديد ، وكأنه قد تم إكتشاف ألفا مليون من الزبائن الجدد فى القمر . ويبدأ المضاربون المزعزون فى الخارج ، والذين يجب أن يحصلوا على نقود فى البيع دفعة واحدة بأقل من سعر السوق ، فحاجتهم ملحة ، وبيع يتلوه مبيعات أخرى ، وتتقلب الأسعار ، ويلقى المضاربون ببضائعهم إلى السوق فى ذعر ، ويضطرب السوق ، وتهتز السمعة ، ويتوقف بيت بعد آخر عن الدفع ، وإفلاس يليه إفلاس ، ويتم إكتشاف أن السلع المعروضة أو التى فى طريقها للعرض تفوق ثلاث مرات ما يمكن إستهلاكه . وتصل الأنباء إلى انجلترا ، حيث الإنتاج يسير فى تلك الأثناء بأقصى سرعة ، ويمسك الهلع بكل الأيدى ، والإفلاسات فى الخارج تسبب إفلاسات أخرى فى انجلترا ، ويسحق الهلع عدداً من البيوت التجارية ، وتلقى فى لحظة الجزع بكل الإحتياطيات إلى السوق هنا أيضاً ، والإنذار بالخطر مايزال هائلا أيضاً . تلك هى بداية الأزمة ، وهى ستتخذ حينئذ نفس المسار الذى سلكته الأزمة التى سبقتها بالضبط ، وتفسح بدورها مكاناً لموسم من الرخاء وهكذا تمضى دائماً — رخاء ، أزمة ، رخاء ، أزمة ، وهذه الدورة الدائمة التى تتحرك فيها الصناعة

الإنجليزية ، كما لاحظنا آنفاً ، تكتمل عادة خلال خمس أو ست سنين فى كل مرة .

يتضح من هذا ، أن الصناعة الإنجليزية يجب أن يكون لديها فى كل الأوقات، ما عدا الفترات القصيرة التى يكون فيها الرخاء فى قمته ، جيش احتياطى من العمال العاطلين ، حتى يمكنها أن تنتج الكميات الكبيرة من البضائع التى يطلبها السوق فى أكثر الشهور حيوية، ويكبر هذا الجيش الإحتياطى أو يصغر ، طبقاً لما توجبه حالة السوق من توظيف أقسام أكبر أو أقل من أفراده . وإن قامت المناطق الزراعية وأيرلندة ، والفروع التى تأثرت أقل التأثر بالرخاء العام، بإمداد الصناعة بصورة مؤقتة بعدد من العمال ، فى الوقت الذى يبلغ فيه السوق أعلى درجات نشاطه ، فإن هؤلاء ليسوا غير أقلية ، وهم أيضاً ينتمون إلى جيش الإحتياطى مع فارق واحد ، هو أن رخاء اللحظة كان مطلوباً للكشف عن علاقتهم بها . وعندما يدخل هؤلاء فى أكثر فروع العمل نشاطاً ، فإن مستخدميهم السابقين يتقلصون بعض الشىء حتى يخففوا من وقع الخسارة ، إنهم يعملون ساعات أطول ويوظفون النساء والعمال الأصغر سناً ، وعندما يعود الجوالون اللذين طردوا عند بداية الأزمة، يجدون أن أماكنهم قد شغلت وأنهم قد غدوا أزيد مما يلزم — ذلك يحدث فى غالب الأحوال على الأقل . هذا الجيش الإحتياطى الذى يشتمل على حشد ضخم خلال الأزمة ، وعلى عدد كبير خلال الفترة التى يمكن إعتبارها كمعدل بين أعلى الرخاء والأزمة ، هو « فائض السكان » فى انجلترا ، وهو الذى يحافظ على جسده وروحه ، بالتسول والسرقة وكنس الشوارع وجمع السباخ ودفع عربات اليد وقيادة الحمير والعمل كباعة جائلين، أو يقومون بأعمال وقتية صغيرة . إنه يمكن العثور على حشد من مثل هؤلاء الناس فى كل مدينة كبيرة . إن الحيل التى يلجأ إليها هذا « الفائض السكانى » ليوفر لنفسه مأوى ، مسألة تثير الحيرة . إن كناسى تقاطع الشوارع فى لندن معروفين فى كل أنحاء العالم ، غير أن الشوارع الرئيسية ، وكذا التقاطعات فى كل المدن الكبرى ، يتم كنسها بواسطة أناس تعطلوا من أعمال أخرى ، ووظفوا فى تلك الوظيفة عن طريق القائمين على « قانون الفقراء » أو سلطات المجالس البلدية المختصة . وأياًكان الإمر ، فقد تم الآن إختراع آلة تجلجل عبر الشوارع ، وبذا سلبت مصـــدر الدخل هذا من

العاطلين . ويمكن رؤية عدد كبير من الناس بعربات صغيرة ، على امتداد الطرق الرئيسية التى تقود إلى المدن والتى تموج بحركة مرور عربات النقل ، يقومون بجمع روث الخيل الطازج مخاطرين بحياتهم وسط المركبات والحافلات ، وغالباً ما يدفعون شلنين أسبوعياً للسلطات فى مقابل هذا الإمتياز . إلا أن هذه المهنة ممنوعة فى أماكن عدة ، حيث أن قمامة الشارع العادية ، وهى على هذا الحال من الإجداب ، لا يمكن بيعها كسماد . إن هؤلاء الذين فى « الفائض » لسعداء ، إن هم تمكنوا من الحصول على عربة يد . وأسعد منهم هؤلاء الذين حظوا بامتلاك حمار إلى جانب العربة . ويجب أن ينال الحمار طعامه أو يعطى قليلا من الفضلات التى يتم جمعها ، ومع ذلك فإنه لا يجلب إلا الزهيد من النقود . إن غالبية «الفائض» يعمدون إلى العمل كباعة جائلين . ويمكن رؤية ذلك الحشد الذى يعمل كسريحة وبائعة جائلين فى أصيل أيام السبت عندما يخرج كل العمال إلى الشوارع ، حيث يعرض الرجال والنساء والأطفال الأحذية والكورسيهات الدانتيل والمشدات والدوبار والكعك والبرتقال وكل أنواع السلع الصغيرة . كما يرى أمثال هؤلاء الباعة السريحة فى أوقات أخرى أيضاً واقفين عند نواصى الشوارع ، أو متجولين ومعهم الكعك وبيرة الزنجبيل وحشيشة القريص * . كما توجـــد أبواب رزق أخرى لمثل هؤلاء الباعة ، كالكبريت وأشياء مثل الشمع الأحمر ومخاليط مسجلة للألعاب النارية البراقة . وهنالك آخرون يدعون بالياومين ، يجوبون الشوارع بحثاً عن أعمال صغيرة ، وينجح الكثيرون منهم فى الحصول على عمل ليوم واحد ، كما أن الكثيرين منهم أيضاً ليس لديهم مثل هذا القدر من الحظ .

يقول واعظ الايست الاند المبجل « و . ر . شامبنيس » « أن مئات الفقراء يظهرون كل صباح فى الشتاء قبل طلوع النهار ، أمام بوابات مرافىء لندن ، على أمل أن يجدوا عملا لليوم . إنهم يستخدمون فتح البوابات ، وعندما يستخدم

(*) مشروبات من المياه الغازية ، الأول مصنوع من الماء والسكر وبعض الزنجبيل ، والثانى مصنوع من الماء والسكر والقريص . وهى مشروبات محبوبة للغاية من العمال ، وخاصة المتنعين عن تعاطى المسكرات (ملحوظه فى الطبعة الألمانية) .

الأكثر شباباً والأكثر قوة والأفضل معرفة ، فإن المئات يعودون إلى منازلهم اللعينة وقد كسرت خيبة الأمل خاطرهم »(٨).

ماذا يبقى لهؤلاء الناس الذين لا يجدون عملا والذين لن يثوروا ضد المجتمع ، غير التسول ؟ ليس فى وسع كل امرىء ، بالتأكيد ، أن يتجـــول ضمن جيش الشحاذين الكبير هذا ، إن غالبيتهم من الرجال أقوياء الأجسام ، والذين تخوض الشرطة معهم حرباً متصلة . غير أن تسول هؤلاء الرجال يتميز بصفة خاصة . إن مثل هذا الرجل، يتجول عادة هو وأسرته، يغنى فى الشوارع أغنية استعطاف، أو يلجأ إلى الكلمة يخاطب بها أريحية المارة . ومما يلفت الأنظار حقيقة ، أن هؤلاء المتسولين غالباً ما يرون فى الأحياء العمالية ، حتى أنهم يكادوا أن يعيشوا بالكامل على عطايا الفقراء. أو أن تتخذ العائلة موقعاً لها فى أحد الشوارع المزدحمة. وتجعل من منظر عجزها فقط، دون أن تتفوه بكلمة ، سبيلا يستجدى عطف الناس عليها . وهى تعتمد فى مثل تلك الحالة أيضاً ، على تعاطف العمال وحدهم ، هؤلاء الذين يعرفون من واقع خبرتهم ، معنى الشعور بالجوع ، كما أنهم معرضين فى أية لحظة ، لأن يجدوا أنفسهم فى نفس الحالة . من هنا كان هذا الوجود الأخرس المنفرد فى غالب الأحيان ، والذى يثير الشفقة إلى أبعد حد ، فى مثل تلك الشوارع التى يرتادها العمال ، وفى الأوقات التى يمر فيها العمال. إلا أن ذلك غالباً مايحدث فى أمسيات السبت ، عندما تتكشف بشكل عام « أسرار » الأحياء العمالية ، وتنسحب الطبقة الوسطى بعيداً قدر ما تستطيع ، عن ذلك الحى الذى أصابه التلوث . أما ذلك الذى يشكل جزء من « الفائض » ، ويملك من الشجاعة والغضب ، ما يكفى لمقاومة المجتمع علناً ، للرد على الرد البورجوازى ، بحرب معلنة ضدها ، فى مواجهة الحرب الخفية التى تشنها ضده ، فإنه يمضى قدماً يسرق ويسلب ويقتل ويحرق !

ويوجد من هذا الفائض السكانى فى المتوسط ، فى انجلترا وويلز ، مليون ونصف المليون ، وذلك طبقاً لما جاء فى تقارير « أمناء قانون الفقراء » ، غير أنه لم يتم التحقق من عددهم فى اسكتلندا ، وذلك بسبب افتقاد قواعد «قانون الفقراء» أما عن أيرلندا فأننا سنتناولها على حدة . يضاف إلى ذلك ، أن هذا المليون والنصف ،

يشتمل فقط على هؤلاء الذين قدموا بالفعل طلب معونة الأبرشية ، وهو لا يتضمن هذا الحشد الضخم الذى يجاهد دون الإلتجاء إلى هذا الملاذ الكريه أقصى حدود الكراهية . ومن ناحية أخرى ، فإن جزء كبيراً من هذا الرقم ينتمى إلى المناطق الزراعية ولا يدخل ضمن المناقشة الحالية . وبالطبع فإن هذا الرقم يرتفع فى الأزمات بصورة ملحوظة ، وتبلغ الحاجة أعلى ذراها . ولنأخذ مثلا أزمة عام ١٨٤٢ ، وهى التى كانت أعنف أزمة ، لأنها كانت آخر أزمة ، حيث أن حدة الأزمة تزداد بتكرارها ، والأزمة التالية المتوقع لها ألا تتأخر عن عام ١٨٤٧ * ، ستكون على الأرجح أكثر حدة وأطول مدة . خلال تلك الأزمة بلغت ضرائب الفقراء إرتفاعاً لم يعرف من قبل . ففى « ستوك بورت » ومدن أخرى ، كان لابد من دفع ثمانى شلنات ضريبة فقراء ، عن كل جنيه مدفوعاً إيجاراً لمنزل ما ، وبذا شكلت الضريبة وحدها أربعين فى المائة من إيجار المنزل ، فضلا عن ذلك ، فإن شوارع بكاملها وقفت خالية ، حتى أن عدد السكان قد نقص على الأقل عشرون ألف عن المعتاد ، وكان من الممكن قراءة لافتات على أبواب المنازل الخالية تقول « ستوك بورت ، للإيجار » . وفى « بولتون » انخفض معدل الإيجارات التى يدفع عنها ضرائب إلى ٢٦,٠٠٠ جنيهاً استرلينياً ، فى حين أنها كانت تبلغ فى السنوات العادية ، ٨٦,٠٠٠ جنيهاً استرلينياً . وفى الناحية الأخرى ، إرتفع عدد الفقراء الذين يجب إعالتهم إلى ١٤,٠٠٠ ، أى مايزيد عن ٢٠ ٪ من عدد السكان . وفى « ليدز » ، كان لدى القائمين على « قانون الفقراء » إعتماداً إحتياطياً يبلغ ١٠,٠٠٠ جنيهاً استرلينياً . وقد استهلك هذا المبلغ بالإضافة إلى إعانة قدرها ٧,٠٠٠ جنيهاً استهلاكاً تاماً قبل أن تبلغ الأزمة ذروتها . وهكذا كان الحال فى كل مكان . كتبت لجنة « الجمعية المعادية لقانون القمح » تقريراً فى يناير ١٨٤٣ ، عن حالة المناطق العمالية عام ١٨٤٢ ، من واقع بيانات تفصيلية لأصحاب المصانع ، يؤكد هذا التقرير أن ضريبة الفقراء قد بلغت فى المتوسط ضعفى ما كانت عليه عام ١٨٣٩ ، وأن عدد الأشخاص الذين يطلبون معونة قد تضاعف ثلاث مرات ، وحتى خمس مرات منذ ذلك الحين ، وأن حشداً من مقدمى الطلبات ، ينتمون إلى طبقة لم يسبق لها أبداً أن التمست المعونة ، وأن

(*) وقد جاءت بالفعل عام ١٨٤٧ .

ما تناله الطبقة العاملة حالياً من ضرورات الحياة ، إنما يقل عما كانت تناله فيما بين عامى ١٨٣٤ — ١٨٣٦ ، بما يزيد عن الثلثين ، وأن استهلاك اللحم قد نقص بالقطع بنسبة ٢ ٪ فى بعض المناطق ، وفى مناطق أخرى نقص الاستهلاك إلى ٦ ٪ ، وحتى الحرفيين من حدادين وبنائى القرميد وآخرين ، وهم الذين كانوا يجدون على الدوام عملا متصلا فى أشد الفترات هبوطاً ، يعانون الآن كثيراً من الحاجة إلى العمل وانخفاض الأجور . إن الأجور الآن فى يناير ١٨٤٣ مازالت تنخفض باطراد . تلك هى تقارير أصحاب المصانع ! إن العمال الذين يتضورون جوعاً ، العمال الذين تعطلت مصانعهم ، والذين يعجز مستخدموهم عن إعطائهم أى عمل ، يتفرون فى الشوارع ، فى كل الأماكن ، يتسولون فرادى أو فى حشود ، تحاصر جيوشهم الأرصفة ، يستجدون اثارة العون والمساعدة . إنهم لا يتسولون فى مسكنة كما يفعل الشحاذون العاديون ، لكنهم يهددون باعدادهم وحركاتهم وكلماتهم أيضاً . كانت تلك هى الحالة التى وصلت إليها الأوضاع فى المناطق الصناعية ، من « ليسستر » إلى « ليدز » ، ومن « مانشستر » إلى « برمينجهام » . وفى شهر يونيو قامت الإضطرابات هنا وهناك ، كما حدث فى مصانع الفخار فى « ستافورد شاير » . لقد سادت بين العمال أشد أعمال الهياج إثارة للفزع ، ثم إندلع العصيان فى أغسطس فى الأحياء العمالية . وعندما وصلت إلى « مانشستر » فى نوفمبر ١٨٤٢ ، وجدت عند كل ركن من أركان الشوارع حشوداً من العمال العاطلين ، ووجدت أن العديد من المصانع ما تزال تقف عاطلة . وخلال الأشهر التالية ، إختفى المتسكعين المتذمرين وعادت المصانع لنشاطها مرة أخرى .

إننى لست فى حاجة لوصف المدى الذى سادت به الحاجة والمعاناة بين هؤلاء العاطلين خلال تلك الأزمة . إن ضرائب الفقراء غير كافية ، غير كافية إلى حد جد بعيد ، وأعمال البر التى يقوم بها الأغنياء ، إنما هى قطرة مطر فى محيط ، إنها تضيع لحظة سقوطها . إن التسول لا يمكن أن يكفل إلا القليل من بين تلك الحشود . وإن لم يبع صغار التجار بالنسيئة للعمال فى مثل تلك الأحوال لأطول فترة ممكنة — مع الإقرار بأن يدفعوا بأنفسهم وبحريتهم ما عليهم — وإن لم يساعد العمال بعضهم البعض ، فإن كل أزمة ، ستزيح حشداً من هذا الفائض عن

طريق الموت جوعاً . وعلى أى حال ، فإن الفترة التى يكون فيها الهبوط على أشده قصيرة ، إنها تدوم فى أسوأ الأحوال عاماً أو عامين أو عامين ونصف ، ومن ثم فإن أغلبهم يخلص منها بحياته بعد حرمان رهيب ، لكن قد أصيب بالمرض بشكل غير مباشر ... الخ . إن كل أزمة تجد لها حشداً من الضحايا كما ترى. لكن كيفما كان الحال ، دعونا أولا نرجع إلى سبب آخـــر للإنحطاط الذى يتعرض له العامل الإنجليزى ، سبب دائم الفعالية فى إكراه الطبقة كلها على الإنحدار .

الهجرة الايرلندية

لقد أشرنا آنفاً عدة مرات ، إلى الهجرة الأيرلندية إلى انجلترا ، وعلينا الآن أن نتحرى عن قرب أكثر أسباب ونتائج تلك الهجرة .

ما كان من الممكن للصناعة الإنجليزية فى انجلترا ، أن تتوسع هذا التوسع السريع ، ما لم يكن لديها من سكان إيرلندا العديدين والمعوزين إحتياطياً تحت الطلب . إن الإيرلنديين ليس لديهم فى وطنهم ما يفتدوه ، كما أن لديهم فى انجلترا الكثير الذى يربحوه ، ومن الوقت الذى غدا معروفاً فيه فى إيرلندا ، أن الجانب الشرقى لقنال « سانت جورج » ، يقدم عملا ثابتاً ويدفع أجراً طيباً للسواعد القوية ، فإن كل عام كان يجلب معه جيوشاً من الإيرلنديين إلى هنا . لقد أحصى ما يزيد عن المليون مهاجر ، وليس هنالك أقل من خمسين ألفاً ما زالوا يحضرون كل عام . إن جميعهم على وجه التقريب ، يدخلون المناطق الصناعية وخاصة المدن الكبرى ، حيث يشكلون هنالك أدنى طبقة من السكان . وهكذا أصبح هنالك ١٢٠,٠٠٠ فى لندن ، ٤٠,٠٠٠ فى « مانشستر » ، ٣٤,٠٠٠ فى « ليفربول » ، ٢٤,٠٠٠ فى « بريستول » ، ٤٠,٠٠٠ فى « جلاسجو » ، ٢٩,٠٠٠ فى « إدينبورج » من الرعايا الإيرلنديين الفقراء * . لقد شب هؤلاء الإيرلنديين دون تحضر تقريباً ، كما إعتادوا منذ حداثتهم كل صنوف الحرمان ، إنهم خشنين شرسين ومبذرين ، ولقد جلبوا معهم كل عاداتهم الوحشية إلى قلب طبقة من السكان

(*) أرشيبالد أليسون « مبادىء السكان وعلاقتها بسعادة البشر ، ١٨٤٠ فى جزئين » إن هذا « الايسون » هو مؤرخ الثورة الفرنسية ، وهو مثل أخيه ، دكتور و . ب . أليسون ، عضو متدين بحزب المحافظين .

الإنجليز ، طبقة لديها فى الحقيقة باعثاً جزئياً للحرص على التعليم والأخلاق . دعونا نسمع « توماس كارليل » وهو يتحدث فى هذا الموضوع* .

« إن السمات الميليزية ، الهمجية ، تلك التى تعطى مظهراً زائفاً بالمهارة ، بالقلق واللامعقول ، بالتعاسة والزراية ، تطالعك فى كل الطرق العامة والجانبية . إن سائق المركبة الانجليزى ، يضرب « الميليزى » بسوطه ، يلعنه بلسانه وهو يمضى مسرعاً ، بينما « الميليزى » يمسك بقبعته مستجدياً . إنه اللعنة الموجعة التى يتوجب على هذا البلد أن يكافحها ، إنه هنا فى أسماله وضحكته الهمجية ، يقوم بكل الأعمال التى تحتاج لقوة اليد والظهر المجردة ، بأجور قادرة على أن تشترى له البطاطس . إنه يحتاج للملح فقط كبهارات ، إنه يأوى طبقاً لإدراكه إلى أى قفص مخصص للخنازير أو صندوق مخصص للكلاب . إنه يبيت فى المرحاض الخارجى ، ويرتدى بزة من مزق ، الدخول فيها والخروج منها عملية عسيرة ، إنها تستخدم فقط فى الأعياد والمواسم ، والرجل السكسونى إن لم يكن فى وسعه أن يعمل طبقاً لهذه الشروط ، فإنه لن يجد عملا . إن الايرلندى غير المتحضر ، يطرد المواطن السكسونى ويأخذ مكانه ، إن ذلك لا يحدث باستخدام القوة ولكن على العكس من ذلك . إنه يقبع هنالك فى بؤسه ولا معقوليته ، فى زيفه وعنفه المخمور ، مثل نواة جاهزة بالفعل للإنحطاط والفوضى . وأياً كانت المشقة التى يسبح بها ذلك الذى يقاوم ، فإنه سيجد الآن مثالا لكيفية بقاء الإنسان غارقاً لا سابحاً ، كما سيجد أن حالة الجمهرة الدنيا من العمال الإنجليز تقترب أكثر فأكثر من حالة الايرلنديين ، منافسة إياهم فى كل الأسواق ، وأنه أياً كان العمل الذى يمكن أن تفى به مجرد القوة مع قليل من المهارة ، فإن هذا العمل سينجز ، سينجز ليس طبقاً للسعر الإنجليزى ، ولكن أقرب للسعر للايرلندى ، إنه ما يزال أعلى من ذلك الايرلندى ، أعلى لندرة البطاطس ثلاثين أسبوعاً فى العام ، لكنه فى كل ساعة ، ومع وصول كل قارب تجارى جديد ، يهبط مقارباً التساوى مع ذلك الايرلندى » .

إننا لو استثنينا مبالغته وإدانته أحادية الجانب للسمة القومية الايرلندية ، فإن « كارليل » محق تماماً . إن هؤلاء الرجال الايرلنديين المهاجرين إلى انجلترا من

(*) إصلاحى ، ص ٢٨ ، ٣١ ، الخ .

أجل أربع بنسات ، هؤلاء القادمين على سطح سفينة تجارية ، محمولين فى الغالب على ظهرها كقطيع من الماشية ، يدسون أنفسهم فى كل مكان . إن أسوأ المساكن تلائمهم تمام الملائمة ، كما أن ملبسهم لا يسبب لهم من المتاعب إلا قليلا طالما مازال به خيط واحد يمسكه ببعضه البعض ، أما عن الأحذية فلا معرفة لهم بها ، وغذاؤهم من البطاطس والبطاطس فقط ، وأى كسب يتجاوز تلك الإحتياجات يقومون بإنفاقه على الشراب ، ماذا تريد مثل هذه السلالة من الأجور العالية ؟ إن الإيرلنديين هم سكان أسوأ الأحياء فى كل المدن الكبرى . وإن تميز حى بقذارة خاصة ودوار خاص ، ففى وسع المستكشف أن يكون على ثقة ، وهو آمن على نحو ما ، من أنه سيلتقى أساساً مع تلك الوجوه الكلتية ، والتى يمكن المرء أن يعرفها من أول وهلة ، كشىء مختلف عن السحنة السكسونية لابن البلد ، كذا غنائهم الأجشى الصادر من الحلق ، والذى يتفوق فيه الايرلندى الحقيقى تفوقاً تاماً . لقد سمعت اللغة الايرلندية — الكلتية ينطق بها أحياناً فى أشد الأجزاء كثافة بالسكان فى « مانشستر » . إن غالبية الأسر التى تسكن الأقبية فى كل مكان تكاد تكون أسراً ايرلندية . إن الايرلنديين فى إيجاز ، كما يقول « دكتور كاى » قد اكتشفوا أقل الإحتياجات اللازمة للحياة ، وهم بسبيلهم الآن كى يجعلوا العمال الإنجليز يلمون بها . لقد جلبوا معهم القذارة وإدمان الخمر أيضاً . إن افتقاد النظافة والذى هو الطابع الثانى للرجل الايرلندى ، لا يشكل خطراً كبيراً فى الريف حيث يتناثر السكان ، لكنه يغدو مرعباً وخطراً للغاية بتركيزه هنا فى المدن الكبرى . إن « الميليزى » يحول أمام باب داره هنا إلى مستودع للقمامة والقذارة كما اعتاد أن يفعل فى وطنه ، وبهذا تتجمع البرك وأكوام القاذورات التى تشوه منظر الأحياء العمالية وتسمم جوها . إنه يبنى زريبة الخنازير فى مواجهة حائط المنزل كما كان يفعل فى وطنه ، وإن منع من هذا الفعل وضع الخنازير فى الحجرة معه . إن هذه الطريقة الجديدة وغير الطبيعية فى تربية البهائم فى المدن إنما ترجع كلها إلى أصل ايرلندى . إن الايرلندى يحب خنزيره كما يحب العربى حصانه ، مع فارق واحد هو أنه يبيعه عندما يبلغ من السمنة درجة كافية تؤهله للذبح ، وهو فيما عدا ذلك ينام ويأكل معه ، يلعب به أبناؤه ويمتطونه ويتدحرجون معه فى القذارة ، كما يمكن لأى أمرىء أن يشاهد ذلك آلاف المرات فى كل المدن الإنجليزية الكبرى . إن القذارة ، وافتقاد وسائل الراحة التى تسود منازلهم لمسألة يستحيل وصفها .

إن الايرلندى غير معتاد على وجود أثاث فى مسكنه ، إن كومة قش وقليل من الاسمال ، التى لا تصلح للإستخدام على الإطــلاق ، تـكفى كمرقد ليلى له . إنه لا يحتاج لأكثر من قطعة من الخشب ، مقعد مكسور ، صندوق قديم يستخدم كمنضدة . إنه يجهز مطبخه ، والذى هو فى ذات الوقت حجرة النوم والمعيشة ، بغلاية شاى وقليل من الأوانى والأطباق . وهو إن احتاج إلى وقود ، فإن كل ما تطوله يده من مواد قابلة للإشتعال كالكراسى وعمد الأبواب والكرانيش الخشبية والأرضيات تجد طريقها إلى المدخنة ، فضلا عن ذلك ، ما الذى يجعله يحتاج إلى مزيد من الحجرات ؟ لم يكن هناك فى وطنه ، فى كوخه الطينى غير حجرة واحدة تؤدى كل الأغراض المنزلية. إن أسرته فى انجلترا لا تحتاج لأكثر من حجرة . ولذا فإن عادة حشد العديد من الأشخاص فى حجرة واحدة ، تلك العادة التى غدت الآن ظاهرة عامة ، إنما هى عادة أدخلتها الهجرة الايرلندية فى الأساس . ولما كان من الواجب ألا يكون لهذا الشيطان البائس غير متعة واحدة، فإنه قد عمد إلى إدمان المشروبات الروحية. إن الشراب هو الشىء الوحيد الذى يجعل حياة الايرلندى تستحق أن تحيا ، ولذا فإنه يغرق فى الشراب إلى أقصى حدود السكر البهيمى . إن العفوية الجنوبية كصفة للايرلندى ، إن فظاظته التى تضعه فى مرتبة لا تعلو فى مرتبة الهمجى إلا قليلا ، إن إزدراءه لكل المتع البشرية ، والتى تحول فظاظته عن أن يكون أهلا للمشاركة فيها ، إن قذارته وفقره ، إن كل ذلك يشجعه على إدمان الخمر . إن الإغراء شديد وهو عاجز عن مقاومة هذا الإغراء . وهكذا ، ما أن يحصل على نقود حتى يتخلص منها أسفل حلقه . ماذا يفعل غير ذلك؟ كيف يمكن للمجتمع أن يلومه ، وهو الذى يدعه لنفسه ووحشيته، هو الذى يضعه فى مكان يغدو فيه بسبب الحاجة مدمن خمر فى أغلب الأحوال ؟

ويصبح على العامل الانجليزى أن يصارع مثل هذا المنافس الذى يقف عند أدنى مستوى ممكن فى بلد متحضر ، والذى هو لهذا السبب بالتحديد محتاجاً إلى أقل الأجور قياساً على غيره ، ولذا ، فليس هنالك ممكن آخر غير هذا ، كما يقول « كارليل » . إن أجور العامل الانجليزى مفروض عليها أن تنخفض أكثر فأكثر فى كل فرع يواجه فيه منافسه الايرلندى، وتلك الفروع عديدة . إن كل ما لا يتطلب مهارة ، أو لا يتطلب غير القليل منها مفتوح أمام الايرلندى . أما عن العمل الذى

يستلزم مراناً طويلا ، وممارسة مثابرة منتظمة ، فإن الايرلندى الفاسق المتقلب مدمنى الخمر يقف دونه عند مستوى منخفض للغاية . إذ حتى يصبح الصانع اليدوى ميكانيكياً ، عليه أن يتبنى التحضر الإنجليزى والعادات الإنجليزية ، عليه أن يغدو إنجليزياً من الأساس . إلا أنه ، فى كل الأعمال البسيطة غير الدقيقة ، حيثما كانت القوة مطلوبة أكثر فى المهارة ، فإن الايرلندى كالانجليزى سواء بسواء . وهكذا فإن حرفاً معينة ، مثل النسيج اليدوى وبناء القرميد والشيالة والعمل باليومية ، هى حرف مكتظة بالايرلنديين ، ويوجد بين عمال هذه الحرف أعداد يعتد بها من الايرلنديين . إن لضغط مثل هذه السلالة تأثير كبير فى تخفيض الأجور والحط من الطبقة العاملة. وحتى لو غدا الايرلنديون الذين شقوا طريقهم إلى حرف أخرى أكثر تحضراً ، فإن كثيراً من عاداتهم القديمة سوف تظل عالقة بهم ، ليكون لها تأثير محط فعال على زملائهم من الإنجليز الكادحين معهم ، وخاصة إذا وضع للتأثير العام فى الإعتبار ، إذ أنهم محاطين بالايرلنديين . وحيث يتكون ربع أو خمس كل مدينة كبيرة من عمال إيرلنديين فى الغالب ، أو من أطفال من أبوين ايرلنديين شبوا فى القذارة الايرلندية ، فإن الدهشة لن تصيب أحداً ، عندما تكون العادات والذكاء والحالة الأخلاقية — أى فى إيجاز كل خلق وطباع الطبقة العاملة ، متمثلة لجزء كبير من الصفات الايرلندية المميزة . ويغدو من السهل ، على عكس ذلك ، فهم الكيفية التى سار بها الوضع المحط للعامل الانجليزى ، والذى كان نتيجة تاريخنا الحديث ومتتالياته المباشرة إلى مزيد من الحطة بسبب وجود المنافسة الايرلندية .

النتـــائج

الآن وقد قمنا بدراسة تفصيلية إلى حد ما ، عن الأوضاع التى تعيش فى ظلها الطبقة العاملة الإنجليزية ، فقد حان الوقت لاستخلاص بعض النتائج الأبعد مدى من واقع الحقائق المعروضة ، ثم نقوم فيما بعد ، بمقارنة مااستنتجناه بالحالة الفعلية للأوضاع . دعونا نرى ما آل إليـــه العمال أنفسهم فى ظل الأوضاع المذكورة ، أى نوع من الناس هم ، ما هى أحوالهم الصحية والعقلية والأخلاقية؟

عندما يوقع فرد واحد ضرراً بدنياً على فرد آخر ، ضرراً يمكن أن يؤدى به إلى الموت ، فإننا نسمى هذا الفعل بالقتل الخطأ ، وعندما يكون المعتدى مدركاً بشكل مسبق إن هذا الضرر سيكون قاتلا ، فإننا نسمى فعلته تلك بالقتل العمد . ولكن ، عندما يضع المجتمع مئات البزوليتاريين فى وضع لابد وأن يقودهم إلى ميتة مبكرة للغاية وغير طبيعية ميتة تماثل تمام التماثل الموت الناجم عن استخدام العنف ، كتلك التى تنتج عن السيف أو طلقة الرصاص ، عندما يحرم المجتمع الآلاف من ضرورات الحياة ، ويضعهم فى ظل أوضاع لا يستطيعون العيش فيها — فإنه يجبرهم ، باستخدام ذراع القانون القوية ، على البقاء فى مثل تلك الأحوال التى لابد وأن تؤدى بهم إلى الموت كنتيجة لها — إن المجتمع يعرف أن تلك الآلاف من الضحايا لابد هالكة ، ومع ذلك فإنه يسمح ببقاء تلك الأحوال . إن فعلته هذه إنما هى قتل عمد ، إنها مؤكدة تمام التأكد مثل فعلة الفرد الواحد . إنه قتل مستتر خبيث ، قتل عن عمد ، قتل لا قبل للمرء بحماية نفسه فى مواجهته حيث لا يظهر على حقيقته ، حيث لا يرى أى أمرىء قاتله ، حيث قتل الضحية يبدو أمراً طبيعياً ، حيث أن الجرم تفريط وإهمال أكثر منه إرتكاب واقتراف .

لكنه يظل قتلا عمداً . وعلى الآن أن أثبت أن المجتمع فى إنجلترا يتعهد كل يوم وكل ساعة ، أى فرد من أفراد الطبقة العاملة ، بدقة متقنة ، تتصف بأنها قتل اجتماعى عن عمد ، بمعنى أن المجتمع قد وضع العمال تحت ظروف لا يستطيعون فى ظلها أن يحافظوا على صحتهم أو أن يعيشوا طويلا ، أى أنه يقوض القوى الحيوية لهؤلاء العمال جزء فجزء ، وبذا يدفع بهم فى سرعة إلى القبر قبل موعدهم . كما على أن أثبت ، أن المجتمع يدرك مدى خطورة مثل تلك الأوضاع على صحة العمال وحياتهم ، ومع ذلك ، فإنه لا يفعل شيئاً لتحسين مثل تلك الأوضـــاع . إنه « يعرف » نتائج أفعاله ، وبالتـالى يعرف أن تصرفه هذا ليس مجرد قتل خطأ ، لكنه قتل عمد ، وهـذا ما سأبرهن عليه عندما إستشهد بالوثائق الرسمية وتقارير البرلمان والحكومة لإثبات إتهامى بالدليل والحجة .

إن حياة طبقة فى ظل الأوضاع التى أجملنــاها فيما سبق ، وتزويدها بأهم ضرورات الحياة بطريقة سيئة ، وعدم قدرتها على التمتع بالصحة والعافية وبلوغ سن متقدم ، لدليل يوضح نفسه بنفسه . مرة أخرى ، دعونا نستعرض الأحوال مع الإشارة بشكل خاص إلى صحة العمال . إن تركيز السكان فى المدن الكبرى يفرض نفسه كعامل غير موات ، إذ أن جو لندن لا يمكن أبداً أن يكون نقياً غنياً بالأوكسجين كهواء الريف .

إن مليونين ونصف مليون زوج من الرئات ، إن خمسة آلاف ومائتى نار مشتعلة تزدحم فوق مساحة ثلاثة أو أربعة أميال مربعة ، تستهلك كمية هائلة من الأوكسجين لا يمكن أن تحل كمية أخرى محلها إلا فى صعوبة ، حيث أن طريقة

(*) عندما أتكلم هنـا ، أوفى أى موضع آخر ، عن المجتمـع كمسئول عام له حقوقه وواجباته ، فإنى أعنى بالتأكيد ، القوة الحـاكمة للمجتمع ، الطبقة التى تقبض الآن على زمام السيطرة الاجتماعية والسياسية ، والتى تتحمل بالتالى مسئولية هؤلاء الذين تحرمهم من المشاركة فى تلك السيطرة . إن هـذه الطبقة فى إنجلترا ، كما فى كل البلدان الأخرى المتحضرة ، هى البورجوازية . ولـكن كون هذا المجتمع ، وخاصة البورجوازية ، مكلفة بحماية كل عضو فى المجتمع ، على الأقل فيما يختص بحياته ، وأن يكون مذنباً مثلا ، إلى أن أحداً لا يموت جوعاً أمر لا أحتاج الآن لإثباته لقرائى الألمان . أما لو أنى كنت أكتب إلى البورجوازية الانجليزية لإختلف الحال حينذاك . (وهكذا الحال فى ألمـانيا الآن ، فإن رأسماليينا الألمان ، قد بلغوا المستوى الإنجليزى بالـكامل ، على الأقل من هذه الناحية ، فى العام الميلادى ١٨٨٦) .

بناء المدن نفسها تحول دون التهوية . إن غاز حمض الكربونيك الذى يولده التنفس والنار يظل فى الشوارع بسبب ثقله النوعى ، ويمر التيار الرئيسى من الهواء فوق أسقف المدينة ، وتفشل رئات السكان فى تلقى الكمية اللازمة من الأوكسجين ، والنتيجة إعياء صحى ومعنوى وإنخفاض فى الحيوية . لهذا السبب ، فإن قاطنى المدن بعيدين إلى حد كبير عن التعرض للمؤثرات الحادة ، وخاصة الناجمة عن الإلتهاب ، إن قورنوا بسكان الريف الذين يعيشون فى جو طليق وطبيعى ، إلا أنهم يعانون أكثر من المؤثرات المزمنة . وإن كانت الحياة داخل المدن ضارة بالصحة فى حد ذاتها ، فكم يكون الضرر الناجم عن تأثير الجو الشاذ فى الأحياء العمالية كبيراً ، إن كل شىء كما رأينا يتضافر لتسميم الهواء . ربما يكون وضع كومة روث إلى جوار مسكن ما فى الريف أمر غير ضار نسبياً ، حيث يدخل الهواء بحرية من جميع النواحى ، غير أن نفس الوضع فى مدينة كبرى بين حارات وعطفات شيدت متلاصقة حتى أنها حجبت كل حركة للهواء الجوى لهو وضع مختلف . إن كل الخضراوات المتعفنة والمواد الحيوانية تبعث بالتأكيد غازات ضارة بالصحة ، وإن لم تجد تلك الغازات طريقاً مفتوحاً للهرب ، فإنها تسمم الهواء الجوى بالحتم . إن للقذارة والبرك الراكدة بناء على ذلك ، أسوأ الأثر على الصحة العامة فى الأحياء العمالية بالمدن الكبرى ، لأنها تنتج تلك الغازات التى تولد المرض ، ونفس الأمر أيضاً تفعله الأبخرة الملوثة الصاعدة فى جداول المياه . إلا أن هذا ليس كل ما فى الأمر على أى حال . إن الطريقة التى يعامل بها المجتمع حشد الفقراء الهائل فى أيامنا تلك ، لطريقة مثيرة للثورة ، إنهم يسحبون إلى المدن الكبرى حيث يتنفسون هواء أفقر من هواء الريف إنهم يعزلون فى أحياء أسوأ تهوية من أحياء أخرى بسبب الطريقة التى شيدت بها ، إنهم محرومون من كل وسائل النظافة حتى من الماء نفسه ، حيث أن الأنابيب لا توصل إلى المساكن إلا عند دفع ثمنها ، وحيث الأنهار ملوثة إلى حد لا تصلح معه لمثل تلك الأغراض ، إنهم مجبرون على إلقاء كل القمامة والنفايات ، كل الماء القذر ، وفى الغالب كل المجارى والإفرازات المقززة فى الشوارع ، حيث أنهم محرومون من وسائل التخلص منها ، مضطرون إلى إفساد المنطقة التى هم ساكنيها . غير أن هذا ليس بكاف أيضاً . إن كل ما يمكن تصوره من شرور مكدس فوق رؤوس الفقراء . إذ لو أن كثافة السكان عالية بشكل عام فى المدن الكبرى فإنهم هم على وجه

الخصوص ، الذين يوضعوا فى أقل حيز ؛ إنهم يحبسون بالعشرات فى حجرات منفردة ، وكأن فساد الهواء الجوى فى الشوارع غير كاف ، فيأتى الهواء الذى يتنفسونه فى الليل ليكون فى حد ذاته كافياً لخنقهم ، إنهم يعطون مساكن رطبة ، جحور الأقبية التى لا يوجد ما يحميها من الماء من أسفل ، أو غرف الأسطح التى ترشح من أعلى . إن بيوتهم مشيدة بطريقة تجعل الهواء البارد الرطب لا يجد لنفسه منفذاً للهرب ، إنهم يزودون بهلاهيل أو ملابس رديئة بالية ، وطعام فاسد عسر الهضم ، إنهم معرضون لأشد التغييرات إثارة للحالة العقلية ، لأشد الذبذبات عنفاً بين الأمل والخوف ، إنهم يصطادون كما تصطاد الحيوانات ، كما أنه من غير المسموح لهم أن يحصلوا على راحة البال ومتع الحياة الهادئة . إنهم محرومون من كل المتع ما عدا الإنغماس فى الجنس وإدمان الخمر ، إنهم يشغلون يومياً إلى حد الاستهلاك التام لطاقتهم المعنوية والصحية ، وهكذا يدفع بهم دائماً إلى الإفراط الجنونى فى المتعتين الموجودتين فى متناول أيديهم . وهم إن تغلبوا على كل هذا ، سقطوا ضحايا الحاجة للعمل فى أزمة ما ، عندما يؤخذ منهم كل القليل الذى أنعم به عليهم حتى الآن .

كيف يمكن للطبقة الدنيا أن تتمتع بالصحة وتعيش طويلا ، فى ظل مثل هذه الظروف ؟ ما الذى يمكن أن نتوقعه غير أخلاق داعرة وسلسلة متصلة من الأوبئة ، وتلف بنية السكان العمال ؟ دعونا نرى كيف تنتصب الحقائق .

إن كون مساكن العمال موجودة فى أسوأ أجزاء المدن ، وأنها بالإضافة إلى أوضاع أخرى من حياة هذه الطبقة ، تولد أمراضاً عديدة ، لأمر قد ثبتت صحته من جميع النواحى . إن المقالة المقتبسة آنفاً من « الأرتيزان » ، تؤكد فى صدق تام ، أن أمراض الرئة لابد وأن تكون نتيجة حتمية لمثل تلك الأوضاع ، وأن حالات من هذا النوع يكثر وقوعها فى الحقيقة بصورة متفاوتة فى صفوف هذه الطبقة . إن هواء لندن الفاسد خاصة فى الأحياء العمالية ، ليوفر أعلى درجة مواتية لنمو السل ، كما يقدم المظهر المحموم للأعداد الضخمة من الأشخاص ، الدليل الكاف على ذلك . وإن حدث وتجول أمرىء فى الشوارع فى الصباح مبكراً إلى حد ما ، ساعة أن تكون الحشود فى طريقها إلى العمل ، لأصيب بالدهشة من عدد الأشخاص الذين يبدون مصدورين تماماً أو نصف مصدورين . إن مانشستر

ذاتها لا يحمل الناس فيها نفس هذا المظهر ، مظهر الأشباح الشاحبة الضامرة ضيقة الصدر غائرة العيون ، تلك الأشباح التى يمر بها المرء عنـــد كل خطوة ، هؤلاء الواهنين ذوى الوجوه المترهلة ، العاجزين عن إبداء الهمة فى أبسط تعبير لها . لقد عاينت مثل تلك الأعداد المفزعة فى لندن فقط ، رغم أن السل يقتل سنوياً جموعاً من الضحايا فى المدن الصناعية الشمالية . وينافس التيفوس السل ، دعك من الحمى القرمزية التى تجلب أشد أنواع الدمار بشاعة إلى صفوف الطبقة العاملة . إن التقارير الرسمية عن الحالة الصحية للطبقة العاملة تنسب التيفوس وهو ذلك البلاء العام الانتشار ، إلى الحالة السيئة التى توجـــد عليها أعمال التهوية والصرف والنظافة فى المساكن ، تنسبه إلى كل ذلك بشكل مباشر . يؤكد هذا التقرير الذى صنعه الأطباء المسئولون فى انجلترا ـــ وهذا أمر يجب ألا ننساه ـــ من واقع شهادة أطباء آخرين ، أن حارة واحدة سيئة التهوية ، وزقاقاً واحداً مسدوداً دون صرف ، كاف لتوليد الحمى وهو دائماً ما يولدها ، خاصة إن كان السكان مكتظين إكتظاظاً شديداً . إن لهذه الحمى تقريباً نفس الخاصية فى كل مكان ، وهى تتطور فى كل حالة تقريباً إلى تيفوس واضح . إنها موجودة فى كل الأحياء العمالية بالمدن الكبرى والحواضر ، وبشكل فردى فى الشوارع رديئة التشييد والصيانة ، رغم أنه من الطبيعى أيضاً أن تبحث لها عن ضحايا فى أحياء أفضل . إنها تتفشى الآن فى لندن منذ فترة ذات بال ، إن عنفها الذى فاق المعتاد عام ١٨٣٧ ، هو سبب هذا التقرير المشار إليه عاليه . إن عدد المرضى ، طبقاً للتقرير السنوى للدكتور « سوث وود سميث » « بمستشفى الحمى بلندن » ، عام ١٨٤٣ كان ١٤٦٢ مريضاً ، أى بزيادة قدرها ٤١٨ مريضاً عن أية سنة سابقة . لقد تفشى هذا المرض بعنف غير عادى فى المناطق الرطبة القذرة فى الأحياء الشمالية والجنوبية والشرقية . كان العديد من المرضى من العمال القادمين من الريف ، هؤلاء الذين كابدوا أقصى درجات العوز أثناء هجرتهم ، والذين ناموا بعد وصولهم فى الشوارع جوعى أنصاف عرايا ، وهكذا سقطوا ضحايا الحمى لقد أحضر هؤلاء الناس إلى المستشفى فى حالة من الضعف جعلت عملية علاجهم تحتاج إلى كميات غير عادية من الخمور والكونياك ومستحضرات الأمونيا والمنعشات ، ولقد مات ١٦٫٥ ٪ من هؤلاء المرضى . إن هذه الحمى الخبيثة موجودة فى « مانشستر » ، فى أردأ الأحياء فى « المدينة القديمة » و « أنكوتس » و « ليتل إيرلندا » .. الخ .

إنها نادراً ما تهمد ، رغم أن تفشيها هنا أقل مدى مما هو متوقع كما هو الحال في المدن الإنجليزية عامة . إنها من ناحية أخرى ، تتفشى في اسكتلندا وإيرلندا بشدة تتجاوز كل تصور . لقد انتشرت إثر القحط في كلا من «ادينبورج» و «جلاسجو» عام ١٨١٧ ، كما انتشرت بعنف واضح بعد الأزمة التجارية عام ١٨٢٦ وعام ١٨٣٧ ، بعد أن تكون قد إستكانت إلى حد ما في كل مرة ، بعد أن تكون قد تفشت لما يقرب من الثلاث سنين . لقد هاجمت الحمى في «ادينبورج» حوالى ٦٠٠٠ شخصاً خلال وباء ١٨١٧ ، وحوالى ١٠,٠٠٠ شخصاً خلال وباء ١٨٣٧ ، ولم يزداد فقط عدد الأشخاص الذين هاجمتهم ، بل زاد أيضاً عنفها مع كل تكرار لها * .

إلا أن حدة الوباء في كل المراحل السابقة ، تبدو كعبث أطفال إن قورنت بما سببه من تخريب بعد أزمة عام ١٨٤٢ . لقد أمسكت الحمى بسدس سكان اسكتلندا المعدمين ، وحمل المتسولون الجوالون العدوى من منطقة إلى أخرى في سرعة مخيفة . إنها لم تصل إلى الطبقات الوسطى والعليا من السكان ، ورغم ذلك ، فقد كانت هنالك حالات من الحمى خلال شهرين أكثر مما كان خلال إثنى عشرة سنة سابقة . لقد أمسكت الحمى في «جلاسجو» عام ١٨٤٣ بـ ٣٢,٠٠٠ شخص يمثلون ١٢ ٪ من السكان ، هلك منهم ٣٢ ٪ ، بينما لم تتجاوز نسبة الوفيات عادة ٨ ٪ في كل من «مانشستر» و «ليفربول» . وبلغ المرض أوجه في اليوم السابع واليوم الخامس عشر ، إذ يصبح المريض عادة في هذا اليوم الأخير أصفر اللون ، وهو ما تنظر إليه سلطاتنا** كمؤشر على أن سبب المرض يجب البحث عنه في القلق والهياج العقلي . واستطونت أوبئة الحمى تلك إيرلندا أيضاً . فلقد مر عبر مستشفى «دبلن» ، خلال واحد وعشرين شهراً في عامي ١٨١٧ — ١٨١٨ ، ٣٩,٠٠٠ مريضاً بالحمى ، كما أصيب بالحمى في سنة أكثر حداثة ، طبقاً لـ «شريف اليسون»*** ستون ألفاً من الناس . واستقبلت المستشفى في «كورك» خلال عامي ١٨١٧ — ١٨١٨ سبع السكان ، كما استقبلت في «ليمريك» ربع السكان في

(*) «د. اليسون» ، «تصريف أمور الفقراء في اسكتلندا» .

(**) «اليسون» ، «القواعد الأساسية للسكان» في المجلد ٢ .

(***) مقالة «للدكتور اليسون» قرئت أمام «الجمعية البريطانية لتقدم العلم» ، في أكتوبر عام ١٨٤٤ ، في «يورك» .

نفس المدة الزمنية ، أما فى الأحياء السيئة من « ووترفورد » ، فقد أصيب بالحمى فى نفس هذا الوقت ، من ١٩ ٪ إلى ٢٠ ٪ من إجمالى السكان *.

إن المرء عندما يتذكر الظروف التى يعيش العمال فى ظلها ، عندما يفكر فى مدى إكتظاظ مساكنهم بهم ، كيف يموج كل ركن وكل زاوية بالبشر ، كيف ينام المرضى والأصحاء فى نفس الحجرة ، فى نفس السرير ، فإن الشيء الوحيد الذى يثير دهشته ، هو كيف أن مرضاً معدياً كهذه الحمى لا يكون أوسع إنتشاراً مما هو عليه . وعندما يتأمل المرء مدى ضآلة العون الطبى الذى يجده المريض فى متناول يده ، وكيف أن العديد منهم دون أى إرشاد طبى كان ، كذلك كيف أنهم جاهلين بالتدابير الوقائية العادية للغاية ، فإن الوفيات تبدو فى واقع الأمر قليلة . ويعتبر « دكتور اليسون » وهو الذى قام بدراسة موفقة حول هذا المرض ، أن السبب المباشر له ، هو الحاجة وظروف الفقراء التعسة ، كما جاء فى التقرير الذى إقتبسنا منه آنفاً . إنه يؤكد أن الحرمان والقصــور فى إشباع الضرورات الحيوية هما اللذان يعدان الإطار اللازم للعدوى ، ويجعلان الوباء رهيباً واسع الإنتشار . إنه يثبت أن مرحلة من الحرمان وأزمة تجارية أو محصول ردىء ، قد انتجا فى كل مرة وباء التيفوس فى ايرلندا وكذا فى اسكتلندا ، وأن حدة الوباء قد حلت على الطبقة العاملة دون غيرها على وجه التقريب ، إنها حقيقة جديرة بالالتفات ، إذ أن طبقاً لإفتراضه ، فإن غالبية الذين يهلكون بالتيفوس ، إنما هم آباء عائلات ، إنهم بالتحديد أشخاص لا يمكن لهؤلاء الذى يعتمدون عليهم أن يستغنوا عنهم ، كما أن العديد من الأطباء الايرلنديين الذين اقتبس عنهم ، يحملون نفس الإعتقاد .

هنالك صنف آخر من الأمراض ، ينشأ مباشرة عن الطعام أكثر مما ينشأ عن مساكن العمال . إن طعام العامل ، وهو طعام عسر الهضم فى حد ذاته ، غير مناسب على الإطلاق للأطفال الصغار ، والعامل لا يملك الوسائل أو الوقت ليجلب لأبنائه طعاماً أكثر ملائمة . فضلا عن ذلك ، فإن عادة إعطاء الأطفال

(*) « د. اليسون » . « تصريف أمور الفقراء فى اسكتلندا » (ملحوظة فى الطبعة الألمانية) .

مشروبات روحية بل وحتى إعطائهم الأفيون، عادة شائعة للغاية، وهذان المؤثران بالإضافة إلى ظروف الحياة تضر بالنمو الجثمانى، وهى تتسبب فى أكثر العلل تباينا على أعضاء الجهاز الهضمى، تاركا خلفها آثار تبقى مدى الحياة. إن معدات كل العمال تقريبا ضعيفة نوعاما. ومع ذلك فهم مجبرون على التشبث بطعامهم الخاص والذى هو جذر العلة. كيف لهم أن يعرفوا ما يلاموا عليه؟ وإن عرفوا، فكيف يمكنهم أن يمارسوا نظاما للطعام أكثر ملائمة، ما داموا عاجزين عن تبنى طريقة مختلفة للحياة، عاجزين عن نيل تعليم أفضل من التعليم الذى هم عليه؟ غير أن أمراضاً جديدة تنشأ أثناء الطفولة بسبب إختلال الهضم. إن داء الخنازير يكاد أن يكون عاما بين صفوف الطبقة العاملة، إذ كما أن الوالدين مصابين بداء الخنازير، فإن أطفالها مصابون أيضاً بنفس الداء، خاصة عندما تفعل المؤثرات الأصلية فعلهـــا وهى بكامل قوتها وعلى نحو مستمر، على الاستعداد الوراثى للأطفال. وكساح الأطفال نتيجة ثانية لنقص التغذية الجثمانية، إنه مرض واسع الإنتشار جداً بين أطفال الطبقة العاملة. إن تصليب العظام يتأخر، ويصاب نمو الهيكل العظمى عموما بالقصور، وتكثر تشوهات الأرجل والعمود الفقرى بالإضافة إلى كل مؤثرات الكساح. ما أكثر تزايد هذه الأضرار، نتيجة مايتعرض له العمال من تغيرات تحدث فى أعقاب التقلبات التى تصيب الصناعة، إنها الحاجة للعمل والأجور الهزيلة خلال فترة الأزمة، وهى مسألة لا يلزم الإسهاب فيها. إن النقص المؤقت للطعام الضرورى، والذى يتعرض له كل عامل مرة واحدة على الأقل فى مجرى حياته، إنما يسهم فقط فى تكثيف تأثير طعامه المعتاد، ذلك الطعام الذى هو كاف لكنه ردىء. إن الأطفال الذين يكادون أن يموتوا جوعا - فى نفس الوقت الذين هم فيه أحوج ما يكونون إلى الطعام الوافر المغذى - يصبحون بالضرورة التى لا مفر منها، ضعافا مصابين بداء الخنازير والكساح فى أقصى درجاته. وهم عندما يصبحون كذلك، فإن مظاهر عدة تنم عن المرض. إن الاهمال المحكوم به على الجمهرة العظمى من أطفال الطبقة العاملة، يترك بهم آثار لا تمحى، ويجلب معه إضعاف سلالة العمال كلها. يضاف إلى ذلك عدم ملائمة الملابس التى ترتديها هذه الطبقة واستحالة إتخاذ إحتياطيات لمواجهة البرد وضرورة الكدح طالما تسمح الصحة بذلك، والحاجة التى تفاقم الذعر عند ظهور

المرض ، والنقص العام الشديد والفريد فى كل المساعدات الطبية ، وأن ما لدينا ، إنما هو فكرة تقريبية عن الحالة الصحية للطبقة العاملة الإنجليزية . أما عن الآثار الضارة والخاصة بكل عمل من الأعمال ، كما يسير الآن ، فإنى لن أتناولها هنا .

بجانب كل ذلك ، هنالك مؤثرات أخرى تضعف صحة عدد كبير من العمال ، وأكثرها جميعا إدمان الشراب . إن كل المغريات الممكنة ، كل عوامل الغواية ، تتضافر معا لتقود العمال إلى الإدمان ، إذ تكاد الخمر أن تكون المصدر الوحيد للمتعة ، كما تتآمر كل العوامل لتجعل حصولهم عليها أمراً ميسورا . إن العامل يعود من عمله متعباً منهكا ، ليجد منزله خال مما يريح ، رطب قذر منفر ، إنه فى حاجة ملحة إلى التسلية ، يجب أن يحصل على شيء ما يجعل العمل أمراً يستحق مشقته ، وذاك حتى يكون مرأى اليوم التالى محتملا . إن الحالة السوداوية الواهنة المتعبة لجسده وذهنه ، والنابعة من حالته السقيمة خاصة مما يعانيه من سوء هضم ، تتجاوز فى تفاقمها قدرته على التحمل ، إن مرجع ذلك إلى أحوال حياته العامة ، وعدم اليقين من استمراره فى العمل ، واعتماده على كل الصدف والفرص ، وعجزه عن أن يفعل فعلا يكسبه وضعاً مؤكداً . إن هيكله الواهى وقد أضعفه الهواء الفاسد والطعام الردىء ، يطالب بعنف بشيء خارجى مثير ، إن حاجته الإجتماعية لا يمكن إشباعها إلا فى الحانة ، إنه لا يجد لنفسه على وجه الإطلاق مكانا آخر غير هذا المكان كى يلتقى أصدقاءه . كيف يمكن أن يتوقع منه مقاومة مثل هذا الإغراء ؟ إنه لا مفر من الناحية الأخلاقية والجسدية ، أن يدمن الخمر عدد كبير من العمال فى مثل تلك الأحوال . وإلى جانب تلك المؤثرات البدنية الأساسية التى تدفع العمال إلى الإدمان ، هنالك القدوة التى تقدمها كثرة العامة ، إهمال التعليم واستحالة حماية للصغار من الإغراء ، وفى حالات كثيرة ، التأثير المباشر للوالدين المدمنين واللذين يعطيان الخمر لأطفالهما . إن الثقة فى نسيان التعاسة وثقل الحياة ساعة أو ساعتين ، ومائة ظرف آخر ، لهى من القوة بمكان ، حتى أنه لا يمكن حقا لوم العمال على خضوعهم لمثل هذا الضغط الطاغى . لقد كف الإدمان على أن يكون خطيئة يمكن أن يتحمل المخطىء مسئوليتها . لقد غدا ظاهرة طبيعية ، ونتيجة حتمية لا مفر منها لتأثير أوضاع معينة على شيء ما ، شيء لا يملك إرادته

أمام تلك الأوضاع. إن هؤلاء الذين حقروا العامل الى مجرد شيء ما، لهم الذين عليهم أن يتحملوا المسئولية. وكما أنه لا مفر من أن تسقط أعداد كبيرة من العمال فريسة للشراب، فإنه لا مفر أيضاً من أن تفصح الخمر عن تأثيرها المدمر على أجساد وعقول ضحاياها. إنها توفر كل استعداد ينتج عنه المرض بسبب ظروف العمال الحياتية، إنها تقوي اضطرابات الرئة والجهاز الهضمي إلى أعلى الدرجات كذا تقوي ظهور وإنتشار وباء التيفوس.

هنالك مصدر آخر من مصادر الضرر البدني الذي يقع على الطبقة العاملة، ذلك هو استحالة استخدام أطباء مهرة في حالة المرض. حتماً أن بعض المؤسسات الخيرية تسعى جاهدة لتغطية هذا النقص، فقد استقبلت «دار العجزة» في «مانشستر» مثلا أو قدمت النصح والدواء لـ ٢٢٫٠٠٠ مريضاً في السنة. لكن ماذا يعني ذلك بالنسبة للمدينة، يحتاج ثلاثة أرباع سكانها طبقاً لإحصاء «جاسكل»* ، للمساعدة الطبية سنوياً؟ أن الأطباء الانجليز يتقاضون أتعاباً عالية، وليس العمال في وضع يمكنهم من دفع تلك الأتعاب. ومن ثم فإنهم لا يفعلون شيئاً أو يتوجهون مضطرين إلى دجالين زهيدو الأجر، ويتعاطون علاجاً من نصابين يدعون الطب، علاجاً يضر أكثر مما يفيد. إن عدداً ضخماً من أمثال هؤلاء الدجالين قد ترعرع في كل مدينة انجليزية. إنهم يحصلون على زبائنهم من بين الفقراء عن طريق الإعلانات والملصقات، وأساليب أخرى مثل تلك الحيل. وتباع إلى جوار هؤلاء، كميات ضخمة من أدوية مخترعة لكل علة يتصورها العقل، «حبوب دواء موريسون»، «حبوب دواء بار للحياة»، «حبوب دواء دكتور نيتوارينج»، وآلاف أخـــرى من حبوب الدواء والخلاصات والبلاسم، وهي تجميعاً لها صفة شفاء كل الأمراض التي يرثها الجسد. إن هذه الأدوية نادراً ما تحتوي على مواد ضارة بالفعل، إلا أن تناولها دون قيد وبكثرة يؤثر على الجسم تأثيراً ضاراً. ولما كان المشترون الغافلون، ينصحون على الدوام بأن يأخذوا منها الكثير قدر الإمكان، فإن أحداً لا تصيبه الدهشة، عندما يجعلونهم يبتلعون منها كميات كبيرة، سواء كانوا يحتاجونها أم لا يحتاجون إليها.

(*) «السكن للعاملين في الصناعة»، الفصل الثامن.

ليس هنالك أي غرابة على الإطلاق ، فى أن تبيع صناعة « حبوب بار للحياة » من عشرين إلى خمس وعشرين ألف علبة فى الأسبوع ، من هذه الحبوب النافعة للصحة . إن واحدة منها تعالج الإمساك ، وأخرى تعالج الإسهال ، الحمى ، الضعف ، وكل العلل الممكنة . إن العمال الإنجليز يفعلون الآن مثلما يفعل فلاحونا الألمان فى مواسم معينة ، إنهم يسحبون الدم بالكاسات أو بالادماء . إنهم يلتهمون الأدوية المخترعة ، مما يعود عليهم بالضرر ويعود على أصحاب المصانع بالربح الوفير . إن واحداً من أشد تلك الأدوية المخترعة ضرراً هو شراب اسمه « منعش جودفرى للقلب » ، محضر فى الأساس من مخدر هو صبغة الأفيون . إن النساء اللواتى يعملن بالمنازل ، وعليهن رعاية أطفالهن وأطفال الآخرين ، يقمن بإعطاء هؤلاء الأطفال ذلك المشروب كى يلزموا الهدوء وكى يتقووا ، كما يعتقد الكثيرون . إنهن يبدأن فى الغالب بإعطاء هذا الدواء للأطفال حديثى الولادة ، ثم يداومن على إعطائه دون أن يعرفن آثار هذا « المريح للقلب » ، حتى يموت الأطفال . إن الكمية التى تعطى للطفل تزاد ، كلما قلت إستجابة جسمه لمفعول الأفيون ، وعندما يكف هـــذا المنعش عن الفعل ، تعطى لهم صبغة الأفيون بكمية تصل فى غالب الأحوال إلى خمسة عشر أو عشرين نقطة فى كل جرعة . لقد قرر « مأمور تحقيق أسباب الوفيات الجنائية فى « نوتينجهام » أمام « لجنة برلمانية » *، أن أحد الصيادلة قد استخدم طبقاً لبيانه هو ، ألف وثلاثمائة وزنة من صبغة الأفيون خلال عام واحد ، فى تحضير « منعش جودفرى للقلب ». إن الآثار التى تظهر على الأطفال الذين يعالجون به ، أمر يمكن التعرف عليه فى الحال . إنهم شاحبون ، واهنون ، ذابلون ، وهم عادة ما يموتون قبل أن يكملوا عامهم الثانى . إن هذا المنعش يستخدم فى كل المدن الكبرى والأحياء الصناعية فى المملكة ، بمدى واسع للغاية .

(*) تقرير لجنة تقصى تشغيل الصبية والشباب فى المناجم ومناجم الفحم الحجرى ، فى الحرف والصناعات التى يعمل فيها أعداد منهم ، والتى لا تنطوى تحت نصوص « لائحة تنظيم المصانع » التقرير الأول والثانى ، وتقرير « جراينجر » . يذكر التقرير الثانى عادة « كتقرير لجنة تشغيل الصبية » . (هذا التقرير هو واحد من أفضل التقارير الرسمية ، إنه يحتوى على حشد من أعنف الحقائق ، ولكن من أكثرها إثارة للفزع أيضاً « أضيفت إلى الطبعة الألمانية ») . (التقرير الأول صدر عام ١٨٤١ ، والتقرير الثانى صدر فى ١٨٤٣)

إن الإضعاف العام لبنيان الطبقة العاملة ، هو نتيجة كل تلك المؤثرات . إن بين العمال قلة من الأقوياء الأصحاء متينو البنيان . إن صناع المصانع الذين يعملون فى حجرات ضيقة ، هم فقط ، الذين سنناقش أمرهم فى هذا المجال . إنهم جميعاً يكادوا أن يكونوا ضعافا ناحلين ذابلى البنيان ، هزيلين شاحبين مترهلى الأنسجة، ماعدا العضلات خاصة تلك التى يستخدمونها فى عملهم . إنهم جميعاً يعانون ، على وجه التقريب ، من عسر الهضم ، وبالتالى فهم يعانون على وجه التقريب ، من السوداوية والكآبة وسرعة الغضب والعصبية : إن بنيانهم الواهى عاجز عن مقاومة المرض الذى يحل به فى كل مناسبة ، ومن هنا فإنهم يعيشون دون أوانهم ويموتون مبكراً . إن إحصائيات الوفيات تقدم فى هذا الصدد دليلا لا يدحض .

يصل معدل الموت السنوى فى إنجلترا كلها وويلز ، طبقاً « لتقرير المسجل العام جراهام » ، إلى أقل من ٢¼٪ . أى يمكن القول ، أن شخصاً يموت كل عام من كل خمسة وأربعين شخص* . كان ذلك هو المتوسط عام ١٨٣٩ — ١٨٤٠ . وانخفضت الوفيات عام ١٨٤٠ — ١٨٤١ بعض الشىء ، وأصبح معدل الموت واحد فقط من كل ست وأربعين . إلا أن حجم الوفيات فى المدن الكبرى مختلف تمام الاختلاف . إننى أملك أمامى الجداول الرسمية للوفيات (المانشستر جارديان ٣١ يوليو ١٨٤٤) ، وطبقاً لهذه الجداول فإن معدل الموت فى العديد من المدن الكبرى هو كما يلى : — واحد من كل ٣٢,٧٢ فى « مانشستر » مشتملة على « كورلتون » و « سالفورد » ، وواحد من كل ٣٠,٧٥ إذا إستبعدنا « كورلتون » و « سالفورد » . وواحد فى كل ٣١,٩ فى « ليفربول » ، مشتملة على « ويست دربى » (ضاحية) ، وواحد من ٢٩,٩ إذا استبعدنا « ويست دربى » . بينما المتوسط فى كل مناطق « شيشاير » و « لانكشاير » و « يوركشاير » ، مشتملة على مناطق ريفية ، وعدد من المدن الصغيرة كليا أو جزئياً ، حيث يبلغ المجموع السكانى لسكان هذه المناطق مجتمعة ٢,١٧٢,٥٠٦ شخصاً ، هو وفاة واحدة من كل ٢٩,٨ شخصاً — إن العمال فى المدن الكبرى قد أسكنوا فى أماكن ضارة للغاية .

---

* التقرير السنوى الخامس للمسجل العام لتواريخ الميلاد والوفيات والزيجات .

إن وفيات « برسكوت » فى « لانكشاير » توضح الوضع فى واحدة من المناطق التى يسكنها العاملون فى التعدين . تبدو الحالة الصحية فى هذه المنطقة أدنى من تلك الموجودة فى المناطق الزراعية . إن العمل فى التعدين ليس بأى حال من الأحوال من المهن الصحية ، غير أن هؤلاء المشتغلين فى التعدين يعيشون فى الريف ، ومعدل الوفيات بينهم واحد من كل ٤٥,٤٧ فقط أى قرابة ٢,٥٪ ، وبذا فهو أفضل معدل فى انجلترا كلها . إن كل تلك البيانات تستند إلى جداول وفيات عام ١٨٤٣ إلا أن معدل الوفيات فى مدن اسكتلندا ما يزال أعلى من ذلك ، إنه واحد من كل — ٢٩ فى « أدينبورج » عام ١٨٣٨ — ١٨٣٩ ، وواحد من — ,٢٢ فى « المدينة القديمة » وحدها عام ١٨٣١ ، كما كان المتوسط فى « جلاسجو » طبقاً « لدكتور كوين »* هو واحد من كل ٣٠ منذ عام ١٨٣٠ ، وواحد من كل ٢٢ إلى ٢٤ فى بعض السنوات الفريدة . إن هذا النقص الجسيم فى الحياة يقع على الطبقة العاملة أساساً . إن المتوسط العام يتحسن بسبب الوفيات المحدودة فى الطبقات العليا والوسطى ، إن كل الأطراف تشهد على صحة ذلك . إن دكتور « ب . ه . هولاند » يقدم واحدة من أحدث الشهادات . إنه من « مانشستر » ، وهو الذى قام ، فى إطار لجنة رسمية ، بدراسة عن « كولتون » — « ميداوك » ، من ضواحى « مانشستر » . لقد قسم كلا من المنازل والشوارع إلى طبقات ثلاث ، وأثبت التنوعات التالية فى معدل الوفاة :—

الطبقة الأولى من الشوارع	المنازل	١ — طبقة	الوفيات واحد من كل ٥١
» » » »	»	٢ — »	» » » » ٤٥
» » » »	»	٣ — »	» » » » ٣٦
» الثانية » » »	»	١ — »	» » » » ٥٥
» » » »	»	٢ — »	» » » » ٣٨
» » » »	»	٣ — »	» » » » ٢٥

* الاحصائيات الحيوية (المختصة بالوفاة والولادة والزواج) الخاصة بجلاسجو .

الطبقة الثالثة من الشوارع   المنازل   ١ ـ طبقة   ناقصه ـــــــــــ

» » » » » ٢ — » الوفيات واحد من كل ٢٥

» » » » » ٣ — » » » » » ٢٥

يتضح من جداول أخرى « لهولاند » أن وفيات « الشوارع » من الطبقة الثانية أعلى بنسبه ١٨٪ ، وأن وفيات شوارع الطبقة الثالثة تزيد بنسبة ٦٨٪ عن تلك التى من الطبقة الأولى ، وأن وفيات « المنازل » من الطبقة الثانية تزيد بنسبة ٣١٪ ، ومن الطبقـــة الثالثه تزيد بنسبة ٧٨٪ عن تلك التى من الطبقة الأولى ، وأن الوفيات فى الشوارع السيئة التى أدخلت عليها تحسينات قد إنخفضت بنسبة ٢٥٪ ، وهو يختتم بالملاحظة التالية ، والتى تعتبر ملاحظة صريحة للغاية بالنسبة لبورجوازى إنجليزى* :ـ

« عندما نجد أن معدل الوفيات يصل فى بعض الشوارع إلى أربعة أضعاف البعض الآخر ، كما يصل إرتفاعه إلى ضعفى كل طبقات الشوارع عند مقارنته بطبقات أخرى ، وعندما نجد بالإضافة إلى ذلك ، أن الوفيات ثابتة الإرتفاع فى تلك الشوارع سيئة الحال، وتـكاد تـكون ثابتة الانخفاض فى تلك الجيدة الحال، فإننا لا نستطيع تجنب الخاتمة التى تقول ، أن حشوداً من الآدميين أمثالنا ، مئات من جيراننا المباشرين ، يهلـكون سنوياً بسبب نقص أكثر الاحتياطات وضوحاً »

إن تقرير « الحالة الصحية للطبقة العاملة » يشتمل على معلومات تثبت نفس الحقيقة . إن متوسط طول عمر الطبقات العليا ، علية القوم وأصحاب المهن ... إلخ كان ٣٥ عاما فى « ليفربول » عام ١٨٤٠ ، وذلك الذى لرجال الأعمال والحرفيين الأفضل حالا ٢٢ عاما ، وذلك الذى للعمال الصناع وعمال اليومية وللطبقة الصالحة للعمل بشكل عام ١٥ عاما فقط . إن التقارير البرلمانية تشمل على حشد من أمثال تلك الحقائق .

---

* تقرير لجنة تقصى حالة المدن الـكبرى والمناطق الآهلة بالسكان . صدر التقرير الأول عام ١٨٤٤ ، وله ملحق .

إن معدل الموت يظل عالياً إلى هذا الحد ، بسبب الوفيات الكثيفة بين صغار أطفال الطبقة العاملة أساساً . إن الهيكل الرقيق للطفل، لأعجز من أن يقاوم المؤثرات الضارة ، لهذا القدر المتدنى من الحياة . إن الإهمال الذى كثيراً ما يتعرضون له ، عندما يعمل كلا الوالدين أو يموت أحدهما ، ليثأر لنفسه على الفور ، ولذا فليس من عجب أن يهلك أكثر من ٧٥٪ من أبناء الطبقة العاملة فى « مانشستر » ، طبقاً لآخر تقرير إقتبسنا عنه ، قبل سن الخامسة ، بينما ٢٠٪ فقط من أطفال الطبقات العليا ، ٣٢٪ تقريباً من أطفال كل الطبقات فى الأمة يموتون دون سن الخامسة* . إن مقالة « الأرتيزان » ، والتى سبق الإشارة إليها عدة مرات، تقدم معلومات أدق فى هذا الصدد ، وذلك بمقارنة معدل الموت فى المدينة ، والناجم عن كل مرض من أمراض الأطفال على حدة ، بمعدل الموت فى الريف، وبذا يثبت بشكل عام ، أن الأوبئة تهلك فى « مانشستر » و « ليفربول » ثلاث أضعاف ما تهلك فى المناطق الريفية ، وأن المؤثرات على الجهاز العصبى تتضاعف خمس مرات ، وأن إضطرابات المعدة تتضاعف ثلاث مرات ، بينما نسبة الوفيات الناجمة عن أمراض الرئات فى المدينة إلى تلك التى فى الريف ، هى ٢و٥ : ١ . وتصل الحالات القاتلة للجدرى والحصبة والحمى القرمزية والسعال الديكى بين صغار الأطفال إلى أربعة أضعاف ، أما الماء فوق المخ فثلاث أضعاف ، والتشنجات العصبية عشرة أضعاف . ولتقديم مستند آخر مسلم به ، فإنى أرفق الجدول التالى ، والذى يبين أنه من بين كل ١٠و٠٠٠ شخص يموت . . .**

* تقارير لجنة تقصى للمصانع ، المجلد الثالث . تقرير « دكتور هاوكينز » عن « لانكشاير » والذى ورد فيه ذكر « دكتور روبرتون » — رئيس هيئة الإحصاء فى « مانشستر »

** اقتبسها « دكتور وارد » من « تقرير اللجنة البرلمانية للمصانع » لعام ١٨٣٢ ، فى كتابه « تاريخ الطبقات الوسطى والعاملة » . لندن ١٨٣٥ ، الطبعة الثالثة .

	تحت خمس سنوات	٥ — ١٩	٢٠ — ٣٩	٤٠ — ٥٩	٦٠ — ٦٩	٧٠ — ٧٩	٨٠ — ٨٩	٩٠ — ٩٩	أكثر من ١٠٠
فى « روث لاندشاير » منطقة زراعية صحية	٢,٨٦٥	٨٩١	١,٢٧٥	١,٢٩٩	١,١٨٩	١,٤٢٨	٩٣٨	١١٢	٣
« اسيكس » منطقة زراعية بها مستنقعات	٣, ٥٩	١,١١٠	١,٥٢٦	١,٤ ٣	٩٦٣	١,٠١٩	٦٣٠	١٧٧	٣
مدينة «كارليسل» ١٧٠٩-١٧٨٧ قبل إدخال المصانع	٤,٤٠٨	٩١١	١,٠٠٦	١,٢٠١	٩٤٠	٨٢٦	٥٣٣	١٥٣	٢٢
مدينة « كارليسل » بعد إدخال المصانع	٤,٧٣٨	٩٣٠	١,٢٦١	١,١٤٣	٦٢٧	٧٢٧	٤٥٢	٨٠	١
« بريستون » مدينة صناعية	٤,٩٤٧	١,١٣٦	١,٣٧٩	١,١١٤	٥٥٣	٥٣٢	٢٠٨	٣٨	٣
« ليدز » مدينة صناعية	٥,٢٨٦	٩٢٧	١,٢٢٨	١,١٩٨	٥٩٣	٥١٢	٢٢٥	٣٩	٢

إن مؤثرات أخرى ، بالإضافة إلى الأمراض المتنوعة ، التى هى النتيجة الحتمية للإهمال والقهر الواقع حالياً على الطبقات الفقيرة ، تعمـــل على زيادة الوفيات بين الأطفال الصغار . إن على الزوجة ، فى كثير من العائلات ، أن تعمل بعيداً عن المنزل ، مثلما يفعل الزوج ، وتكون النتيجة هى الإهمال التام للأطفال ، والذين إما أن تغلق عليهم الأبواب ، أو يعطوا لآخرين للعناية بهم . وبالتالى ، فإن هلاك المئات منهم بسبب مختلف ألوان الحوادث ، أمر لا يثير الدهشة . لا يوجد مكان آخر يدهس فيه الأطفال بهذه الكثرة ، لا يوجد مكان آخر يقتل فيه الأطفال بهذه الكثرة ، بالسقوط وبالغرق وبالحرق ، كما يحدث فى المدن الإنجليزية الكبرى . إن الوفيات الناجمة عن حروق النار أو الماء الساخن كثيرة بنوع خاص ، إن مثل هذه الوفاة تقع أسبوعياً على وجه التقريب فى « مانشستر » خلال شهور الشتاء ، وهى كثيرة للغاية فى « لندن » . رغم أن ما ينشر عن ذلك فى الصحافة قليل . إن تحت يدى نسخة من « ازيكلى ديسباتش » الصادرة فى ١٥ ديسمبر ١٨٤٤ . وطبقاً لما جاء فيها ، فقد وقعت ست حالات من أمثال تلك الحالات فى المدة ما بين أول ديسمبر والسابع منه . إن هؤلاء الأطفال التعساء والذين يهلكون بطريقة بشعة ، إنما هم ضحايا فوضانا الإجتماعية والطبقات القابضة على الملكية ، والتى يهمها المحافظة على تلك الفوضى وإطالة أمدها . إن المرء لفى حيرة ، إن كانت تلك الميتة البشعة العذاب أيضاً ليست نعمة للأطفال ، تنقذهم من حياة طويلة من الكدح والتعاسة ، إنهم أثرياء بالمعاناة ، فقراء فى المتعة . هكذا سارت الأمور طويلا فى انجلترا ، والبورجوازية تقرأ فى الصحافة يومياً عن تلك الأمور ولا تزعج نفسها أكثر من ذلك بها . لكنها لا تستطيع أن تشتكى بعد البراهين الرسمية وغير الرسمية التى استشهد بها هنا والتى لابد معروفة لديها ، إن أنا أتهمتها صراحة بالقتل الإجتماعى العمد . على الطبقة الحاكمة أن تدرك أن تلك الأحوال المخيفة يجب إصلاحها ، وإلا فعليها أن تخضع إدارة المصالح العامة للطبقة العاملة . إن السبيل الأخير غير مرغوب فيه بأى حال من الأحوال ، أما عن المهمة السابقة فهى لا تملك القـــدرة اللازمة لها طالما ظل التعصب والتحيز البورجوازى معطلا للبورجوازية ، لأنها لو أبدت فى النهاية ، بعد هلاك مئات وآلاف الضحايا ، قليلا من القلق على المستقبل بإجازة « لائحة مبانى العاصمة(١٠) » ، والذى سيقيد فى ظله اكتظاظ الساكن الذى لا ضابط له ولو إلى درجة طفيفة

على الأقل، ولأنها لو تباهت بإجراءات لا تلتقي بحال من الأحوال مع مطالب الأمن الصحي العام لبعدها عن مجابهة جذور الشر، فإنها لن تستطيع أن تبرىء نفسها من الإتهام. ليس هنالك أمام البورجوازية الإنجليزية إلا إختيار واحد، إما أن تستمر بحكمها تحت تهمة القتل العمد التي لا تدحض ورغمها، وإما أن تتخلى لمصلحة الطبقة العاملة. وهي حتى الآن قد اختارت الطريق الأول.

دعونا نرجع من الحالة الصحية للعمال إلى حالتهم العقلية. إن البورجوازية تنعم عليهم بالقدر الضروري للحياة فقط، وبالتالي فلا عجب عندما لا تمنحهم من التعليم غير القدر الذي تقتضيه مصلحتها فقط، وهو قدر في الحقيقة ليس بالكثير. إن وسائل التعليم في انجلترا محجوبة عن الأهالي من كل النواحي. إن مدارس الأيام القليلة، والتي في متناول الطبقة العاملة، إنما هي متاحة فقط لأقل القليل، وهي في ذات الوقت رديئة. إن المدرسين والعمال المهترئين وأناسا آخرين غير مناسبين، هؤلاء الذين إتجهوا إلى التدريس بغية الحياة فقط، إنما هم عادة معدومين من المعرفة الأولية الضرورية، مجردين من التأدب الأخلاقي الذي يحتاجه المدرس تمام الحاجة، كما أنهم في حل من الرقابة الشعبية. هنا أيضاً تسود المنافسة الحرة، وكالعادة يكسب الأغنياء من ورائها، أما الفقراء الذين «ليست» المنافسة حرة بالنسبة لهم، كما أنهم يفتقدون المعرفة التي تمكنهم من تكوين حكم صائب، فإنهم يتحملون النتائج الضارة. إن المواظبة على حضور المدارس الإلزامية لم تدم. وهي في المصانع كما سنرى، إسمية تماماً. إن الوزارة عندما عزمت في دورة ١٨٤٣ على جعل هذا الإلزام الإسمي فعالا، عارضت البورجوازية الصناعية هذا التدبير بكل ما لها من قوة، رغم أن الطبقة العاملة كانت تحبذ صراحـــة انتظام المدارس الإلزامية. يضاف إلى ذلك، أن جمهرة من الأطفال تعمل طوال الأسبوع في المصانع أو في المنزل، وبالتالي لم يكن في وسعها أن تنتظم في المدارس. كما أن المدارس المسائية، والمفترض انتظام الأطفال الذين يعملون خلال النهار بها، كانت مهجورة أيضاً أو كان الذهاب إليها دون فائدة. إنه لكثير جداً، أن نطلب من عمال صغار يستهلكون أنفسهم إثنتى عشر ساعة في اليوم، ضرورة الذهاب إلى المدرسة من الثامنة إلى العاشرة مساء. ان الذين حاولوا الذهاب إلى المدرسة قد سقطوا نياماً، كما يقر بذلك مئات الشهود في «تقرير لجنة تشغيل الصبية». حتما

لقد أنشئت مدارس أيام الآحاد ، إلا أنها أيضاً مزودة بالمدرسين بطريقة شحيحة للغاية . إنها من الممكن أن تكون ذات فائدة ، فقط لهؤلاء الذين تعلموا شيئاً فى المدارس النهارية . إن المدة بين يوم الأحد والأحد الذى يليه ، مدة طويلة على طفل جاهل ، حتى يتذكر فى جلسته الثانية ما تعلمه فى الجلسة الأولى منذ أسبوع مضى . إن « تقرير لجنة تشغيل الصبية » يقدم مئات الأدلة ، كما تعبر اللجنة ذاتها بكل قوة ، عن فكرة أنه لا مدارس اليوم الواحد خلال الأسبوع ، ولا مدارس أيام الآحاد ، تلتقى مع أدنى مستوى من مستويات إحتياجات الأمة . إن هذا التقرير ليقدم الدليل ، على أن الجهل متفشى بين الطبقة العاملة الانجليزية على نحو يصعب توقعه فى كل من أسبانيا أو إيطاليا . والأمر لا يمكن أن يكون غير ذلك. إذ ليس للبورجوازية غير القليل لتأمله ، والكثير لتخافه من تعليم الطبقة العاملة. إن الحكومة بكل ميزانيتها الهائلة والتى تبلغ ٥٥,٠٠٠,٠٠٠ جنيه إسترلينى ، لا يوجد بها غير فقرة واحدة تافهة بمبلغ قدره ٤٠,٠٠٠ جنيهاً استرلينياً للتعليم العام . إن ما يعتمد للتعليم ، لأقل بكثير من ذلك الذى يعتمد لحمل الناس على التعصب للطوائف الدينية ، والذى يضر بقدر ما يفيد على أقل تقدير . وكما يحدث، فإن « كنيسة الدولة » تدير مدارسها الأهلية الرعوية ، وكذا تدير مختلف الطوائف الدينية مدارسها الخاصة بكل طائفة ، بهدف واحد، هو المحافظة على أطفال أخوة المذهب فى إطار الطائفة ، والعمل على الفوز بروح طفل بائس هنا أو هناك من طائفة دينية أخرى . والنتيجة ، أن الدين وبالتحديد أقل جوانب الدين جدوى ، الجانب الذى يناقش نواحى الخصومة ، هو الذى يكون الموضوع الرئيسى للتعليم ، وتحمل ذاكرة الأطفال أكثر من طاقتها بعقائد جزئية غير حاسمة ، واختلافات لا هوتية ، وبذا توقظ الكراهية الطائفية والتعصب بصورة مبكرة للغاية ، وتهمل كل أعمال التثقيف الأخلاقية والذهنية العقلية بطريقة مخجلة . لقد طالبت الطبقة العاملة البرلمان بصورة متكررة ، أن يضع نظاماً صارماً من التعليم العلمانى العام ، على أن تترك أمور الدين لقساوسة الطوائف الدينية ، إلا أن وزارة واحدة لم تتأثر بهذا الطلب إلى حد إجازته . إن الوزير هو خادم البورجوازية المطيع ، والبورجوازية نفسها مقسمة إلى عدد لا حصر له من الطوائف الدينية ، وكل طائفة منها على استعداد وهى سعيدة ، أن تمنح العمال هذا التعليم الخطر ، ولها شرط واحد ، هو أن يقبل العمال كعلاج شاف لهم ، العقائد

المعينة الخاصة بالطائفة المعينة . وحيث أن تلك الطوائف ما تزال تتشاجر فيما بينها ، كل تسعى للتفوق على الطوائف الأخرى ، فإن العمال سوف يظلون دون تعليم حالياً . حتماً أن أصحاب المصانع يفاخرون بأنهم قد مكنوا الغالبية من تعلم القراءة ، إلا أن نوعية القراءة تناسب مصدر التعليم ، كما تبرهن « لجنة تشغيل الصبية » على ذلك . إذ طبقاً لهذا التقرير ، يصبح من يعرف أحرف الكتابة قادراً على قراءة ما يكفى لإراحة ضمير أصحاب المصانع ، إن من يمعن التفكير فى علم هجاء اللغة الإنجليزية المشوش ، والذى لا يمكن تعلمه أيضاً إلا بعد مرحلة طويلة من التفقه ليتمكن المرء من قراءة واحدة من الآداب ، سوف يدرك على الفور مدى هذا الجهل . إن القليلين جداً من العمال هم الذين يكتبون فى سرعة ، والكتابة طبقاً لعلم الهجاء تتجاوز قدرات العديد من « المتعلمين » أيضاً . إن مدارس « كنيسة الدولة » لأيام الآحاد ، ومدارس « الكويكرز » وطوائف دينية أخرى ، لا تعلم الكتابة كما أعتقد « لأنها وظيفة دنيوية للغاية بالنسبة لمدارس الآحاد » . إن نوعية التعليم الذى يقدم إلى العمال من اتجاهات أخرى ، يمكن الحكم عليه من نموذج أو إثنين مأخوذين من « تقرير لجنة تشغيل الصبية » ، والذى لا يشتمل مع الأسف ، على التشغيل الصناعى الخالص : —

يقول « جرانجر » عضو اللجنة : إن الأطفال الذين قمت بفحصهم فى « بير مينجهام » هم بشكل عام مفتقرين إلى أدنى درجة مما يطلق عليه إسم التعليم المفيد . ورغم أن التعليم الدينى وحده ، هو الذى يقدم فى كل المدارس تقريباً ، فإن الجهل العميق بهذا الموضوع سائد أيضاً — ويقول « هورن » عضو اللجنة ، لقد وجدت المثال ضمن أمثلة أخرى فى «وولفرهامبتون » ، إنه عن فتاة فى الحادية عشر من عمرها ، إنتظمت فى حضور المدارس النهارية ومدارس أيام الآحاد . « إنها لم تسمع عن أى عالم آخر ، لم تسمع عن السماء أو عن أى حياة أخرى » فتى فى السابعة عشر من عمره ، لا يعرف أن ضعف إثنين هو أربعة ، كما لا يعرف كم فلساً فى بنسين، حتى بعد أن وضعت النقود فى يده. إن أولاداً عديدين لم يسمعوا البتة عن « لندن » أو « ويلينهول » ، رغم أن الأخيرة لا تبعد أكثر من ساعة عن منازلهم وعلى أقرب صلات بـ « وولفرها مبتون » . عديدون لم يسمعوا البتة إسم الملكة ، ولا أسماء أخرى « مثل نيلسون » وويلينجتون »، « وبونابرت » » .

بل مما كان ملفتاً للنظر ، هو أن هؤلاء الذين لم يسمعوا أبداً عن « سانت بول » ، و « موسى » و « سليمان » ، كانوا على علم تام بحياة وأعمال وشخصية «ديك تيرين» قاطع الطريق ، وكذا « جاك شيبارد » اللص ومحطم السجون. إن شاباً فى السادسة عشر لا يعرف كم يساوى ضعف إثنين ، ولا كم تساوى أربعة فلسات . وآخر فى السابعة عشر يؤكد أن أربعة فلسات هى أربعة أنصاف البنس ، وشاب فى السابعة عشر أجاب على عدة أسئلة سهلة للغاية بعبارة موجزة ، وهى «أنه لا يعرف شيئاً » * إن هؤلاء الأطفال الذين حشوا بالعقائد الدينية مدة أربع أو خمس سنوات ، لا يعرفون فى النهاية أكثر مما كانوا يعرفون فى البداية . ان طفلا « إنتظم فى الذهاب إلى مدارس أيام الآحاد مدة خمس سنين ، لا يعرف من هو يسوع المسيح ، إلا أنه قد سمع عن هذا الإسم ولم يسمع أبداً عن الحواريين الاثنى عشر ، « شمشون » ، « موسى » ، عيرون » ... الخ** وآخر حضر بانتظام مدارس الآحاد سبع سنوات ، يعرف من كان يسوع المسيح وأنه مات على الصليب فداء عنا ، لكنه لم يسمع أبداً عن «سانت بيتر » أو « سانت بول »***

وثالث كان يتردد على عدد مختلف من مدارس أيام الآحاد مدة سبع سنوات ، يستطيع أن يقرأ فقط ، الكتب الخفيفة السهلة ذات الكلمات البسيطة والمقطع الهجائى الواحد ، وهو قد سمع عن الحواريين ، لكنه لا يعرف إن كان « سانت بيتر » شخصية مستقلة أم أنه هو نفسه « سانت جون » الذى لابد أن يكون هو « سانت جون ويسلى » **** وتلقى « هورن » الإجابات التالية من بين ما تلقاه من إجابات أخرى ، عن سؤاله ، عمن كان المسيح : « كان آدم » ، «كان حوارياً» « كان المخلص ابن الله » . وأجابه شاب فى السادسة عشر بقوله « كان ملكا على لندن منذ زمن بعيد » . وفى « شيفيلد » دعا « سيمونس » عضو اللجنة ، أطفال مدارس الآحاد للقراءة بصوت عال ، غير أنهم عجزوا عن أن يقولوا ماذا قرأوا ، وأى نوع من الناس كان الحواريون رغم أنهم كانوا يقرأون للتو عنهم . وبعد

---

* « تقرير لجنة تشغيل الصبية » ملحق الجزء الثانى ، سؤال ١٨ ، رقم ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢٢٦ ؛ ٢٣٣ الخ « هورن »

** شهاده بنفس المرجع السابق صفحة سؤال رقم ٣٩ ، الجزء الأول صفحة ٣٣

*** نفس المرجع السابق صفحة سؤال رقم ٣٦ ، الجزء الأول صفحة ٤٦

**** نفس المرجع السابق صفحة سؤال رقم ٣٤ ، الجزء الأول صفحة ٥٨

أن سألهم واحداً بعد الآخر عن الحواريين ، دون أن يحصل على إجابة واحدة صحيحة ، صاح واحد منهم صغير السن خبيث النظرات ، فى مرح هائل ، « إننى أعرف من هم ياسيدى ، إنهم هؤلاء الذين أصابهم الجذام »* وجاءت نفس التقارير من « لانكشاير » ومناطق صناعة الفخار .

هذا ما تفعله البورجوازية والدولة لتعليم وتطوير الطبقة العاملة . إلا أن الظروف التى تعيش هذه الطبقة فى ظلها ، تمنحها لحسن الحظ نوعا من التثقيف العملى ، لا يحل فقط محل ما تحشوه هذه المدارس ، لكنه أيضاً ، يجعل الهوس الدينى المشوش المرتبط به غير ضار ، بل إنه حتى يضع العمال فى طليعة الحركة الوطنية الإنجليزية . إن الحاجة هى أم الاختراع ، وما الذى يفوق الفكر والعمل حتى الآن . إن العامل الإنجليزى الذى يقرأ بالكاد ! والذى يكتب أقل مما يقرأ ، ليعرف رغم ذلك ، وبصورة جيدة للغاية ، أين تكمن مصلحته ومصلحة الأمة . إنه يعرف أيضاً ، ما هى المصلحة الخاصة للبورجوازية ، وماذا عليه أن يتوقع من تلك البورجوازية . إنه وإن لم يكن قادرا على الكتابة ، إلا أنه قادر على الكلام ، والكلام علناً ، إنه وإن لم يكن يعرف الحساب ، غير أنه قادر رغم ذلك على أن يسوى حسابه مع رجال الإقتصاد السياسى ، بما يكفى ليتعرف على البورجوازى الذى يعمل على إلغاء « قانون القمح » ، وأن يتغلب عليه بالجدل . وإن ظلت الأمور السماوية مختلطة عليه تمام الإختلاط رغم كل جهود الوعاظ ، فإنه يرى الأمور الدنيوية والسياسية والإقتصادية بوضوح أكثر . ولسوف تكون لدينا الفرصة مرة أخرى للإشارة إلى هذه النقطة . . ولننصرف الآن إلى الصفات الأخلاقية لعمالنا .

إن كون التعليم الأخلاقى بلا تأثير أفضل من التدريس الدينى ، مسألة غاية فى الوضوح ، فكلاهما ممتزج بآخر فى كل المدارس الإنجليزية . إن المبادىء البسيطة بالنسبة لبسطاء البشر وهى التى تنظم علاقات كل إنسان بآخر ، قد أصبحت غاية فى التعقيد بسبب حالتنا الإجتماعية وحرب كل مناضد الجميع ، وستظل بالضرورة ، عندما تخرج بعقائد غير مفهومة ، يبشر بها فى شكل دينى على صورة

---

* ملحق تقرير « سيموتس » ، الجزء الأول ، صفحة ٣٢ وما يتلوها .

أحكام عقائدية تعسفية ، أمراً غامضاً وغريباً على العامل . إن المدارس لم تقدم تقريباً ، وطبقاً لإقرار كل السلطات وخاصة « لجنة تشغيل الصبية » ، أى عون لأخلاق الطبقة العاملة . إن البورجوازية الإنجليزية بصلفها وأنانيتها قصيرة النظر للغاية ، ضيقة الأفق فى غباء ، إلى حد أنها لا تتعب نفسها فى تطبيع العمال بآداب اليوم ، تلك الآداب التى قامت هى بترتيبها طبقاً لمصلحتها وبهدف حماية نفسها . حتى هذا الإجراء الوقائى ، يشكل للبورجوازية الواهنة الكسولة جهداً كبيراً للغاية . ولسوف يأتى وقت تندم فيه البورجوازية على إهمالها ، إلا أن الوقت حينذاك يكون متأخراً للغاية . غير أنه لا يحق لها ، أن تشتكى من أن العمال لا يعرفون شيئاً عن نظامها الأخلاقى ، وأنهم لا يتصرفون طبقاً له .

وهكذا فإن الطبقة التى بيدها السلطة قد نبذت وتجاهلت العمال أخلاقيا ، وبنفس القدر صحياً وعقلياً . ان الاحتياط الوحيد الذى أعد لهم هو القانون ، يطبق عليهم إن هم أصبحوا مؤذيين للبورجوازية . إنهم يعاملون كما تعامل أغبى الوحوش ، يعالجون بنمط واحد فى التعليم ، هو السوط فى صورة القوة . بالقاء الرعب فى القلب لا بالإقناع . ومن هنا ، فليس هناك ما يثير الدهشة ، إن غدا العمال وحوشاً بالفعل طالما يعاملون هكذا ، أو أن يحافظوا على وجدانهم البشرى إن استطاعوا ، ولن يكون ذلك إلا باحياء أشد الكراهية تأججاً ، وأشد أنواع التمرد الداخلى الذى لا ينقطع ، ضد البورجوازية الممسكة بالسلطة . إنهم رجال فقط ، طالما ظلوا يشتعلون بالسخط ضد الطبقة التى تكبحهم . إنهم يصيرون وحوشاً فى المرحلة التى يميلون فيها إلى الصبر تحت النير والعبودية ، وإلى جعل الحياة محتملة ، فى الوقت الذى يتخلون فيه عن بذل كل جهد لتحطيم هذا النير .

هذا إذن هو كل ما فعلته البورجوازية لتعليم البروليتاريا — وعندما نضع فى اعتبارنا كل الظروف التى تعيش تلك الطبقـــة فى ظلها ، فإننا لن نفكر فى سوءاتها بسبب ما تكنه من حنق ضد الطبقة الحاكمة . إن المران الأخلاقى الذى لا يعطى للعامل فى المدرسة ، لا تمده به أيضاً ظروف حياته الأخرى ، ذلك المران الأخلاقى الذى له على الأقل إعتبار فى عينى البورجوازى . إن وضع العامل الكلى والظروف التى تحيط به ، تتضمن أقوى عوامل الإغراء على فساد الأخلاق .

إن العامل فقير ، والحياة لا تقدم له أية صورة من صور البهجة ، بل تكاد تنكر عليه كل أنواع المتع . إن عقوبات القانون لم تعد ترعبه ، فلماذا يكبح رغباته ، لماذا يترك للغنى التمتع بحقه المكتسب بحكم المولد ، لماذا لا يمسك لنفسه بجزء منه ؟ أى واحد من المغريات يتوجب على البروليتارى ألا يسرقه ؟ من الممتع والمناسب تماماً لأذن البورجوازى أن تسمع تأكيد « تقديس الملكية » ، إلا أن تقديس الملكية بالنسبة للبروليتارى ، وهو الذى لا يمتلك شيئاً ، يذوى من تلقاء نفسه . إن المال هو إله هذا العالم ، وبأخذ البورجوازى مال البروليتارى ، فإنه يجعل منه ملحداً من الناحية العملية . فلا عجب إذن ، إن احتفظ البروليتارى بإلحاده وكف عن إحترامه قدسية وقوة هذا الإله الأرضى . وإذا ما تكثف فقر البروليتارى إلى حد الافتقاد الحقيقى لأبسط ضرورات الحياة ، إلى حد الحاجة والجوع ، فإن الإغراء باحتقار النظام الاجتماعى كله يكتسب قوة . إن البورجوازى يعرف ذلك الأمر أفضل المعرفة . ويلاحظ « سيمونس »* ، أن الفقر يمارس على العقل نفس التأثير المدمر الذى يمارسه الخمر على البدن . ويشرح « دكتور اليسون » فى دقة تامة إلى القراء أصحاب الملكية ، ماذا يمكن أن تكون نتائج القهر الإجتماعى على الطبقة العاملة** . إن الحاجة تترك العامل أمام إختيار بين الموت جوعا فى بطىء ، أو قتل نفسه فى سرعة ، أو أخذ مايحتاجه حيثما يجده — أى فى إنجليزية واضحة ، أن يسرق . وليس هنالك ما يدعو للدهشة فى أن غالبية العمال تفضل السرقة على الموت جوعا أو الانتحار .

حتماً ، يوجد بين الطبقة العاملة أعداد على خلق ، لا تسرق حتى وإن تدهور حالها إلى أقصى حد ، وهؤلاء يموتون أو ينتحرون . إن الانتحار الذى كان من قبل إمتيازا تحصل عليه الطبقات العليا ، قد غدا «موضة» بين العمال الانجليز . إن أعداداً من الفقراء تقتل نفسها تجنباً للشقاء الذى لا ترى منه مهربا . إلا أن ما يؤثر على العامل الإنجليزى تأثيرا يحط من معنوياته أكثر بكثير من تأثير الفقر ، هو قلقه على وضعه ، هو ضرورة الحياة على أجور تذهب من اليد إلى الفم . إن

---

* « الصنائع والصناعية » .

** « المبادىء الأولية للسكان » المجلد الثانى صفحات ١٩٦ ، ١٩٧ .

ذلك فى إيجاز هو ما يصنع منه بروليتاريا . إن الفلاحين الأدنى وضعاً فى ألمانيا هم فقراء فى العادة ، وهم غالباً ما يعانون الحاجة ، الا أنهم على نحو أقل ، تحت رحمة الصدفة . ان لديهم على الأقل ما يؤمنهم . ان البروليتارى الذى لا يملك شيئاً غير يديه ، والذى يستهلك اليوم ما كسبه بالأمس ، والمعرض لكل مصادفة محتملة ، والذى ليس لديه أقل ضمان لكسب ضرورات الحياة المجردة ، والذى يمكن لكل أزمة أو نزوة طارئة من صاحب العمل أن تحرمه من الخبز ، لهو فى أشد حالات اللاانسانية اثارة للإشمئزاز ، أشد الحالات التى يمكن تصورها للبشر . ان المصالح الخاصة للسيد تفرض للعبد معاشه المجرد ، كما أن لدى الغنى على الأقل كسرة أرض يعيش عليها ، كل لديه فى أسوأ الأحوال ضماناً لحياته ذاتها . إلا أنه على البروليتارى أن يعتمد على نفسه فقط ، ومع ذلك ، فهو ممنوع من إستخدام قدراته حتى يكون فى وسعه أن يعتمد عليها . إن كل ما يفعله البروليتارى لتحسين وضعه ، لا يزيد عن كونه نقطة فى محيط ، إذا ما قورن بفيض الفرص المتغيرة التى يتعرض لها ، والتى لا يملك عليها أدنى سلطان . إنه الشىء السلبى فى كل تراكيب الأحوال المحتملة ، وعليه أن يعتبر نفسه محظوظاً ، إن هو أنقذ حياته ولو لفترة من الزمن قصيرة ، وبالطبع فإن تلك الأحوال تشكل شخصيته وطريقته فى الحياة . عليه إما أن يحافظ على رأسه فوق الماء فى تلك الدوامة ، أن ينقذ آدميته ، وهو يستطيع أن يفعل ذلك ، إن تمرد * ضد الطبقة التى تنهبه بلا رحمة ثم تنبذه لمصيره ، الطبقة التى تجتهد للإمساك به فى وضعه هذا الذى يفسد أخلاقيات أى من البشر ، أو أن يكف عن صراعه ضد مصيره كإنسان بلا أمل ، ويجاهد كى يربح قدر ما يستطيع ، مستفيداً من أفضل اللحظات ملائمة . إن الإدخار بالنسبة إليه أمر غير متيسر ، لأنه لا يستطيع فى نهاية الأمر ، أن يوفر أكثر مما يوفى حاجته فى مواجهة الحياة إلا لفترة من الزمن قصيرة ، بينما لو طرد من العمل ، فلن يكون هذا الطرد لفترة قصيرة من الزمن . إن تجميعه ملكية دائمة لنفسه أمر مستحيل ، وإن إنتفت تلك الإستحالة ، فإنه لابد وأن يكف عن كونه عاملا ، ولابد أن يحل آخر محله . ما هو الشىء الأفضل الذى فى وسعه أن يفعله

---

* سنرى فيما بعد ، كيف تمردت الطبقة العاملة ضد البورجوازية فى إنجلترا قانوناً عن طريق حق الاتحاد

إذا ما حصل على أجر أعلى غير أن يحيا به حياة جيدة ؟ إن البورجوازية الإنجليزية قد فضحت بشدة ، بسبب الحياة المسرفة التى يحياها العمال عندما تكون الأجور عالية ، ومع ذلك فإن هذا الأمر طبيعى للغاية ، ليس هذا فقط، بل هو معقول للغاية أيضاً عندما يصدر عنهم ، إذ أنهم يتمتعون بالحياة حين يقدرون ، بدلا من حفظ مدخرات ليس لديهم إستخدام دائم لها . وفى النهاية تضع (البورجوازية) يدها عليها بعد أن تكون قد تسوست وصدأت . إن ما يقوله «كارليل» عن غزالى القطن ، لينطبق على كل العمال الصناعيين الإنجليز *

« إن لحرفتهم طبيعة المقامرة ، إنها الآن وافرة الرخاء ، وعما قريب تهبط إلى خواء و «وقت مختزل» إنهم يعيشون بها كالمقامرين ، آناً فى إسراف مترف وآناً فى مجاعة . إن السخط الثورى الأسود يلتهمهم ، وفى بساطة ،أبأس المشاعر التى يمكن أن تقطن قلب إنسان . إن التجارة الإنجليزية باتساعها العالمى وتقلباتها المتخبطة ، والجنون «البروتسى» غير المحدود «لبخارها» ، تجعل كل الطرق أمامهم مبهمة غير مأمونة ، كل الحياة حيرة ، إن المجتمع والرسوخ والاستمرار فى دعة وسلام ، والنعم الأولى للإنسان ، ليست لهم . إن هذا العالم ليس موطنهم ، أنه سجن قذر ، من سوء التدبير الذى لا يبالى بالعواقب ، للعصيان ، للحقد الدفين ، للتحقير ضد أنفسهم وضد كل الناس . إنه عالم مزدهر أخضر ، تمتد فوقه سماء لازوردية أبداً ، العمل والحكومة فيه من صنع الاله . أو عالم قاتم محتدم ، عالم من أبخرة كبريتات الحديد وزغب القطن وغواية الجن والكدح والسخط الشديد ، عالم من خلق الشيطان وتحت حكمه ؟ »

وفى موضع آخر ** .

«أن يكون الظلم ، والكفران بالحقيقة والواقع ونظام الحياة هى الشرور الوحيدة تحت الشمس ، وأن يكون الشعور بالظلم هو الألم الوحيد الذى لا يطاق تحت الشمس ، فإن سؤالنا الكبير عن حال هؤلاء العمال سيكون : هل ذلك عدل ؟ وقبل كل شيء ، أى معتقد قد كونه هؤلاء بأنفسهم عن العدل ذاته ؟ إن الكلمات التى يعلنونها تتضح من طريقة الإجابة ، كما أن أفعالهم ما تزال أكثر وضوحاً ،

---

* « الميثاقية » صفحة ٣٤ وما بعدها .

** « الميثاقية » صفحة ٤٠

أن الثورة ، والفكاهة الكئيبة الحاقدة ضد الطبقات العليا ، وتناقص احترامهم لأوامر رؤسائهم الدنيويين ، وتناقص إيمانهم بما يعلمه لهم رؤساؤهم الروحيين ، تزداد أكثر فأكثر ، لتصبح هى الروح العامة للطبقات الدنيا . يمكن لهذه الروح أن تلام أو أن تبرر ، لكن يجب أن يعرفها الجميع كما هى كائنة هناك ، ربما يعرف الجميع أنها مفجعة ، لكنها ستغدو قاتلة إن لم تتغير .

إن « كارليل » مصيب تماماً فيما له علاقة بالحقائق ، إلا أنه مخطىء فقط فى إنتقاده غضب العمال الجامح ضد الطبقات الأعلى . إن هذا الغضب ، هذا الإنفعال ، إنما هو بالأحرى دليل على شعور العمال بحالتهم غير الإنسانية . إنهم يرفضون أن ينزل بهم إلى مرتبة الوحوش ، إنهم يوما ما ، سيحررون أنفسهم من عبودية البورجوازية . إن هذا أمر يمكن رؤيته فى هؤلاء الذين لا يشاركون فى هذا السخط الشديد ، إنهم إما أن ينحنوا فى ذلة أمام القدر الذى يغشاهم ، يعيشون على قدر مايستطيعون حياة خاصة محترمة ، لا يشغلون أنفسهم بجرى الأمور العامة ، يساعدون البورجوازية على طرق سلاسل العمال على نحو أكثر أحكاماً ، ويقفون عند المستوى الذى كان يقف عنده لغو المثقفين والذى ساد قبل أن تبدأ المرحلة الصناعية ، وإما أن يدفع بهم القدر ، فيفقدون قبضتهم الأخلاقية على أنفسهم ، كما سبق وفقدوا قبضتهم الإقتصادية ، يعيشون من يوم ليوم ، يشربون ويسقطون من الخلاعة ، وهم فى كلا الحالتين وحوش . إن هذه الطبقة التى ذكرت أخيراً ، إنما تعاون أساساً فى « الزيادة السريعة للخطيئة » ، والتى تفزع منها البورجوازية أشد الفزع ، بعد أن حركت بنفسها العوامل التى تؤدى إليها .

إن مصدراً آخر من مصادر فساد الأخلاق بين العمال ، هو كونهم محكوم عليهم بالعمل . إن النشاط المنتج الاختيارى هو قمة المتعة المعروفة لنا ، وبالتالى فإن الكدح الإجبارى هو أشد عذاب ، قاس ومهين . ليس هنالك أشد بشاعة من أن تضطر إلى فعل شىء واحد كل يوم من الصباح إلى المساء ضد إرادتك . وكلما إزداد إحساس العامل بنفسه ، كلما زادت بالضرورة كراهيته لعمله ، لأنه يحس بالقيد ، ويحس بأن هذا العمل لا يحقق له هدفاً . لماذا يعمل ؟ هل يعمل حباً فى العمل ، هل هنالك حافز طبيعى وراء ذلك ؟ ليس الأمر كذلك أبداً . إنه يعمل من أجل النقود ، من أجل شىء لاعلاقة له ، على أى حال ، بالعمل ذاته .

إنه يعمل طويلا وبطريقة متصلة الرتابة أيضاً ، حتى أن هذا وحده كفيل بأن يجعل عمله عذاباً له منذ الأسابيع الأولى ، إن كانت ما تزال لديه أقل بقية من المشاعر الإنسانية . إن تقسيم العمل قد ضاعف التأثيرات الوحشية على العمل الإجبارى . إن نشاط العمال فى معظم الفروع يختزل إلى شيء من الممارسة التى لا يعتد بها ، ممارسة آلية خالصة تتكرر دقيقة بعد دقيقة ولا تتغير عاماً بعد عام * . ما مدى مشاعر الإنسان ، وأى قدرات يمكن أن يحتفظ بها الرجل فى سن الثلاثين ، هذا الرجل الذى يصنع رؤوس الإبر أو صف من عجلات مسننة ، مدة إثنى عشرة ساعة كل يوم منذ طفولته المبكرة ، ويعيش طوال الوقت فى ظل الظروف المفروضة على البروليتاريا الانجليزية ؟ إن نفس الشيء ما يزال قائماً منذ أدخل البخار . إن كد العمال قد صار أيسر ، وفر الجهد العضلى ، إلا أن العمل ذاته قد غدا بلا مقصد ورتيب إلى أقصى الحدود . إنه لا يقدم أى مجال للنشاط الذهنى ، وهو يشد من انتباه العامل ليحتفظ به بعيداً عن التفكير فى أى شيء سواه . إن العمل يأخذ منه كل وقته ، تاركاً له بالكاد وقتاً للمأكل والنوم ، ولا وقت للتمارين الرياضية فى الهواء الطلق أو الاستمتاع بالطبيعة ، والنذر اليسير للنشاط الذهنى . هكذا يجازى العامل على عمله هذا . كيف يمكن لمثل هذا الجزاء أن ينحدر بالإنسان إلى مستوى البهيمة ؟ مرة أخرى يتوجب على العامل إما أن يستسلم لمصيره ، وأن يصبح عاملا « طيباً » يلتفت « بإخلاص » إلى مصلحة البورجوازية ، وبذا يصبح على وجه اليقين تقريباً بهيمة ، وإما أن يتمرد ، ويحارب من أجل إنسانيته حتى النهاية ، ولن يكون فى وسعه فعل ذلك إلا أن ناضل ضد البورجوازية .

وعندما تنتج كل تلك الأحوال فساداً خلقياً عريضاً بين العمال ، فإن تأثيراً جديداً يضاف إلى القديم ، لينشر هذا التحقير على مدى أوسع ، وليحمل إلى أقصى حدوده . ذلك التأثير هو مركزة السكان . إن كتاب البورجوازية الإنجليزية

(*) هل استدعى شهوداً بورجوازيين ليشهدوا معى أيضاً ؟ لقد إقتصرت على واحد فقط ، واحد يمكن أن يقرأ له الجميع ، أنه (آدم سميث) فى (ثروة الامم) . طبعة « ماك كولوك » ، المجلدات الاربعة) ، المجلد الثالث ، الكتاب الخامس : الفصل الثامن ، صفحة ٢٩٧ .

يطالبون بالفتك بالاتجاه اللاأخلاقى للمدن الكبرى . إنهم مثل « جرمياس » الضال ، يغنون المراثى على نمو المدن الكبرى لا على دمارها . إن الشريف « اليسون » يتهم كل شيء تقريباً ، أما دكتور « فوجان » مؤلف « زمن المدن الكبرى » ، فيحمل هذا التأثير قدراً أكبر من المسئولية . وهذا أمر طبيعى ، حيث أن الطبقة المالكة ذات مصلحة مباشرة للغاية فى الأوضاع الأخرى التى تؤدى إلى تحطيم جسد العامل وروحه . إذ لو كان عليهم أن يقروا بأن « الفقر والقلق والإرهاق والعمل الإجبارى هى المؤثرات الأساسية المدمرة » ، لكان عليهم أن يستخلصوا الخاتمة « إذن دعونا نعطى الملكية للفقراء ، ونضمن معاشهم ، ونضع القوانين ضد الإرهاق » ، وذلك أمر لا تجسر البورجوازية على صياغته . إن المدن الكبرى قد نمت بصورة تلقائية . انتقل السكان إليها بحركتهم الخاصة تماماً . والنتيجة أن الصناعة ، والطبقة الوسطى التى تكسب منها وحدها ، قد خلقت المدن منعزلة تمام العزلة ، وغداً مريحاً للغاية للطبقة الحاكمة ، أن ترجع كل الشر إلى هذا المصدر الذى يصعب تجنبه ، حيث أن المدن الكبرى حتماً ، تكفل فقط نمواً مؤكداً وأكثر سرعة للشرور التى وجدت بالفعل عند المنشأ . إن « اليسون » إنسانى إلى حد الإقرار بهذا ، إنه ليس صاحب مصنع ليبرالى كريم المحتد ، إنه فقط بورجوازى نصف متطور من حزب المحافظين ، وبالتالى فهو يملك بين الحين والحين عيناً مفتوحة ، فى الوقت الذى ما تزال فيه البورجوازية المكتسبة ريشاً مصابة بالعمى الشديد . دعونا نسمع ما يقول * : —

« إنه فى المدن الكبرى ، حيث تنشر الرذيلة إغراءاتها ، وترضى غواياتها ، وتمارس مفاتنها فى طيش . حيث يشجع الاثم بأمل ألا يكون هنالك جزاء ، ويروج للتبطل بإعطاء المثل الوافر منه — إنه إلى مثل تلك الأسواق الضخمة من الفساد البشرى ، أوت الدناءة والإسراف ، منبثقة من بساطة الحياة الريفية . إنه هنا حيث وجدوا ضحايا يمارسون عليهم ظلمهم ، ومغانم تجازيهم عن المخاطر التى لازمتهم . الفضيلة هنا أخضعت للخمول الذى أغرقت فيه . الإثم بلغ رشده لصعوبة احتجازه . إن سار أى إمرىء ليلا خلال « سانت جيلز » وحوارى

(*) « المبادىء الاولية للسكان » ، المجلد الثانى ص ٧٦ وما بعدها ، ص ٨٢ ، ص ١٣٥ .

« دبلن » المكتظة،أو المناطق الأكثر فقراً فى « جلاسجو » ، فإنه سيلتقى بالبرهان الكاف على تلك الملاحظات ، إن الدهشة لن تصيبه بعد ذلك لفوضى العادات والمتع الخليعة التى تمارسها الطبقات الدنيا ، إن دهشته سوف تكون لا لأن هناك الكثير جداً ، بل القليل جداً من الجريمة فى العالم. إن السبب الأكبر لعفن البشر فى مثل تلك المواقع المكتظه ، هو الطبيعة المعدية للنموذج الردىء ، والصعوبة القصوى لتجنب غوايات الرذيلة ، عندما تجلب بشكل وثيق ويومى إلى جوار القطاع الشاب من الناس . إن التجربة تبرهن ، أنه مهما كان تفكيرنا فى قوة الفضيلة ، فإن الطبقات الأعلى مدينة بشكل أساسى ، إذ استثنيناها من الإثم الفاحش أو فوضى العادات ، لعزلتها المحافظة عن مشهد الإغراء، تهاجم نقائصها حيثما تتعرض للغوايات، وأنها فى أيامنا الراهنة ، تأتى بعدهم فى الخضوع لتأثيرها. إنه لمن سوء حظ الفقراء فى المدن الكبرى ، أنهم لا يستطيعون الفرار من تلك الإغراءات التى لا تقاوم ، بل إنهم حيثما يتجهون ، يلتقون بالصورة الجذابة للرذيلة أو غوايات التمتع بالإثم . لقد أثبتت التجربة استحالة تكتم مغريات الرذيلة عن شباب الفقراء فى المدن الكبرى ، والتى تعرضهم للعديد من أسباب الفساد الخلق . إن هذا كله لا يصدر عن أى فجور شاذ أو غير معتاد فى شخصية هؤلاء ضحايا الفسق ، لكنه فى طبيعة الإغراءات التى يتعرض لها الفقراء ، والتى لا يمكن فى الغالب مقاومتها . وعلى الأرجح فإن الأغنياء الذين ينتقدون مسلكهم سوف يخضعون بنفس السرعة كما خضعوا لتأثير أسباب مماثلة ، هنالك درجة معينة من الشقاء ، وجوار معين من الخطيئة ، يندر أن تصمد أمامه الفضيلة ، ولا يستطيع الشباب بوجه خاص ، مقاومته بشكل عام . إن تقدم الشر فى مثل تلك الظروف مؤكد فى الغالب ، وسريع على وجه التقريب. مثل العدوى الجسدية».

وفى موضع آخر ..

« عندما تضع الطبقات الأعلى ، الطبقات الأدنى ، بأعداد كبيرة فى حيز صغير ، تحقيقاً لمنفعتها ، فإن سريان الإثم يغدو سريعاً ولا يمكن تجنبه . إن لوم الطبقات الأدنى ، وقد وضعت بعيداً عن الإهتمام بالتعليم الدينى والأخلاقى ، لخضوعها للإغراءات التى تحيط بها إنما هو أكثر صعوبة من لومها على سقوط أفرادها ضحايا لحمى التيفوس » .

كفى ! إن « إليسون » نصف البورجوازى يفشى لنا ، مهما كانت طريقة تعبيره عن نفسه محدودة ، التأثير الخبيث للمدن الكبرى على التطور الأخلاقى للعمال . وهناك بورجوازى آخر، خالص البورجوازية ، رجل على مزاج « جمعية مناهضة قانون القمح » ، هو « دكتور أندرو أور »* ، يفشى لنا الجانب الآخر . إنه يخبرنا أن الحياة فى المدن الكبرى تيسر الدسائس بين العمال ، وتوفر السيطرة على الغوغاء . إذ لو كان العمال هنا غير متعلمين (خضوعا للبورجوازية) ، فإنهم ربما يرون الأمور من جانب واحد ، من وجهة نظر أنانية شريرة ، وربما بادروا بالسماح للديماجوجيين الخبثاء بأن يغرروا بهم ، كلا ، ربما غدوا قادرين حتى على النظر إلى الرأسماليين المقدامين الإقتصاديين ، أعظم أصحاب الفضل عليهم ، بعين غيورة عدائية . إن التعليم الخالص وحده يمكن أن يفيد هنا ، وإلا فسيلى ذلك الإفلاس الوطنى والأهوال الأخرى ، حيث يصعب أن تتم ثورة عمالية . وبورجوازيتنا محقة تماماً فى مخاوفها . إذ لو كانت مركزة السكان تحفز وتطور الطبقة القابضة على الملكية ، فإنها تفرض أيضاً أن يكون العمال أكثر سرعة . سيبدأ العمال فى الإحساس بأنفسهم عموماً كطبقة ، سيبدأون بالإحساس أنه رغم ضعفهم كأفراد فهم يشكلون قوة فى إتحادهم ، وينمو إنفصالهم عن البورجوازية ، وتتطور وجهات نظر خاصة بالعمال تتفق ووضعهم فى الحياة ، ويستيقظ الشعور بالقهر ، ويحقق العمال شأناً اجتماعياً وسياسا . إن المدن الكبرى هى مسقط رأس الحركات العمالية ، ففيها بدأ العمال أول مابدأوا تأمل حالتهم الخاصة ، والنضال ضدها ، وفيها أعلن عن نفسه أول تضاد بين البروليتاريا والبورجوازية ، ومنها إنبثقت النقابات والميثاقية والإشتراكية . لقد حولت المدن الكبرى مرض الجسد الإجتماعى الذى ظهر فى الريف من حالة مزمنة ، إلى مرض حاد . وبهذا أعلن عن طبيعته الحقيقية ووسائل علاجها . إنه لولا المدن الكبرى وتأثيرها الضاغط على عقل السكان ، لكانت الطبقة العاملة أقل تقدما بكثير مما هى عليه الآن . كما أنها بالإضافة إلى ذلك ، قد حطمت آخر العلاقات

---

* « فلسفة أصحاب المصانع » ، لندن ، ١٨٣٥ صفحة ٤٠٦ وما بعدها ، ولسوف تكون لدينا فرصة مزيد من الإشارة إلى هذا الكتاب الشهير .

الأبوية بين العمال ومستخدميهم ، وهى نتيجة أسهمت الصناعة فيها بقدر كبير ، وذلك بمضاعفة العاملين المعتمدين على مستخدم واحد . والبورجوازية تتحسر على كل ذلك ، وهذا حق ، وهى لها دواعيها الصحيحة على ذلك ، لأن البورجوازى فى ظل الأوضاع القديمة ، كان آمناً بشكل نسبى ، ضد ثورة تنتج مما تصنعه يداه . كان فى وسعه أن يتجبر عليهم ، وينهبهم بما يرضى فؤاده ، ومع ذلك ، فإنه يتلقى من هؤلاء الأغبياء الطاعة والإمتنان والرضى بمنحهم ثمناً زهيداً هو صداقة الراعى ، والتى لا تكلفه شيئاً ، وربما بعض المنح التافهة التى تبدو ظاهريا من باب التضحية الذاتية الخالصة وطيبة قلب فائضة ، فى حين أنها فى الحقيقة لا تمثل عشر ما هو واجب عليه . إنه كبورجوازى فرد ، وضع فى إطار ظروف لم يخلقها هو بنفسه ، فى وسعه أن يؤدى واجبه جزئياً على الأقل ، لكنه كعضو فى الطبقة الحاكمة ، والتى هى من واقع حكمها كحقيقة مجردة مسئولة عن حال الأمة ، لم يفعل شيئاً مما يتضمنه وضعه ، بل على عكس ذلك نهب الأمة كلها لمصلحته الفردية . ففى ظل العلاقة الأبوية التى أخفت عبودية العامل بشكل مصطنع ، فإن هذا الأخير لابد كان صفرا من الناحية الثقافية ، جاهلا تماما بمصلحته الخاصه ، مجرد فرد منزو . إن العامل عندما بعد عن مستخدمه ، عندما اقتنع بأن الرباط الوحيد بين صاحب العمل والشغال هو رباط الربح النقدى ، عندما تهاوى تماما ذلك الرباط العاطفى والذى لم يصمد لأبسط إختبار ، عرف حينئذ فقط مصالحه وتطور مستقلا ، وهو حينئذ فقط كف عن أن يكون عبداً للبورجوازية فى أفكاره ، فى مشاعره وطريقة التعبير عن إرادته ، لقد عاونت البورجوازية على نطاق واسع وبقدر كبير ، وفى المدن الكبرى ، على الوصول إلى تلك النهاية .

إن الهجرة الأيرلندية ، والتى أشرنا إليها آنفاً ، إنما هى مؤثر آخر له أهمية كبرى فى تشكيل سمة العمال الإنجليز . إنها من ناحية ، كما رأينا ، حطت من مقام العمال الإنجليز ، أبعـــدتهم عن التحضر ، وفاقمت مشقتهم ، لكنها من الناحية الأخرى ، ولهذا السبب ، عمقت الهوة بين العمال والبورجوازية ، وعجلت باقتراب الأزمة . إن مسار المرض الإجتماعى الذى تعانى منه انجلترا ، إنما هو كمسار مرض جسدى ، إنه يتطور طبقاً لقوانين خاصة وله أزمته الخاصة ، كما أن آخره وأعنفه

يقرر مصير المريض. وحيث أن الأمة الإنجليزية لا تستطيع أن ترزح تحت وطأة الأزمة الأخيرة، وعليها أن تخرج منها قدما، تولد مرة أخرى وتجدد قواها، فإنه يلزم علينا أن نبتهج لكل أمر يعجل من مسار المرض. ولقد قدمت الهجرة الإيرلندية، فى هذا الصدد، إمدادات إضافية، ومرجع ذلك إلى المزاج الإيرلندى العاطفى المتقلب والذى استوردته الهجرة منها إلى انجلترا وإلى الطبقة العاملة الإنجليزية. إن الايرلنديين والإنجليز لبعضهما البعض، مثلما الفرنسيين للألمان، ومزج المزاج الأيرلندى الأكثر لينا والأسرع هيجانا والأحد طبعا بذلك الإنجليزى الموزون المتعقل المثابر، لابد فى المدى الطويل وأن ينتج خيرا لكلا منهما. كان فى وسع الأنانية البورجوازية الإنجليزية الفظة أن تحافظ على قبضتها بقوة أكثر على الطبقة العاملة، لو أن الطبيعة الايرلندية السخية فى الخطأ، التى تحكمها العاطفة أولا، لم تتخلل وتلطف ما تتصف به الطبيعة الإنجليزية من عقلانية، ومرجع ذلك جزئياً إلى اختلاط السلالات، وجزئياً إلى الاتصال الطبيعى للحياة.

وإن نحن وضعنا كل ذلك فى الاعتبار، فإن صيرورة الطبقة العاملة إلى سلالة منفصلة كلية عن البورجوازية، أمر لا يثير الدهشة، إن ما هو مشترك بين البورجوازية وغيرها فى كل الأمم الأخرى، لأكثر مما بينها وبين العمال الذين تعيش فى وسطهم. إن العمال يتكلمون لهجات أخرى، ولهم أفكارهم ومثلهم الأخرى، لهم عادات ومبادىء خلقية أخرى، دين وسياسات اخرى، مختلفة عن تلك التى للبورجوازية. وبالتالى فإنه توجد أمتان مختلفتان جذريا. إن عدم تشابههما يماثل الاختلاف الناجم عن السلالات المختلفة. ولقد عرفنا فى القارة، واحدة منهما فقط، إنها البورجوازية. بينما الأخرى، الشعب، البروليتاريا، هى بالتحديد الأكثر أهمية بكثير لمستقبل القارة* .

---

* إن فكرة إنقسام المجتمع الانجليزى إلى أمتين بسبب الصناعة على نطاق واسع، فكرة تناولها « ديزرائيلى » كما هو معروف، فى روايته « سيبل » او « الأمتان » فى نفس هذا الوقت تقريبا (ملاحظة بالطبعة الألمانية لعام ١٨٩٢).

ستكون لدينا الفرصة فيما بعد ، للحديث عن الشخصية العامة للعامل الإنجليزى كما عبر عنها فى الجمعيات والمذاهب السياسية . ولنتأمل هنا نتائج التأثيرات التى ذكرت سابقاً ، حيث أنها تؤثر على الشخصية الخاصة بالعامل .
إن العامل ، خلال الحياة العادية ، أكثر إنسانية بكثير من البورجوازى . لقد سبق وذكرت ، حقيقة أن المتسولين قد إعتادوا على قصر توجههم نحو العمال على وجه التقريب ، وأن العمال بشكل عام ، يقدمون أكثر مما تقدمه البورجوازية لإعاشة الفقراء . إن هذه الحقيقة ، والتى يمكن لأى أمرىء أن يتحقق منها يومياً ، تتأكد بين حقائق أخرى على لسان «دكتور باركينسون» كاهن «مانشستر» الذى يقول : *

« إن الفقراء يعطون لبعضهم البعض ، أكثر مما يعطى الأغنياء فقراء . وأستطيع أن أثبت قولى هذا بشهادة واحد من الأطباء الأكبر منا سنا ، وأكثر مهارة وملاحظة وإنسانية ، إنه « دكتور باردسلى » والذى كثيراً ما أعلن، أن المجموع الكلى لما يعطيه الفقراء لبعضهم البعض سنوياً ، يفوق ما وهبه الأغنياء فى نفس الوقت » .

وتعبر إنسانية العمال عن نفسها باستمرار ، وفى رضاء ، بأساليب أخرى أيضاً . لقد جربوا هم أنفسهم أوقات قاسية ، وبالتالى فإنه فى وسعهم أن يتأثروا بهؤلاء الذين يعانون المشقة . إن كل إمرىء بالنسبة لهم ، إنسان ، بينما ينظر البورجوازى إلى العامل على أنه دون الإنسان . إنهم أكثر إقبالا وتقرباً ومودة ، وأقل شراهة للمال ، رغم أن حاجتهم إليه أكثر بكثير من حاجة الطبقة القابضة على الملكية . إن النقود بالنسبة إليهم لا تساوى غير قيمة ما تشتريه ، فى حين أن لها عند البورجوازى قيمة فطرية ، قيمة إله . إنها هى التى تجعل من البورجوازى ذلك الأنانى المنحط خطاف المال . إن العامل لا يعرف شيئاً عن تلك المشاعر الخاصة بتبجيل المال ، وبالتالى فهو يقبض عليه بصورة أقل من تلك التى يقبض البورجوازى بها عليه ، ذلك الذى يوجه كل نشاطه لغرض الربح ، والذى يجد

* « عن الوضع الراهن للفقراء العاملين فى مانشستر » . . الخ تعليم الـ... « دكتور باركينسون » كاهن « مانشستر » ، الطبعة الثالثة ، لندن ومانشستر ، ١٨٤١ ، كتيب .

فى أكوام حقائب أمواله غاية الحياة وهدفها . لذا فإن العامل أقل تعصباً بكثير ، كما أن عينيه أكثر صفاء عند رؤية الحقائق عن البورجوازى . إنه لا ينظر إلى كل الأمور من خلال منظار الأنانية الشخصية . إن تعليمه الخاطىء قد أنقذه من أعمال المحاباة الدينية . إنه لا يفهم الأسئلة الدينية ، وهو لا يرهق نفسه بها . إنه لا يعرف شيئاً عن التعصب الذى يلزم البورجوازى . وإن حدث وكان لديه أى دين ، فإن هذا الدين بالإسم فقط ، وليس لديه عنه أى تحليل نظرى . إنه عملياً يعيش من أجل هذا العالم ، ويحاول جاهداً أن يستقر فيه . إن جميع كتاب البورجوازية يجمعون علي هذه النقطة ، أن العمال غير متدينين ولا يترددون على الكنيسة . إن الذين يؤمل فيهم ، هم الإيرلنديين وبعض كبار السن وأنصاف البورجوازيين والمشرفين وملاحظى العمال وأمثال ذلك . أما بين الكتل فتكاد تسود لا مبالاة عامة بالدين ، أو على أقصى تقدير ، بعض آثار إيمان مجرد بالله ، إيمان غير ناضج ، لا يرقى لأكثر من مجرد كلمات ، أو خوف مبهم من الكلمات الكافرة الملحدة . . الخ . إن لرجال الدين فى كل الطوائف الدينية سمعة سيئة بين العمال ، رغم أنهم قد فقدوا تأثيرهم منذ وقت قريب . وعلى أى حال ، تكفى فى وقتنا الحالى صرخة تقول . « إنه قسيس » ليقصى أحد رجال الدين عن منصة إجتماع عام . إن إفتقاد العامل للثقافة الدينية وغيرها ، مثل باقى الأحوال التى يعيش فى ظلها ، يساعد فى المحافظة عليه أكثر بعداً عن الحرج ، أكثر تحرراً من المذاهب الثابتة الموروثة والأفكار المسبقة ، أكثر حرية من البورجوازى الذى شبع بالتعصب الطبقى الذى صب فيه منذ شبابه المبكر . لا يوجد ما يمكن فعله مع البورجوازى ، إنه محافظ فى الأساس ، وإن كان ذا مظهر ليبرالى كاذب . إن مصلحته مقيدة بمصلحة الطبقة القابضة على الملكية ، إنه خامد بالنسبة لكل حركة نشطة ، إنه يفقد وضعه فى طليعة التطور التاريخى لانجلترا . إن العمال يأخذون مكانه ، أولا ، بالادعاء الصحيح ، ثم بالأمر الواقع .

إن كل هذا ، مع الحركة العامة المناسبة للعمال ، والتى سنتناولها فيما بعد ، يشكل الجانب المؤات فى شخصية هذه الطبقة . أما الجانب غير المؤات ، فيمكن تلخيصه فى إيجاز تام . إنه نتاج طبيعى للغاية للعوامل التى سبق ذكرها . إن إدمان الشراب والشذوذ الجنسى والوحشية والاستهانة بحقوق الملكية ، هى

النقاط التى تتهم بها البورجوازية العمال . إن شربهم الخمور بشدة إنما هو أمر متوقع . إن « شريف اليسون » يؤكد ، أن حوالى ثلاثين ألفاً من العمال فى « جلاسجو » يسكرون مساء كل سبت ، إن هذا التقدير بالتأكيد غير مغال فيه . فلقد كان هنالك منزل من بين كل إحدى عشر منزلاً من منازل تلك المدينة عام ١٨٣٠ ، ومنزل من كل عشرة عام ١٨٤٠ ، يدار كخمارة . ولقد دفعت رسوم إنتاج فى إسكتلندا عن ٢٫٣٠٠٫٠٠٠ جالون من المشروبات الروحية فى عام ١٨٢٣ ، وعن ٦٫٦٢٠٫٠٠٠ جالون فى عام ١٨٣٧ ، وفى إنجلترا عن ١٫٩٧٦٫٠٠٠ جالون فى عام ١٨٢٣ ، ٧٫٨٧٥٫٠٠٠ جالون فى عام ١٩٣٧ . إن « قانون البيرة » الصادر عام ١٨٣٠ والذى سهل فتح مشارب للبيرة (حوانيت كل شى كان) والتى رخص لأصحابها ببيع البيرة لشربها فى المنازل ، سهل إنتشار الافراط فى الشراب ، حتى أنه يمكن القول ، أنه قد حمل البيرة إلى باب بيت كل إنسان . يوجد فى كل شارع تقريباً العديد من أمثال مشارب البيرة تلك ، كما أن منزلا من كل منزلين أو ثلاثة لابد وأن يكون بصورة مؤكدة حانوتاً من حوانيت « كل شى كان » . وتوجد إلى جوار تلك ، حوانيت عديدة خفية ، أماكن سرية للشراب لا تحمل ترخيصاً ، معامل تقطير سرية عديدة للغاية ، وهى تنتج كميات كبيرة من المشروبات الروحية ، فى بقع منعزلة نادراً ما تزورها الشرطة فى المدن الكبرى . ويقدر « جاسكال » عدد تلك المعامل السرية فى «مانشستر» وحدها بأكثر من مائة ، تنتج ١٥٦٫٠٠٠ جالون على الأقل . كما يوجد فى « مانشستر » بالاضافة إلى ذلك ، أكثر من ألف مشرب عام يبيع كل أنواع المشروبات الكحولية ، أى أن نسبتها إلى عدد السكان أكثر بكثير من نسبتها فى « جلاسجو » . إن نفس الأوضاع كائنة أيضاً فى كل المدن الكبرى الأخرى . إن النظر بعين الاعتبار ، بعيداً عن النتائج العادية للإفراط فى الشراب ، إلى الرجال والنساء وحتى الأطفال ، والأمهات اللواتى غالباً ما تكون أطفالهن على أذرعهن ، وهم جميعاً يتعاملون فى تلك الأماكن مع أكثر ضحايا النظام البورجوازى حطة ، مع اللصوص والنصابين والعاهرات ، عندما يفكر المرء بأن كثيراً من الأمهات يعطين الجين للأطفال المحمولين على أذرعهن ، فإن الآثار المفسدة للأخلاق بسبب التردد على مثل تلك الأماكن ، أمر لا يمكن إنكاره .

إن الإفراط فى الشراب أمر يمكن رؤيته فى أشد صـــوره وحشية ، فى

أمسيات السبت ، وخاصة عندما تدفع الأجور ، ويتوقف العمل مبكراً إلى حد ما عن المعتاد ، وعندما تصب كل الطبقة العاملة من أحيائها الفقيرة إلى الشوارع العمومية الرئيسية. لقد كان من النادر ، عند خروجى فى « مانشستر » فى مثل تلك الليلة ، ألا ألتقى بأعداد مترنحة من الناس ، ورؤية آخرين يرقدون فى مجارى المياه . ويتكرر نفس المنظر عادة مساء الأحد ، فقط فى ضجة أقل . وعندما تنفذ نقود المخمورين فإنهم يتجهون إلى أقرب محل للرهونات ، والتى يوجد منها الكثير فى كل مدينة — أكثر من ستين محلا فى « مانشستر » ، وعشرة أو اثنى عشر فى شارع واحد فى « سالفورد » هو « شابل ستريت » — ويرهنون أى شيء يملكونه . ويعود عشية السبت فقط ليستعيد كومة الأثاث وملابس أيام الآحاد إن وجدت، وأدوات المطبخ من دكان الرهونات . لكنها نقود تتجول كما كانت دون إنقطاع تقريباً، قبل أن يحل الأربعاء التالى ، حتى يقع فى نهاية الأمر حادث ما يجعل استرجاعها النهائى أمراً مستحيلا ، فتتساقط صنفا وراء صنف فى قبضة المرابى ، أو حتى يحين حين ، يرفض فيه المرابى أن يعطى بنساً واحداً فوق ما أعطاه على تلك الرهينة المستهلكة البالية . عندما يرى المرء مدى الإفراط فى الشراب بين العمال فى انجلترا ، فإنه للتو يصدق قولة « لورد أشلى » * : — «بأن هذه الطبقة تنفق سنوياً قرابة خمس وعشرين مليوناً من الجنيهات الاسترلينية على المشروبات الروحية المسكرة ، والإساءة إلى الأحوال الخارجية ، والتدمير المخيف للصحة البدنية والعقلية ، وتخريب كل العلاقات العائلية والذى يمكن بالفعل تخيل ما يتبعه . حقاً لقد قامت جمعيات الإمتناع عن المسكرات بفعل الكثير ، ولكن ماذا تكون آلاف قليلة من الممتنعين عن تعاطى المسكرات بين ملايين العمال ؟ . عندما مر الأب « ماتيو » الداعية الايرلندى للإمتناع عن المسكرات عبر المدن الانجليزية ، فإن من ثلاثين إلى ستين ألف من العمال قبلوا العهد ، غير أن غالبيتهم نقضت هذا العهد مرة أخرى خلال شهر واحد . إن إحصاء الإعداد الهائلة التى قبلت العهد فى الثلاث أو الأربع سنوات الأخيرة فى « مانشستر » ، ليوضح أن إجمالى الرقم يفوق العدد الكلى لسكان المدينة — ومع ذلك فإن الافراط فى الشراب لا يتناقص على الإطلاق .

(*) (شريف اليسون) ـ (المبادىء الاولية للسكان) ، المجلد الثانى (ملحوظة فى الطبعة الالمانية) .

يلي الإفراط في متعة المشروبات الروحية المسكرة ، الإباحية الجنسية ، وهي واحدة من الأخطاء الأساسية للطبقة العاملة الإنجليزية ، غير أن ذلك ناتج أيضاً من منطق لا يرحم ، من ضرورة لا مفر منها ، إنها نابعة من وضع طبقة متروكة لذاتها ، دون أية وسائل تمكنها من إستخدام حريتها الإستخدام المناسب ، إن البورجوازية لم تترك للطبقة العاملة غير هاتين المتعتين ، بينما تحملها العديد من الأعمال والمشاق ، والنتيجة أن العمال يركزون كل طاقتهم على هاتين المتعتين ، يمارسونهما إلى آخر مدى ، ويخضعون لهما بأكثر الطرق تسيباً ، حتى يحصلون على شيء ما من حياتهم . ماذا يتبقى لأناس ، إن وضعوا تحت ظروف تلجئهم للبهيمية فقط ، إلا أن يقاوموا أو يستكينوا للبهيمية التامة ؟ وعندما تسهم البورجوازية بالإضافة إلى ذلك ، إسهاماً تاماً في دعم الدعارة ، فإنها تكون حقيقة ، أقل الجميع حقاً في لوم العمال على بهيميتهم الجنسية ، إذ كم واحدة من الـ ٤٠,٠٠٠ عاهرة اللواتي يملأن شوارع « لندن » * كل مساء ، تعيش على الفضيلة البورجوازية ! كم واحدة منهن بلغت ما بلغته نتيجة غواية أحد البورجوازيين ، حتى أصبح عليهن أن يقدمن أجسادهن للمارة حتى يستطعن الحياة ؟ .

إن سقطات العمال بشكل عام يمكن العودة بها إلى اظمأ اطلاق العنان للمتعة ، إلى إفتقاد التدبر والاحتياط ، إلى قابلية الإلتواء للتلاءم مع النظام الإجتماعي ، إلى العجز عن تضحية متعة عاجلة بفضيلة آجلة . ولكن هل هذا الأمر مثير للدهشة ؟ عندما تستطيع طبقة أن تشترى بكدحها المنهك متعاً ضئيلة ، ومن هذه المتع أكثرها حسية فقط . أيتوجب عليها ألا تعطى نفسها لتلك المتع بجنون وبلا تبصر ؟ إنها طبقة لا يزعج أحد نفسه بتعليمها ، طبقة كالكرة تتقاذفها آلاف الصدف ، لا تعرف الأمن في حياتها . أى بواعث لدى تلك الطبقة للإحتياط ، « للوقار » للتضحية بمتعة عاجلة بفضيلة آجلة . إنها حائرة تماماً بسبب التغير الدائم وتبديل الأحوال التى تعيشها البروليتاريا ؟ طبقة تتحمل كل مساوىء المجتمع دون أن تتمتع بمزاياه ، طبقة لا يظهر المجتمع لها غير مظاهر

* (شرف أليسون) ، (المبادىء الأولية للسكان) المجلد الثانى (ملحوظة في الطبعة الألمانية) .

العداء البحتة — من ذا الذى يستطيع أن يطالب مثل تلك الطبقة باحترام هذا النظام الإجتماعى ؟ حتماً ، إن فى ذلك طلب الكثير ! غير أن الطبقة العاملة لا تستطيع النجاة من الترتيب الحالى للمجتمع طالما ظل قائماً ، وإن قاومه العامل الفرد فإن الضرر الأكبر يقع على ذاته .

وهكذا يكاد النظام الإجتماعى أن يجعل الحياة الزوجية مستحيلة . المنزل خال من وسائل الراحة ، ، إنه قذر ، بالكاد يكفى أن يكون مجرد مأوى ليلى ، الحجرات المكتظة تعبق بالعفن والراحة العائلية غير ممكنة . إن الزوج يعمل طوال اليوم ، وربما تعمل الزوجة أيضاً وكبار الصبية . إنهم يعملون فى أماكن مختلفة ، يلتقون فى الليل والصباح فقط ، وهم تحت إغراء دائم بالشراب. أى حياة أسرية ممكنة تحت مثل تلك الظروف ؟ ومع ذلك فالعامل لا يستطيع الفرار من أسرته ، عليه أن يعيش مع تلك الأسرة .

والنتيجة سلسلةمتصلة من المتاعبالأسرية، والمشاحناتالعائلية، وجلها مفسد لأخلاق الوالدين والأطفال بالمثل . إن إهمال كل الواجبات العائلية ، وإهمال الأطفال خاصة ، لهو أمر شائع بين العمال الإنجليز ، وهو أمر تغذيه بعنف أيضاً نظم المجتمع القائمة . وبعد ذلك ، ينتظر من مثل هؤلاء الأطفال الذين يشبون فى ظل هذا النهج القاسى ، ووسط تلك المؤثرات المفسدة للأخلاق ، أن يكونوا فى النهاية على نياتهم وعلى خلق ! حتماً إنها لمطالب ساذجة ، تلك التى تطالب بها البورجوازية الراضية عن نفسها ، العامل !

إن إزدراء النظام الإجتماعى القائم ، أمر ظاهر للعيان فى أقصى حالاته ، فى الإساءات الموجهة ضد القانون . وإن زاد تأثير المؤثرات المفسدة لأخلاق العمال قوة ، إن زاد تركيزه عن المعتاد ، فإن العامل بالتأكيد سيغدو مخالفاً للقانون . إن هذا أمر مؤكد تأكد خروج الماء عن السائل فى حالة بخـارية عند درجة الحرارة ٨٠ . إن العامل فى ظل المعاملة البورجوازية الوحشية والتى تصير الغير وحشاً ، سيصبح بدقة كالماء ، شىء ما لا إرادة له ، ويغدو بنفس الضرورة معرضاً تمام التعرض لقوانين « الطبيعة » . وعند نقطة محددة تكف الحرية عن الوجود . وبالتالى ، فإنه مع اتساع البروليتاريا ، زادت الجريمة فى انجلترا ، وغدت الأمة البريطانية أكثر الأمم إجراماً فى العالم . إن جداول الجرائم السنوية

الصادرة عن وزارة الداخلية توضح ، أن زيادة الجريمة فى انجلترا قد تقدمت فى سرعة غير معقولة . لقد بلغت عمليات القبض بسبب إساءات جنائية فى انجلترا وويلز وحدهما عام ١٨٠٥ — ٤٦٠٥ ، وعام ١٨١٠ — ٥١٤٦ ، وعام ١٨١٥ — ٧٨٩٨ ، وعام ١٨٢٠ — ١٣٧١٠ ، وعام ١٨٢٥ — ١٤٤٣٧ ، وعام ١٨٣٠ — ١٨١٠٧ ، وعام ١٨٣٥ — ٢٠٧٣١ ، وعام ١٨٤٠ — ٢٧١٨٧ ، وعام ١٨٤١ — ٢٧٧٦٠ وعام ١٨٤٢ — ٣١٣٠٩ . أى أنه يمكن القول، أنها قد زادت سبعة أضعاف فى سبعة وثلاثين عاماً . ولقد تمت ٤٤٩٧ عملية قبض من تلك العمليات عام ١٨٤٢ فى «لانكشاير» وحدها، أى أكثر من ١٤٪ من إجمالى العمليات ، ٤٠٩٤ فى «ميدل سكس» مشتملة على « لندن »، أى أكثر من ١٣ ٪ . وبذا فإن منطقتين تشتملان على مدن كبرى بأعداد كبيرة من السكان البروليتاريين ، قد انتجت ¼ الكمية الكلية للجريمة ، رغم أن عدد سكانهما يبعد كثيراً عن أن يشكل ¼ إجمالى عدد السكان . بالإضافة إلى ذلك، فإن قوائم المجرمين تثبت بشكل مباشر، أن كل المجرمين تقريباً ينشأون من داخل البروليتاريا. إذ لو أخذ المتوسط العام فى الإعتبار، فإن من بين كل ١٠٠ مجرم فى عام ١٨٤٢ ، يوجد ٣٢٫٣٥ لا يستطيعون القراءة أو الكتابة ، ٥٨٫٣٢ يقرأون ويكتبون بطريقة قاصرة، ٦٫٧٧ يقرأون ويكتبون بطريقة جيدة ، ٠٫٢٢ قد نالوا قسطاً أعلى من التعليم ، بينما لم تحدد درجة تعليم ٢٫٣٤ . ومع ذلك فإن الجريمة قد زادت فى اسكتلندا بمعدل أسرع . إذ لم يكن هنالك فى عام ١٨١٩ غير ٨٩ مقبوضاً عليه بإساءات جنائية ، لكن الرقم ارتفع مبكراً فى عام ١٨٠٧ إلى ٣١٢٦ ، وفى عام ١٨٤٢ إلى ٤١٨٩ . أما فى «لانكشاير» حيث استخرج « شريف اليسون » بنفسه التقرير الرسمى ، فإن عدد السكان قد تضاعف مرة واحدة خلال ثلاثين عاماً، بينما تضاعف الجريمة مرة واحدة خلال خمس سنوات ونصف ، أى بسرعة أكبر من سرعة السكان بست مرات . إن الإساءات فى الغالبية العظمى من حالاتها ضد الملكية ،كما هو الحال فى البلدان المتحضرة . ومن هنا فإنها قد نشأت فى بعض صورها ، عن الحاجة ، حيث أن ما لدى الإنسان ، لا يسرقه . إن نسبة الإساءات ضد الملكية إلى عدد السكان هى ١ : ٧١٤٠ فى الأراضى الواطئة ، ١ : ٨٠٤ فى فرنسا ، وكانت ١ : ٧٩٩ فى انجلترا فى الوقت الذى كتب فيه «جاسكال» أن نسبة الإساءات ضد الأشخاص إلى عدد السكان هى ١ : ٢٨٠٤٩٠ فى الأراضى الواطئة، ١ : ١٧٥٧٠ فى فرنسا ،

١ : ٢٣٢٩٥ فى انجلترا . كما أن نسبة الجرائم بشكل عام إلى عدد السكان فى المناطق الزراعية هى ١ : ١٠٤٣، ١ : ٨٤٠ فى المناطق الصناعية * . أما عن النسبة فى انجلترا كلها اليوم فهى : ٦٦٠**، رغم أن عشر سنوات قد مرت بالكاد منذ ظهور كتاب « جاسكال » .

إن هذه الحقائق لأكثر من كافية، لتحمل أى إمرىء،حتى إن كان بورجوازيا، على التوقف وتأمل نتائج مثل تلك الأوضاع . إذ لو تضاعف الفساد الأخلاقى بهذا المعدل لفترة أطول قدرها عشرون عاما (وإن قل ثراء الصناعه الإنجليزية عما قبل ، خلال هذه العشرين عاما ، فإن التضاعف المتزايد سيستمر على نحو أكثر سرعة) فماذا ستكون النتيجة ؟ إن المجتمع فى حالة ظاهرة التحلل بالفعل ، إذ يستحيل أن تلتقط جريدة ، دون أن ترى أشد الأدلة لفتا للانظار عن تهاوى كل الروابط الإجتماعيه . لقد نظرت بطريقة جزافية فى كومة من الصحف التى ترقد أمامى ، هناك « المانشستر جارديان ، عدد أكتوبر عام ١٨٤٤ ، والتى تتناول الأوضاع على مدى ثلاثة أيام . إنها لم تعد تبالى بإعطاء التفاصيل الدقيقة عما يجرى فى « مانشستر » ، إنها تروى فقط أكثر الحالات إثارة للإهتمام : إن العمال قد أضربوا فى أحد المصانع مطالبين بأجور أعلى دون أن يقدموا إنذاراً ، وأن « قاضى الصلح » قد حكم عليهم بالعودة إلى العمل ، وأن صبيين قد ضبطا متلبسين بالسرقة فى «سالفورد»، وأن تاجراً مفلساً حاول أن يغش زبائنه . وتأتى الأخبار أكثر تفصيلا من المدن المجاورة : ففى « آشتون » حدثت سرقتان ، وعملية سطو واحدة ، وعملية إنتحار واحدة ، وفى « يورى » سرقة واحدة ، وفى « بولتون » سرقتان واختلاس إيراد ، وفى « لايت » سرقة واحدة ، وفى « أولدهام » إضراب واحد من أجل الأجور ، سرقة واحدة ، خناقة واحدة بين نساء إيرلنديات ، مهاجمة نقابيين لبائع قبعات غير نقابى ، واحدة من النساء يضربها إبنها ، هجمة

(*) « السكان العاملين فى الصناعة فى انجلترا » ، الفصل العاشر .

(**) إجمالى عدد السكان خمسة عشر مليون تقريباً ، مقسمة بعدد المجرمين المذنبين (٢٢٧٣٣) .

واحدة على البوليس وسرقه واحدة للكنيسة ، وفى « ستوك بورت » سخط العما على الأجور ، سرقة واحدة ، عملية إختلاس واحدة ، خناقة واحدة ، زوج يضرب زوجته ، وفى « وارينجتون » سرقة واحدة وخناقة واحـــدة ، وفى « ويجان » سرقة واحدة وعملية سطو واحدة على الكنيسة . أما أخبار جرائد «لندن» فهى أسوأ بكثير ، إنها تزاحم بعضها البعض ، إختلاسات وسرقات وهجمات وخناقات عائلية . لقد وقع فى يدى عدد من جريدة « التيمس » الصادرة فى ١٢ سبتمبر عام ١٨٤٤ ، وهو يقدم أخبار يوم واحد ، يشتمل على سرقة وهجمة موجهة ضد البوليس ، حكم ضد أب يلزمه بأن يعول إبنه غير الشرعى ، أبوان يتخليان عن طفلهما وزوجة تسمم زوجها . وأخبار مماثلة موجودة فى كل الصحف الإنجليزية . إن الحرب الإجتماعية فى هذا البلد ، تسير قدماً إلى الأمام ، إن كل واحد يزود عن نفسه ، يقاتل دفاعاً عن نفسه ضد كل القادمين ، إن إضراره بالآخرين ، الذى هم خصومه الظاهريين ، أو عدم إضراره بهم ، يقوم على تقدير لا يؤمن بصلاح البشر ، يقوم على أساس أى الأمور تعود عليه هو بنفع أكثر . لم يعد أى أمرىء يصل إلى وفاق سلمى مع زميله الإنسان . إن كل الخلافات تسوى بالتهديدات ، بالعنف أو فى ساحة المحكمة . وفى إيجاز ، فإن كل واحد يرى فى جاره عدواً يجب إزاحته من الطريق ، أو فى أحسن الأحوال ، إداه يمكنه إستخدامها لمنفعته الخاصه . وتزداد هذه الحرب ، كما توضح قوائم المجرمين ، نمواً وعنفاً وحدة ، وتبدو غير قابلة للمصالحه عاماً بعد عام . إن الأعداء ينقسمون بالتدريج إلى معسكرين كبيرين — البورجوازية من ناحية والعمال من ناحية أخرى . إن هذه الحرب التى يشنها كل واحد ضد الكل ، وتشنها البورجوازية ضد البروليتاريا ، لا تثير فينا أية دهشة ، فهى العاقبة الوحيـــدة المنطقية للجوهر الذى تشتمل عليه المنافسة الحرة . غير أن ما يمكن أن يثير دهشتنا للغاية ، هو أن تظل البورجوازية هادئة مطمئنة البال أمام سحب العاصفة التى تتجمع ، وأن تستطيع قراءة كل تلك الأمور يومياً فى الصحف — ولن تقول إصابتها بالسخط على مثل هذه الحالة الإجتماعية ، ولكن دون أن تخشى نتائجها ، تخشى انفجاراً عاماً من تلك الأمور التى تعلن عن نفسها من يوم إلى يوم كعوارض مرضية فى صورة الجريمة . لكنها

البورجوازية ، إنها لا تستطيع رؤية الحقائق ، وأقل بكثير من رؤيتها للحقائق ، تبينها لنتائجها . شيء واحد فقط هو الذى يثير الدهشه ، ذلك أنه فى مكنة الآراء المسبقه والمتعصبه لهذه الطبقه ، أن تمسك و تمثل هذه الدقه ، بل ربما أقول تمثل هذا العمل الجنونى ، طبقه كاملة من البشر . وفى تلك الأثناء فإن نمو الأمة يشق طريقه سواء كان للبورجوازية أعين أم لم يكن لها ، وستفاجىء طبقة القابضين على الملكيه يوماً ما ، بأشياء لم تتخيلها فى فلسفتها .

□

الأيدى العاملة بالمصانع

عندما نتناول الآن الفروع الأكثر أهمية من البروليتاريا الصناعية الانجليزية، فإننا سنبدأ طبقاً للمبدأ الموضوع آنفاً ، بعمال المصانع ، أى هؤلاء الذين ينضوون تحت لائحة المصنع . وينظم هذا القانون طول يوم العمل فى المصانع التى يغزل أو ينسج فيها الصوف والحرير والقطن والكتان باستخدام قوة الماء أو البخار ، وتشتمل بناء على ذلك ، على أكثر فروع الصناعة الانجليزية أهمية . إن الطبقة التى تشغلها تلك الفروع هى أكثر العمال الانجليز ذكاء ونشاطا ، ولذا فهى أكثر من تبرم به البورجوازية وأكثر من تكرهه . إنها تقف فى مجموعها ، وعمال القطن بشكل متميز ، على رأس الحركة العمالية مثلهم فى ذلك مثل سادتهم أصحاب المصانع ، خاصة هؤلاء الذين من « لانكشاير » والذين يقودون أعمال الإثارة البورجوازية .

لقد رأينا فى المقدمة آنفاً ، كيف أن السكان العاملين فى تشغيل مواد النسيج ، قد سلخوا أولا من نمط حياتهم السابقة . ولذا فليس هنالك ما يثير الدهشة فى أن يكون تقدم الابتكار الآلى فى السنوات الأخيرة ، قد أثر تأثيراً تاماً على هؤلاء العمال بشكل أكثر عمقاً ، وعلى نحو دائم . إن تاريخ صناعة القطن كما يرويها (أور)* ، (باينس)** وآخرون ، هو تاريخ

(*) (صناعة القطن فى بريطانيا العظمى) بقلم (دكتور ا. أور) ، ١٨٣٦ .
(**) (تاريخ صناعة القطن فى بريطانيا العظمى) بقلم الوجيه (ا. باينس) .

التحسينات التى أدخلت من كل اتجاه ، والتى غدا أكثرها مستخدما بالفعل فى الفروع الأخرى من الصناعة . إن العمل الآلى كاد أن يخلف العمل اليدوى فى كل مكان ، وكل الأعمال اليدوية تقريباً تدار بمساعدة البخار أو الماء ، كما يحمل كل عام مزيداً من التحسينات .

إن مثل تلك التحسينات يمكن أن تكون مصدر مسرة فقط ، فى ظل مجتمع التنظيم ، أما فى ظل حرب الكل ضد الكل ، فإن أفرادهم الذين يحصلون على الفائدة العائدة لأنفسهم ، وبذا يحرمون الغالبية من وسائل ضرورات الحياة . إن كل تحسين فى الآلة يبعد عمالا عن العمل ، وكلما كان التقدم أكبر كلما تعاظم عدد العاطلين ، وبذا فإن كل تحسين كبير ، يعود على عدد من العمال ، بنفس أثر الأزمة التجارية . أنه يخلق الحاجة والشقاء والجريمة . ولنأخذ بعض الأمثلة القليلة : إن دولاب الغزل وهو أول اختراع بحق ، تم تشغيله بواسطة رجل واحد - كان ينتج ستة أضعاف ماتنتجه طارة الغزل فى نفس الوقت على الأقل ، وهكذا فإن كل دولاب جديد كان يزيح خمسة من الغزالين بعيداً عن العمل . وآلة الغزل ، وهي التى كان إنتاجها أكثر بكثير من دولاب الغزل ، والتى كانت تدار مثله بواسطة رجل واحد ، قد ألقت بالمزيد من البشر ، خارج إطار التشغيل . وآلة غزل القطن أو الصوف والتى احتاجت إلى عدد أقل من الأيدى مقارنة بالإنتاج ، كان لها نفس الأثر . وكان كل تحسين فى الآلة أو مضاعفة عدد مغازلها يقلل عدد العمال العاملين أكثر فأكثر . غير أن تلك الزيادة فى عدد مغازل الآلة كانت كبيرة إلى حد أن جيوشاً كاملة من العمال ألقت بهم تلك الزيادة بعيداً عن التشغيل . لقد كان فى وسع غزال واحد ومعه صبيين يعملان فى لف الخيوط أن يسير ستمائة مغزلا ، فأصبح فى وسعه الآن أن يدير من ألف وربعمائة مغزل على آلتين . وترتب على ذلك طرد غزالين راشدين ومعهما بعض ممن كانوا يشتغلون معهما فى لفق الخيوط . وحيث أن آلات غزل القطن أو الصوف تعمل ذاتياً أدخلت فى عدد كبير من مصانع الغزل ، فإن عمل الغزالين أصبح يؤدى بواسطة الآلة بصوره كليه . يرقد أمامى الآن كتاب بقلم « جيمس ليتش »* ، وهو واحد

---

* الحقائق الصعبة فى المصانع بقلم عامل من « مانشستر » ، نشرت وأهديت إلى الطبقات العاملة ، بقلم «وليم راش لى» عضو البرلمان ، لندن ، أوليفير ، ١٨٤٤ ، ص ٢٨ ومايليها

من قادة الإصلاحيين المعروفين فى « لانكستر » . لقد عمل الكاتب لسنوات عدة فى فروع متعددة من الصناعة ، فى المصانع وفى مناجم الفحم ، وأنا أعرفه شخصياً كرجل قدير أمين يوثق به . كما لا يوجد تحت تصرفه بحكم وضعه السياسى، معلومات تفصيلية شاملة عن المصانع المختلفة جمعها العمال أنفسهم ، وهو يقوم بنشر جداول يتضح منها ، أنه فى عام ١٨٤١ تم تشغيل غزالين على آلات الغزل فى ٣٥ مصنعاً ، بعدد يقل ١٠٦٠ عاملا عن عام ١٨٢٩ ، رغم زيادة عدد المغازل بمقدار ٩٩,٢٣٩ مغزلا فى الخمس وثلاثين مصنعاً . وقد ذكر خمس مصانع لم يتم تشغيل غزالين أياً كانوا بها ، فقط تم إستخدام التشغيل الذاتى . لقد زاد عدد المغازل بنسبة ١٠٪ بينما نقص عدد الغزالين بنسبة ٦٠٪ . ويضيف « ليتش » أنه قد تم منذ عام ١٨٤١ إدخال تحسينات عديدة للغاية عن طريق مضاعفة البطاريات ووسائل أخرى ، حتى أن نصف العمال قد طردوا من بعض المصانع المذكورة . لقد حدث فى احد منها أن ثمانين غزالا كان قد تم تشغيلهم منذ فترة وجيزة مضت لم يتبق منهم الآن غير عشرين غزالا وطرد الباقون ، أو اسندت إليهم أعمال الصبية ومنحوا أجور الصبيه . ويروى « ليتش » قصة مماثلة عن « ستوك بورت» حيث تم تشغيل ٨٠٠ غزالا عام ١٨٣٥ لم يتبق منهم عام ١٨٤٣ غير ١٤٠ غزالا رغم أن الصناعة قد زادت إلى حد كبير خلال السنوات الثمانية أو التسعة الأخيرة . إن تحسينات مماثلة قد تم تحقيقها من الطر التمشيط ، ونتج عنها طرد نصف العمال خارج العمل ، ففى احد المصانع التى استخدمت الأطر المحسنة تم طرد أربعة من الأيدى العاملة من كل ثمانية ، بالإضافة إلى تخفيض صاحب العمل لأجور الأربعة الباقيين من ثمانى شلنات إلى سبع . وسارت نفس العملية أيضاً فى صناعة النسيج لقد سيطر المنسج الميكانيكى على فرع بعد آخر من فروع المنسج اليدوى . ولما كان إنتاجه يفوق بكثير إنتاج المنسج اليدوى ، إذ يمكن لعامل واحد تشغيل منساجين، فإنه أبطل عمل كثرة من العاملين . وسادت نفس الحالة كل أنواع الصناعة ، غزل الصوف والكتان ، كذا برم الحرير . وأخذ المنسج الميكانيكى فى الهيمنة أيضاً على فرع بعد آخر من فروع نسج الصوف والتيل ، ففى « روك دال » وحدها توجد مناسج ميكانيكية فى صناعة الفانلات وفروع أخرى من نسج الصوف ، أكثر من المناسج اليدوية . وتجيب البورجوازية عادة عن هذه الحالة ، بأن التحسينات فى

فى الآلة تخفض تكلفة الإنتاج وتقدم سلعاً تامة الصنع بأسعار أقل ، وتلك الأسعار المخفضة تؤدى إلى زيادة الإستهلاك ، مما يؤدى إلى أن يجد العمال العاطلون عما قريب عمالة كاملة فى المصانع المنشأة حديثاً . إن البورجوازية على حق إلى حد بعيد ، فى أنه تحت ظروف معينة ملائمة للتطور العام للصناعة ، فإن كل تخفيض فى سعر السلع التى تكون مواردها الخام رخيصة ، يزيد من الاستهلاك على نحو كبير وتتسبب فى بناء مصانع جديدة ، إلا أن كل كلمة وردت فى هذا التصريح أكثر من ذلك ، إنما هى أكذوبة . وتجهل البورجوازية حقيقة أن النتائج اللاحقة لإنخفاض السعر ، والنتائج اللازمة لبناء مصانع جديدة قد استلزمت منها سنوات إنها تلوذ بالصمت عند المسألة الخاصة بأن كل تحسين فى الآلة يلقى بالعمل الحقيقى ، وبكمية القوة المبذولة ، أكثر فأكثر على الآلة ، وبذا يحول عمل الرجال الراشدين إلى مجرد عملية إشراف ، يمكن لإمرأة ضعيفة أو حتى لصبى ، أن يؤديها بنفس الكفاءة وبنصف الأجور أو حتى ثلثها ، وبالتالى يزاح الرجال الراشدين أكثر فأكثر بثبات ، ولا يعاد تشغيلهم مع نماء الصناعة . إنها تطمس حقيقة أن فروعا كاملة من الصناعة قد إرتدت ، أو أنها قد تغيرت إلى الحد الذى يلزم معه تعلمها من جديد . وتراعى البورجوازية جيداً ألا تعترف بما تطنطن به عادة ، من أن عمل المصنع يجب تعلمه فى الحداثة المبكرة ، حتى يمكن تعلمه على الوجه الصحيح ، وذلك كلما أثيرت مسألة منع تشغيل الصبية . إنها لا تذكر حقيقة أن عملية التحسين تسير قدما ، وأنه ما أن ينجح عامل فى تكييف نفسه فى فرع جديد — إن كان بالفعل قد نجح فى ذلك — حتى يؤخذ ذلك منه أيضاً ، ومعه آخر البقايا التى بقيت له لكسب خبزه . إلا أن البرجوازية تظفر بعائد تحسين الآلة . إن لديها فرصة رئيسية لتكديس المال خلال السنوات الأولى ، بينما ما تزال تستخدم العديد من الآلات القديمة ، والتحسين لم يعمم بعد . إنها تستكثر أن يطلب منها ضرورة أن تفتح عينيها على النواقص التى تلازم تلك التحسينات .

إنها تجادل فى حقيقة أن تحسين الآلة يؤدى إلى خفض الأجور ، بنفس العنف الذى يردد به العمال هذه الحقيقة . إن البورجوازية تصر على أن الأجور الإجمالية للأسبوع قد ارتفعت على نحو ما ، أكثر من أن تكون قد انخفضت ،

رغم إنخفاض سعر العمل بالقطعة ، وأن حالة العمال قد تحسنت أكثر من أن تكون قد ساءت . من العسير أن تصل إلى عمق المسألة ، حيث أن العمال يتمسكون عادة بسعر العمل بالقطعة . إلا أن الأمر المؤكد هو أن الأجر الأسبوعي قد نقص أيضاً فى عديد من فروع العمل ، بسبب تحسين الآلة . إن هؤلاء الذين يدعون بالغزالين الدقيقين مثلا (وهم الذين يعملون على آلات الغزل الرفيع) ، يتناولون بالفعل أجوراً عالية ، تتراوح من ثلاثين إلى أربعين شلنا فى الأسبوع . حيث لديهم رابطة قوية تحافظ على إرتفاع أجورهم ، كما أن حرفتهم تحتاج إلى مران طويل . أما الغزالين العاديين ، والذين عليهم أن ينافسوا نظراءهم (وهم هؤلاء الذين لم يتهيأوا بعد للغزل الرفيع) ، والذين تحطمت رابطتهم بإدخال هذه الآلات ، فإنهم يتناولون أجوراً منخفضة للغاية . لقد أخبرنى غزال يعمل على آلة غزل قطن أنه لا يكسب أكثر من أربعة عشر شلنا فى الأسبوع ، وهنا يتفق قوله مع ذلك الذى جاء على « ليتش » ، من أن الغزالين العاديين فى مختلف المصانع ، يكسبون أقل من ستة عشر شلنا وست بنسات فى الأسبوع . وأن الغزال الذى كان يكسب منذ ثلاث سنوات مضت ، ثلاثين شلنا فى الأسبوع ، يحصل الآن بصعوبة على إثنى عشر شلنا ونصف ، وأن كسبه فى المتوسط خلال العام الماضى لم يزاد عن ذلك . أما عن أجور النساء والصبية ، فقد إنخفضت بنسبة أقل ، وربما كان مرجع ذلك ، إلى أنها لم تكن مرتفعة منذ البداية . إننى أعرف عديداً من النساء والأرامل وأطفالهن ، وأعرف أنهن قاسين كثيراً ليكسبن ثمانية أو تسعة شلنات فى الأسبوع ، وأنهن وعائلاتهن لا يستطعن الحياة بشكل لائق بهذا القدر من المال . إنها حقيقة يجب أن يعترف بها كل من يعرف سعر الضرورات المجردة للحياة فى إنجلترا . إن إنخفاض الأجور بشكل عام بسبب إدخال التحسينات على الآلات ، فهو دليل العمال الذى لاخلاف حوله. إن كذب تأكيد البورجوازية ، بأن حالة الطبقة العاملة قد تحسنت بإدخال الآلة ، ليظهر بعنف فى كل اجتماع للعمال فى المناطق الصناعية . وحتى إن كان الأجر النسبى ، سعر العمل بالقطعة ، هو الذى قد هبط حتماً ، بينما الأجر الكلى ، جملة ما يتم كسبه فى الأسبوع ، قد ظل دون تغيير ، فما هى نتيجة ذلك ؟ إن يلتزم العمال بالنظر فى سكون ، بينما يملأ أصحاب المصانع أكياسهم من كل تحسين للآلة ،

دون أن تعطى للأيدى العاملة ، أقل قدر من المشاركة فى الربح . إن البورجوازى ينسى وهو يحارب العامل أكثر المبادىء المألوفة فى « إقتصاده السياسى » . إنه هو الذى يقسم فى أوقات « بمالتس » ، وهو الذى يزعق من قلقه أمام العمال « من أين يمكن للملايين التى زادها السكان فى انجلترا أن تجد عملا ، دون التحسينات التى أدخلت على الآلات »* وكأن البورجوازى لا يدرى جيداً ، أنه بدون الآلة وإنتشار الصناعة التى أنتجتها ، لما جاءت تلك الملايين إلى العالم أبداً ، ولما شبت ونمت ! إن الخدمة التى قدمتها الآلة للعمال هى فى بساطة : أنها قد أعادت إلى عقولهم الحاجة إلى إصلاح إجتماعى ، يمكن بواسطته ألا تكون الآلات ضدهم أبعد من ذلك ، ولكنها تكون من أجلهم . دع البورجوازى الحكيم يسأل الناس الذين يكنسون الشوارع فى « مانشستر » أو فى غير هذا المكان « رغم أن ذلك قد غدا الآن من الماضى ، حيث اخترعت وأدخلت الالات التى تحقق هذا الغرض) أو يبيعون الملح والكبريت والبرتقال ورباط الأحذية فى الشوارع ، أو حتى يتسولون ، ماذا كانوا من قبل ، وسيرى أن العديد منهم سيجيب : « كنا عاملين بالمصانع طردتهم الآلات من العمل » . إن نتائج تحسين الآلات فى ظل أوضاعنا الاجتماعية الراهنة ، مؤذية فقط للعامل ، وهى فى الغالب ظالمة ، فى أقصى درجاتها . إن كل تقدم جديد يحمل معه بطالة وحاجة ومعاناة . وفى بلد كانجلترا ، حيث يوجد على الدوام — حتى بدون هذا التقدم — « فائض سكان » ، فإن أسوأ ما يمكن أن يحل بالعامل هو فصله من عمله — إن أى تأثير موهن محبط يقع على العامل ، بنتيجة عدم يقينه من وضعه فى الحياة ، بسبب التقدم الذى لا ينقطع للآلات — والعامل لديه دون هذا التقدم نصيب كاف من التملق وإنعدام الاستقرار — يفتح أمامه للهرب من اليأس طريقين لا غير : التمرد الداخلى أو الخارجى ضد البورجوازية ، أو السكر والفساد العام للآداب . ولقد إعتاد العمال الإنجليز أن يعتصموا بكليهما . إن تاريخ البروليتاريا الانجليزية يروى لنا عن مئات الهبات ضد الآلات والبورجوازية . ولقد تحدثنا آنفا عن التحلل الخلق ، الذى هو فى حد ذاته مجرد صورة أخرى من صور اليأس .

---

* ج . سيموتز (الصنائع والصنائعية) .

أن أسوأ حال ، هو حال هؤلاء العمال الذين يتعين عليهم أن ينافسوا آلة تشق طريقها . إن أسعار السلع التي ينتجونها تكيف نفسها مع سعر السلع النظيرة التي تنتجها الآلات . وحيث أن الأخيرة تعمل على نحو أرخص ، فإنه ليس لمنافسيها من البشر غير أقل الأجور . ويحدث نفس الشيء لكل عامل يعمل على آلة قديمة في حالة منافسة مع التحسينات الأخيرة . على من تقع المشقة ؟ إن صاحب العمل لن يلقي بآلته القديمة ، ولن يحمل الخسارة عليها ، إنه لا يستطيع أن يحقق شيئاً من نظام الآلات القديم ، ومن هنا يضيق على العامل الحي ، على كبش الفداء العام للمجتمع . إن أسوأ من يساء إستخدامه من كل العمال الذين يتنافسون مع الآلة ، هم نساجو القطن الذين يعملون على المنسج اليدوى . إنهم يتناولون أتفه الأجور . إنهم ليسوا في وضع يمكنهم ، في زمن العمالة الكاملة ، من كسب أكثر من عشر شلنات في الأسبوع . إن المنسج الآلى يضيف صنفاً بعد آخر من أصناف السلع المنسوجة ، ويصبح النسيج اليدوى هو الملاذ الأخير للعمال الذين لفظوا من العمل في فروع أخرى ، حتى أن الحرفة قد غدت مكتظة على الدوام . وبالتالى فإن النساج اليدوى يكون محظوظاً إن هو إستطاع أن يكسب — في المواسم التي تمثل المتوسط العام — ست أو سبع شلنات أسبوعياً . غير أنه يتوجب عليه أن يجلس إلى المنسج ما بين أربعة عشرة ساعة إلى ثمانية عشرة ساعة يومياً كي يحقق هذا القدر من الكسب . كما أن أغلب السلع المنسوجة تحتاج أيضاً إلى حجرة نسيج رطبة للمحافظة على لحمة النسيج من الانقصاف . وتلك الحجرات التي يعمل بها هؤلاء النساجين هي الدوام بدون أرضيات خشبية أو أنها غير مبلطة . ويرجع ذلك جزئياً إلى المحافظة على لحمة النسيج ، وجزئياً لفقرهم الذى يمنعهم من الحصول على مساكن أفضل . ولقد رأيت الكثير من مآوى أمثال هؤلاء النساجين . إنها دائماً في أقبية في الأزقة . والحوارى المنحطة في المناطق النائية . وغالباً ما يعيش معاً في كوخ واحداً ، به حجرة أو إثنين للعمل وحجرة نوم واحدة كبيرة ، ستة من أمثال هؤلاء النساجين الذين يعملون على مناسج يدوية ، كما أن العديد منهم متزوج . ويقتصر طعامهم على البطاطس تقريباً ، وربما معها وجبة من عصيدة الشعير . إنهم نادراً ما يتناولون اللبن ، أما اللحم فهو بالجهد الجهيد . إن أعداداً كبيرة منهم إيرلندية ، أو في أصل إيرلندى . إن هؤلاء النساجين الفقراء العاملين على المناسج اليدوية

والذين هم أول من يعانى من كل أزمة ، وآخر من يتخلص من آثارها ، يجب أن يخدموا البورجوازية كقبضة يدها فى الإجتماعات التى تهاجم نظام المصنع . « أنظر » هكذا تصرخ البورجوازية فى إنتصار . « أنظر كيف تموت تلك الكائنات الفقيرة جوعاً ، بينما عمال المصانع يترعرعون ، ثم أحكم بعدئذ على نظام المصنع » . * وكأن نظام المصنع بالتحديد والآلات المنتمية إليه ، لم تكن هى التى طحنت النساجين اليدويين بشكل مخز ، وكأن البورجوازية لا تعرف ذلك كما نعرفه نحن ! إلا أن البرجوازية لها مصالح معرضة للخطر ، وبالتالى فإن كذبة أو إثنتين وقليل من الرياء لا يهم كثيراً .

دعونا نفحص عن قرب أكثر نوعاً ما ، حقيقة أن الآلات تحل أكثر فأكثر محل الرجال . إن العمل الإنسانى اللازم فى عمليتى الغزل والنسيج ، يتكون أساساً من لفق الخيوط التى إنقضت ، بينما تقوم الآلة بكل ما تبقى . إن هذا العمل لا يحتاج إلى قوة عضلية ، إنه يحتاج فقط إلى أصابع مرنة . وبالتالى فإن الأمر ليس فقط عدم الحاجة إلى الرجال فى هذا المضمار ، بل إنه أيضاً قلة صلاحيتهم له عن النساء والصبية بسبب النمو العضلى الكبير لأيديهم ، وبالتالى يكون من الطبيعى أن يخلفوهن فى العمل. لذا فإنه كلما زادت الحاجة إلى إستخدام الأذرع ، أمكن تحويل القوة اللازم بذلها إلى البخار أو الماء ، وبالتالى يقل عدد الرجال الذين يلزم تشغيلهم ، وتحل النساء والصبية محلهم . حيث يعملون بأجر أقل وعلى نحو أفضل من الرجال فى تلك الفروع ** وتكاد تستحوذ النساء والفتيات كلية على العمل على آلات الغزل فى مصانع الغزل ، ولا يوجد وسط آلات الغزل غير رجل واحد ، غزال واحد راشد (وبإستخدام المحركات الذاتية ، يصبح هو أيضاً زائداً عن الحاجة) ، وعدد من اللفاقين لربط الخيوط ،

---

* أنظر « كتور أور (فى فلسفة المصانع) .

** تقرير مفتش المصنع (ل . هورنر) ، أكتوبر ١٨٤٤ . إن أوضاع الأجور فاسدة للغاية ، ففى فروع خاصة من صناعة القطن فى (لانكشاير) ، يوجد هنالك مئات من الشباب ما بين العشرين والثلاثين يشتغلون فى عملية اللفق وخلاف ذلك ، وهم لا ينالون أكثر من ٨ أو ٩ شلنات فى الأسبوع ، بينما يعمل صبية دون الثالثة عشر تحت نفس السقف ويربحون ٥ شلنات ، وفتيات شابات من السادسة عشر إلى العشرين ، من ١٠ إلى ١٢ شلناً فى الأسبوع .

وهم فى الغالب من الصبية والنساء ، وأحياناً من الشبان الذين تتراوح أعمارهم ما بين الثامنة عشر والعشرين عاماً ، وهنا وهناك غزال عجوز مطرود من وظيفة أخرى . وتعمل أساساً فى المغازل الآلية ، نساء تتراوح أعمارهن من الخامسة عشر إلى العشرين ، ومعهن قلة من الرجال ، وهؤلاء على أى حال نادراً ما يظلوا بتلك الحرفة بعد سن العشرين . كما تعمل النساء فقط بين آلات التجهيز ، ومعهن هنا أو هناك رجل لتنظيف وسن أطر التمشيط وتشغل المصانع إلى جانب كل هؤلاء أعداداً من الصبية لرفع أو إنزال مكبرات الغزل ، وقلة من الرجال كمشرفين ، وميكانيكى ومهندس لآلات البخار ، ونجارين وشيالين . . . الخ غير أن النساء والأطفال هم من يقومون بالتشغيل الفعلى للمصانع . وهذا ما ينكره أصحاب المصانع .

لقد نشروا فى العام الماضى جداول متقنة ، ليثبتوا أن الآلات لا تحل محل الذكور الراشدين من العمال . وطبقاً لهذه الجداول ، فإن أكثر من نصف كل عمال المستخدمين تقريباً ، أى ٥٢ ٪ كانوا إناثاً والباقى ٤٨ ٪ ذكوراً . وأن أكثر من نصف هؤلاء العمال كانوا فوق سن الثامنة عشر ، وإلى هذا الحد فالأمر حسن تماماً ، غير أن أصحاب المصانع حريصين للغاية ، ألا يخبرونا كم فى هؤلاء الراشدين كانوا رجالا وكم منهم كانوا نساء . وتلك هى القضية . بالإضافة إلى ذلك ، فإنهم وبشكل واضح قد عدوا الميكانيكيين والمهندسين والنجارين وكل الرجال الذين يعملون فى المصانع على أية صورة من الصور ، بل ربما عدوا الكتبة أيضاً . ومع ذلك فهم لا يملكون الشجاعة لقول الحقيقة كاملة . هذه النشرات تزخر عادة بالكذب والتمادى فى الأخطاء والبيانات الملتوية ، مع إحصاءات عن المتوسطات تعنى الكثير بالنسبة للقارىء المتعمق ولا تعنى شيئاً بالنسبة للقارىء المبتدىء ، مع طمس للحقائق يحمل على أهم النقاط . وبذلك فإن أصحاب المصانع الذين يهمهم الأمر ، لا يثبتون غير العمى الأنانى وافتقاد الإستقامة . دعونا نأخذ بعض البيانات من حديث تقدم به « اللورد أشلى » ، « الساعات العشر » « لإعلان مارس » فى ١٥ منه عام ١٨٤٤ فى مجلس العموم . إنه يقدم هنا بعض المعلومات عن علاقة جنس العمال بسنهم ، وهى معلومات لم يدحضها أصحاب المصانع بعد ، هؤلاء الذين لم تغطى بياناتهم ، كما هى مقتبسة

آنفاً، غير جزء من الصناعة الآلية فى انجلترا . فمن بين ٤١٩ر٥٦٠ من العاملين بالمصانع فى الامبراطورية البريطانية عام ١٨٣٩ ، يوجد ١٩٢ر٨٨٧ ، أى قرابة النصف ، ممن هم دون الثامنة عشر من العمر ، ٢٤٢ر٢٩٦ من الإناث ، منهن ١١٢ر٢٩٢ كن أقل من الثامنة عشر من العمر . وبذا يتبقى هناك ٨٠ر٦٩٥ من العمال الذكور تحت سن الثامنة عشر ، و ٩٦ر٥٦٩ من العمال الذكور الراشدين ، أى أقل من ربع الرقم الإجمالى . وتشكل الإناث ٥٦٫٢٪ من إجمالى العاملين فى مصانع القطن ، ٥ر٦٩٪ من العاملين بمصانع الصوف ، ٥ر٧٠٪ من العاملين بمصانع الحرير ، ٥ر٧٠٪ من العاملين بمصانع الكتان . وتكفى تلك الأرقام لإثبات الحيز الذى يشغله الراشدين من الذكور ، وما عليك إلا أن تدخل أقرب مصنع لترى مايؤكد تلك الحقيقة، ومن ثم تأتى معاناة الحاجة. إن تحويل النظام الإجتماعى السائد ، والذى فرض عليهم فرضاً سيكون له أشد النتائج تدميراً على العمال . إن تشغيل النساء يقود فوراً إلى تفريق الأسرة ، إذ ماذا سيكون مصير الأطفال عندما تقضى الزوجة ما بين إثنى عشر إلى ثلاث عشر ساعة يومياً فى المصنع ، وفى نفس الوقت يعمل الزوج هنا أو هناك ؟ إنهم يشبون كالعشب البرى . إنهم يدفعون إلى مربية مقابل شلناً أو ثمانى عشر بنساً فى الأسبوع . أما كيف يعاملون ، فهو أمر يمكن تخيله . ومن ثم تتضاعف الحوادث التى يسقط الأطفال الصغار ضحايا لها ، تتضاعف فى أحياء المصانع إلى حد بشع . إن قوائم قاضى تحقيق الوفيات فى « مانشستر » * خلال تسعة شهور ، توضح أن ٦٩٠ ميتة قد وقعت بسبب الحريق ، ٥٦ بسبب الغرق ، ٢٣ بسبب السقوط ، ٧٧ لأسباب أخرى ، أى برقم إجمالى قدره ٢٢٥ ** ميتة بسبب الحوادث ، بينما وقع فى « ليفربول » غير الصناعية خلال اثنى عشر شهراً ١٤٦ حادثة قاتلة فقط . كما أن حوادث المناجم مستبعدة فى كلتا الحالتين . وحيث أنه لا سلطة لقاضى تحقيق « مانشستر » فى « سالفورد » ، فإن تعداد سكان

(*) تقرير لجنة تقصى المصانع ، شهادة (دكتور هاوكينز) ، ص ٣

(**) من بين الحوادث جىء بها عام ١٨٣٤ إلى الملجأ فى (مانشستر) ، هنالك مائة تسع وثمانون حالة بسبب الحريق [لم يذكر عدد الحالات المميتة — (حذفت هذه الفقرة فى الطبقة الإنجليزية المصرح بها)

المكانين المذكورين يكاد يكون متساوياً إذا ما قورنا ببعضهما البعض . إن صحيفة « المانشستر جارديان » تكاد تذكر فى كل عدد من أعدادها نبأ ميتة أو أكثر بسبب الحريق . إن ضرورة إرتفاع إحصائية الوفاء بين صغار الأطفال لاشتغال الأمهات لأمر غنى عن البيان . إنه ماثل دون أدنى شك فى تلك الحقائق البشعة . إن النساء غالباً ما يعدن إلى المصنع بعد الولادة بثلاثة أو أربعة أيام تاركين أطفالهن ، وعليهن أن يسرعن ساعة الغداء إلى منازلهن لإطعام الطفل وتناول شيء ما . أي نوع فى الرضاعة ينتظر أن يكون هذا ، أمر واضح أيضاً . إن « اللورد أشلى » يكرر شهادة العديد من النساء العاملات :

« إن م . هـ . ، فى العشرين من عمرها ، لديها صبيان ، صغيرهما طفل يرعاه الآخر ، الذى هو أكبر منه قليلا . إن الأم تذهب إلى المصنع بعد الخامسة صباحاً على وجه التقريب ، وتعود إلى المنزل فى الثامنة مساء . إن اللبن ينثال من ثدييها طوال اليوم ، حتى أن ملابسها تقطر منه بللا » . « هـ و . ، لديها ثلاث أطفال ، إنها تذهب فى الساعة الخامسة فى صبيحة الإثنين لتعود مساء السبت ، وهناك فى المنزل يكون أمامها الكثير لتقوم به من أجل الأطفال ، حتى إنها لا تستطيع أن تأوى إلى فراشها قبل الثالثة صباحاً . وهى غالباً ما تكون قد ابتلت حتى الجلد ، وعليها أن تعمل على هذا النحو مرغمة » . لقد قالت « إن صدرى يؤلمنى أبشع الألم ، وأنا أقطر بللا من اللبن » .

إن استخدام المنومات لوضع الأطفال فى حالة من السكون ، أمر يروج له هذا النظام الشائن ، وهو قد بلغ حداً كبيراً فى أحياء المصانع . ويرى « د . جونس » الموقف المسئول فى «مانشستر» أن تلك العادة هى المصدر الرئيسى للميتات العديدة الناجمة عن الإرتعاش . إن تشغيل الزوجة يحلل الأسرة تماماً ، وتنتج الحاجة وهذا التحلل فى مجتمعنا الراهن والذى يقوم على الأسرى ، أشد النتائج إفساداً لأخلاق الوالدين والأطفال . إن الأم التى لا وقت لديها للإهتمام بطفلها ولتقديم أكثر مشاعر الحب العادى له خلال سنته الأولى ، والذى نادراً ما يراها بالفعل ، لا يمكنها أن تكون أما حقيقية للطفل ، والذى لابد وأن ينمو لا مبالياً بها ، يعاملها دون حب كإنسانة غريبة عنه . إن الأطفال الذى يشبون تحت مثل تلك الظروف ، يخربون حياتهم الزوجية تماماً فى المستقبل ، إنهم لا يمكن أن

يحسوا بأنهم فى دورهم ، فى الأسرة التى أقاموها هم أنفسهم ، لقد اعتادوا الوحدة على الدوام ، وهم يشبهون بذلك فى التفويض العام والقائم بالفعل للأسرة فى الطبقة العاملة . إن تحللا مماثلا ينجم عن تشغيل البنين ، إذ عندما يبلغون حداً يكسبون فيه من أسبوع لأسبوع ، أكثر مما يكلفون والديهم ، فإنهم يبدأون فى نقد الوالدين قدراً محدداً لحساب المأكل والمأوى ويحتفظون بالباقى لأنفسهم . إن ذلك غالباً ما يحدث بين سن الرابعة عشر والخامسة عشر* . وفى كلمة فإن البنين يحررون أنفسهم ، وينظرون إلى المنزل الأبوى نظرتهم إلى نزل ، يستبدلونه فى الغالب بآخر طبقاً لما يناسبهم .

إن الأسرة ، فى أحيان كثيرة ، لا تتحلل تماماً باشتغال الزوجة ، لكنها تنقلب رأساً على عقب . الزوجة تعول الأسرة ، والزوج قابع بالمنزل يرعى الأطفال ، يكنس الحجرة ويطبخ . إن هذه الحالة كثيراً ما تحدث ، ففى « مانشستر » وحدها أمكن حصر المئات من أمثال هؤلاء الرجال المحكوم عليهم بالأشغال المنزلية أن تصور السخط الثائر بين العمال لقلب كل العلاقات داخل الأسرة ، بينما تظل الأحوال الإجتماعية الأخرى دون تغيير ، أمر يسير ، يرقد أمامى خطاب من عامل انجليزى اسمه « روبرت بوندر » وعنوانه « أبنية بارون ، وودهاوس ، مورسايد فى ليدز » (ربما بحثت البورجوازية عنه هناك ، ولهذا الغرض كتبت العنوان بدقة ، إن الخطاب مرسل منه إلى « أوستلر » **.

« إنه يروى كيف أن عاملا آخر كان فى رحلة الأقدام ، وعندما بلغ « سانت هيلينز » فى « لانكشاير » تفقد صديقاً قديماً هناك .

« لقد وجده فى قبو تعس رطب ، لا يكاد يوجد به أثاث ، وعندما دخل صديقى الفقير ، كان هنالك « جاك » المسكين يجلس إلى جوار النار . فماذا كان يفعل فى اعتقادك ؟ كان يجلس يرتق جورب زوجته بالمثقب ، ولقد حاول أن

(*) تقرير لجنة تقصى المصانع ، تقرير (باوز) عن (اليدز) ، متكرر . تقرير (توفنيل) عن (مانشستر) ص ١٧ . الخ .

(**) ترجم هذا الخطاب من الألمانية إلى الانجليزية ، دون محاولة تصحيح الهجاء أو لغة (يوركشاير) الأصلية .

يخفيه بمجرد أن رأى صديقه القديم عند مدخل الباب . غير أن « جو » ، وهو اسم صديق ، كان قد رآه بالفعل وقال ، ماذا بحق الشيطان يا « جاك » ؟ اين زوجتك ؟ لماذا ، هل هذا هو عملك ؟ : وخجل « جاك » المسكين وقال « كلا ، إننى أعرف أن هذا ليس فى عملى ، إلا أن زوجتى المسكينة فى المصنع ، إذ عليها أن تغادر فى الخامسة والنصف وأن تعمل فى الثامنة مساء ، إنها منهكة إلى حد أنها لا تستطيع أن تفعل شيئاً عندما تعود إلى المنزل ، ولذا على أن أعمل لها كل ما فى وسعى عمله ، حيث لا عمل لى ، بل إنى خال من العمل منذ ثلاث سنوات مضت، ولن يكون هنالك عمل لى طول حياتى » ، ثم بكى بكاء مراً . وعاد «جاك» يتكلم ، « يوجد فى الجوار عمل كاف لجماعة النساء والأطفال ، لكن لا عمل على الإطلاق للرجال ، إنه لأيسر عليك أن تجد ألف جنيه فى الطريق من أن تجد عملا للرجال — غير أنى ما كنت أصدق أنك أو أى شخص آخر سيرانى وأنا أصلح جورب زوجتى . إنه عمل سىء ، لكنها لا تكاد تقف على قدميها ، إننى أخشى أن تلزم الفراش ، وحينئذ لا أدرى ماذا سيحل بنا ، إنه لأمر طيب إلى حد ما ، أنها قد غدت رجل البيت وأنا المرأة . إن ذلك عمـــل سىء يا (جو) » . ثم صرخ فى مرارة قائلا « إننى لم أكن كذلك على الدوام » ، (كلا) قال (جو) . (لكن عندما لم تجد عملا . لماذا لم تتنقل ؟) ، (سأخبرك يا (جو) على قدر ما أستطيع، لقد كان الأمر سيئاً للغاية . أنت تعرف أنى كنت أعمل كثيراً عندما تزوجت ، كما تعرف أنى لست كسولا) ، (كلا لم تكن كذلك) ، (وكان لدينا منزل جيد التأثيث ، ولم تكن (مارى) فى حاجة للعمل . كان فى وسعى أن أعمل من أجلنا نحن الاثنين ، إلا أن العالم إنقلب الآن رأساً على عقب . إن على (مارى) أن تعمل ، وعلى أنا أن أقبع بالمنزل ، وعندما تعود المرأة المسكينة إلى المنزل ليلا ، فإنها تكون منهكة تماماً . وكما تعلم يا (جو) فإنه من العسير استخدام المرء فى عمل مختلف) ، (حقاً يابنى ، إنه لأمر عسير) . ثم أخذ (جاك) فى البكاء مرة أخرى ، وتمنى لو أنه لم يتزوج أبداً ، ويولد أبداً ، إلا أنه لم يفكر أبداً عندما تزوج (مارى) أنه سيصل إلى ما وصل إليه . وقال (جاك) (إننى غالباً ما أندب هذا) . والآن فإن جو عندما سمع ذلك كما أخبرنى ، أخذ يسب ويلعن المصانع والدادة والحكومة بكل اللعنات التى تعلمها عندما كان فى المصنع منذ طفولته) .

هل فى وسع أى أمرىء أن يتصور حالة من جنون الأمور أكثر من تلك الوارد وصفها فى هذا الخطاب ؟ ومع ذلك فإن تلك الحالة التى تلغى جنس الرجل وتأخذ من المرأة كل أنوثتها ، غير قادرة على أن تغدق على الرجل أنوثة حقيقية أو على المرأة رجولة حقيقية — إن تلك الحالة التى تحط من قدر كلا الجنسين ومن خلالهما الإنسانية بأكثر السبل خزيا ، إنما هى النتيجة النهائية لحضارتنا التى نكيل لها المدح ، إنها الإنجاز النهائى لكل جهود ونضالات مئات الأجيال من أجل تحسين حالاتهم وحالة ذرياتهم ، أنه يتوجب علينا ، إما أن نيأس من الجنس البشرى ومن أهدافه وجهوده ، عندما نرى أن كل عملنا وكدحنا إنما يقضى إلى مثل هذا العبث والزراية ، أو أنه يتوجب علينا أن نقر بأن مثل هذا الإنقلاب الكلى فى حالة الجنسين ، ماكان من الممكن حدوثه لولا أن الجنسين قد وضعا منذ البداية فى وضع زائف . ولو كانت هيمنة الزوجة على زوجها ، كمسألة لا مفر منها أنتجها نظام المصنع ، أمر غير إنسانى ، فلابد وأن يكون القانون الفطرى للزوج على الزوجة غير إنسانى أيضاً . وإن كان فى وسع الزوجة الآن أن تكون لها اليد العليا طبقاً لحقيقة أنها تعطى الجزء الأكبر ، كلا ، بل كل الحيازة المشتركة ، فإن النتيجة الحتمية ، أن مجتمع الإمتلاك ذاك مجتمع زائف وغير منطقى ، طالما أن عضو واحد فى الأسرة يباهى فى الغالب بتقديم النصيب الأكبر . وإن كانت أسرة مجتمعنا الحديث تتحلل هكذا ، فإن ذلك التحلل فى الحقيقة يكشف فقط عن أن يكون الرباط الذى يربط هذه الأسرة ، لم تكن العواطف العائلية ، لكنها المصالح الخاصة التى تكمن تحت عباءة من الشركة المدعاة فى الممتلكات . وتتواجد نفس العلاقة فى حالة هؤلاء البنين الذى يعولون والديهم العاطلين * ، عندما لا يدفعون قيمة مأكلهم بشكل مباشر كما أشرنا آنفاً . ولقد شهد دكتور (هاوكينز) فى تقرير (لجنة تقصى المصانع) بأن هذه العلاقة عامة للغاية ، وأنها مخزية فى (مانشستر) فالبنين فى مثل تلك الحالة هم سادة المنزل ، كما كانت الزوجة فى الحالة السابقة ، ويعطى

(*) إلى أى مدى كانت تلك النسوة المتزوجات عديدات أمر يمكن رؤيته من البيان الذى قدمه أحد أصحاب المصانع ، ففى ٤١٢ مصنعاً فى « لانكشاير » تعمل ١٠٫٧٢١ منهن ، أما أزواج هاته النسوه فلم يكن يعمل فى المصانع غير ٥٫٣١٤ منهم ، ٣٫٩٢٧ فى غير المصانع ، ٨٢١ عاطلين ، ولم يحدد البيان حالة ٦٥٩ منهم ، أى أن رجلين أن لم يكن ثلاثة رجال من كل مصنع يعيشون على عمل نساءهم .

« لورد أشلى » مثالا عن هذا فى حديثه* : إذ عندما نهر رجل إبنتيه لذهابهما إلى بيت العاهرات ، ردا عليه بأنهما قد ملا الأوامر فى هذه المسألة ، قائلتين «عليك المعنة ، إذ علينا نحن أن نعولك » . وعقدا النية على الاحتفاظ بإيراد عملهما لنفسيهما ، وغادرتا مأوى الأسرة ، وهجرتا والديهما تاركينهما لمصيرهما .

إن النساء غير المتزوجات واللائى شببن فى المصانع ، لسن بأفضل حال من هؤلاء المتزوجات . إنة لأمر واضح أن الفتاة التى بدأت عملها فى مصنع فى التاسعة من عمرها ، ليست فى وضع يجعلها ملمة بالعمل المنزلى ، ومن ثم فإن الإناث العاملات يثبتن أنهن غير مدربات على الإطلاق وغير لائقات لأن تكن مدبرات منازل . إنهن لا يستطعن الحياكه أو الخياطة ، الطبخ أو الغسيل ، غير ملمات بأبسط واجبات مدبرة المنزل . وعندما يرزقن بأطفال صغار ، يلزم العناية بهم ، فإنهن لا يملكن شبه معرفة فى كيفية القيام بذلك . ويعطى « تقرير لجنة تقصى المصانع » العديد من الأمثلة على ذلك . وفيما يلى يعبر دكتور « هاوكينز » مندوب « لانكشاير » عن وجهة نظره**:

« إن الفتيات يتزوجن مبكراً ودون ترو ، كما أنه ليس لديهن الوسائل أو الوقت أو الفرصة لتعلم واجبات الحياة المنزلية العادية ، وحتى إن كن على علم بها كلها ، فإنهن لن يجدن الوقت خلال حياتهن الزوجية لممارسة تلك الواجبات . إن الأم تغيب عن طفلها أكثر من إثنى عشر ساعة يومياً ، وهى تتركه لرعاية فتاة أو إمرأة عجوز كى تقوم على رعايته . ويضاف إلى ذلك أن مساكن عمال المصانع غالباً ما تكون أقبية لا منازل ، لا تحتوى على أوعية للطبخ أو الغسيل ، أو مواد الخياطة والرتق ، لا شىء مما يجعل الحياة مقبولة ومتحضرة ، أو يجعل المأوى المنزلى جذاباً ، لهذا كله ولأسباب أخرى ، خاصة من أجل فرص أفضل فى الحياة لصغار الأطفال ، فإننى لا أملك إلا أن أتمنى وآمل ، أن يأتى وقت ما يوصد فيه باب المصانع أمام المرأة المتزوجة »*** .

---

* مجلس العموم ، ١٥ مارس ١٨٤٤ .

** تقرير لجنة تقصى المصانع ، ص ٤ .

*** من أجل مزيد من الأمثلة والبيانات قارن تقرير لجنة تقصى المصانع ، شهادة « كوول » صفحات ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٧٢ ، ٧٧ ، ٥٠ . شهادة « تونفيل » صفحات ٩ ، ١٥ ، ٤٥ ، ٥٤ ... إلخ.

إلا أن ذلك هو أدنى الشرور . إن النتائج الأخلاقية لتشغيل النساء بالمصانع لأسوأ من ذلك أيضاً . إن تجميع الأشخاص من كلا الجنسين ومن كل الأعمار فى حجرة عمل واحدة ، إن الاتصال الذى لابد منه ، والاكتظاظ فى حيز ضيق ، لإناس لم ينحوا أى قدر من التعليم العقلى أو الخلق ، لن يوفر تطور لائق لشخصية الإنثى : إن صاحب المصنع لا يتدخل ، حتى إن التفت لهذا الأمر على أى نحو ، إلا عندما يقع بالفعل حدث فاضح ، أما الوضع السارى ، أى التأثير الأقل وضوحا ، لإناس منحلى الخلق على من هم أكثر منهم أخلاقية وخاصة هؤلاء الأصغر سنا ، فهو وضع لايستطيع صاحب المصنع تبينه ، وبالتالى فإنه لايستطيع منعه . إلا أن هذا التأثير بالتحديد هو الأكثر خطورة . ويصف كثير من الشهود فى تقرير عام ١٨٢٣ ، اللغة المستخدمة فى المصانع ، بأنها لغة فاحشة وبذيئة وقذرة . . . * . إن نفس العملية التى شاهدناها تجرى آنفا على نطاق واسع فى المدن الكبرى ، تجرى هنا على نطاق محدود . إن لمركزة السكان نفس التأثير على نفس الأشخاص ، سواء كان هذا التأثير فى مدينة كبيرة أم فى مصنع صغير . وكلما صغر المصنع كلما كان الحشد أكثر قربا وكلما كان الاتصال أمراً لا مفر منه ، وكلما كانت النتائج وافرة . إن شاهدا من « ليسستر » قال أنه ليفضل أن يدع إبنته تتسول من أن تذهب إلى مصنع ، إنها بوابات حقيقية إلى الجحيم ، وأن الغالبية من مومسات المدينة قد حصلن على عمل بالمصانع ليدلن الثناء على وضعهن الحالى** . « ولم يتردد آخر من « مانشستر » فى تأكيد أن ثلاثة أرباع الصبية الذين يعملون فى المصانع وتتراوح أعمارهم مابين الرابعة عشر والعشرين قد فقدوا عفتهم***. ويعبر المندوب « كول » عن ذلك الأمر من وجهة نظره ، بأن أخلاق عمال المصانع إنما هى إلى حد ما ، دون المتوسط الأخلاقى للطبقة العاملة بشكل عام**** ويقول دكتور « هاوكينز » :***** .

---

* شهادة « كول » صفحات ٣٥ ، ٣٧ وفى أماكن أخرى .

** شهادة « باور » ص ٨ .

*** شهادة « كورل » ص ٥٧ .

**** شهادة « كوول » ص ٨٢ .

***** تقرير لجنة تقصى المصانع ، ص ٤ ، « هاوكينز » .

« إن تقدير أخلاقيات الجنس أمر لا يمكن تحويله إلى أرقام فى الحال ، غير أنى لو وثقت بملاحظاتى الخاصة ، وبالنظرة العامة لهؤلاء الذين تحدثت معهم ، وبالمثل ، بالمضمون الإجمالى للشهادة التى أمددت بها ، فإن مرأى تأثير حياة المصنع على أخلاق جمهرة الفتيات الشابات مثير للكآبة » .

إلى جانب ذلك ، فإن عبودية المصنع ، وهى أمر لابد منه ، مثلها فى ذلك مثل أى عبودية وإن كانت بدرجة أعلى ، تمنح السيد حق الليلة الأولى . وفى هذه الزاوية أيضاً يتسلط المستخدم على الأفراد والعاملين لديه ويفتنهم . إن التهديد بالطرد يكفى للتغلب على أية مقاومة فى كل تسع حالات من عشر ، إن لم يكن فى كل تسع وتسعين من مائة من الفتيات اللواتى لا يملكن ، بأى حال من الأحوال بواعث قوية على الطهر والعفاف . ولو كان السيد على درجة كافية من الدناءة ، والتقرير الرسمى يذكر حالات عديدة مماثلة ، فإن مصنعه يكون بمثابة حريمة . أما حقيقة عدم إستخدام الكل من أصحاب المصانع لهذه الإمكانية ، فإنها على الأقل لا تغير من وضع الفتيات . عندما كانت الصناعة الآلية فى بدايتها ، وعندما كانت غالبية العاملين حديثى عهد دون تعليم أو اعتبار لنفاق المجتمع ، فإنهم ما كانوا يسمحون لأى شىء بالتدخل فى ممارستهم لحقوقهم المكتسبة .

يلزم أولا لتكوين حكم صائب عن تأثير عمل المصنع على صحة جنس النساء ، أن نأخذ بعين الاعتبار عمل الصبية ، ثم طبيعة العمل ذاته . إذ منذ بداية الصناعة الآلية إستخدم الصبية فى المصانع ، أولا وبشكل يكاد يكون خالصاً ، بسبب صغر الماكينات والتى كبر حجمها فيما بعد . وحتى صبية دور تشغيل الفقراء ، كان يتم تشغيلهم زرافات ، كان يتم تأجيرهم لأصحاب المصانع لعدد من السنين كصبية تحت التمرين . كان يتم إيواءهم وإطعامهم وإلباسهم بشكل عام ، وبالطبع كانوا عبيداً بصورة كاملة لسادتهم الذين كانوا يعاملونهم باستهتار كامل وبطريقة بربرية . ولقد وجدت المعارضة العامة لهذا النظام المثير للثورة ، تعبيراً قويا لها منذ فترة مبكرة من عام ١٧٩٦ ، من دكتور « برسيفال » و « سير روبرت بيل » (والد وزير الدولة ، وهو نفسه أحد أصحاب مصانع القطن) ، حتى أن البرلمان أصدر فى عام ١٨٠٢ « لائحة الصبية تحت التمرين » ، والتى أزيحت (١١) بمقتضاها معظم

الشرور الصارخة . وبالتدريج حلت المنافسة المتزايدة بين العمال الأحرار ، محل نظام الصبية تحت التمرين برمته . لقد أقيمت المصانع فى المدن ، وركبت الآلات على نطاق واسع ، وجعلت حجرات العمل أكثر تهوية وصحيه، وبالتدريج أيضاً ، توفر عمل للراشدين والشباب ، وتضاءل عدد الصبية إلى حد ما داخل المصانع ، وارتفع السن الذى يبدأون فيه العمل قليلا ، وغدا الآن عدد المشتغلين من الصبية دون الثامنة أو التاسعة قليل. وفيما بعد كما سنرى ، تدخلت الدولة عدداً من المرات لحمايتهم من شره البورجوازية للمال .

إن إحصائية الوفيات بين أطفال الطبقة العاملة ، وخاصة بين هؤلاء العاملين بالمصانع ، لتبرهن بشكل كاف على عدم صحية الظروف التى يمرون بها فى سنى حياتهم الأولى . إن هذه المؤثرات تعمل بالتأكيد ، فيما بين الأطفال الذين يبقون على قيد الحياة ، وإن كان تأثيرها لا يبلغ نفس القدر من القوة كما هو الحال مع هؤلاء الذين يستسلمون . والنتيجة فى أفضل الأوضاع هى إستعداد للمرض أو الحد الجزئى من النمو ، مما يتبعه نشاط أقل من المعتاد فى بنائه الجسمانى . إن إبناً من أبناء عمال المصانع ، فى التاسعة من عمره ، نما فى ظل الحاجة والحرمان ، وظروف البرد والرطوبة المتغيرة ، دون لباس كاف ، وفى مآوى غير صحية ، لبعيد عن أن تكون له القوة الفعالة لطفل نما فى ظل ظروف أكثر صحية . إنه يرسل فى سن التاسعة للعمل بالمصنع ست ساعات ونصف (ثمانى ساعات من قبل ، وإثنى عشر إلى أربعة عشر بل وحتى ستة عشر ساعة فى فترة مبكرة عن ذلك) يومياً حتى سن الثالثة عشر ، ثم إثنى عشر ساعة حتى سن الثامنة عشر . إن المؤثرات القديمة التى يرجع الضعف إليها ما زالت قائمة ، بينما يضاف إليها العمل أيضاً . من غير الممكن إنكار أن طفلا فى التاسعة من عمره حتي وإن كان إبن عامل ، يمكنه الصمود ست ساعات ونصف من العمل اليومى ، دون إستطاعة أى أحد متابعة النتائج السيئة الظاهرة فى نموه ، والتى ترجع مباشرة إلى هذا السبب . وعلى أى حال ، فإنه لا يمكن لجو المصنع الرطب الثقيل والذى غالبا مايكون حاراً ورطباً فى ذات الوقت ، أن يمده بالصحة الجيدة . إنه على أية حال أمر لا يغتفر ، أن يضحى بوقت الصبية الذى يجب أن يخصص فقط لنموهم البدنى والعقلى لحساب

البورجوازية عديمة الإحساس،أن يسحبوا من المدرسة والهواء الطلق ليستفدوا لصالح أصحاب المصانع . إن البورجوازية تقول « إننا إن لم نشغل الصبية في المصانع ، فإنهم سيظلون فقط ، تحت أوضاع غير مواتية لنموهم » ، وهذا حق بشكل عام . لكن ماذا يعنى هذا إن لم يكن إعترافاً بأن البورجوازية قد وضعت أولا أبناء العمال تحت أوضاع غير مواتية ، ثم إستغلت تلك الأوضاع الجديدة لصالحها الخاص ، تستنجد بذلك الذى هو خطؤها بقدر ما هو خطأ نظام المصنع، تبرر خطيئة اليوم بخطيئة الأمس ؟ وإن لم تكن « لائحة المصنع » قد قيدت أيديهم بمعيار ما ، فكيف كان لهذه البورجوازية « الإنسانية » « الخيرة » التي شيدت المصانع لمنفعة الطبقة العاملة فقط ، أن ترعى مصالح هؤلاء العمال ! إدعونا نسمع كيف كانوا يتصرفون قبل أن يكون مفتش المصنع في أعقابهم . إن شهادتهم التي إعترفوا بها لتدينهم في تقرير لجنة تقصى المصانع لعام ١٨٢٣ .

إن تقرير اللجنة المفوضة المركزية يروى أن أصحاب المصانع قد بدأوا بتشغيل الصبية الذين هم نادراً ما يكونون في سن الخامسة وغالباً في سن السادسة ، وأكثر الأحيان في السابعة ، ودائماً في الثامنة والتاسعة . وأن يوم العمل غالباً ما كان يدوم أربعة عشر إلى ستة عشر ساعة ، دون وجبات أو فواصل ، وأن أصحاب المصانع قد أباحوا للمشرفين جلد الصبية واساءة معاملتهم ، وغالباً ما كانوا هم أنفسهم يشاركون وبشكل فعال في هذا الفعل . وتروى واحدة من الحالات عن صاحب مصنع سكتلندى طارد هارباً في السادسة عشر من عمره ، وأجبره على العودة جارياً خلفه ، بنفس السرعة التي كان يخب بها حصان السيد ، بينما يضربه طوال الوقت بسوط طويل * . كان من الطبيعى أن تحدث مثل تلك الأمور بصورة أقل في المدن الكبرى حيث قاوم العمال بعنف أكثر . إلا أن يوم العمل الطويل أيضاً فشل في إشباع شره الرأسماليين . إن هدفهم أن يجعلوا رأس المال المستثمر في المباني والآلات يحقق بكل السبل المتاحة أعلى عائد ، وأن يتم تشغيله بأكبر قدر ممكن من النشاط . ومن ثم فقد أدخل أصحاب المصانع نظام العمل الليلي المشين . لقد إستخدم بعضهم مجموعتين من العمال ، كل مجموعة مكونة

(*) شهادة « ستورت » ص ٢٥

من عدد كبير كاف لملء المصنع بأكمله ، تعمل مجموعة منهما الإثنى عشر ساعة المكونة للنهار ، وتعمل الأخرى الاثنى عشر ساعة المكونة لليل . إننا لسنا فى حاجة لتصوير التأثير الناجم عن فقدان النوم ليلا بصورة دائمة — والذى لا يمكن تعويضه بأى قدر من النوم خلال النهار — على ابنية الصبية الصغار ، بل وحتى على صحة الشباب الراشدين . إن تهيج الجهاز العصبى مع الاعياء العام والضعف الكلى للبنية ، كانت النتائج التى لا مفر منها ، مع تغذية إغراء شرب الخمر وإطلاق العنان للإنغماس فى الجنس . إن أحد أصحاب المصانع يشهد * بأن عدد المواليد من الأطفال غير الشرعيين قد تضاعف خلال العامين اللذين نفذ فيهما العمل الليلى فى مصنعه ، وأن هذا التدهور الخلقى المتفشى قد أجبره على إلغاء العمل الليلى . غير أن أصحاب مصانع آخرين ، هم أكثر بربرية ، كانوا يطلبون أيدى عديدة للعمل من ثلاثين إلى أربعين ساعة بلا انقطاع ، عدة مرات فى الأسبوع ، تاركين إياهم ينامون ساعتين فقط ، حيث لم تكن نوبة الليل كاملة ، وإنما تم حسابها على أساس الإحلال محل جزء من العمال فقط .

إن تقارير اللجنة التى تتعرض لهذه البربرية قد فاقت كل ما كان معروفاً لى فى هذا الصدد . إن مثل هذه الفضائح ، لما تروى هنا ، غير موجودة فى أى مكان آخر — ومع ذلك فإننا سنرى أن البورجوازية تلجأ إلى الإستشهاد على الدوام بشهادة اللجنة ، وكأنها فى صالحها . إن نتائج هذه القسوة قد وضح فى سرعة شديدة . لقد ذكر المندوبون ظهور حشد من العجزة أمامهم . كان من الواضح أن تشوههم إنما قد نشأ عن ساعات العمل الطويلة . إن هذا التشوه أساساً فى العمود الفقرى والأرجل ، وهو كالتالى كما وصفه « فرانسيس شارب » M. R. C. S « ليدز » ** .

« إننى لم أرى على الإطلاق ذلك الانحناء الغريب للأطراف السفلى لعظام الفخذ قبل أن أصل إلى « ليدز » . لقد اعتقدت فى البداية أنه كان كساح الأطفال ، إلا أننى سرعان ما غيرت رأى نتيجة حشد المرضى الذين تقدموا إلى المستشفى ، وظهور المرض عند سن يتراوح ما بين الثامنة والرابعة عشر ، وهى

(*) شهاده « تونفيل » ص ٣٥

(**) شهاده « لودون » ص ١٢ ، ١٣

السن التى لا يتعرض فيها الأطفال إلى مرض الكساح ، كما أن الظرف الذى ظهر فيه المرض أول ما ظهر كان بعد بداية الصبية عملهم فى المصانع . لقد رأيت حوالى المائة على مثل تلك الحال ، وفى وسعى أن أعبر بأقصى حد من التصميم ، عن فكرة أنهم نتاج العمل الشاق . لقد كانوا جميعاً ، بقدر ما أعرف ، صبية مصانع ، كما عزى جميعهم ما أصابهم من شر إلى هذا السبب . إن عدد حالات إنحناء السلسلة الفقرية التى وقعت تحت ملاحظتى ، والتى كانت ناجمة بشكل واضح عن وقوف طويل الأمد لم تكن لتقل عن ثلاثة آلاف حالة »

وتتماثل مع هذا تمام التماثل شهادة دكتور « هاى » ، والذى عمل طبيباً مدة ثمانية عشر عاماً فى مستشفى « ليدز » * .

« إن تشوهات السلسلة الفقرية كثيرة الى الوقوع للغاية بين الأيدى العاملة بالمصانع . إن بعضها ناجم عن مجرد العمل الشاق ، والبعض الآخر نتيجة تأثير العمل طويلا ببنيات واهنة أصلا ، أو أضعفها الغذاء الردىء . إن العاهات المرئية تزيد أيضاً عن تلك الأمراض . إن الركب مثنية إلى الداخل ، وغالباً ما تكون أوتار العضلات مرتخية أو واهنة ، وعظام الأرجل الطويلة مثنية . كما أن النهايات الغليظة لتلك العظام الطويلة على وجه الخصوص معرضة للإنثناء ونامية نمواً غير متناسب . لقد جاء هؤلاء المرضى من المصانع التى كانت تعمل ساعات عمل طويلة .

إن الجراحين « بومونت » و « شارب » من « برادفورد » يحملون نفس الشهادة . إن تقارير « درينك ووتر » و « باور » وذكتور « لورون » تشتمل على العديد من الأمثلة عن مثل تلك التشوهات ، كما تقدم تقارير لـ « توفتل » و « سير دافيد بارى » ، والتى عالجت تلك النقطة بصورة أقل ، أمثلة مفردة**

(*) شهاده « لودون » ص١٦

(**) شهادة « درينك ووتر » صفحات ٧٢ ، ٨٠ ، ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٥٠ (شقيقان) ٦٩ (شقيقان) ، ١٥٥ وصفحات أخرى عديدة . شهادة « باور » صفحات ٦٣ ، ٦٦ ، ٦٧ (حالتان) ٦٠ (ثلاث حالات) ٦٩ (حالتان) وفى « ليدز » صفحات ٤ ، ٧ (أربع حالات) ، ٨ (حالات عديدة) .. الخ .

أما «كوول» و «توفنل» و «هاوكينز» مندوبو «لانكشاير». فقد أهملوا مسألة النتائج الفسيولوجية الناجمة عن نظام المصنع إهمالا يكاد أن يكون كلياً، رغم أن هذه المنطقة تنافس «يوركشاير» فى عدد العاجزين. كان من النادر، وأنا أجتاز «مانشستر»، ألا ألتق بثلاث أو أربع من هؤلاء الذين يعانون بدقة نفس تشوهات السلاسل الفقرية والأرجل، كتلك التى تم وصفها. لقد كان فى وسعى أن أشاهدهم عن كثب. أننى أعرف شخصاً بالذات، تتطابق حالته مع ما وصفه دكتور «هاى» آنفاً لقد أصيب بهذه الحالة فى مصنع «مستر دوجلاس» فى «بندلتون». إنه منشأة تتمتع بسمعة سيئة لا تحسن عليها بين العمال، وذلك بسبب فترات العمل الطويلة السابق ذكرها، والتى تستمر ليلة بعد أخرى، ومن الواضح عند النظر إلى تلك التشوهات، أنها كلها تبدو متماثلة تمام التماثل أياً كان مصدر تشوهات هؤلاء المقعدين. إن الركب مثنية إلى الداخـــل والخلف، الكعوب مشوهة وسميكة. وغالباً ما تنثنى السلسلة الفقرية إلى الأمام وإلى جانب. أما قمة هذه التشوهات، فهى موجودة عند محى البشر من أصحاب مصانع الحرير، فى منطقة (ماكسفيلد)، والذين يستخدمون أصغر الصبية قاطبة حتى هؤلاء الذين تتراوح أعمارهم ما بين الخامسة والسادسة. ولقد عثرت فى ملاحق شهادة المندوب (توفنل)، على رواية مدير مصنع ما يدعى (رابت)، كانت شقيقتاه مقعدتان بصورة مخجلة للغاية، وكان قد قام بإحصاء العاجزين فى عدد من الشوارع، بعضها أنظف وأأنق شوارع (ماكسفيلد). لقد وجد عشرة منهم فى (تاونلى ستريت)، خمسة فى (جورج ستريت)، أربعة فى (شارلوت ستريت)، خمسة عشرفى (ووتر كوتس)، ثلاثة فى «بانك توب»، سبعة فى «لورد ستريت»، اثنى عشر فى «ميل لين»، اثنين فى (جريت جورج ستريت)، إثنين فى (المشغل)، واحد فى (جرين بارك) واثنين فى (بكفورد ستريت)، وقد أجمعت عائلاتهم أن هؤلاء المقعدين إنما هم نتاج العمل الشاق فى مصانع برم الحرير. ولقد جاء ذكر صبى مقعد إلى حد أنه لا يستطيع صعود السلالم، وكذا فتيات قد شوهت منهم الظهور والأرداف.

شهادة سير (د. بارى) صفحات ٦، ٨، ١٣، ٢١، ٢٢، ٤٤، ٥٥ (ثلاث حالات) .. الخ.

شهادة (تونفيل) ص ٥ – ٦ – ١٦ .. الخ.

ولقد نجمت عن هذا العمل الشاق تشوهات أخرى أيضاً ، خاصة تسطيح القدم، وهى تشوهات كثيراً ما لاحظها سير دكتور (بارى) * وكذ أطباء وجراحو «ليدز» ** أما عندما يكون البنيان أقوى، والطعام أفضل، وباقى الظروف أكثر مواتاة. وبذا يكون لدى العمال فرصة مقاومة تأثير هذا الاستغلال الهمجى ، فإننا نجد على الأقل ، ألماً فى الظهر والأرداف والأرجل ، كما نجد المفاصل المتورمة ودوالى الأوردة ، والقرحات الدائمة فى الأفخاذ وعضلات السيقان . إن هذه الآثار تكاد تكون عامة بين العمال . إن تقارير « ستورت » ، « ماكينتوش » وسير دكتور « بارى » تحتوى على مئات الأمثلة . إنهم يكادون فى الحقيقة ، ألا يعرفوا عاملا واحداً لم يعانى من هذه التأثيرات ، كما يشهد الأطباء ، فى باقى التقارير ، على صحة تواجد نفس الظاهرة أما التقارير التى تغطى (اسكتلندا) ، فإنها تقول بأن يوم العمل الممتد إلى ثلاثة عشر ساعة ، للرجال وللنساء أيضاً ، من سن الثامنة عشر إلى سن الثانية والعشرين ، ينتج تلك النتائج دون شك ، على الأقل فى كل من مصانع غزل الكتان بـ (دوندى) و (دونفر ملين) وفى مصانع القطن فى (جلاسجو) و (لانارك).

إن تفسير تلك التأثيرات ، على ضوء طبيعة العمل بالمصنع ، الذى هو كما يقول أصحاب المصانع « خفيف للغاية » ، أمر سهل ، إذ أنه لهذا السبب بالضبط أكثر أضعافا من أى عمل آخر . إن ما يقوم به العمال قليل ، لكن عليهم أن يظلوا واقفين طوال الوقت . إن كل من يجلس على حافة النافذة أو على سلة مثلا يجازى. إن هذا الوضع المنتصب بصورة دائمة ، هذا الضغط الثابت للأجزاء العليا من الجسد على السلسة الفقرية والأرداف والأرجل . لابد وأن يؤدى إلى النتائج التى سبق ذكرها، إن هذا الوقوف ليس جزءاً ضرورياً من العمل ذاته، فقد أدخلت المقاعد فى (نوتينجهام) ، وكانت النتيجة إختفاء تلك التأثيرات ، وكف العمال عن الاعتراض على طول يوم العمل . إلا أنه فى مصنع يعمـــل العامل فيه للبورجوازى فقط ، كما أن مصلحته محدودة فى القيام بهذا العمل، فإن على الأرجح

(*) تقرير لجنة تقصى المصانع ١٨٣٦ ؛ شهادة سير (د. بارى) ص ٢١ حالتان .

(**) تقرير لجنة تقصى المصانع ؛ ١٨٣٦ ؛ شهادة (لودون) صفحات ١٣ — ١٦ .. الخ .

سيستخدم تلك المقاعد بصورة تتجاوز المناسب والمربح لصاحب المصنع ، وحتى لا يخسر البورجوازى ولو قدر أقل من المادة الخام ، فإنه يتوجب على العامل أن يضحى بقوته وصحته* . إن الوضع المنتصب لمدد طويلة ، مع الجو الردىء السائد فى المصانع ، ينتج بالإضافة إلى التشوهات المذكورة ، إسترخاء واضح فى كل النشاطات الحيوية ، وبالتالى تكثر كل أنواع الآثار العامة ، عن الآثار الموضعية . إن جو المصانع ، كقاعدة ، رطب وحار فى ذات الوقت ، حار بشكل غير عادى أكثر مما يجب ، وعندما لا تكون التهوية جيدة للغاية ، غير نقية ، ثقيلة وتحتاج إلى الأوكسجين ، مليئة بالغبار ورائحة زيت الآلة الذى يكاد يلطخ الأرضية فى كل مكان ويغوص فيها ، فإن الهواء يغدو زنخاً . إن العمال يرتدون ملابس خفيفة بسبب الحرارة ، وهم يصابون بالبرد سريعاً فى حالة عدم إنتظام درجة الحرارة ، إن تيار الهواء كريه بالنسبة لهم ، إن الضعف العام الذى يصيب كل الوظائف تدريجياً ، يقلل الدفء الجسدى : بالتالى يجب أن يحل محلة دفء من الخارج ، ومن ثم فليس هنالك شيء أكثر مناسبة للعامل من الإبقاء على كل الأبواب والنوافذ مغلقة ، وأن يظل فى جو مصنعه الدافىء . ثم يأتى التغيير المفاجىء للحرارة عند الخروج إلى الجو البارد والرطب أو شديد الصقيع ، دون وسائل حماية من المطر ، أو إمكانية تغيير الملابس المبتلة بأخرى جافة ، مما يؤدى إلى أمراض البرد على الدوام . ومع كل هذا ، فإن المرء عندما يتأمل ، أن عضلة واحدة من عضلات الجسم لا تستعمل بحق ، ولا تستدعى إلى النشاط بحق ، ربما باستثناء عضلات الأرجل ، وأنه لا شيء مهما كان يمكن أن يعيق الضعف والوهن، وأن إتجاه كل تلك العوامل يقود إلى الاسترخاء وافتقاد كل تأثير يمكن أن يعطى العضلات قوة ، وللأنسجة مرونة وتماسكا ، وأن العامل محروم منذ شبابه وما يليه من كل لهو فى الهواء الطلق ، فإن أحداً لا يندهش البتة لشهادة الأطباء الأجماعية الواردة فى تقارير المصانع ، والتى تقول بأنهم قد وجدوا نقصاً هائلا فى القدرة على مقاومة الأمراض ، وإنحطاط النشاط الحيوى ،

* أدخلت المقاعد فى حجرة الغزل فى أحد مصانع « ليدز » أيضاً ، شهادة « دريك ووتر » ص ٨٠ .

واسترخاء القوى المعنوية والجسدية بصورة دائمة . دعونا أولا نستمع إلى دكتور « بارى »* .

« إن التأثيرات غير المواتية لعمل — المصنع على العمال هى ما يلى : (١) الضرورة التى لا محيص عنها لإرغام جهدهم المعنوى والجسدى على مسايرة آلة التى تحركها قوة دافعة منتظمة لا تنقطع . (٢) الاستمرار فى وضع منتصب خلال فترات متكررة غير عاديه الطول والسرعة . (٣) افتقاد النوم نتيجة ساعات العمل الطويلة للغاية ، وألم الأرجل والخلل الجسدى العام . يضاف إلى ذلك ، فى غالب الأحيان، حجرات عمل منخفضة مزدحمة، متربة أو رطبة، الهواء فيها غير نقى ودرجة الحرارة عاليه والعرق لا ينقطع ، ومن ثم ، فإن الصبية على وجه الخصوص ، وباستثناءات قليلة للغاية ، سرعان ما يفتقدون نضارة الصبا الوردية ، ويصبحون أكثر شحوبا ونحولا من الصبيه الآخرين ، حتى أن الصبى الذى يعمل فى النسيج اليدوى ، والذى يجلس أمام منساجه بأقدامه العارية مستقرة فوق الأرض الطينيه ، يحتفظ بمظهر أكثر نضارة، حيث أنه يخرج مابين الحين والحين إلى الهواء الطلق لفترة ما . أما الصبى العامل بالمصنع فليس لديه وقت خال ولو للحظه ، غير وقت الوجبات . إنه لا يخرج إلى الهواء الطلق مطلقاً . إلا وهو فى طريقه إليهم . إن كل الغزالين الذكور الراشدين شاحبين ، نحيلى الأبدان يعانون تقلب الشهية وسوء الهضم ، وحيث أنهم جميعاً قد تدربوا فى المصانع منذ حداثتهم وما تلاها ، كما أنه لا يوجد بينهم ، إلا عدد قليل للغاية من الرجال الرياضيين وطوال القامه ، فإن ذلك يتخذ زريعة تبرر النتيجة التى وصلوا إليها ، بأن تلك الحرفة غير مواتية لنمو بنيان الذكور ، وأن الإناث يتحملن هذا العمل بصورة أفضل من ذلك بكثير » (هذا أمر طبيعى للغاية ، غير أننا سنرى أن لهن أمراضهن الخاصة أيضاً) . كما يقول « باور » أيضاً**.

« فى وسعى أن أشهد بأن نظام المصنع فى « براد فورد » قد أنتج العديد من

* التقرير العام بقلم سير « د. بارى » .
** تقرير « باور » ص ٧٤ .

المقعدين ، وأن تأثير العمل المتصل الطويل واضح على تركيب الجسم ، ليس فقط في صورة تشوه فعلي ، ولكن أيضاً وعلى نحو أكثر عمومية ، في وقف النمو الطبيعي واسترخاء العضلات وضعف الهيكل كله » .

وكذا أيضاً « ف . شارب » من « ليدز » . إن الجراح يقول* :

« عندما إنتقلت من « سكاربوروف » إلى « ليدز » ، صدمت بحقيقة أن المنظر العام للأطفال كان أكثر شحوبا ، وأن أنسجتهم هنا . أقل متانة عن تلك في « سكاربوروف » وضواحيها . ورأيت أيضاً العديد من الأطفال كانوا صغاراً بصورة غير مألوفة بالنسبة لأعمارهم. لقد إلتقيت بعدد من الحالات التي لا حصر لها من داء الخنازير ، واضطراب الرئة ، وإصابات غشاء الأمعاء وسوء الهضم . إنني كرجل طبي ، لا أشك في أن كل هذا إنما قد نجم عن عمل المصنع . إنني أؤمن أن النشاط العصبي للجسد يوهن بالساعات الطويلة ، فينجم عن ذلك كثير من الأمراض . إن سلالة الأيدي العاملة بالمصانع كان لابد وأن تنقرض تماما وفي سرعة ، لو لم يكن قدوم البشر في الريف مستمر بلا إنقطاع .

وكذا أيضاً « بومونت » جراح من « براد فورد » .

« في إعتقادي أن النظام الذي يجرى العمل طبقاً له هنا في المصانع ، يسبب إسترخاء معينا للكائن كله ، مما يقلل مناعة الصبية ضد الأوبئة والأمراض العارضة إلى أعلى درجة . إنني اعتبر أن غياب كافة نظم التهوية الملائمة والنظافة في المصانع هي بالقطع المصدر الرئيسي لهذا الاستعداد — أو قلة المناعة — لتلك الإصابات المرضية والتي كثيراً ما التقيت بها أثناء عملي » .

ويقدم دكتور « راي » شهادة مماثلة :

« (١) لقد كانت لدى الفرصة لملاحظة تأثيرات نظام المصنع على صحة الصبية ، في ظل أكثر الظروف مواتاة (في مصانع « وود » ، في « براد فورد » ، وهي

---

* إن الجراحين في إنجلترا مثقفين علميا مثل الأطباء ، ولديهم بشكل عام ، تدريب طبي مثل التدريب الجراحي ، ولذلك فهم عموما ولأسباب عديدة مفضلون على الأطباء .

أفضل المصانع تنظيما بالمنطقة ، وكان دكتور « راى » يعمل بها جراحا للمصنع » (٢) هذه التأثيرات بالحتم وإلى حد كبير جداً ضارة ، حتى فى ظل تلك الظروف الأكثر مواتاة (٣) عالجت فى عام ١٨٤٢ ثلاثة أخماس كل الصبية المستخدمين فى مصانع « وود » (٤) إن التأثير الأسوأ ليس فى سيادة التشوهات ، ولكن فى الأبنية الهزيلة والمريضة . (٥) أن كل ذلك قد تحسن إلى حد كبير منذ تخفيض ساعات عمل الصبية فى « وود » إلى عشر ساعات » .

إن المندوب دكتور « لودون » نفسه ، وهو الذى نقل عن هؤلاء الشهود يقول :

« ختاما ، فإننى أعتقد ، أنه قد ثبت فى وضوح ، أن تشغيل الصبية يتم يوميا لمدة من الزمن غير معقولة وقاسية إلى أقصى حد ، وأن الراشدين أيضا كان يطلب منهم القيام بقدر معين من العمل ، يندر أن يستطيع إنسان إحتماله . والنتيجة ، أن العديدين ماتوا قبل الأوان ، وأن آخرين إبتلوا بحياة مشوهة البنيان ، كما أن هنالك خوف مؤكد ، من وجهة النظر الفسيولوجية ، من نسل هزيل ، بسبب التركيب الجسمانى المضعضع لمن بقى على قيد الحياة » .

وأخيراً دكتور « هاوكينز » ، الذى يتكلم عن « مانشستر » :

« إننى أعتقد أن غالبية المسافرين يصدمون من القامة والهزل والشحوب الذى يظهر للعين شائعاً للغاية ، ولاسيما بين الطبقات العاملة بالمصنع فى «مانشستر» إننى لم أذهب إلى أى مدينة من مدن بريطانيا العظمى أو أوربا ورأيت فيها إنحطاط الهيئة واللون عن المعيار القومى بمثل هذا الوضوح . إن كل الصفات التى تميز الزوجة الإنجليزية مفتقدة بشكل واضح للغاية بين النساء المتزوجات . يجب أن أعترف بأن كل الفتيان والفتيات اللذين أحضروا أمامى من « مانشستر » كانوا مكتئبى المنظر ، غاية فى الشحوب . إن التعبير على وجوههم لا يحمل أى قدر من النشاط أو الحيويه والبهجة المعتادة عند الشباب . لقد أخبرنى العديد منهم ، إنهم لا يستشعرون أى ميل للهو خارج المنازل أيام السبت والأحد ، بل أنهم يفضلون البقاء فى سكون فى منازلهم » .

وأضيف على الفور صفحة أخرى من تقرير « هاوكينز » . إن إنتماءها إلى هنا إنما هو نصف إنتماء فقط، إلا أنه يمكن إقتباسها هنا كما يمكن إقتباسها فى أى مكان آخر :

« إن الإفراط والشطط وإفتقاد القدرة على التدبر ، هى الأخطاء الرئيسية لأهل المصنع . وتلك الشرور أمور يمكن تتبعها فى الحال ، فى العادات التى تكونت فى ظل النظام الحالى، والتى لابد وأن تنشأ عنه . إن من المعترف به ، بشكل عام ، أن سوء الهضم والاكتئاب والوهن يصيب الطبقة إلى حد كبير للغايه . كما أنه من الطبيعى أن يتلفت المرء حوله بعد إثنى عشر ساعة من الكدح الممل ، يبحث عن منشط من نوع أو آخر . إلا أنه عند إضافة الأوضاع المريضة السابق ذكرها إلى الإرهاق المعتاد، فإن الناس سوف تلجأ فى سرعة وبصورة متكررة إلى المشروبات الروحية » .

إن التقارير نفسها ، رغما عن شهادة الأطباء والمندوبين ، تقدم مئات الحالات كأدلة وبراهين . إن مئات الروايات لتشهد على أن العمل الذى يقوم به الشباب يوقف نموهم الطبيعى . ويقدم « كوول » ، بين آخرين ، أوزان ٤٦ شابا فى سن السابعة عشر ، إنهم جميعاً فى مدراس واحدة من مدارس يوم الأحد ، منهم ٢٦ يعملون فى المصانع يزن الواحد منهم ١٠٤٫٥ رطلا فى المتوسط ، و٢٠ لا يعملون فى المصانع يزن الواحد منهم ١١٧٫٧ رطلا فى المتوسط . إن واحداً من أكبر أصحاب المصانع فى «مانشستر » وهو الذى يتزعم المعارضة ضد العمال . وإنى لا أعتقد أنه « روبرت هايد جريج » شخصيا ، قد قال فى أحد المناسبات ، أنه لو سارت الأمور على النحو الذى تسير به حالياً ، فإن عمال « لانكشاير » سيصبحون فى القريب العاجل سلالة من الأقزام* . ويشهد أحد ضباط التجنيد** ، أن العمال مهيئين إلى حد محدود للخدمة العسكرية ، إنهم يبدون نحافا عصبيين ، وغالباً ما كان يرفضهم الجراحون لعدم صلاحيتهم . لقد كان يجد صعوبة فى الحصول على رجال ، أطوالهم خمسة أقدام وثمان بوصات ، كانوا

* هذا البيان غير مأخوذ من التقرير .

** (تونفل) ص ٥٠٩ .

عادة خمسة أقدام وست بوصات أو سبع فقط . بينما كانت أطوال معظم المجندين فى المناطق الزراعية ، خمسة أقدام وثمان بوصات .

إن الرجال يستهلكون فى فترة مبكرة للغاية ، نتيجة الأحوال التى يعيشون ويعملون فى ظلها . إن معظمهم يصبح غير صالح للعمل عند سن الأربعين ، وقلة منهم تصمد حتى سن الخامسة والأربعين ، ولا يصمد أحد فى الغالب حتى سن الخمسين . إن ذلك لا يرجع فقط ، إلى الضعف العام للبنيان ، لكنه يرجع أيضاً ، وبصورة غالبة للغاية ، إلى عجز الإبصار ، والذى ينتج عن الغزل على آلة الغزل ، حيث يضطر العامل إلى تثبيت نظرته على صف طويل فى الخيوط الرفيعة المتوازية ، وبذا يجهد الإبصار إجهاداً شديداً .

فمن بين ١٤٠٠ عاملا يشتغلون فى مصانع عديدة فى «هاربور» و « لانارك» ، كان هناك عشرة منهم فقط فوق سن الخامسة والأربعين ، ومن بين ٢٢٠٩٤ عاملا فى مصانع متنوعة فى « ستوك بورت » و « مانشستر » ، كان ١٤٣ منهم فقط فوق سن الخامسة والأربعين ، وكان هناك ١٦ شخصاً من هؤلاء الـ ١٣ قد أبقى عليهم المالهم من حظوة خاصة ، وكان أحدهم يقوم بعمل صبى . إن قائمة من ١٣١ غزالا لم تكن تشتمل على غير سبعة فقط فوق سن الخامسة والأربعين ، ومع ذلك فإن كل الـ ١٣١ قد رفضهم أصحاب المصانع الذين تقدموا للعمل لديهم ، باعتبار أنهم « مسنين للغاية » . إن خمسين من الغزالين المنفصولين فى « بولتن » ، لم يكن بينهم غير إثنين فقط فوق سن الخمسين ، والباقيين لم يكونوا قد تجاوزوا الأربعين فى المتوسط ، وكانوا جميعاً بلا وسيلة للعون بسبب كبر سنهم ! ويعترف « مستر آشويرث » ، أحد كبار رجال الصناعة ، فى خطاب منه إلى « لورد آشلى » أن الغزالين باقترابهم من سن الأربعين ، يصبحون غير قادرين على تجهيز الكمية المطلوبة من الغزل ، وهذا هو سبب فصلهم « فى بعض الأحيان » . إنه يطلق على العمال الذين هم فى سن الأربعين إسم « العواجيز » * . ويعبر المندوب «ماكنتوش» عن رأيه بنفس الطريقة فى تقرير عام ١٨٣٣ :

---

* كلها مأخوذة من خطبة « لورد أشلى » (جلسة Lower House ١٥ مارس ١٨٤٤) (ملحوظة فى الطبعة الألمانية) .

« رغم أنى كنت معداً لهذه المسألة من الطريقة التى يتم بها تشغيل الصبية ، إلا أنى وجدت أنه من العسير أن أصدق روايات كبار العمال عن أعمارهم ، إنهم بهذا يشيخون بصورة مبكرة للغاية » .

يقول « سميلى » جراح « جلاسجو » ، والذى كان معالجاً للعمال بشكل أساسى ، أن أربعين عاماً ، تعتبر سن متقدمة بالنسبة لهم * . ويمكن العثور على دليل مماثل فى غير هذا المكان** . إن هذه الشيخوخة المبكرة بين العمال فى «مانشستر» عامة إلى حد أن كل رجل بلغ سن الأربعين من عمره يكاد يبدو أكبر من ذلك بعشرة أو خمسة عشر عاماً ، بينما الطبقات الموسرة ، رجالا ونساء ، تحتفظ بمظهرها الحسن إلى حد كبير ، طالما لم يثقلوا الشراب إلى حد بعيد .

إن لعمل المصنع تأثير على بنية الأنثى أيضاً ، تأثيراً واضح وغريب . إن التشوهات التى تنتجها ساعات العمل الطويلة ، خطيرة بين النساء على نحو أكثر بكثير . إن العمل فترات طويلة الأمد ، غالباً ما يسبب تشوهات الحوض ، إنها تظهر جزئياً فى صورة وضع شاذ لعظام الأرداف ونموها ، وجزئياً فى صورة تشوه يصيب الجزء السفلى من العمود الفقرى .

يقول دكتور « لودون » : «رغم أنه لم يرد تحت ملاحظتى أى مثل من أمثلة تشوهات الحوض وبعض الإصابات الأخرى ، إلا أن مثل تلك الأمور منتشرة للغاية ، حتى أنه يتوجب على كل طبيب أن ينظر إليها ، على أنها نتائج محتملة لمثل ساعات العمل تلك ، ولقد أكد ذلك أيضاً رجال على أى درجة من ناحية السمعة الطبية » .

إن العاملات بالمصنع يعانين من نفاس أصعب من غيرهن ، كما أن إستعدادهن للإجهاض*** أكبر ، الأمر الذى يشهد به العديد من أطباء الولادة والقابلات .

---

* شهادة « ستورت » ص ١٠١

** شهادة « تونفل » صفحات ٣ ، ٩ ، ١٥ ، تقرير « هاوكينز » ص ٤ شهادة ص ١٤ الخ . الخ .

*** شهادة (هاوكينز) صفحات ١١ ، ١٣

إنهن يعانين ، بالإضافة إلى ذلك ، من الضعف العام السائد بين كل العمال ، كذلك فإنهن يستمررن فى العمل بالمصنع بعد الحمل حتى ساعة الوضع ، وإلا فقدن أجورهن . كما أنهن يخشين أن يستبدلن سريعاً بأخريات إن تغيبن ، وكثيراً ما يحدث أن تظل النسوة فى العمل حتى المساء ، ثم يلدن فى صباح اليوم التالى . بل أن حالات الوضع فى المصنع بين الآلات ليست بالحالات النادرة تماماً . وإن لم يجد السادة البورجوازيون فى ذلك أمراً مخجلا على وجه الخصوص ، فلربما تعترف زوجاتهم بأن ما يحدث إنما هو جزء من أعمال القسوة ، إنه عمل فاضح من أعمال الهمجية ، إنه بشكل غير مباشر ، إجبار للمرأة الحامل على العمل إثنى عشر أو ثلاثة عشر ساعة يومياً (وكانت أطول من ذلك فيما سبق) ، حتى اليوم الذى تلد فيه ، وهى فى وضع منتصب مع العديد من الإنحناءات . غير أن هذا لا يمثل كل شىء ، إن هؤلاء النسوة يكن ممتنات ويعتبرن أنفسهن محظوظات ، إن لم يجبرن على إستئناف العمل خلال أسبوعين . إن العديد منهن يعدن إلى العمل لإستئنافه كاملا ، بعد ثمانية أيام وربما بعد ثلاثة أيام أو أربعة. لقد سمعت ذات مرة أحد أصحاب المصانع يسأل المشرف قائلا : « هل لم تعد فلانة الفلانية بعد ؟ » ، « كلا » ، « كم مضى عليها منذ كانت نفساء ؟ « أسبوع » ، « كان يجب عليها أن تعود منذ زمن طويل . إن زميلتها تلك التى هناك ، لم تنتظر غير ثلاثة أيام » . إن الخوف من الطرد والفزع من المجاعة يقودانها بالطبع إلى المصنع رغم ضعفها ، متحدية ما تعانيه من ألم . إن مصلحة صاحب العمل لا تتحمل أن تبقى العاملات عنده فى منازلهن بسبب المرض ، يجب عليهن ألا يمرضن أبداً ، ألا يغامرن بالرقاد فى سكينة خلال نفاس طويل ، وإلا فعليه أن يوقف آلاته أو يرهق رأسه السامية بإجراء تغيير مؤقت فى النظام الذى وضعه للعمل ، إنه قبل أن يفعل ذلك ، يكون قد طرد العاملين لديه ، إن هم بدأوا يمرضون . استمع *.

« فتاة مريضة مرضاً شديداً ، إنها بالكاد قادرة على تأدية عملها . لماذا لا تطلب إذناً بالذهاب إلى منزلها ؟ آه ! إن السيد غريب للغاية ، إذ لو حدث وتغيبنا ربع يوم ، فإننا بذلك نجازف بالطرد طرداً كلياً » .

---

* شهادة « كول » ص ٧٧

أو سير دكتور « بارى »*.

« يصاب « توماس جاك دورت » — وهو عامل — بحمى خفيفة — ليس في وسعه أن يظل بمنزله أكثر من أربعة أيام . إنه يخشى أن يفقد مكانه » .

هكذا تجرى الأمور في كل المصانع تقريباً. إن تشغيل الفتيات الصغيرات يؤدى [illegible] إلى أنواع الإختلال خلال فترة النمو. إن حرارة المصنع ، في حالة بعضهن ، وخاصة هؤلاء اللائى يتغذين تغذية أفضل ، تعجل بهذه العملية ، حتى أن بعض الفتيات ينضجن في سن الثالثة عشر والرابعة عشر نضجاً تاماً . إن « روبرتون » الذى إستشهدت به آنفاً (ذكر اسمه في تقرير لجنة تقصى المصانع بصفته طبيب أمراض نساء رفيع الشأن في « مانشستر ») يروى في جريدة شمال انجلترا الطبية الجراحية، أنه رأى فتاة في سن الحادية عشر ، لم تكن إمرأة ناضجة فقط بل كانت حاملا أيضاً . في حين كان من النادر تماما ، أن تكون هناك إمرأة نفساء في سن الخامسة عشر في « مانشستر » . إن تأثير دفء المصانع ، في مثل تلك الحالات ، يناظر تأثير دفء الطقس الاستوائى . إن ما يحدث في تلك الأجواء ، هو أن النمو المبكر الشاذ يقتص لنفسه في مقابل الشيخوخة المبكرة والهزال . ومن ناحية أخرى ، فإن نمو بنية الأنثى متأخراً ، يترتب عليه تأخر نضج الأثداء أو عدمه نهائياً**. كما يظهر الحيض أول ما يظهر في سن السابعة عشر أو الثامنة عشر ، وأحياناً في سن العشرين ، وفي الغالب لا يظهر على الإطلاق*** . إن الحيض غير المنتظم ، المصحوب بألم شديد وإصابات عديدة وخاصة الأنيميا أمر مألوف تماماً كما تقرر التقارير الطبية بإجماع الآراء .

إن أطفال مثل هؤلاء الأمهات ، وخاصة الأمهات اللواتى أجبرن على العمل خلال فترة الحمل ، لا يمكن أن يكونوا أطفالاً أقوياء . إنهم على نقيض ذلك ، ضعاف ضعفاً شديداً ، وخاصة في « مانشستر » كما وصفهم التقرير . إن « بارى »

* شهادة سير « د. بارى » ص ٤٤ .

** شهادة « كوول » ص ٣٠ .

*** شهادة دكتور « هاوكينز » ص ١١ ، دكتور « لودون » ص ٥ وسير « د. بارى » ص ٥ الخ .

وحده هو الذى يزعم أنهم أصحاء ، غير أنه يقول أيضاً ، أنه لا تكاد تعمل امرأة فى المصانع ، فى « اسكتلندا » حيث يوجد تفتيشه ، كما أن أغلب المصانع هناك موجودة فى الريف (باستثناء جلاسجو) ، وهو وضع يسهم كثيراً فى تنشيط الأطفال . إن أطفال العمال فى المناطق المجاورة « لمانشستر » ، يكادوا أن يكونوا أصحاء وردى اللون ، بينما يبدو هؤلاء الذين فى داخل المدينة . شاحبين ومصابين بداء الخنازير ، غير أن هذا اللون يختفى فجأة فى سن التاسعة ، حيث يرسل الجميع حينذاك إلى المصانع ، وسرعان ما يصبح من المستحيل تمييز أطفال الريف من أطفال المدينة .

يضاف إلى كل هذا ، إن هناك بعض فروع العمل بالمصانع ذات تأثير ضار بوجه خاص . إن الجو فى كثير من حجرات مصانع غزل القطن والكتان ، مليئة بالزغب الذى ينتج إصابات صدرية « وخاصة بين عمال التمشيط والضم . إن بعض البنيات تستطيع أن تحتمل، كما أن البعض الآخر لايحتمل ، غير أن العامل لا يملك خياراً . يجب عليه أن يتوجه إلى الحجرة التى يجد فيها عملا سواء كان صدره سليما أم غير سليم . إن النتائج العامة لاستنشاق هذا الغبار هى بصق الدماء والعسر ، التنفس كثير النفط ، آلام الصدر ، السعال والأرق ، وفى إيجاز ، كل أعراض الربو ، منتهية فى أسوأ الأحوال بداء السل* . إن عملية الغزل الرطب لخيوط الكتان ، والتى تقوم بها البنات والصبية ، لضارة بالصحة على وجه خاص . إن المياه تتناثر عليهم فى دفقات من الغزل ، حتى أن واجهة ملابسهم تبتل حتى الجلد بصورة دائمة . كما توجد مياه راكدة بشكل دائم فوق الأرضية. إن نفس الحالة، ولكن بدرجة أقل ، موجودة فى حجرات تسوية الخيوط فى مصانع القطن . والنتيجة نجاح دائم لأمراض البرد وإصابات الصدر . أن الصوت الأجش الخشن ، ظاهرة عامة بين كل العمال ، وبشكل خاص بين عمال الغزل الرطب وتسوية الخيوط ، ويعبر « ستورد » و « ماكينتوش » وسير دكتور « بارى » عن وجهة

---

* قارن « ستورت » صفحات ١٣ ، ٧٠ ، ١٠١ ، « ماكينتوش » ص ٢٤ الخ، تقرير (باور) عن (نوتينجهام) ، وفى (ليدز) ، (كورد) ص ٣ الخ ، (بارى) ص ١٢ (خمس حالات فى مصنع واحد) ؛ صفحات ١٧ ، ٤٤ ؛ ٥٢ ؛ ٦٠ .. الخ ؛ « لودون » ص ٣٤ .

نظرهم ، بأشد العبارات عنفاً بما يخص هذا الوضع غير الصحى لذلك العمل ، والاهتمام الضئيل الذى يبديه غالبية أصحاب المصانع بصحة الفتيات اللاتى يقمن به. هنالك تأثير آخر لغزل الكتان ، وهو تشوه الكتف بصورة غريبة ، وخاصة نتوء لوح الكتف الأيمن ، نتيجة لطبيعة العمل . إن هـــذا النوع من الغزل ، والغزل على آلة نسيج القطن ، كثيراً ما يسبب أمراض طاسة الركبة ، وهى التى تستخدم فى اختبار المغزل أثناء وصل الخيوط التى تقطعت . إن الانحناء على الآلات الواطئة والمنتشرة من هذين الفرعين من العمل ، له بشكل عام ، تأثير يعيق النمو الطبيعى للعمال . إننى لا أتذكر رؤية فتاة واحدة طويلة جيدة البنيان ، فى حجرات آلات الغزل بمصانع القطن فى « مانشستر » ، حيث كنت أعمل ، كن جميعاً قصيرات مكعبرات ، سيئات التكوين وهن بالقطع مصابات بقبح فى نموهن الكلى . إن أطراف العمال تعانى ، فضلا عن كل تلك الأمراض والتشوهات ، معاناة أخرى أيضاً . إن العمل بين الآلات يسبب العديد من الحوادث الخطرة بصورة أو أخرى ، وهى ذات تأثير لاحق على العامل بجعله غير صالح كلية للعمل بصورة أو أخرى . إن أكثر الحوادث انتشاراً هو هرس الآلة لفقرة واحدة من الأصبع ، وأقل إنتشاراً فقد الأصبع كله ، نصف أو كل اليد أو الزراع ... الخ. ويلى ذلك فى غالب الأحوال ، وبسبب إصابات أبسط أيضاً ، مرض التيتانوس الذى يحمل الموت معه. ويوجد إلى جوار الأشخاص المشوهين ، عدد كبير من المعوقين الذين يمكن للمرء أن يراهم يتجولون فى « مانشستر » . هذا شخص فقد ذراعه أو جزء منه ، وذاك فقد قدماً ، والثالث فقد نصف رجل ، إن الأمر يبدو وكأنك تعيش فى قلب جيش عائد لتوه من حملة حربية . غير أن أكثر الأجزاء خطورة فى الآلة ، هو السير الذى ينقل القوة المحركة من المحور إلى الآلات المتفرقة ، خاصة إذا اشتمل على أبازيم ، وهى التى أصبح من النادر إستخدامها حاليا ، على أى حال . إن كل من يمسك به السير ، يحمل إلى أعلى فى سرعة البرق ، ثم يلقى به إلى أعلى ، إلى السقف ، ثم إلى أسفل على الأرض ، كل ذلك فى قوة لا تبقى على عظمة كاملة فى جسده ، ثم يعقب ذلك الموت فوراً . وقد نشرت « المانشستر جارديان » فيما بين ١٢ يونيو و ٣ أغسطس ١٨٤٣ ، عن الحوادث الخطيرة التالية (أما الحوادث الطفيفة فإنها لم تلحظها) : ١٢ يونيو ، مات صبى فى « مانشستر » من التيتانوس ، الناتج عن عصر يديه بين العجلات .

١٦ يونيو ، أمسكت عجلة بشاب من « سادل ورث » وحملته معها ، مات بعد أن مزقته أربا . ٢٩ يونيو ، شاب يعمل فى ورشة ميكانيكية فى « جرين اكرزمون » سقط تحت حجر المسن ، كسر له ضلعين وأصابه بتهتكات بالغة . ٢٤ يوليو ، ماتت فتاة فى (أولدهام) ، لقد حملها السير حوالى خمسين مرة ، لقد تحطمت كل عظامها . ٢٧ يوليو ، أمسكت الشقاطة (الآله الأولى التى تتلقى القطن الخام) بفتاة فى (مانشستر) ، ماتت بسبب ما أصابها من أضرار ، ٣ أغسطس ، مات خراط بوبينات فى (دوكنفيلد)، أمسك به سير ، تحطمت كل ضلوعه . عالج ملجأ (مانشستر) عام ١٨٤٣ ، ٩٦٢ حالة من الجـــروح والمضاعفات التى سببتها الآلات ، بينما بلغ عدد كل الحوادث الأخرى فى نطاق منطقة المستشفى ٢٫٤٢٦ حالة ، حتى أنه فى كل خمسة حوادث ناجمة عن مختلف الأسباب ، هنالك حالتين بسبب الآلة . إن الحوادث التى وقعت فى (سالفورد)، غير متضمنة هنا، كذا الحالات التى عالجها الجراحون فى ممارسات خاصة . وفى مثل تلك الحالات ، سواء ظل الضحية بعد الحادثة صالحا للعمل ، أم غير صالح للعمل مستقبلا ، فإن المستخدم فى أحسن الأحوال ، يدفع أجـــر الطبيب ، أو ربما فى حالات استثنائية للغاية ، يقوم بدفع أجر فترة العلاج ، أما يؤول إليه حال العامل فيما بعد ، فى حالة عجزه عن العمل ، فهو أمر لا يخص المستخدم .

يقول (تقرير المصنع) ، بخصوص هذا الموضوع ، أنه يجب جعل المستخدمين مسئولين عن كل الحالات ، حيث أن الصبية لا يستطيعون الإحتراس ، كما أن الراشدين سوف يحتاطون فى حدود مصلحتهم الخاصة . غير أن السادة الذين كتبوا التقرير بورجوازيون ، ولذا فلابد وأن يناقضوا أنفسهم، ويثيرون فيما بعد ، كل أنواع الهراء ، عن نزق العمال وإدانه هذا النزق .

إن الوضع يحدد كما يلى : إن كان الصبية عاجزين عن الإحتراس ، إذن يجب منع تشغيل الصبية . وإن كان الراشدون غير مبالين ، إذن لابد وأنهم مجرد صبية زاد نموهم عن النمو المعتاد ، كما وأنهم على مستوى من الذكاء لا يمكنهم من معرفة قدر الخطر فى مداه الكلى . ومن الملوم عن هذا غير البورجوازية التى تحافظ عليهم فى وضع لا يمكن ذكاؤهم من النمو ؟ أو أن الآلات سيئة النظام ويجب أن

تحاط بسياج لتسد النقص الذى يقع على عاتق البورجوازية . أو أن العامل يعمل تحت مؤثرات ترجح الخطر الذى يتهدده ، إذ يجب عليه أن يعمل فى سرعة ليكسب أجره ، وليس لديه الوقت ليتخذ حذره ، والبورجوازية أيضاً هى الملومة على ذلك . إن حوادث كثيرة تحدث مثلا ، بينما العامل ينظف الآلات وهى تعمل . لماذا ؟ لأن البورجوازى سيرغم العامل ، إن لم ينظفها وهى تعمل ، على تنظيفها أثناء ساعات راحته بينما هى متوقفة عن العمل ، وبالطبع فإن العامل ليس للتضحية بأى جزء من وقت راحته . إن كل ساعة راحة ، تمثل شيئاً ثميناً بالنسبة للعامل ، إلى حد أنه غالباً ما يغامر بحياته فى الأسبوع مرتين ، على أن يضحى بساعة من ساعات راحته للبورجوازى . دع المستخدم يأخذ الزمن اللازم لتنظيف الآلات من ساعات العمل ، وحينئذ لن يحدث مطلقاً أن ينظف أى عامل الآلات أثناء تشغيلها ، وفى إيجاز ، فإن اللوم يقع فى النهاية على صاحب المصنع ، مهما كانت زاوية الرؤية ، ومنه يجب أن يطلب ، كحد أدنى ، دعم العامل العاجز طوال عمره ، ودعم أسرة الضحية فى حالة ما يعقب الموت حادثة من الحوادث ، لقد كانت نسبة الحوادث أكثر بكثير مما هى عليه الآن ، فى المرحلة المبكرة للغاية من الصناعة . كان الوضع كذلك لأن الآلات كانت أونى وأصغر وأكثر إزدحاماً ، ولم تكن فى غالب الأحيان مسورة على الإطلاق . إلا أن الرقم ما يزال كبيراً بما فيه الكفاية ، كما تثبت الحالات السابق عرضها ، ليثير السؤال الخطير عن الوضع الذى يسير الأمور ، والذى يسمح بمثل هذه الكثرة من التشوهات والمضاعفات لصالح طبقة واحدة ، ويغمس هذه الكثرة من العمال الكادحين من الحاجة والمجاعة بسبب إصابات تقع أثناء الخدمة ، وبواسطة خطأ البورجوازيين .

إن قائمة عامرة بالأمراض ، ترجع بالكامل إلى جشع أصحاب المصانع البغيض إلى المال . النساء يجعلن غير صالحات للإنجاب ، الصبية يشوهون ، الرجال يضعفون ، الأطراف تسحق ، أجيال بكاملها تحطم ، تبتلى بالمرض والضعف ، كل ذلك لتمتلىء أكياس البورجوازيين ، إن المرء عندما يقرأ عن همجية بعض الحالات ، كيف يمسك المشرفون بالصبية عرايا فى السرير ويدفعون بهم إلى المصنع لطما وركلا وثيابهم فوق أذرعهم* . كيف يرفع عنهم النوم باللطمات

---

* ستوزت ـ ص٢٩ .

وكيف يستطيعون مع ذلك نياماً فوق أعمالهم . كيف أن صبياً بائساً قفز عند نداء المشرف ، وسار وهو ما زال نائماً بطريقة آلية عبر عمليات عمله رغم أن الماكينة كانت متوقفة ، عندما يقرأ المرء كيف أن الصبية متعبين إلى حد يعجزهم عن الذهاب إلى منازلهم، فيختبئون بعيداً في الفحم عن حجرة التجفيف ليناموا هناك ، ولا يمكن طردهم من المصنع إلا بالسياط : كم مئات منهم تعود إلى منازلها متعبة ، إلى حد أنهم لا يستطيعون تناول العشاء لحاجتهم إلى النوم ولافتقادهم الشهية ، وأن الوالدين يجدون صبيتهم راكعين إلى جوار السرر حيث ناموا أثناء صلاتهم، عندما يقرأ المرء عن كل هذا وعن مئات أخرى من الرذائل والشناعات في هذا التقرير الواحد ، وكلها شهادات أديت بعد حلف اليمين مؤيدة بعديد من الشهود ، وقد أقر بها رجال يعتبرهم المندوبون أنفسهم أهلا للثقة ، عندما يفكر المرء بأن هذا التقرير تقرير ليبرالي، وضع بغرض تحقيق رد فعل معاكس لتقرير المحافظين السابق ، ورد اعتبار نقاوة قلب أصحاب المصانع ، وأن المندوبين أنفسهم يقفون في صف البورجوازيين ، وأنهم يقررون كل تلك الأمور ضد إرادتهم هم ، كيف يمكن المرء بعد ذلك إلا أن يمتلىء بالغضب والحنق ضد طبقة تفاخر بالبذل في سبيل الإنسانية والتضحية الذاتية، بينما غايتها الوحيدة هي ملأ أكياسها بأي ثمن؟ دعونا نستمع ، في تلك الأثناء ، إلى البورجوازيين يتحدثون على لسان حواريهم المختار دكتور « أور » ، الذي يروي في كتابه «فلسفة المصانع» * ، بأنه قد قيل للعمال أن أجورهم لا تقارن إن قيست بتضحياتهم ، ولذا اضطرب حسن التفاهم بين السادة والرجال . يجب على العمال ، بدلا من ذلك ، أن يكدحوا حتى يزكون أنفسهم بانتباههم ومثابرتهم . يجب على العمال أن يفرحوا لإقبال الدنيا على سادتهم ، إنهم حينئذ سيصبحون ملاحظين ومراقبين وفي النهاية شركاء ، وطبقاً لذلك فإنهم — (ويا للحكمة يا من تتكلم كالحمامة) — « يكونون قد زادوا الطلب على زملائهم في السوق ! » .

« لو لم تكن هنالك تلك المعارضات العنيفة وأعمال التعطيل الناجمة عن الأفكار الخاطئة بين العمال ، لنما نظام المصنع بمعدل أسرع وأكثر نفعاً

* (فلسفة المصانع) بقلم دكتور (أندرو أور) ص ٢٢٧ وما يليها .

وفائدة * .

ثم يلي ذلك مرثاة طويلة عن روح المقاومة عند العمال ، ثم الملحوظة الساذجة التالية ، بمناسبة إضراب عمال الغزل الرفيع وهم أفضل العمال أجراً ..

« إن أجورهم العالية، فى الحقيقة، هى التى مكنتهم من الإبقاء على لجنة ميسرة للرواتب ، ومن أن يدللوا أنفسهم بعلل عصبية ، وذلك بتناولهم غذاء مثيراً ووفيراً للغاية ، بالنسبة لما يقومون به من أعمال منزلية » .

دعونا نسمع كيف تصف البورجوازية عمل الصبية *** .

« لقد زرت الكثير من المصانع فى كلا من « مانشستر » والمناطق المحيطة بها، خلال فترة امتدت لعدة شهور، داخلا حجرات الغزل دون أن يتوقع ذلك أحد، وكنت فى غالب الأحوال بمفردى وفى أوقات مختلفة من اليوم ، ولم أرى إطلاقاً أى دليل على العقاب البدنى موقعاً على صبى ما ، ولا — فى الحقيقة — رأيت على الإطلاق طفلا واحداً مبتئساً . كانوا دوماً بادين البهجة واليقظة ، سعداء بلعبة عضلاتهم الخفيفة ، مستمتعين بخفة الحركة الطبيعية بالنسبة لأعمارهم . إن منظر الصناعة بعيد تمام البعد عن المشاعر الحزينة المثيرة ، وهو فى رأيى منظر مثير للبهجة دائماً. لقد كان من المفرح أن تراقب الرشاقة التى يلفقون بها الأطراف المتقطعة . عندما تبدأ عربة المصنع فى التقهقر عن كرة الدرفيل ، وأن تراهم ساعة الفراغ بعد دقائق من تدريبهم لأصابعهم الدقيقة ، مسلين أنفسهم بالطريقة التى يختارونها حتى تكتمل اللفة والشدة مرة أخرى. إن عمل هؤلاء العفاريت لصغار النشيطين يبدو وكأنه يشبه لعبة رياضية ، تمنحهم العادة فيها ، مهارة مفرحة . كانوا مغتبطين أن يعرضوا مهارتهم التى يعرفون قدرها على أى غريب . أما عن

---

* نفس الكتاب ص٢٧٧ .

** نفس الكتاب ص٢٩٨ .

*** نفس الكتاب ص٣٠١ .

إجهادهم من عمل اليوم ، فلم يظهر له أى أثر عليهم بينما كانوا يغادرون المصنع فى المساء ، إذ أنهم أخذوا على الفور فى الوثب إلى أرب ملعب ، وبدأوا فى ألعابهم الصغيرة بنفس المرح الذى يلعب به الصبية المنصرفين من مدرسة ؟

بالطبع ! كما لو كانت الحركة المباشرة لكل عضلة ليست ضرورة عاجلة لهيا كل الأجساد التى نمت على التيبس والاسترخاء فى نفس الوقت ! إلا إنه كان على «أور» أن ينتظر ليرى، ما إذا كانت هذه الإثارة الوقتية لم تخمد بعد دقيقتين . إن «أور» — إلى جانب ذلك — ما كان فى وسعه أن يرى هذا العرض الكامل إلا بعد الظهر، بعد خمس أو ست ساعات من العمل ، وليس فى المساء ! أما عن صحة العمال، فإن البورجوازية حمقاء بلا حدود ، حتى تتخذ فى تقرير عام ١٨٣٣ — والذى أقتبس منه آنفاً فى ألف موضع — شهادة عن الصحة الرائعة التى يتمتع بها هؤلاء الناس، ؛ محاولة إثبات أنه لا أثر لداء الخنازير يمكن العثور عليه فيما بينهم ، وذلك بأخذ إقتباسات مجتزأة ومشوهة ، وأن الحقيقة التى لا جدال فيها ، هو أن نظام المصنع يحرر العمال من كل الأمراض الحادة (أما حقيقة أنهم مصابون بكل أنواع الأمراض المزمنة فهو أمر تخفيه بالطبع) . ولتوضيح القحة التى يدلى بها صديقنا «أور» أضخم الأكاذيب على الشعب الانجليزى ، يجب أن يعرف أن التقرير يشتمل على ثلاثة أجزاء من القطع الكبيرة، والتى لم يحدث أن فحصها بورجوازى إنجليزى واحد يتغذى تغذية جيدة . دعونا نرى ، أبعد من ذلك ، كيف يعبر عن رأيه فى « لائحة المصنع » الصـــادرة عام ١٨٣٤ ، والتى أغفلتها البورجوازية الليبرالية، واضعة أتفه الحدود فقط على أصحاب المصانع ، كما سنرى . إنه يسمى هذا القانون، وخاصة فقرة التعليم الإجبارى ، بالإجراء الباطل الجائر الموجه ضد أصحاب المصانع ، الذى يؤدى إلى الإلقاء بكل الصبية تحت سن الثانية عشر خارج دائرة التشغيل . وما النتيجة ؟ إن الصبية طبقاً لذلك ، سوف يطردون من مهنتهم الخفيفة المفيدة ، فى حين لن يتلقوا أى قدر من التعليم ، سوف يخرجون من دفء حجرة الغزل إلى العالم البارد ، إنهم سيعيشون فقط بالتسول والسرقة ، ستكون حياتهم حياة تتناقض تناقضاً كئيباً وحالهم الذى يتحسن باضطراد فى المصنع وفى مدارس يوم الأحد . إن هذا القانون ، تحت قناع حب الخير للإنسانية ، سوف يكثف معاناة الفقراء ، ويعوق إلى حد كبير ، صاحب المصنع

حتى الضمير عن عمله المفيد ، إن لم يمنعه فى الحقيقة منعاً باتاً *

إن التأثير المدمر لنظام المصنع قد بدأ فى شد الإنتباه العام منذ عهد مبكر. ولقد أشرنا آنفاً إلى «لائحة الصبية تحت التمرين» لعام ١٨٠٤ ، وفيما بعد تراية عام ٨١٧ بدأ « روبرت أوين » ، وهو صاحب مصنع حينذاك فى « نيو لانارك » فى اسكتلندا ، ومؤسس « الإشتراكية الإنجليزية » فيما بعد ، فى جذب إنتباه الحكومة ، عن طريق المذكرات والإلتماسات ، إلى ضرورة توفير ضمانات مشرعة قانوناً من أجل صحة العمال ، وخاصة الصبية . واتحد معه فى موقفه هذا ، المرحوم « سير روبرت بيل » وآخرون من محبى الخير ، إستطاعوا بالتدريج تحقيق « لوائح المصنع » التى صدرت فى أعوام ١٨١٩ ، ١٨٢٥ ، و ١٨٣١ . إن القانونين الأولين لم يوضعا البتة فى حيز التنفيذ(١٣) ، أما القانون الأخير فقد كان ينفذ هنا وهناك فقط . لقد قام قانون ١٨٣١ على حركة سير ج . ب هوب هوس » والذى جاء فيه شرط عدم تشغيل أى أحد تحت سن الواحد والعشرين ، فيما بين السابعة والنصف مساء والخامسة والنصف صباحاً ، وأنه يجب على كل مصنع ، ألا يقوم بتشغيل الشبان تحت سن الثامنة عشر أكثر من إثنى عشر ساعة يومياً ، وتسع ساعات يوم السبت . ولكن ، حيث إن العمال لا يستطيعون الشهادة ضد سادتهم دون تعرضهم للطرد ، فإن العون الذى قدمه هذا القانون كان محدوداً للغاية . أما فى المدن الكبرى حيث كان العمال أكثر جموحاً ، فإن كبار أصحاب المصانع قد وصلوا إلى إتفاق فيما بينهم على إطاعة القانون ، إلا أن العديدين منهم ، مثلهم فى ذلك مثل مستخدمى الريف ، لم يبالوا بالقانون . فى تلك الأثناء ، أصبح مطلب قانون العشر ساعات مطلباً قوياً بين العمال ، إنه قانون من أجل وجوب منع العمال تحت سن الثامنة عشر من العمل أكثر من عشر ساعات فى اليوم ، وجعلت النقابات هذا المطلب — بما قامت به من إثارة — مطلباً عاماً بين جمهور الصناعيين ، وحينئذ استحوذ قطاع محبى الإنسانية فى حزب المحافظين بقيادة « ميشيل سادلر » على المشروع ، وتقدم به إلى البرلمان . وحصل « سادلر » على لجنة برلمانية لتقصى نظام المصنع ، وقد قدمت هذه اللجنة تقريرها فى عام ١٨٣٢ . كان تقريرها متحيزاً بصورة مؤكدة ، أعده أعداء أقوياء لنظام

(*) دكتور « أندرو أور » (الصفة لمصانع) صفحات ٥٠٤ ، ٤٠٦ وما يليها

المصنع من أجل أهداف الحزب . ولقد وقع « سادلر » بسبب حماسه النبيل فى أشد البيانات خطأ وتشويها ، لقد إستخرج من شهوده عن طريق أسئلته المجردة ، إجابات تشتمل على الحقيقة ، لكنها حقيقة فى صورة ملتوية . لقد هاج أصحاب المصانع ضد التقرير الذى قدمهم كوحوش ، وأصبحوا يطالبون الآن بتحقيق رسمى . إنهم يعرفون أن تقريراً دقيقاً يجب ، فى هذه الحالة ، أن يكون ملائماً لهم ، إنهم يعرفون أن أعضاء حزب الأحرار ، وهم بورجوازيون خلصاء كانوا فى مركز الإدارة ، وهم على علاقات طيبة معهم ، وأن مبادئهم تعارض أى قيد على صاحب المصنع . وحصلوا على لجنة طبقاً للنظام الواجب ، مكونة من بورجوازيين ليبراليين ، وهم الذين إستشهدت كثيراً بتقريرهم . لقد جاء هذا التقرير أقرب إلى الحقيقة إلى حد ما من تقرير « سادلر » إلا أن ما جاء فيه من إنحرافات كانت فى الإتجاه المضاد له . إنه يفصح فى كل صفحة عن التعاطف مع أصحاب المصانع ، والشك فى تقرير « سادلر » ، والاشمئزاز من العمال المهيجين بشكل مستقل ومؤيدى « لائحة الساعات العشر » إنه لا يسلم فى أى مكان بحق العامل فى حياة تليق بالآدمى ، فى النشاط المستقل ، فى أن تكون له أفكاره الخاصة . أنه يعنف العمال ، لأنهم عندما عضدوا « لائحة الساعات العشر » لم يفكروا فى الصبية فقط ، ولكن فى أنفسهم بالمثل ، إنه يتهم العمال الذين لهم علاقة بأعمال الإثارة بالديماجوجية وسوء النية والخبث . . . الخ ، إنه فى إيجاز ، محسوب لصالح البورجوازيين ، ومع ذلك فإنه لم يستطع تبييض صفحة أصحاب المصانع ، كما أنه وضع أيضاً فوق أكتاف المستخدمين كمية من الفضائح ، حتى أنه بعد صدور هذا التقرير ، أصبح هنالك مبرر واضح لكل أعمال الاثارة التى حدثت من أجل « لائحة الساعات العشر » وللكراهية ضد أصحاب المصانع وللنعوت القاسية التى وجهتها اللجنة إليهم . إلا أنه كان هنالك ذلك الفارق الواحد، وهو أنه بينما يتهم تقرير « سادلر » أصحاب المصانع بالقسوة الصريحة العلنية ، فإنه قد أصبح الآن واضحاً ، أن تلك القسوة كانت تتم أساسا تحت قناع من الحضارة والانسانية . ومع ذلك ، فإن دكتور « هاوكينز » المندوب الطبى « للانكشاير » يعبر عن رأيه بشكل قاطع فى الأسطر الافتتاحية من تقريره إلى جانب « لائحة الساعات العشر » ، ويوضح المندوب « ماكينتوش » ، أن تقريره الخاص لم يشتمل على الحقيقة كلها ، لأنه كان صعباً للغاية أن تقنع العمال بالشهادة

ضد مستخدميهم ، ولأن أصحاب المصانع ، بالاضافة إلى أنهم مكرهين على تقديم تنازلات أكثر لعمالهم ، بسبب الاضطراب القائم بين العمال ، فإنهم غالباً ما يستعدون عند تفتيش المصانع ، إذ يتم كنسها وتقليل سرعة الآلات فيها . . . الخ. وهم يلجأون فى « لانكشاير » خاصة إلى حيلة تقديم مشرفى حجرات العمل للمثول أمام المندوبين ، وجعلهم يشهدون — بإعتبارهم عمالاً — بإنسانية مستخدميهم ، والتأثيرات الصحية للعمل ، ولا مبالاة العمال — إن لم يكن عداؤهم — للائحة الساعات العشر » . إلا أن هولاء ليسوا بالعمال الاصلاء ، إنهم فارين من طبقتهم . لقد دخلوا فى خدمة البورجوازيين من أجل أجر أفضل ، وهم يقاتلون دفاعاً عن مصالح الرأسماليين ضد العمال . إن مصلحتهم هى مصلحة الرأسماليين ، ولذا فإن العمال يكادوا يكرهونهم أكثر مما يكرهون أصحاب المصانع أنفسهم .

ومع ذلك ، فإن هذا التقرير كاف تماماً ، لاظهار أشد صور طيش البورجوازيين الصناعيين خزياً قبل العاملين لديهم ، ولاظهار الفضيحة الكاملة للنظام الصناعى الاستغلالى فى كامل وحشيته . لا شىء أكثر إثارة للاشمئزاز فى هذا التقرير ، من مقارنة السجل الطويل للأمراض والتشوهات التى أحدثها العمل الزائد عن الحد ، بالاحصاء اللامبالى للإقتصاد السياسى لأصحاب المصانع ، والذى يحاولون به إثبات أنهم ومعهم إنجلترا كلها ، يجب أن تذهب إلى الدمار إن كان يتوجب منعهم من تعجيز العديد والعديد من الصبية كل عام ، إن اللهجة التى إستخدمها دكتور « أور » وحدها ، وهى التى سبق وإقتبسها ، سوف تظل رغم ذلك أكثر إثارة ، لو أنها لم تكن بعيدة عن الصواب بهذا القدر .

كانت نتيجة هذا التقرير هى « لائحة المصنع » لعام ١٨٣٤ ، ولقد منعت هذه اللائحة تشغيل الصبية تحت سن التاسعة (باستثناء مصانع الحرير) ، وحددت ساعات عمل الصبية من سن ٩ - ١٣ عاماً بـ ٤٨ ساعة فى الأسبوع أو ٩ ساعات فى أى يوم كحد أقصى ، وللشباب من سن ١٤ — ١٨ بـ ٦٩ ساعة فى الأسبوع أو ١٢ ساعة فى اليوم كحد أقصى ، كما نصت على ساعة ونصف كحد أدنى فواصل وجبات ، وكررت التحريم الكلى للعمل الليلى للأشخاص دون سن الثامنة عشر ، وقررت المواظبة على التعليم الإجبارى ساعتين يومياً لكل الصبية دون الرابعة عشر ، وقررت أن صاحب المصنع يكون مستوجباً للعقاب فى حالة تشغيل الصبية

دون شهادة مكتوبة بسن الصبي من جراح المصنع ، وشهادة مكتوبة بمواظبته المدرسية من المدرس . وسمح للمستخدم كتعويض ، أن يسحب بنسا من دخل الصبي الأسبوعي ليدفع للمدرس. وعين بالاضافة إلى ذلك ، جراحون ومفتشون لزيارة المصانع فى جميع الأوقات ، ولأخذ شهادة العمال مع حلف اليمين ، وفرض القانون يرفع الدعوى أمام قاضي الصلح . هذا هو القانون الذى قدح فيه دكتور « أور » بمثل تلك العبارات الجزافية !

إن نتيجة هذا القانون ، وخاصة تعيين المفتشين ، كان نقص ساعات العمل إلى معدل يتراوح من إثنتى عشر إلى ثلاثة عشرساعة ، وإبطال تشغيل الصبيه إلى أقصى حد ممكن ، وعند ذلك إختفت بعض المصائب الصارخة إختفاء يكاد أن يكون كلياً. والآن بدأت تظهر التشوهات فى حالات ضعف البنيه فقط ، وغدت آثار العمل الزائد عن الحد أقل ظهوراً بكثير . ومع ذلك ، يظل تقرير المصنع مشتملا على وفرة من الأدلة ، على أن المصائب الأقل ، كورم الرسغ والضعف ، ألم الأرجل والأرداف والظهر ، دوالى الأوردة والقروح التى تحدث على الأطراف المتبادلة ، مع الجوع غير الطبيعى وسوء الهضم والاكتئاب ، إصابات الصدر نتيجة الغبار ، وجو المصانع الكريه . . . إلخ إلخ ، قد وقعت بين العاملين فى ظل نصوص قانون « سير ج . ك. هوب هوس » (الصادر عام ۱۸۳۱) ، والذى حتم أن تكون ساعات العمل من إثنتى عشر إلى ثلاثة عشر ساعة كحد أقصى . إن التقارير الواردة من « جلاسجو » و « مانشستر » ، تلفت الانتباه إلى وجهة النظر هذه بشكل خاص. لقد بقيت هذه المصائب أيضاً بعد قانون ۱۸۳٤ ، واستمرت تنخر صحة الطبقة العاملة إلى يومنا هذا . لقد روعى أن يعطى جشع البورجوازيين من أجل الربح شكلا نفاقياً حضارياً ، لكبح أصحاب المصانع عن الأعمال الدنيئه الواضحة للعيان ، وذلك باستخدام ذراع القانون . وبذا فإنهم يمنحونهم مبرراً للإعجاب بأنفسهم وهم يستعرضون بذلهم المصطنع فى سبيل الانسانيه ، وهذا هو كل ما فى الأمر . إذ لو شكلت اليوم لجنه جديدة ، لوجدت أموراً كثيرة ، إلى حد ما ، مثلما كان فى الماضى . أما عن الانتظام الاجبارى بالمدارس ، والذى تم إرتجالياً ، فإنه ظل رسالة ميتة ، تماماً ، حيث عجزت الحكومة عن توفير مدارس جيدة . واستخدام أصحاب المصانع عمالا مهترئين كمدرسين ، كانوا يرسلون إليهم بالصبيه ساعتين كل

يوم ، وبذا أذعنوا للقانون دون أن يتعلم الصبية شيئاً . وحتى تقارير مفتشى المصنع ، والتى تحددها حدود الواجبات الملقاة على عاتق المفتش ، ألا وهى تنفيذ « لائحة المصنع » ، قد أعطيت بيانات تكفى لتبرير النتيجة القائمة ، وهى أنه لم يكن هنالك مفر من بقاء المصائب القديمة . ويقرر المفتشان « هورنر » و « سوندرز » ، فى تقاريرهما عن شهرى أكتوبر وديسمبر عام ١٨٤٣ ، أن عدد الفروع التى يمكن الاستغناء فيها عن تشغيل الصبية أو إحلال راشدين محلهم ، ما زال يوم العمل فيها يتراوح بين أربعة عشر وستة عشر ساعة أو أطول من ذلك أيضاً . كما وجدا بين عمال تلك الفروع أعداداً من الشباب تجاوز عمرهم — منذ القريب فقط — ما جاء فى نصوص القانون . إن كثيراً من المستخدمين يغفلون القانون ، يقصرون من مدة الواجبات ، يشغلون الصبية أطول من الزمن المسموح به ، يخاطرون بأن يحاكموا عارفين أن الغرامات المحتملة تافهة القدر إن قورنت بالأرباح المؤكدة الناشئة عن الجرم الذى يرتكبون . إنهم واقعون الآن تحت إغراء كبير للسير فى هذا الاتجاه ، خاصة بسبب النشاط غير المعتاد للأعمال .

كانت الاثارة من أجل « لائحة الساعات العشر » قد خمدت كلية بين العمال ، إلا أنها سارت عام ١٨٣٩ قدما بكل قواها مرة أخرى . واحتل « لورد أشلى »* و « ريتشارد أوستلر » مكان « سادلر » - الذى كان قد توفى - فى مجلس العموم . كان كلاهما من حزب المحافظين ، وكان « أوستلر » على وجه الخصوص ، هو الذى داوم القيام بإثارة مستمرة فى الأحياء العمالية ، وكان له نفس منوال النشاط خلال حياة « سادلر » . كان محبوب العمال بصورة خاصة . كانوا يدعونه « بمليكهم العجوز الطيب » و « ملك صبية المصنع » ، إذ لا يوجد صبى فى مناطق المصانع لا يعرفه ويبجله ، أو لا ينضم إلى المواكب التى تتحرك للترحيب به عندما يدخل المدينة . ولقد عارض « أوستلر » قانون الفقراء الجديد أيضاً ، ولذا فقد سجن بسبب دين « لمستر ثورنهيل » ، الذى كان يعمل كوكيل فى مقاطعته والذى كان يدينه بمبلغ من المال . ولقد عرض « الأحرار » مراراً أن يدفعوا

---

* لورد (شافتسبرى) فيما بعد ، توفى عام ١٨٨٥ .

عنه دينه ، كما عرضوا أن يمنوا عليه بأفضال أخرى ، إن هو فقط كف عن الاثارة ضد « قانون الفقراء » ، ولكن عبثاً ، فقد ظل بالسجن ، حيث نشر « نشرات الأسطول »[14] ضد نظام المصنع وضد « قانون الفقراء » .

ووجهت حكومة المحافظين إنتباهها مرة أخرى عام ١٨٤١ إلى « لوائح المصنع » وإقترح سير « جيمس جراهام » وزير الداخلية عام ١٨٤٣ لائحة تحدد ساعات عمل الصبية بستة ساعات ونصف ، وجعل التشريع الخاص بالمواظبة على التعليم الإجباري أكثر فاعلية . إن النقطة الأساسية المرتبطة بهذا الموضوع هي النص على مدارس أفضل . إلا أن هذه اللائحة قوضتها حفيظة المنشقين . إذ رغم عدم إمتداد التعليم الديني إلى أبناء المنشقين ، إذ أن المدارس المزمع إنشاؤها ، كانت ستوضع تحت الإشراف العام « للكنيسة القومية » ، كما اتخذ « الإنجيل » كتاباً للقراءة العامة ، وبذا فقد كان الدين أساس التعليم ، ومن ثم فقد أحس المنشقون بأنهم مهددون . واتحد معهم أصحاب المصانع والليبراليون بشكل عام ، و إنقسم العمال بسبب مسألة الكنيسة ، ولذا خمدت حركتهم ، ورغم أن معارضي اللائحة كانوا أثقل وزناً في المدن الصناعية الكبرى مثل « سالفورد » و « ستوك بورت » كما كانوا قادرين في مدن أخرى مثل «مانشستر» ، على مهاجمة نقاط معينة منها فقط خشية العمال ، إلا أنهم رغم ذلك ، جمعوا قرابة مليونين من التوقيعات على إلتماس ضدها ، مما أرهب « جراهام » إلى حد أنه سحب اللائحة كلها . وفي العام التالي حذفت الفقرات الخاصة بالمدرسة ، واقترح بدلا من النصوص السابقة ، أن يكون عمل الصبية بين سن الثامنة و الثالثة عشر قاصراً على ست ساعات ونصف ، وبذا يتم تشغيلهم على أساس أن يكون الصباح بأكمله أو بعد الظهر بأكمله فترة راحة ويقتصر عمل الشباب ما بين سن الثالثة عشر والثامنة عشر ، وكل الاناث ، على إثنتي عشرة ساعة ، كما يتوجب سد كل الثغرات العديدة الموجودة بالقانون حتى الآن . ما كاد « جرهام » يقترح تلك اللائحة ، حتى بدأت الإثارة حول « لائحة الساعات العشر » مرة أخرى ، وبعنف أكثر من أي وقت مضى . كان « أوستلر » قد إستعاد للتو حريته ، إذ أن عدداً من أصدقائه ومجموعة من العمال سددت ما عليه من دين ، وألقى بنفسه في الحركة بكل قوته . كذا زاد عدد المدافعين عن « لائحة الساعات العشر » في مجلس العموم ، كما أن الإلتماسات العديدة التي تدعمهم

والتى إنهمرت من كل جانب ، قد جلبت لهم حلفاء . وفى ١٩ مارس ١٨٤٤ ، فاز لورد « أشلى » بأغلبية ١٧٩ إلى ١٧٠ بقرار يحدد معنى كلمة ليل فى « لائحة المصنع » ، بأنها الوقت الممتد من السادسة ليلا إلى السادسة صباحا . وبهذا القرار أصبح حظر العمل ليلا ، يعنى قصر ساعات العمل على إثنتى عشر ساعة ، مشتملة ساعات الراحة ، أو عشر ساعات من العمل الفعلى فى اليوم . إلا أن الوزارة لم توافق على ذلك . وأخذ « سير جراهام » يهدد بالاستقالة من الوزارة ، وعند التصويت على اللائحة ، رفض المجلس بأغلبية ضئيلة كلا من العشر والإثنتى عشر ساعة . وأعلن « جراهام » و « بييل » أنهما سيتقدمان بلائحة جديدة ، وإن لم تحصل تلك اللائحة على الموافقة فإنهما سيستقيلان . كانت اللائحة الجديدة هى بعينها لائحة « الساعات الإثنتى عشر » القديمة مع بعض التعديلات فى الشكل ، وإبتلعها نفس مجلس العموم الذى رفض النقاط الأساسية لهذه اللائحة فى مارس إبتلاعا كاملا ، وكان سبب ذلك ، هو أن أغلب مؤيدى « لائحة الساعات العشر » كانوا من حزب المحافظين ، وهم الذين خذلوا اللائحة أكثر من الوزارة . إلا أنه مهما كانت الدوافع ، فإن مجلس العموم بتصويته على هذا الموضوع تصويتين متناقضين ، قد وضع نفسه فى أكثر الصور مهانة أمام العمال ، وأثبت على نحو رائع للغاية ، تأكيد « الإصلاحيين » على ضرورة تقويمه . إن ثلاثة أعضاء من الذين صوتوا فيما سبق ضد الوزارة ، قد صوتوا معها فيما بعد وأنقذوها . لقد صوتت المعارضة ، أثناء كل الإنقسامات مع الوزارة ، وكتلة حزبها ضد الوزارة* . إن إقتراحات « جراهام » السابقة بشأن تشغيل الصبية ست ساعات ونصف وكل العمال الآخرين إثنتى عشر ساعة قد غدت الآن نصوصاً تشريعية ، صار من المستحيل تقريباً ، بواسطتها وبواسطة تحديد العمل الزائد لتعويض الوقت الضائع ، بسبب عطب الآلات أو عدم كفاية الطاقة بسبب الصقيع أو الجفاف ، أن يزيد يوم العمل عن إثنتى عشر ساعة . ومع ذلك ، لم يعد هناك شك فى أنه سوف يتم تبنى « لائحة الساعات العشر » تبنياً حقيقياً خلال وقت

* إنه لأمر يسىء إلى سمعة مجلس العموم ، أن يجعل من نفسه هزأة المرة الثانية خلال نفس الموسم بنفس الطريقة فى مسألة السكر ، عندما صوت أولا ضد الوزارة ثم معها بعد ذلك بعد اعمال السوط الوزارى .

قصير . إن أصحاب المصانع جميعاً ضدها كأمر طبيعي ، ربما يوجد منها أقل من عشرة منهم، لقد إستخدموا كل الوسائل الشريفة وغير الشريفة ضد هذه اللائحة التي يخافونها لكن دون نتيجة ما، غير أن يجلبوا على أنفسهم كراهية العمال التي كانت تتعمق على الدوام. إن اللائحة سوف تمر ، ولسوف يفعل العمال كل ما في وسعهم من أجل ذلك أما مسألة حصولهم على هذه اللائحة ، فقد أثبتوا أنهم قادرين عليها في الربيع الماضي . إن حجج أصحاب المصانع القائلة بأن « لائحة الساعات العشر » ستزيد الإنتاج ، وتصيب المنتجين الإنجليز بالعجز عن المنافسة في الأسواق الأجنبية ، وبأن الأجور لابد وأن تهبط، إنما هي حجج تمثل نصف الحقيقة ، إنهم لم يبرهنوا على شيء غير أن عظمة الصناعة الإنجليزية لا يمكن الحفاظ عليها إلا بمعاملة العمال معاملة همجية ، وتحطيم صحتهم ، وتآكل أجيال كاملة منهم إجتماعياً وبدنياً ومعنوياً . بالطبع لو كانت «لائحة الساعات العشر» هي القرار الأخير ، فلابد وأن تحطم إنجلترا ، لكن طالما يجب أن تجلب معها قرارات أخرى لا مفر منها ، قرارات لابد وأن تجر إنجلترا إلى طريق مختلف تمام الاختلاف ، عن الطريق الذي إتبعته حتى الآن ، فإنها يمكن بذلك فقط أن تحقق تقدماً .

دعونا نتحول إلى جانب آخر من نظام المصنع ، جانب لا يمكن علاجه بالنصوص التشريعية بسهولة طبقاً لما انتجه من أمراض . لقد أشرنا آنفاً بطريقة عامة إلى طبيعة التشغيل ، وبتفصيل كاف يمكننا من إستخلاص إستنتاجات معينة من الحقائق المعطاة ، إن الإشراف على الآلات ولفق الخيوط الممزقة ، ليس بالنشاط الذي يستنهض قوى العامل الفكرية ، ومع ذلك فإنه أمر من صنف الأمور التي تمنعه من شغل ذهنه بأشياء أخرى . ولقد رأينا أيضاً أن هذا العامل لا يمنح العضلات فرصة للنشاط البدني ، وبالتالي فهو — كي نتكلم كما يجب — ليس عملا ، ولكنه مشقة وعناء ، وأكثر العمليات المتصورة إهلاكا وإفناء . إن العامل محكوم عليه بأن يدع قواه الجسدية والمعنوية تتآكل في هذه الرتابة المطلقة، إن مهمته أن يتحمل الضجر كل يوم وطوال اليوم منذ أن يكون في سن الثامنة . يضاف إلى ذلك ، أن عليه أن يستريح لحظة ، إن الآلة تعمل بشكل دائم ، العجلات والسيور والمغازل تطن وتقعقع في أذنيه بلا توقف ، وإن حاول إختطاف لحظة واحدة ، فالمشرف خلف ظهره بدفتر الغرامات . هذا الحكم بأن

يدفنوا فى المصنع أحياء ، بأن يعطوا إنتباهاً ثابتاً. الآلة التى لا تكل ولا تمل ، أمر يحس به العمال كأقسى أنواع العذاب ، كما أن تأثيره على الذهن والبدن معوق للنمو الطبيعى فى المدى الطويل إلى أقصى درجة . إنه لا توجـد وسائل أفضل لإصابة المرء بالخبل من أن يقضى فترة من العمل بالمصنع . ولقد حدث — رغم ذلك — أن العاملين أنقذوا ليس فقط ذكائهم ، بل هذبوه أيضا وأرهفوه أكثر من أى عمال ، فإنما يرجع ذلك لأنهم قد وجدوا ذلك ممكناً فقط ، بالتمرد ضد قدرهم وضد البورجوازيين ، إنه الموضوع الوحيـد الذى فى وسعهم أن يفـكروا ويشعروا به وهم يعملون فى ظل كل الظروف والأحوال . وإن لم يصبح هذا السخط هو العاطفة الأسمى للعامل ، فإن النتيجة التى لا مفـــر منها هى إدمانه الشراب ، وكل ما يطلق عليه بشكل عام فساد الأخلاق . إن الضعف البدنى والمرضى كظاهرة عامة نتيجة نظام المصنع ، قد كانت كافية لحمل المندوب « هاوكينز » ليعتبر هذا الفساد الخلقى أيضاً أمراً لا مفر منه ، وماذا يكون الحال إن أضيف إليه الإعياء المعنوى وكذا المؤثرات المذكورة آنفاً والتى أغرت كل عامل بالفساد الخلقى ، عندما تغدو هى الأخرى ملموسة هنا . حينئذ لن يكون هناك داع للدهشة عندما يبلغ الإدمان والإفراط فى الجنس تلك الذروة التى سبق وقمت بوصفها ، خاصة فى المدن الصناعية* .

---

* دعونا نستمع إلى قاضى آخر له أهليته « إذا أخذنا فى الإعتبار ذلك النموذج الخاص بالايرلندى فى إرتباط مع الـكدح الذى لا يتوقف لطبقة عمال القطن ، فان دهشتنـا سوف تـكون أقل لفساد خلقهم الرهيب ، إن الـكدح المرهق المتصل يوماً بعد يوم وعاماً بعد عام ، لا يقصد به إنماء قدرات الإنسان الثقافية والمعنوية ، إن الرقابة المثيرة للضجر ، للعنـاء الذى لا ينتهى ، والتى تتـكرر فيها على الدوام نفس العملية الآليه ، لتشبه عذاب سيزيفى ، إن عبء الـكدح ، يشبه الصخر ، يسقط على الدوام فوق الـكادح البالى . إن العقل لن ينال المعرفة أو القدرة على التفـكير ، سبب التشغيل الأزلى لذات العضلات . إن الذهن يهوم فى كسل بليد ، غير أن الأجزاء الخشنة فى طبيعتنا يسمو نمواً رغداً . أن تحـكم على إنسان بمثل هذا العمل يعنى أنك تزرع نصف حيوان فيه إنه ينمو لا مبـالياً ، إنه يزدرى الدوافع والعادات التى تميز نوعه . إنه يهمل وسائل الراحة ومسرات الحياة الناعمـــة ، إنه يعيش فى فقر دنس ويتناول تغذية لا تفى بالغرض كما يبدد باقى ربحه فى الدعارة » . دكتور « ج . كاى » .

يضاف إلى ذلك ، أن العبودية التى يقيد البورجوازيون بها البروليتاريا ، لا توجد بصورة أكثر وضوحا فى نظام المصنع فى أى مكان آخر . هنا تنتهى كل حرية قانونية أو واقعية . يجب أن يكون العامل بالمصنع فى الخامسة والنصف صباحاً ، فإن تأخر دقيقتين وقعت عليه غرامة ، وإن تأخر عشر دقائق ، لا يسمح له بالدخول حتى ينتهى الإفطار ، ويمنع عنه ربع أجر اليوم ، رغم أنه لم يضيع غير ساعتين ونصف فقط من ساعات العمل الإثنى عشر . يجب أن يأكل ويشرب وينام بالأمر . وكى يشبع حاجياته الضرورية ، فإنهم يتعطفون عليه بأقل وقت ممكن تتطلبه الضرورة . وأياكان بعد منزله عن المصنع ، نصف ساعة أم ساعة كاملة ، فإن هذا الأمر لا يعنى مستخدميه . إن الناقوس الغاشم يستدعيه من مرقده ، من إفطاره وغذائه .

وأى وقت مباح له داخل المصنع أيضاً ! المستخدم هنا هو مانح القانون المطلق . إنه يحدد النظم طبقاً لإرادته ، يغير ويضيف إلى دستوره طبقاً لرغبته ، وحتى إن أدخل أشد المواد جنونا ، فإن المحاكم تقول للعامل « لقد كنت سيد نفسك ، إن أحداً لم يجبرك على قبول هذا العقد ، إن لم تكن تلك رغبتك . والآن وقد دخلت فيه بمحض إرادتك ، فإنه يتوجب عليك أن تتقيد به » . وبذا فإن العامل لا ينال من الصفقة غير سخرية قاضى الصلح الذى هو نفسه شخصاً بورجوازيا ، كما أن القانون من وضع البورجوازية . إن مثل تلك القرارات قد صدرت بكثرة وافرة . ففى أكتوبر ١٨٤٤ اضرب عمال مصنع « كينيدى » فى « مانشستر » ، ورفع عليهم « كينيدى » دعوى بناء على وضع تنظيمى أعلن فى المصنع ، وينص على انه لا يجوز فى أى وقت أن يغادر العمل عاملان من حجرة واحدة فى نفس الوقت ، واتخذت المحكمة قرارها لمصلحته ، مقدمة للعمال الشرع الذى أوضحناه عاليه* . ومثل تلك القواعد تكون عادة كالتالى :

(١) تغلق الأبواب بعد عشر دقائق من إبتداء العمل ، ومن ثم فلن يسمح لأحد بالدخول حتى ساعة الإفطار ، وكل من يكون غائباً خلال هذا الوقت توقع عليه غرامة قدرها ثلاث بنسات عن كل نول . (٢) كل نساج على نول آلى ،

---

* المانشستر جارديان ، ٣٠ أكتوبر .

يكتشف أنه قد أبلغ عن غيابه فى وقت آخر ، بينما غاب هو والآلات تعمل ، يغرم ثلاث بنسات عن كل ساعة وعن كل نول . وكل شخص يغادر الغرفة أثناء العمل دون الحصول على إذن من المشرف يغرم ثلاث بنسات (٣) النساجون الذين يعجزون عن أن يوفروا لأنفسهم مقصا يدفعون غرامة قدرها بنس واحد عن كل يوم (٤) كل ضاف الشبابيك الخشبية ، الفرش، علب الزيت ، الدواليب وألواح الشبابيك المكسورة . . . إلخ إلخ يجب أن يدفع النساج ثمنها . (٥) لا يحق للنساج التوقف عن العمل دون أن يتقدم بإشعار قبل أسبوع . ويحق لصاحب المصنع أن يطرد أى من العاملين لديه دون إشعار بسبب رداءة عملة أو أو سلوكه غير السوى . (٦) كل عامل يضبط وهو يتكلم مع آخر أو يغنى أو يصفر سوف يغرم ست بنسات ، كما يغرم لتركه مكانه أثناء العمل ست بنسات** وترقد أمامى نسخه أخرى من نظم المصنع ، والتى يغرم طبقا لها ، كل عامل يحضر متأخراً ثلاث دقائق بأجر ربع ساعة ، وكل متأخر عشر دقائق بربع يوم ، ويغرم كل متأخر حتى موعد الإفطار بشلن يوم الإثنين ، وست بنسات فى كل يوم آخر من أيام الأسبوع . . . إلخ إلخ . وهذه الأخيرة هى نظام « مصانع فونيكس » الكائنة « بجرسى ستريت » فى « مانشستر » . ربما يقال أن مثل تلك القواعد ضرورية فى مصنع كبير معقد ، حتى يمكن ضمان تناسق العمل بين الأجزاء المختلفة ، وربما يزعم أن مثل هذا النظام القاسى ضرورى هنا ضرورته فى أى جيش ، قد يكون الأمر كذلك ، ولكن أى نوع من النظم الاجتماعية هذا الذى لا يمكن الحفاظ عليه بدون مثل هذا الاستبداد المخزى؟ إما أن الغاية تبرر الوسائل ، وإما أن محصلة سوء الغاية يبرر بسوء الوسائل . إن كل فرد خدم كجندى يعرف ما معنى أن تتعرض ولو لفترة محدودة للنظام العسكرى . إلا أن هؤلاء العمال محكوم عليهم منذ التاسعة من عمرهم وحتى مماتهم بالعيش تحت حد السيف جسديا وعقلياً . إنهم عبيد أسوأ حالا من زنوج أمريكا ، إذ أنهم مراقبون بدقة أكثر ، ومع ذلك يطلب منهم أن يعيشوا كالآدميين ، وأن يفكروا ويحسوا كالرجال ! حتماً ، إن هذا لن يقود إلا إلى كراهية متأججة تجاه الظالمين ، وتجاه ذلك التنظيم الذى يضعهم فى مثل تلك المرتبة ، التى تحط من قدرهم ليصبحوا كالآلات . إلا أن الأمر

** « الحقائق الصعبة » صفحة ٩ وما يليها .

ما زال أكثر خزيا من ذلك بكثير ، إذ طبقاً لشهادة العمال العامة ، فإن عدداً من أصحاب المصانع يقومون بجمع الغرامات المحكوم بها على العمال ، بأشد أنواع العنف قسوة ، بغرض تكديس مزيد من الأرباح الناتجة من تلك الملاليم المسلوبة من البروليتاريين المعوزين . ويؤكد « ليش » أيضاً ، أن العمال غالباً ما كانوا يجدون ساعة المصنع وقد تم تقديمها ربع ساعة وقد أغلقت الأبواب ، بينما الكاتب يتجول بالداخل ومعه دفتر الغرامات يسجل أسماء المتغيبين العديدين . ويدعى « ليش » أنه قد أحصى تسع وخمسون عاملا أوصد الباب فى وجههم ، وقد وقفوا أمام المصنع ، الذى كانت ساعته أبطأ فى الميل ربع ساعة عن ساعة المدينة ، وأسرع فى الصباح ربع ساعة عنها . ويروى « تقرير المصنع » حقائق مماثلة . فى أحد المصانع كانت الساعة تؤخر أثناء ساعات العمل ، وبذا يعمل العمال وقتاً إضافياً دون أن يدفع لهم مزيدا من الأجر عنه ، وفى مصنع آخر كان يتم تشغيل ربع ساعة كاملة وقتاً إضافياً ، وفى ثالث كانت هنالك ساعتان ، واحدة عادية والأخرى آلية . تسجل دورات المحور الرئيسى ، فإن سارت الآلات ببطء فإن ساعات العمل تقاس بواسطة الساعة الآلية حتى يتم إنجاز عدد اللفات الواجبة خلال إثنتى عشر ساعة ، وإن سار العمل على نحو طيب مما يحقق عدد اللفات المطلوبة قبل إنتهاء ساعات العمل المعتادة ، كان العمال يجبرون على الكدح حتى نهاية الساعة الثانية عشر . ويضيف الشاهد إلى أنه كان يعرف فتيات ، لديهن عمل طيب ، كن يشتغلن وقتاً إضافياً ، ومع ذلك فقد إنصرفن إلى حياة الدعارة بدلا من الإذعان لهذا الاستبداد* . ولنعد إلى الغرامات حيث يروى « ليش » أنه قد رأى نساء فى المرحلة الأخيرة من حملهن ، توقع عليهن غرامة ست بنسات بتهمة الجلوس لحظه للراحة . أما غرامات العمل الردىء فهى عشوائية تماما ، إن السلع تختبر فى مستودع البضائع ، ويوقع المشرف الغرامات على قائمة بالأسماء ، حتى دون إستدعاء العامل ، الذى لا يعلم بأن غرامة قد وقعت عليه إلا عندما يدفع المراقب له أجره ، وربما تكون البضاعة قد بيعت ، أو بالتأكيد قد وضعت بعيداً عن متناوله ، ويضع « ليش » يده على قائمة من قوائم الغرامات تلك ، يبلغ طولها عشرة أقدام ، وتبلغ قيمتها ٣٥ جنيهاً ، ١٧ شلنا وعشر بنسات . وهو

---

* شهاده « درينك ووتر » ص ٨٠ .

يروى أن مشرفاً جديداً طرد من المصنع الذى عملت فيه هذه القائمة لأن الغرامات التى وقعها كانت قليلة للغاية ، إذ أنه ورد أسبوعياً ، خمسة جنيهات أقل من المعتاد * . وأنا أكرر أننى أعرف أن « ليش » رجل موثوق به تماماً وغير أهل للكذب .

إلا أن العامل عبد مستخدمه فى أشكال أخرى . إذ لو نالت زوجته أو إبنته حظوة فى عينى السيد ، فإن أمراً ، أو إيماءة تكفى ، وعليها أن تضع نفسها تحت تصرفه وعندما يرغب المستخدم فى تزوير إلتماس فى صالح المصالح البورجوازية بالتوقيعات ، فما عليه إلا أن يرسله إلى المصنع ، وإن شاء أن يحسم إنتخاب برلمانى ، فإنه يرسل بعمالة الذين لهم حق التصويت فى صفوف متراصة إلى أماكن الاقتراع ، ليصوتوا الصالح مرشح البورجوازية ، سواء كانت تلك إرادتهم أم لا . وإن أراد أغلبية فى إجتماع عام ، فإنه يصرف عماله نصف ساعة مبكراً عن المعتاد ، ضامناً لهم اماكن قرب المنصة ، حيث يستطيع ان يراقبهم ليفعلوا ما يرضيه .

إن إجراءين آخرين قد إتخذا خصيصاً لوضع العمال جبرا تحت سطوة صاحب المصنع ، « نظام المقايضة » و« نظام الكوخ » ، كان نظام المقايضة الذى يقوم على إيفاء أجر العامل بضائعاً ، نظام عام فى إنجلترا فيما قبل . يفتح صاحب المصنع متجراً « لراحة العمال ، ولحمايتهم من أسعار تجار التجزئة المرتفعة » . هنا تباع لهم كل أنواع البضائع بالأجل . ولمنع العمال من الذهاب إلى المتاجر التى يمكن أن يحصلوا منها على بضائع أرخص (« متاجر تومى » مثلا ، تطلب على الدوام من خمسة وعشرين إلى ثلاثين فى المائة زيادة عن الآخرين) فإن الأجور تصرف على صورة أذونات على المتجر بدلا من أن تصرف نقوداً . ولقد أدى السخط العام ضد هذا النظام الشائن إلى إقرار « لائحة المقايضة » ، والتى أعلن بمقتضاها — لصالح غالبية العاملين — أن دفع الأجور فى صورة أوامر مقايضة باطل وغير قانونى ، وهو أمر يستوجب العقاب بتوقيع غرامة على مرتكبيه ، غير أنه مثل معظم القوانين الإنجليزية الأخرى ، قد عمل به فقط هنا وهناك . لقد نفذ فى المدن بهمة نسبية ، إلا أن نظام المقايضة مزدهر فى الريف سواء كان

(*) « الحقائق الصعبة » من ص ١٣ الى ص ١٧

ذلك بشكل سافر أو مستتر . وينتشر هذا النظام فى مدينة « ليستر » إنتشاراً كبيراً أيضاً . وأمامى قرابة دستة من الأحكام فى مثل هذه التهمة ، مؤرخة ما بين نوفمبر ١٨٤٣ ويونيو ١٨٤٤ ، البعض منها منشور فى المانشستر جارديان » والبعض الآخر فى « النورشن ستار » . هذا النظام بالطبع ، يمارس الآن على نحو أقل سفوراً . إن الأجور عادة تصرف نقداً ، غير أن المستخدم ما زال يملك وسائل متعددة لإجبار العامل على شراء بضائعه من متجر المقايضة وليس فى أى مكان آخر سواه . وفى ثم فإنه من العسير محاربة نظام المقايضة ، حيث يمكن ممارسته، تحت ستار القانون ، فقط شريطة أن يتلقى العامل أجره نقداً . ولقد نشرت « النورشن ستار » في عددها الصادر فى ٢٧ إبريل ١٨٤٤ . رسالة من عامل من « هولمفيرث » ، قرب « هوردسفيلد » فى « يوركشاير » ، تشير إلى صاحب مصنع يدعى « بودارز » جاء فيها ، (أعيدت ترجمتها من الألمانية إلى الإنجليزية) .

« كان أمراً بعيداً تمام البعد ، أن يظن المرء إمكانية إنتشار نظام المقايضة إلى مثل المدى الذى إنتشر به فى « هولمفيرث » ، وألا يوجد من يملك الشجاعة ليجعل صاحب المصنع يوقف هذا النظام . توجد هنا كثرة ضخمة من النساجين اليدويين الذين يعانون بسبب هذا النظام القبيح ، هنا مثال واحد من عديد الأمثلة عن « طغمة التجارة الحرة » نبيلة القلب . يوجد صاحب مصنع صب على نفسه لعنات كل المنطقة بسبب سلوكه الشائن نحو نساجيه البؤساء ، إذ لو أنجزوا صناعة قطعة جاهزة تساوى ٣٤ أو ٣٦ شلناً ، فإنه يعطيهم ٢٠ شلناً نقداً والباقى ملابس أو بضائع أغلى من باقى المتاجر بنسبة تتراوح ما بين ٤٠ إلى ٥٠ ٪ ، وتكون تلك البضائع فى الغالب الأعم بالية . ولكن ماذا تقول « الفرى تريد ميركيورى » ، و « الميدز ميركيورى » ؟ * إنهم ليسوا مقيدين بأخذها ، فى وسعهم أن يفعلوا ما يشاءون . أوه، حقاً ، إلا أنهم يجب أن يأخذوها وإلا ماتوا جوعاً ، لأنهم إن طلبوا عشرين شلناً أخرى نقداً ، فعليهم أن ينتظروا ثمانية أو أربعة عشر يوماً من أجل سداة النسيج ، لكنهم إن أخذوا العشرين شلناً والبضائع، فهنالك على الدوام سدة نسيج معدة لهم . وتلك هى « التجارة الحرة » ».

(*) (ليدز ميركيورى) جريدة بورجوازية راديكالية (ملحوظة فى الطبعة الألمانية).

قال اللورد « بروجهام » ، أنه يتوجب علينا أن ندخر شيئاً من أيام شبابنا، حتى لا نحتاج للذهاب إلى الابرشية عندما نهرم . حسناً ، هل ندخر البضائع البالية ؟ إن لم يصدر هذا القول عن لورد ، لكان على المرء أن يقول بأن عقله عفن نفس عفونة البضائع التي تدفع عن أجرنا . عندما ظهرت الأوراق غير المدموغة « بشكل غير قانونى » ، كان هناك العديد ممن يبلغون الشرطة عنها فى « هولفيوث » ، « آل بليث » و « آل إدوارد » . . . الخ . ولكن أين هم الآن ؟ إن صاحب مصنعنا المقايض ينتمى إلى جماعة « التجارة الحرة » الورعة ، إنه يذهب إلى الكنيسة مرتين فى يوم الأحد ، إنه يردد بإخلاص خلف راعى الكنيسة : « لقد تركنا دون إنجاز تلك الأمور التى كان يتوجب علينا إنجازها ، وفعلنا الأمور التى ما كان يجب أن نفعلها ، ولا خير فينا ، لكن أيها الإله الصالح ، خلصنا ، نعم ، خلصنا حتى الغد ، وسندفع أجر نساجينا مرة أخرى بضائع بالية ».

يبدو نظام الكوخ أكثر براءة بكثير ، كما أنه نشأ بطريقة مأمونة أكثر بكثير، رغم نفس التأثير الإستعبادى له على العاملين . ففى الريف، فى الجوار من المصانع، غالباً ما يكون هنالك نقص فى وجود مآوى معدة للعمال. وكثيراً ما يضطر صاحب العمل إلى إقامة مثل تلك المآوى ، وهو يعمل ذلك مسروراً ، إذ أنها تعطى مزايا كثيرة ، بالإضافة إلى الربح العائد من رأس المال المستثمر فيها . إذ لو كان مالك المآوى التى يقيم فيها عمال يحصل على ٦ ٪ فى المتوسط من رأس المال المستثمر ، فإن عائد أكواخ صاحب المصنع يقدر — ونحن فى الجانب المأمون — بضعف هذا المعدل ، إذ طالما يتوقف مصنعه تمام التوقف ، فإنه واثق من وجود سكان الأكواخه ، وسكان يدفعون فى الموعد المقرر . وهو بالتالى قد تفادى الضررين اللذين يعمل فى ظلهما أصحاب المنازل الآخرين ، ان اكواخه لن تخلو ابداً ، كما انه لا يقدم على اية مغامرة. إلا ان إيجار تلك الأكواخ مرتفع وكأن تلك السوءات تفعل فعلها بكل قوتها . ان صاحب المصنع بحصوله على نفس الإيجار الذى يحصل عليه صاحب المنزل العادى ، إنما يحقق — على حساب عماله — استثماراً رائعاً يبلغ ١٤٪ إنه لظالم بين أن يحقق ضعف قدر الربح الذى يحققه اصحاب المنازل المنافسين له ، والذين فى ذات الوقت مستبعدين من المنافسة معه . إلا انه يقع فى خطأ مزدوج عندما يسحب ربحه المحدد من جيوب الطبقة لا تملك ، والتى يجب

أن تتصرف بحساب عند إنفاق كل بنس معها . إنه ، على أى حال ، قد إعتاد ذلك ، إنه من حقق كل ثروته على حساب العاملين لديه . غير أن هذا الظلم يصبح فاضحاً عندما يجبر العاملين لديه — والذين يجب أن يشغلوا منازله كما يحدث فى الغالب — على الطرد بحكم صادر بذلك ، حتى يدفعوا إيجاراً أعلى من الإيجار المعتاد ، أو حتى ليدفعوا إيجار منازل لا يقيمون بها . وتؤكد « الهاليفاكس جارديان » نقلا عن « الصن » * الليبرالية ، أن مئات العمال من « آشتون » أسفل « لين » « واولد هام » و « روكدال » ... الخ ، قد أجبرهم مستخدميهم على دفع إيجار منزل ، سواء كانوا يشغلون هذا المنزل أم لا إن نظام الأكواخ عام فى المناطق الريفية ، لقد أدى إلى وجود قرى بأكملها ، كما أن صاحب المصنع غالباً ما يواجه منافسة ضئيلة أو لا منافسة فى مواجهة منازله ، ولذا ففى وسعه أن يحدد سعره بغض النظر عن اى معدل للسوق ، حتماً ، إنه يحدده طبقاً لمشيئته — واى قوة يعطيها نظام المصنع للمستخدم على العمال ، أثناء المنازعات بين السيد والرجال ، إذ لو حدث واضرب العمال فيما بعد ، فإن الأمر لا يقتضى منه غير إشعار موجه إليهم بمغادرة منازله ، والإشعار لا يمهل غير اسبوع فقط ، وبعد هذا الأسبوع لا يكون العامل بدون خبز فقط ولكن بلا مأوى ايضاً ، يصبح متشرداً تحت رحمة القانون الذى سيرسله على الفور إلى آلة التعذيب .

هذا هو نظام المصنع ، إنه وصف إجمالى له بقدر ما سمح الحيز لى ، وبروح متحيزة تحيزاً محدداً بحدود القدر الذى تسمح به الأعمال البطولية للبورجوازية ضد العمال العزل ، تلك الأعمال التى لا يمكن للمرء أنه يظل لامبالياً فى مواجهتها . فاللامبالاة نحوها جريمة . دعونا نقارن حالة الرجل الإنجليزى الحر عام ١٨٤٥ بحالة القن السكسونى تحت سوط البارونات النورمان عام ١١٤٥ . كان القن ، glebae adscriptus ، مقيداً إلى الأرض ، وهكذا العامل الحر بواسطة نظام الكوخ . كان القن مديناً لسيده ، jus primae noctis ، بحق الليلة الأولى ، والعامل الحر يجب أن يسلم لسيده ، عند الطلب ، ليس فقط بحق الليلة الأولى ، بل بحق كل ليلة . لم يكن من حق القن أن يقتنى أى ملكية ، كل ما يربحه يمكن لسيده أن يأخذه منه ، والعامل الحر لا ملكية له ، ولا يستطيع أن يربح شيئاً بسبب ضغط المنافسة. إن مالم يستطع أن يفعله البارون النورمانى قد فعله صاحب

(*) (صن) جريدة يومية بلندن ، آخر نوفمبر ١٨٤٤ .

المصنع الحديث . إنه يتظاهر من خلال نظام المقايضة بأنه يقوم بالتدبير اليومى التفصيلى لكل ما يطلبه العامل لاحتياجاته المباشرة . إن علاقة صاحب الأرض بالقن كانت علاقة تنظمها العادات السائدة، والقوانين المطاعة، لأنها ذات صلة بهم، أما علاقة العامل الحر بسيده فهى علاقة تنظمها قوانين لا تطاع، لأنها ليست ذات صلة بمصالح أى من المستخدم أو العادات السائدة . إن صاحب الأرض لا يستطيع أن يفصل القن عن الأرض ، أو أن يبيعه منفرداً عنها . وحيث كانت غالبية الأرض إقطاعا ولم يكن هنالك رأس مال ، فإنه لم يكن من الناحية العملية قادراً على بيعه إطلاقاً . البورجوازية الحديثة تجبر العامل على بيع نفسه . القن كان عبد قطعة الأرض التى ولد عليها ، والعامل عبد إحتياجاته الخاصة من الحياة والمال الذى يتوجب عليه أن يشتريها به — كلاهما عبد لشىء ما . يقن فى النظام الإقطاعى للمجتمع ما يضمن وسائل بقائه ، حيث لكل عضو فى هذا المجتمع مكانه الخاص . والعامل الحر ليس له ضمان من أى نوع كان ، إن له مكاناً فى المجتمع فقط عندما يمكن للبورجوازية أن تفيد منه ، وهو فى جميع الحالات الأخرى غير معترف به، إنه يعامل كشىء لا وجود له . القن يضحي بنفسه من أجل سيده وقت الحرب . وعامل المصنع وقت السلم . إن صاحب القن كان بربرياً ينظر إلى نذالته نظرة رأى القطيع ، أما مستخدم العمال فهو متحضر ينظر إلى الأيدى التابعة له كما ينظر إلى الآلة. وفى إيجاز، فإن وضع كلاهما ليس بعيداً عن الندية، وإن كان أحدهما مضاراً فهو العامل الحر . إن كلاهما عبد ، بفارق واحد ، أن عبودية أحدهما لا تصنع فيها ، إنها جريمة مستقيمة ، بينما عبودية الآخر ، ماكرة ، خبيثة ، مستترة ، مغطاه بالخداع عن ذاته وعن كل الآخرين ، إنها عبودية تقوم على النفاق ، إنها اسوأ من العبودية القديمة ، لقد كان المحافظون الإنسانيون على حق عندما أطلقوا على العمال اسم الرقيق الأبيض . غير أن العبودية المرائية المستترة تعرف الوجه الصحيح للحرية ، على الأقل فى شكلها الظاهرى وتنحنى أمام رأى عام محب للحرية، وهنا يكمن التقدم التاريخى إذا قورن بالعبودية القديمة ، وهو أن مبدأ الحرية قد تقرر ، وسيأتى يوم يتنبه فيه المضطهدون إلى تنفيذ هذا المبدأ .

وفى الختام أقدم أبيات من الشعر قليلة ، تعبر عن عواطف العمال أنفسهم تجاه نظام المصنع . كتب تلك الأشعار « ادوارد ب. ميد » من « بيرمينجهام » ؛ إنها تعبير صائب عن وجهات النظر السائدة فيما بينهم[٢٦] .

هنالك ملك ، ملك لا يرحم
ليس ملكا من صنع حلم بشاعر
لكنه جبار جائر
يعرفه الرقيق الأبيض جيداً
هذا الملك القاسى
هو البخار
له ذراع ، ذراع من حديد
ومع أنه ذراع وحيد
ففى هذا الذراع الشديد
طلسم
لم تصنعه الملايين
كالإله السامى القديم العابس
مولاه الواقف فى وادى الهيمون
من نار حية أحشاءه
والأطفال غذاءه
كهانة عصبة جائعة
للدماء متعطشة ، وقحة متكبرة
لتحيل الدم ذهبا
من أجل كسب دنس
من قيد العبيد
كل حقوق الطبيعة يقيدون
من ألم امرأة جميلة يسحرون

وعن دموع الرجال يعمون

آهات أبناء العمال وانينهم

شدو فى آذانهم

ظلال هيا كل الفتية والفتيات

تظهر فى بخار جحيم الملك

ذلك الجحيم على الأرض ، منذ ولد ملك البخار

تنشر حوله اليأس

بدلا من عمل الإنسان ، بدلا من تدبير السماء

والجسد هنا يغتال

إذن يسقط الملك ، الملك الإله السامى .

إيتها الملايين العاملة جميعاً

غلوا يده وإلا فقد قدر لأرض الوطن ان تنهار بفعله .

ولاته الطغاة البغيضين ، كل منهم سيد مصنع متكبر

والآن وقد اكتظ حلقومه بالذهب والدم

يجب ان تنزله غضبة الأمة

مثلما تنزل إلهه الوحش المهول *

---

* ليس لدى الوقت أو الحيز لأتناول بالتفصيل ردود أصحاب المصانع على التهم الموجهة ضدهم مدة إثنى عشر عاماً . إن هؤلاء الناس لا يتعلمون، لأن مصلحتهم المفترضة تعميهم . فضلا عن أن كثيراً من اعتراضاتهم قد إلتقينا بها فى السياق السابق ، وفيما يلى كل ما أرى ضروره إضافته :—

انت تأتى الى « مانشستر » ، تبغى التعرف على الأحوال فى انجلترا ، بالطبع معك توصيات كى تتعرف بأناس محترمين ، إنت تلقى بملاحظة أو اثنين عن حالة العمال . إنت تتعرف ببعض أصحاب المصانع الليبراليين الأول ، (روبرت هايدجريج) ، (ادموند آشوورث) ، (توماس أشتون) وآخرين. هنالك من أخبرهم عن رغباتك . ان صاحب المصنع يفهمك ،

. . . .

يعرف ما يتوجب عليه فعله . ان يصطحبك الى مصنعه فى الريف ، مستر (كريج) الى (كوارى بانك) فى (شيشاير)، مستر (آشوورث) الى (ثورتون) قرب (بولتون)، مستر (آشتون) الى (هايد) . انه يقودك عبر مبنى فاخر منظم بطريقة تدعو الى الإعجاب، وربما مزود أيضاً بأجهزة تجديد الهواء ، انه يلفت نظرك الى الحجرات الشاهقة طلقة الهواء، الى الآلات الدقيقة ، وهنا وهناك عامل تبدو عليه علامات الصحة . انه يقدم لك غذاء رائعاً، ويقترح عليك زيارة منازل العمال ، انه يقودك الى الأكواخ التى تبدو جديدة ، نظيفة وأنيقة، ويدخل معك فى هذا الكوخ وذاك ، بالطبع هى أكواخ الملاحظين والميكانيكيين ... الخ فقط ، حتى يمكنك أن ترى (العائلات التى تعيش كلية على المصنع) . ربما وجدت بين الأسر الأخرى ، أن الزوجة والأطفال ، فقط هم الذين يعملون ، بينما الزوج يرتق الجوارب ، ان وجود المستخدم يمنعك من السؤال بلا تحفظ ، ستجد كل امرىء حسن الأجر ، مرتاح البال، صحته جيده نسبياً بسبب جو الريف ، وتبدأ فى الارتداد عن أفكارك المغالية عن البؤس والمجاعة . أما عن القول بأن نظام الكوخ يحول العمال الى عبيد ، وأنه ربما يوجد فى الجوار متجر مقايضة . وأن الناس يكرهون صاحب المصنع فهو قول لن يشير اليه أحد ، لأن صاحب المصنع موجود لقد بنى مدرسة وكنيسة وحجرة للمطالعة... الخ . أما كونه يستخدم المدرسة ليعد الأطفال للتبعية ، وأنه يسمح فقط فى حجرة المطالعة بالمطبوعات التى تعبر عن مصالح البورجوازية ، وأنه يطرد العاملين لديه إن قرأوا صحفاً أو كتباً إصلاحية أو اشتراكية ، فهذا كله يدارى عنك . أنت ترى علاقة أبويه تريح البال ، أنت ترى حياة الملاحظين، أنت ترى وعود البورجوازية ان استعبدوا لها عقليا ومعنويا . ان « مصنع الريف » هذا ، هو المصنع الذى يحب المستخدمون أن يعرضوه ، حيث تنتفى منه جزئيا مساوىء نظام المصنع ، وخاصة من وجهة النظر الصحية بسبب الهواء الطلق والمناطق المحيطة ، ولأن العبودية الأبوية يمكن الحفاظ عليها هنا فترة أطول . ويشدو دكتور (أور) بهراء من التقريظ على ذلك النغم الأساسى . لكن ويل للعمال الذين يفكرون لأنفسهم ويصبحون اصلاحيين . ان الحب الأبوى لصاحب المصنع سوف يكف فجأة . يضاف الى ذلك ، أنك ان شئت أن يصاحبك أحد خلال الأحياء العمالية فى (مانشستر) ، ان شئت أن ترى تقدم نظام المصنع ، فى مصنع المدينة ، فانك حينئذ ، ما تنتظر طويلا . قبل أن يساعدك هؤلاء البورجوازيين الأثرياء . ان هؤلاء الأفاضل لا يعرفون حال العاملين لديهم ولا ماهية رغباتهم . كما أنهم لا يجرؤن على معرفة أمور تقلقهم ، أو تدفعهم للتصرف بما يتعارض ومصالحهم الخاصة . لكن ولحسن الحظ . ليس لهذا الأمر أهمية : ان ما يتوجب على العمال القيام به . فانهم سيقومون به من أجل أنفسهم .

الفروع الباقية من الصناعة

سنضطر إلى تناول نظام المصنع على نحو مطول بعض الشيء، باعتبار أنه خلق جديد تماماً، خلق استحدثته الثورة الصناعية، كما سيكون فى وسعنا تناول العمال الآخرين على نحو أكثر اختصاراً، حيث أن ما قيل، سواء عن البروليتاريا الصناعية بشكل عام أو عن نظام المصنع بشكل خاص، سوف ينطبق عليهم إن جزئياً أم كلياً. وبناء على ذلك، فإننا سوف نقتصر على تسجيل مدى نجاح نظام المصنع، فى شق طريقه قسراً فى كل فرع من فروع الصناعة، وأى خصائص أخرى يمكن أن يميط ذلك الفعل، اللثام عنها.

إن الفروع الأربعة المتضمنة تحت «لائحة المصنع» تعمل فى إنتاج الملبوسات. ونكون قد أحسنا صنعاً، إن نحن تناولنا فيما يلى، هؤلاء العمال الذين يتسلمون لوازمهم من هذه المصانع، وأن نبدأ قبل الجميع بنساجى الجوارب فى «نوتينجهام» «دربى» و «وليسستر». إن «لجنة تشغيل الصبية»، تقرر أن ساعات العمل الطويلة المفروضة على هؤلاء العمال بأجور منخفضة، مع حياة رتيبة راكدة، وإجهاد للعينين يتلازم مع طبيعة العمل، يضعف البنية كلها عادة، وخاصة العينين. إن العمل ليلا دون إضاءة قوية للغاية أمر مستحيل، إن الإضاءة تنتج عن تركيز أشعة المصباح التى تمرر خلال كرات زجاجية، وهو أمر شديد الخطورة على الإبصار. إن الجميع تقريباً يلبسون النظارات عند سن الأربعين. إن الصبية الذين يعملون فى لف البكر وثنى الحواشى، يعانون عادة من أضرار بالغة على الصحة والبنيان. إنهم يعملون وهم فى سن السادسة أو السابعة أو الثامنة، من عشر إلى إثنتى عشر ساعة فى اليوم. فى حجرات صغيرة مغلقة، ومن الشائع بينهم أن يصابوا بالإغماء أثناء عملهم، أن يصبحوا ضعافاً إلى حد العجز عن القيام بأبسط الأعمال

المنزلية، كما أنهم يصابون أيضاً بقصر النظر، مما يضطرهم إلى إرتداء النظارات خلال صباهم . لقد وجد المندوبون أن أعراض داء الخنازير تظهر على بنية الكثيرين منهم ، كما أن أصحاب المصانع يرفضون عادة تشغيل الفتيات اللواتي عملن بهذه الطريقة ، وذلك لأنهن ضعاف للغاية . وتوصف حالة هؤلاء الصبية بأنها « فضيحة لبلد مسيحي » ، ويعبر البعض عن رغبة في التدخل بصورة تشريعية . ويضيف « تقرير المصنع »* أن نساجي الجوارب هم أسوأ العمال أجرا في « ليستر » ، إنهم يربحون اسبوعيا ، ست أو سبع شلنات ، إن بذلوا جهدا أكبر ، عن ساعات عمل يومية ، تتراوح من ستة عشر إلى ثمانية عشر ساعة . لقد كانوا يربحون فيما سبق ، من عشرين إلى واحد وعشرين شلنا ، إلا أن إدخال الأطر الكبيرة قد دمر عملهم . إن الغالبية العظمى منهم ماتزال تعمل بالأطر القديمة الصغيرة المفردة ، والتي تنافس التقدم الآلي بصعوبة . هنا أيضاً ، كل تقدم يمثل ضررا بالعمال . ومع ذلك يتحدث المندوب « باور » عن تباهي نساجي الجوارب بأنهم أحرار ، وان ليس لديهم ناقوساً يحدد لهم الوقت الذي فيه يأكلون او ينامون او يعملون ، إن حالهم اليوم ليس افضل مما كان عليه عام ١٨٣٣ ، عندما وضعت « لجنة المصنع » بياناتها السابق ذكرها . إن منافسة نساجوا الجوارب الساكسونيين ، والذين يجدون بالكاد ما يأكلون ، تتكفل بهذا الحال . إن وقع هذه المنافسة قوي للغاية على الإنجليز في كل الأسواق الإجنبية تقريباً ، وكذا على السلع الأقل جودة ، حتى داخل السوق الإنجليزي ذاته . إن ذلك الأمر لابد وان يكون مصدر بهجة لنساج الجوارب الوطني الألماني ، حيث ان اجوره التي تضعه في حالة مجاعة ، قد اجبرت اخيه الإنجليزي على ان يجوع ايضاً ! الن يجوع ، حقا ، وهو فخور وسعيد من اجل المجد الأعظم للصناعة الألمانية ، مادام شرف ارض الآباء يتطلب ان تكون مائدته خاوية وطبقه نصف فارغ ؟ آه ، يالها من شيء نبيل تلك المنافسة و « سباق الأمم » هذا . ان الـ « مورنينج كرونيكل » ، وهي صحيفة ليبرالية اخرى ، صحيفة للبورجوازيه دون منازع ، تنشر بعض الخطـــايات من نساج جوارب في « هينكلي » ، يصف فيها حال زملائه العمال — انه يكتب ضمن ما يكتب عن حالة ٥٠ اسرة مكونة من ٣٢١ فرداً ، كانوا يعتمدون في حياتهم

---

* تقرير (جرايـنجر) ، ملحق ، الجزء الأول ص ١٥ وصفحات ١٣٢ — ١٤٣ .

على ١٠٩ إطارا ، كل إطار منها يغل فى المتوسط ٥½ شلنا ، وكل اسرة تكسب فى المتوسط ١١ شلنا ، ٤ بنسات ، يلزم أن يدفع منها إيجار المنزل ، إيجار الإطار الوقود والنور ، الصابون والابر وهى كلها تكلف ، شلنات ؛ ١٠ بنسات ؛ وبذا يتبقى ½١ بنس لكل رأس يوميا ؛ ولا شيء من أجل الملبس . يقول نساج الجوارب : « لا عين قد رأت ؛ ولا أذن قد سمعت ؛ ولا قلب قد أحس نصف الآلام التى يعانيها هؤلاء الناس الفقراء » . كانت السرر مفتقدة اما تماما أوجزئياً والأطفال يتجولون فى مزق عراة الأقدام ؛ والرجال يقولون والدموع فى مآقيهم « مضى زمن طويل منذ كان لدينا أية لحوم ؛ لكننا كدنا أن ننسى مذاقها » ، وفى النهاية فإن البعض منهم يعمل يوم الأحد ؛ رغم أن الرأى العام يغفر فى سرعة أى فعل آخر غير هذا الفعل ؛ كما أن صوت الإطار الجلجل مسموع خلال الجوار . « ولكن » قال أحدهم : « أنظر إلى أولادى ولا تسل أى سؤال . ان فقرى يجبرنى على فعل ذلك ؛ انى لا أقوى ولا أود أن أسمع أطفالى يصرخون دوما فى طلب الخبز ؛ دون أن أحاول كل الرسائل حتى آخرها كى أكسب كسباً شريفاً . لقد استيقظت يوم الإثنين الماضى فى الثانية صباحا وظللت أعمل حتى قرابة منتصف الليل . لقد نلت كفايتى من ذلك . لن أقتل نفسى ؛ ولذا فإنى أذهب الآن الى السرير فى الساعة العاشرة ؛ وأعوض الوقت الضائع بالعمل أيام الآحاد » ان الأجور لم ترتفع فى « ليستر » و « نوتينجهام » و « دربى » منذ ١٨٣٣ ؛ وأسوأ هذه الأجور فى « ليستر » ؛ حيث يسود نظام المقايضة الى حد كبير ؛ كما سبق وذكرت . لذلك ، ليس هنالك ما يثير الدهشة ، عندما يلعب نساجو هذه المنطقة دوراً نشطاً للغاية فى حركات كل العمال ، انه أكثر الأدوار نشاطاً وتأثيراً حيث أن الرجال هم الذين يعملون أساسا على الأطر .

توجد فى منطقة نساجى الجوارب هذه ، أحياء لصناعة الدانتيلا أيضاً . هنالك بشكل إجمالى ٢٧٦٠ إطاراً تعمل فى صناعة الدانتيلا فى البلدان الثلاثة المذكورة . بينما لا يوجد فى باقى إنجلترا كلها غير ٧٨٦ إطاراً . وتتعقد صناعة الدانتيلا إلى حد كبير بسبب إتباع نظام صارم فى تقسيم العمل . وتضم هذه الصناعة عديداً من الفروع . إن الغزل يلف أولا على البكرات بواسطة فتيات فى سن الرابعة عشر وما فوقها يسمين باللفافات ، ثم توضع البكرات بواسطة

صبية فى سن الثامنة وما فوقها يسمون باللضامين ، إنهم يمررون الخيوط خلال فتحات دقيقة ، يوجد منها ١٨٠٠ فتحة فى المتوسط فى كل ماكينة ، ثم يصل بالخيوط إلى مقصدها ، ثم يبدأ النساج فى نسج الدانتيلا التى تخرج من الآلة كقطعة عريضة من القماش . ويقوم صبية صغار للغاية بحلها وسحب الخيوط التى كانت تربطها ، وتسمى هذه العملية بالدانتيلا الجارية أو المسحوبة ، ويسمى الصبية أنفسهم بالسحابين . ثم تعد الدانتيلا للبيع . وليس للفافات ، مثلهن فى ذلك مثل اللضامين ، زمن عمل محدد ، إنهم يستدعون للعمل فى أى وقت تفرغ فيه البكرات على الأطر ، وبذا فهم معرضون لأن يستدعو فى أى وقت إلى المصنع أو حجرة العمل ، طالما أن النساج يعمل ليلا . أن تأثير تتابع عدم الإنتظام هذا ، والعمل الليلى المتكرر ، وطريقة الحياة المشوشة عليهم ، يولد عديداً من الأمراض البدنية والأخلاقية وخاصة الاباحية الجنسية الجامحة المبكرة ، والتى أجمعت عليها آراء كل الشهود . إن لهذا العمل تأثير ضار للغاية على العينين ، ورغم أن إصابة دائمة لا تلاحظ عامة بين اللضامين ، غير أنه تتولد فيما بينهم إلتهابات العيون والألم والدموع والالتباس المؤقت للرؤيا أثناء عملية اللضم . أما عن اللفافات ، فإنه من المؤكد ، على أى حال ، أن عملهن يؤثر بصورة خطيرة على العين ، ويولد بالإضافة إلى إلتهابات القرنية المتعددة ، حالات كثيرة من إظلام الرؤيا والمياه البيضاء . أما عمل النساجين أنفسهم فهو صعب للغاية ، حيث يتم توسيع الأطر بصورة مستمرة ، حتى أصبحت الأطر المستخدمة حالياً تحتاج لعمل ثلاثة رجال على التوالى ، كل يعمل ثمانى ساعات ، وبذا يعمل الإطار طوال الأربع والعشرين ساعة . ومن ثم فإن اللفافات واللضامين يستدعون كثيراً أثناء الليل ، وعليهم أن يعملوا حتى لا يتوقف الإطار خاملا . إن عمليه ملأ ١٨٠٠ فتحة بالخيوط تشغل عمل ثلاثة صبية مدة ساعتين على الأقل . لقد أزاحت قوة البخار كثيراً من الأطر ، وبذا بطل عمل الرجال ، وكما يذكر « تقرير تشغيل الصبية » ، فإن مصانع الدانتيلا وحدها هى التى تبعث فى طلب الصبية ، ويلى ذلك على ما يبدو أمرين ، إما أن عمل النساجين قد إنتقل أخيراً إلى حجرات المصانع الكبرى ، وإما أن النسيج بالبخار قد أصبح عاماً إلى حد ما ، وفى كلتا الحالتين ، فإن نظام المصنع قد خطا خطوة نحو الأمام . وأكثر تلك الأعمال ضرراً بالصحة هو عمل السحابين ، الذين هم دائماً صبية فى السابعة ، بل وحتى فى الخامسة والرابعة

من عمرهم ، ولقد وجد المندوب « جرابنجر » طفلا فى الثانية من عمره يعمل فى هذا العمل . إن متابعة خيط يجب سحبه من نسيج متشابك بواسطة ابرة ، لهو عمل ضار جداً بالعينين . خاصة عندما يستمر العمل كالمعتاد أربعة عشر أو ستة عشر ساعة مما ينتج قصر النظر شديد الخطر ان أخذت أقل الحالات ضررا أو العمى الذى لا براء منه بعد اظلام الرؤيا ان أخذت أسوأ الحالات وأكثرها انتشاراً . يضاف الى ذلك ، أن الصبية يصبحون ضعافاً ، ضيق الصدر ، بسبب الجلوس منحنيين بصورة دائمة ، كما يصابون بداء الخنازير نتيجة سوء الهضم . كما أن اضطراب وظائف الرحم يكاد يكون عاماً بين الفتيات ، كذا انحناء السلسلة الفقرية أيضاً ، حتى أنه « يمكن التعرف على كل السحابين من مشيتهم » . كما أن تطريز الدانتيلا يودى الى نفس النتائج على العينين وعلى كل البنيان . وتجمع آراء الشهود العاملين بالطب على فكرة أن كل الصبية العاملين فى انتاج الدانتيلا يقاسون بشكل خطير ، انهم شاحبون ، ضعاف ، نحاف ، دون الحجم الطبيعى وهم دون الأطفال الآخرين بكثير فى قدرتهم على مقاومة المرض . ان الإصابات التى يعانون منها دائماً هى الهزال العام ، تكرار الإغماء ، آلام الرأس والأجناب ، الظهر والأرداف ، خفقان القلب ، الغثيان ، القىء وفقدان الشهية ، انحناء السلسلة الفقرية ، داء الخنازير وداء السل ، أما صحة الأنثى صانعة الدانتيلا فهى خاصة ، مخربة بصورة دائمة وعميقة ، الشكاية عامة من الانيميا وتعسر الولادة والاجهاض * . يقرر الموظف التابع « للجنة تشغيل الصبية » أكثر من ذلك . أنه يقرر أن الصبية غالباً سيئى الملبس ومهلهلين ، يتناولون طعاماً غير كاف ، هو عادة من الخبز والشاى فقط . وهم فى الغالب لا يتناولون اللحمة لشهور متصلة ، أما عن حالتهم الأخلاقية فإنه يقرر** .

« أن كل سكان « نوتينجهام » والشرطة ورجال الدين وأصحاب المصانع والعمال وآباء وأمهات الصبية ، يجمعون الرأى حول فكرة ، أن نظام العمل الحالى ، هو مصدر من أكثر مصادر الفساد الخلقى اثمارا . ان اللضامين ، وهم أساساً من الصبية ، واللفافات ، وهن عادة من البنات ، يستدعون الى المصنع فى

* تقرير (جرابنجر) كله .

** (جرابنجر) ، (تقرير لجنة تشغيل الصبية) .

نفس الوقت ، إن لديهن أنسب فرصة لإقامة علاقات غير لائقة ، وأن يظلوا معاً بعد إنتهاء العمل . ولقد ساعد ذلك ، إلى حد ليس بالقليل ، فى فساد الأخلاق ، الذى إمتد طبقاً للفكرة العامة ، إلى مدى رهيب فى « نوتينجهام » . يضاف إلى ذلك ، أن هدوء الحياة المنزلية وراحة الأسرة التى ينتمى إليها هؤلاء الصبية والشباب ، قد ضحى بها تماما ، من أجل هذه الحالة الشاذة تمام الشذوذ والتى تسير عليها الأمور » .

هنالك فرع آخر من فروع صنع الدانتيلا ، يجرى مباشرته فى المناطق الزراعية المحيطة « بنورث امبتون » ، « اكسفورد » و « بدفورد » ، هو صنع بكرات الدانتيلا ، ويقوم به أساساً ، صبية وشباب ، يشتكون عامة من سوء الطعام ، وهم من النادر ما يتذوقون اللحوم . إن العمل نفسه غير صحى إلى أقصى حد . فالصبية يعملون فى حجرات صغيرة ، سيئة التهوية رطبة ، يجلسن دائماً منحنيين فوق وسادة الدانتيلا ، ولدعم الجسد فى هذا الوضع المتعب ، ترتدى الفتيات مشدات ذات أضلع خشبية ، والتى تتسبب ـ فى هذا السن الغضة لمعظمهن بينما العظام ماتزال طرية للغاية ـ من زحزحة الضلوع تماما ، وتجعل ضيق الصدر عاما . إنهن عادة ما يمتن بداء السل بعد معاناة أشد أشكال إضطراب الهضم الناجم عن العمل جلوسا فى جو ردىء . ويكاد أن تكن جميعاً دون تعليم ، كما أن التثقيف الخلقى هو أقل ما يتلقين . إنهن يحببن التبرج ، ونتيجة هذين المؤثرين فإن حالهن الخلقى يدعو إلى الأسف الشديد ، إن الدعارة بينهن تكاد أن تكون وبائية*

هذا هو الثمن الذى إبتاع به المجتمع متعة إرتداء سيدات البورجوازية الناعمة للدانتيلا . إنه ثمن معقول حقاً ! آلاف قليلة فقط أصابها العمى ، بعض بنات العمال أصابهن السل ، جيل أمرضته وفرة الرذيلة التى تورث هزالها إلى ابنائه الذين يتعاونون معه فى الرذيلة ، ثم إلى إبناء الأبناء . ولكن ، ما الذى يقود إليه ذلك ؟ إنه لا شيء ، لا شيء مهما كان الأمر ! إن بورجوازيينا الإنجليز سوف

* « بيرنز » « تقرير لجنة تشغيل الصبية » .

يضعون تقرير « اللجنة الحكومية » جانباً غير مبالين بشيء ، ولسوف تستمر زوجاتهم وبناتهم فى تزيين أنفسهن بالدانتلا كما كن من قبل ، إن رباطة جأش البورجوازى الإنجليزى إنما هى شيء جميل .

إن عدداً كبيراً من العمال يعمل فى مؤسسات طباعة القطن فى « لانكشاير » و « دربى شاير » و « غرب اسكتلندا » ، إن المهارة الآلية فى أى فرع من فروع الصناعة الإنجليزية لم تحقق مثل هذه النتائج الباهرة ، غير أنها أيضاً لم تسحق العمال مثلما سحقتهم فى هذا الفرع . إن إدخال استخدام الاسطوانات المنقوشة التى تسحب بقوة البخار ، واكتشاف طريقة للطباعة تستخدم من أربع إلى ست ألوان مرة واحدة بمثل تلك الاسطوانة ، قد أبطل العمل اليدوى مثلما فعل إدخال الآلات فى غزل ونسج القطن . إن النظم الجديدة فى أعمال الطباعة قد وفرت من الأيدى العاملة أكثر بكثير مما حدث فى حالة إنتاج الأقمشة . إن رجلا واحدا يعاونه صبى ، يقوم الآن — عن طريق الآلة — بما كان يقوم به ٢٠٠ من طباعى القوالب من قبل ، إن ماكينة واحدة تنتج ٢٨ ياردة من النسيج المطبوع فى الدقيقة . إن طباعى البفتة أيضاً فى حالة سيئة للغاية . إن ضواحى « لانكاستر » و « دربى » و « شستر » قد انتجت فى عام ١٨٤٢ (طبقاً لإلتماس مرسل من الطباعين إلى مجلس العموم) ١١,٠٠٠,٠٠٠ قطعة من البضائع القطنية المطبوعة ، ١٠٠,٠٠٠ مطبوعة باليد طباعة كلية ، ٩٠٠,٠٠٠ قطعة مطبوعة جزئياً بالآلة وجزئياً باليد ، ١٠,٠٠٠,٠٠٠ قطعة بالآلة وحدها ، وهى بها من أربع إلى ست ألوان . وحيث أن الآلات الحديثة ، تجرى بها من الأساس تحسينات مستمرة ، فإن الطباعين اليدويين يزيدون بكثير عن كمية العمل المتاحة ، وبذا فإن الكثيرين منهم يعانون المجاعة . إن الإلتماس يقدر عددهم بربع العدد الإجمالى للعمال ، بينما يتم تشغيل الباقيين فى أحسن الأحوال ، ساعة أو إثنين مدة ثلاثة أيام فى الأسبوع مع إعطائهم أجراً زهيداً . ويؤكد « ليش » أن العامل من عمال المطابع اليدوية فى إحدى ورش الطباعة (ديبلى دى — قرب بورى فى لانكشاير) لا يكسب أكثر من خمس شلنات فى المتوسط ، رغم علمه بأن عمال الطباعة الآلية يتقاضون أجورا طيبة إلى حد ما . وبذا فإن ورش الطباعة قد نبذت نظام المصنع كلية ،

دون أن تكون معرضة للقيود التشريعية الواقعة عليه . إنهم ينتجون صنفاً خاضعاً « للموضة » ولذا فإن عملهم غير منتظم . إنهم يعملون نصف الوقت إن كانت لديهم طلبيات صغيرة ، ويعملون حتى العاشرة أو الثانية عشر وربما الليل بطوله إن هم عقدوا إتفاقاً لتنفيذ نموذج ما للطباعة وكان العمل نشطاً . كانت هنالك ورشة إلى جوار منزلى قرب « مانشستر » ، وغالباً ماكنت أراها مضاءة وأنا عائد فى ساعة متأخرة من الليل . لقد سمعت أن الصبية هناك ، كانوا يجبرون على العمل ساعات طويلة ، حتى أنهم كانوا يحاولون إقتناص لحظة راحة وينامون على السلالم الحجرية وفى أركان الدهليز . ليس لدى دليل قانونى عن صحة تلك الواقعة ، وإلا كنت ذكرت إسم الشركة . إن « تقرير لجنة تشغيل الصبية » سطحى للغاية فى تناوله لهذا الموضوع ، إنه يقرر فقط ، أن الأطفال فى انجلترا على الأقل جيدو المأكل والملبس إلى حد ما فى غالب الأحوال (نسبيا ، طبقاً لأجور الوالدين) وأنهم لا يتلقون أى تعليم مهما كان ، وإنهم على مستوى منحط من الأخلاق . إنه من الضرورى فقط أن نتذكر ، أن هؤلاء الصبية خاضعين لنظام المصنع ، وحينئذ نحيل القارىء على ما قيل سابقاً فى هذا الصدد ، ونمضى فى سبيلنا .

أما عن العمال المتبقين والعاملين فى صناعة أقمشة الملبوسات ، فقد بقى القليل ليقال . إن عمل المبيضين غير صحى على الإطلاق ، إنهم يجبرون على إستنشاق الكلور ، وهو غاز خطر على الرئتين . أما عن عمل الصباغين فهو صحى للغاية فى كثيرمن الأحوال، حيث يقتضى إجهاد الجسد كله ، أما قدر ما يتناوله هؤلاء من أجر ، فهو أمر لا يعرف عنه إلا القليل ، وهذا دليل كاف على صحة الإستنتاج ، بانهم لا يحصلون على أقل من المتوسط العام للأجور ، وإلا كانوا تذمروا . إن قطاعى الأقمشة القطنية الوبرية ، وهم عديدين نسبياً نتيجة الإستهلاك الكبير للقطن المخملى ، حيث يتراوح عددهم من ٣٫٠٠٠ إلى ٤٫٠٠٠ عامل ، قد عانوا بقسوة شديدة ، وعن طريق غير مباشر ، من تأثير نظام المصنع . إن السلع التى كانت تنسج سابقاً بالمناسج اليدوية ، لم تكن متناسقة تماماً ، وكانت تحتاج إلى أيدى مدربة لقطع الصفوف المفردة للخيوط . ومنذ إستخدام المناسج الآلية ، فإن الخطوط تجرى منتظمة ، كل خيط من لحمة النسيج مواز للخيط الذى يسبقه تماماً ،

وبذا لم تعد عملية القطع فناً ، واتجه العمال الذين طردوا من هذا العمل بسبب إدخال الآلات ، إلى عملية تقطيع الأقمشة القطنية الوبرية ، وتسببوا فى خفض الأجور بسبب منافستهم ، واكتشف أصحاب المصانع أنهم يستطيعون الحصول على العمل داخل المصنع نفسه بتكلفة أقل من تلك التى تتم فى حجرات القطاعين، والتى كانوا يدفعون إيجارها بشكل غير مباشر . ومنذ هذا الإكتشاف ، فإن حجرات القطاعين الواطئة فى الطابق العلوى لعديد من الأكواخ قد غدت خالية، أو تم تأجيرها كمساكن ، بينما فقد القطاع حريته فى إختيار ساعات عمله ، وغدا يؤتى به بسلطة الناقوس . لقد أخبرنى قطاع ، ربما كان عمره خمس وأربعين عاماً، أنه يتذكر وقتاً كان يحصل فيه على ٨ بنسات أجر صناعة الياردة ، فى حين يحصل الآن على بنس واحد فى مقابل صنعها . حقاً ، أن النسيج الأكثر إنتظاماً يقطع فى سرعة أكثر من السابق ، إلا أنه لا يستطيع بأى حال من الأحوال أن يضاعف ما يصنعه خلال ساعة واحدة ، كما كان يحدث فى الماضى ، ولذا فإن أجوره قد هبطت إلى أقل من ربع ما كانت عليه . ويقدم « ليش » قائمة بالأجور المدفوعة عام ١٨٢٧ وعام ١٨٤٣ عن مختلف السلع والتى يظهر منها أن الأصناف التى دفع فيها عام ١٨٢٧ معدلات ٤ بنس ، ٢ ½ بنس ، ٢ ¾ بنس وبنس واحد للياردة ، قد دفع فيها عام ١٨٤٣ معدلات ١ ½ بنس ، ١ بنس ، ¾ بنس و ⅜ بنس للياردة ، كأجر للقطاعين ، إن متوسط الأجر الأسبوعى طبقاً « لليش » ٢ شلن و٦ بنسات ـ واحد جنيه إسترلينى ـ واحد جنيه إسترلينى و٦ شلنات و٦ بنسات، ولنفس السلع فى عام ١٨٤٣ : ١٠ شلنات و ٦ بنسات — ٧ شلنات و٦ بنسات، ٦ شلنات و ٨ بنسات ، و ١٠ شلنات بينما لا يجد مئات العمال عملا حتى بقدر هذه المعدلات المذكورة أخيراً . لقد تحدثنا فيما سبق عن النساجين اليدويين فى صناعة القطن ، أما باقى الأقمشة المنسوجة فتكاد أن تكون منتجة بالكلية على مناسج يدوية . هنا عانى أكثر العمال كما عانى قطاعو الأقمشة القطنية الوبرية من تزاحم المنافسين الذين حلت الآلات محلهم ، والذين تعرضوا ، مثلهم فى ذلك مثل عمال المصانع ، إلى نظام صارم دقيق من العمل الردىء . خذ مثلا نساجوا الحرير، لقد وضع مستر « بروكل هيرست » وهو واحد من أكبر أصحاب مصانع الحرير فى انجلترا كلها ، أمام لجنة من أعضاء البرلمان ، قوائم مأخوذة من دفاتره، يتضح منها أن السلع التى كان يدفع عنها عام ١٨٢١ أجور بمعدل ٣٠ شلنا ، ١٤

شلنا ، ٣,٥ شلنا ، ¾ شلنا ، ١½ شلنا ، ١٠ شلنات ، لم يدفع عنها فى عام ١٨٣١ غير ٩ شلنات ، ٧¼ شلنا ، ٢½ شلنا ، ¾ شلنا ، ½ شلنا ، ٦¼ شلنا ، بينما لم يحدث ، فى تلك الحالة أى تحسين فى الآلات . غير أن ما فعله مستر « بروكل هورست » يمكن إتخاذه كمقياس للجميع . ويظهر من تلك القوائم ذاتها ، أن متوسط الأجر الأسبوعى لنساجيه - بعد كل التخفيضات — كان ١٦,٥ شلنا فى عام ١٨٢١ ، ٦ شلنات لا غير فى عام ١٨٣١ ، ثم هبطت الأجور أكثر فأكثر منذ ذلك الوقت . إن السلع التى كانت تعود على النساج فى عام ١٨٣١ بأجر قدره ٤ بنسات ، أصبحت تعود عليه فى عام ١٨٤٣ ببنسين ونصف (قطعة واحدة من النسيج الحريرى الناعم) ، كما يمكن لعدد كبير من النساجين فى الريف أن يحصلوا على عمل ، إن هم قبلوا إعداد تلك السلع بأجر يتراوح من ١,٥ إلى ٢,٠ بنس فقط . يضاف إلى ذلك أنهم معرضون لتخفيض أجورهم بطريقة تعسفية ، إذ تعطى بطاقة لكل نساج يتسلم مواداً ، وعلى البطاقة مكتوب ساعة محددة من اليوم يجب إعادة الشغل فيها ، حتى يلزم النساج الذى لا يستطيع العمل لمرضه ، أن يخطر المكتب بهذه الحقيقة خلال ثلاثة أيام ، وإلا فلن يعتبر المرض عذراً ، كما لن يعتبر عذر كاف إن إدعى العامل أنه إضطر لإنتظار خيوط للغزل . إن ما لا يقل عن نصف الأجر يستقطع إن حدثت أخطاء معينة فى العمل (مثلا إن وجدت خيوط لحمة النسيج فى حيز معين أكثر مما ينبغى) ، ويستقطع بنس عن كل ياردة يتم إرجاعها إن لم تكن السلع جاهزة فى الوقت المحدد . إن الإستقطاعات بناء على تلك البطاقات جسيمة إلى حد أن الرجل الذى يحضر إلى « لى » فى « لانكشاير » مرتين فى الأسبوع ، لجمع السلع المنسوجة ، يعود لمستخدمه فى كل مرة ، ومعه على الأقل خمسة عشر جنيهاً إسترلينياً قيمة الغرامات — إنه يؤكد بنفسه ، فى الوقت الذى يعتبر فيه من أكثر جامعى السلع تساهلا . مثل تلك الأمور كانت تسوى فيما سبق بتحكيم المحكمين ، ولكن لما كان العمال يطردون إن هم أصروا على ذلك ، فقد أقلع نهائياً عن تلك العادة ، وأصبح صاحب المصنع هو الممثل التعسفى للمدعى والشاهد والقاضى ، مانح القانون ومنفذه فى ذات الوقت . وإن حدث وذهب عامل إلى قاضى الصلح ، فإن الإجابة ستكون « إنك بقبولك البطاقة قد دخلت فى عقد يتوجب عليك الالتزام به » إنه نفس ما يحدث مع عمال المصنع . يضاف إلى ذلك ، أن المستخدم يجبر العامل على توقيع

صك يعلن فيه موافقته على الاستقطاعات التى تمت ، وإن تمرد أحد العمال فإن كل أصحاب المصانع فى المدينة ، يعرفون فى الحال أن ذلك الرجل ، كما يقول (ليش)*

« يقام النظام القانونى كما أرسته بطاقات النساجين ، فضلا عن أنه كان من الوقاحة بحيث يشكك فى حكمه هؤلاء الذين يتوجب عليه أن يعرف ، أنهم سادته فى المجتمع »..

بالطبع ، العمال أحراراً تماما . إن صاحب المصنع لا يجبرهم على أخذ مواده وبطاقاته ، لكنه يقول لهم ماترجمه « ليش » فى إنجليزية واضحة ، الكلمات التالية :

« إن لم تكونوا راغبين فى أن تطبخوا فى مقلاتى ، فى وسعكم أن تتنزهوا فى النار » .

لقد عاش نساجو حرير « لندن » وخاصة النساجون فى (سبيتال فيلدز) مدة طويلة ، فى حالة من الضيق الذى يعقب بعضه بعضاً . إن الدور النشط للغاية والذى يلعبونه فى حركات الطبقة العاملة عامة ، وحركات عمال لندن خاصة ، ليبرهن على عدم وجود سبب يجعلهم قانعين بنصيبهم . إن الضيق السائد فيما بينهم هو الذى تسبب فى الحمى التى إنتشرت فى « الايست إند » وأخرج « اللجنة الخاصة ببحث الحالة الصحية للطبقة العاملة » . إلا أن آخر تقرير « لمستشفى الحميات بلندن » يوضح أن هذا المرض مازال متفشيا بشدة فيما بينهم .

وتأتى صناعة السلع المعدنية ، عند تناول أهم منتجات الصناعة الإنجليزية ، بعد صناعة الأقمشة المنسوجة بمراحل . إن لهذه الصنعة رئاستها فى « برمينجهام » ، حيث تنتج كل أنواع السلع المعدنية الدقيقة ، كالملاعق والشوك والسكاكين فى « شيفيلد » ، كما تصنع السلع غير المصقولة ، كالأقفال والمسامير . إلخ فى « ستافورد شاير » وخاصة فى « ولفرهامبتون » . ولوصف حالة العمال الذين يعملون فى هذه

---

* « ليش » ، « الحقائق الصعبة عن المصانع » صفحات ٣٧ — ٤٠ .

الصناعات ، دعونا نبدأ « ببرمينجهام » . إن تنظيم العمل «ببرمينجهام» قد استقر، بينما مايزال يوجد شيء من طبائع الحرفى القديم ، فى معظم الأماكن التى يتم تشغيل المعادن بها . إن المستخدمين الصغار مازالوا موجودين ، إنهم يعملون مع صبيانهم فى دكان فى المنزل ، أو إن إحتاجوا لقوة البخار ، ففى أبنية المصانع الكبيرة ، حيث يقسم المبنى إلى دكاكين صغيرة ، يؤجر كل منها إلى مستخدم ، ويزود الدكان بمحور تحركة الماكينة ، وبذا تتوافر قوة محركة للآلة . ويشخص « ليون فوتشر » ، الذى كتب عددا من المقالات فى الـ « ريفيو دا دى موندس» تعتبر فى حدها الأدنى دراسة تكشف تلك الأوضاع ، وهى حتى الآن أفضل ما كتبه الإنجليز والألمان فى هذا الموضوع ، يشخص هذه العلاقة ، بأنها تتناقض والصناعة فى « لانكشاير » و « يوركشاير » ، باعتبارها « ديمقراطية صناعية » ، ويلاحظ أنها لن تعود بنتائج مناسبة تماما ، لا للسيد ولا للرجال . إن هذه الملحوظة صائبة تماما ولأنه لا يمكن للعديد من صغار المستخدمين إن يستمروا بطريقة جيدة ، معتمدين على الربح المقسم بينهم ، والذى تحدده المنافسة ، ربح يمتصه فى ظروف أخرى ، صاحب مصنع واحد ، إذ فى مقابل نمو واحد منهم إلى حد الثراء ، يصاب عشره بالخراب ، ويصل مائة إلى وضع أسوأ من أى وضع كانوا فيه على الإطلاق . إن ذلك يتم بضغط يقوم به واحد منهم ، قادر على البيع بسعر أرخص من الآخرين . وإن توجب عليهم منافسة رأسماليين كبار ، فإن الأمر يكون واضحاً منذ البداية ، إذ أنهم لن يستطيعوا شيئا غير الكدح فى ظل أشد الصعوبات ، أما عن الصبيان ، فقد كانوا ، كما سنرى ، سيء الحال تماما ، إنهم يعملون مع المستخدمين الصغار ، والعمل هنا مثل العمل مع أصحاب المصانع ، مع فارق واحد ، هو أنهم بدورهم قد يصبحون مستخدمين صغارا أيضا ، وبذا يحصلون على قدر معين من الاستقلال — بمعنى أنهم فى أفضل الأحوال ، يستغلون من البورجوازية بقدر مباشر أقل من ذلك القدر الذى يعانونه فى ظل نظام المصنع . ولذا فإن هؤلاء المستخدمين الصغار ، ليسوا بروليتاريين أصلاء حيث أنهم يعيشون جزئيا على عمل صبيانهم ، كما أنهم ليسوا بالبورجوازيين الأصلاء ، حيث وسائل دخلهم الرئيسية هى عملهم الخاص . إن هذا الوضع الوسط الخاص بعمال الحديد فى « برمينجهام » ، هو الوضع المسئول عن شكل

إنضمام هؤلاء العمال إلى حركات العمل الإنجليزية ، والذى يكون إنضماما نادراً وليس إنضماما كليا أو لا ردة فيه . إن « برمينجهام » مدينة راديكالية وليست مدينة إصلاحية من الناحية السياسية . وعلى أى حال ، هنالك العديد من المصانع الكبيرة المملوكة لرأسماليين ، يسودها نظام المصنع . إن تقسيم العمل ، والذى ينفذ هنا إلى أدق تفاصيله (كما فى صناعة الإبر مثلا) ، كذا استخدام البخار كقوة محركة، قد مكن من تشغيل أعداد ضخمة من النساء والأطفال، وسنجد هنا * نفس القسمات بالضبط، التى تناولها «تقرير المصانع» وقد عادت للظهور، تشغيل النساء حتى ساعة الوضع ، وعدم كفاءتهن كمدبرات لبيوتهن ، إهمال الأبناء والمنزل، اللامبالاة المقت الحقيقى للحياة العائلية ، فساد الآداب ، طرد الرجال من العمل ، رفع الولاية مبكراً عن الأبناء ، والرجال الذين تعولهم نساؤهم وأبناؤهم . . . إلخ إلخ . ويوصف الصبية بأنهم يعيشون فى شبه مجاعة ، مهلهلى الثياب ، نصفهم لا يعرف معنى الشبع ، لا يجد الكثيرون منهم ما يقتاتون به حتى وجبة منتصف النهار ، أو ربما يقضى الواحد منهم طوال النهار على خبز يساوى بنس واحد حتى وجبة الليل — كانت هنالك حالات حقيقية لم يتناول فيها الصبية أى طعام منذ الثامنة صباحا حتى السابعة مساء . يندر فى غالب الأحوال ، أن يرتدوا ما يكفى لتغطية عريهم ، الكثيرون منهم حفايا الأقدام حتى فى الشتاء . ومن ثم فإن جميعهم صغيرو الحجم وضعاف بالنسبة لأعمارهم ، إنهم نادراً ما يظهرون أى قدر من النشاط . إننا عندما نتأمل حالهم ذاك ، مع عدم وجود وسائل كافية لتعويض قواهم البدنية فى الوقت الذى هم فيه مطالبون بالعمل الشاق فى حجرات مغلقة ، يجب ألا تصيبنا الدهشة لقلة عدد الراشدين اللائقين للخدمة العسكرية فى « برمينجهام » . يقول أحد جراحى التجنيد « إن العمال صغار الحجم ، ضعاف ، قوتهم البدنية ضئيلة للغاية ، والكثيرون منهم مصابون أيضاً بتشوهات فى الصدر أو السلسلة الفقرية». وطبقاً لتأكيد أحد شاوشية التجنيد ، فإن أهل « برمينجهام » أصغر حجما من هؤلاء القادمين من أى مكان ، إن أطوالهم عادة خمس أقدام وأربع أو خمس بوصات ، فمن بين ٦١٣ مجنداً ، لم يكن صالحا للخدمة غير ٢٣٨ فردا . أما بالنسبة

* « تقرير لجنة تشغيل الصبية » .

للتعليم ، فلقد تم أخذ عدد من الشهادات والعينات من أحياء عمال المعادن ، سبق واستشهدنا بها للقارىء* . ويتضح من « تقرير لجنة تشغيل الصبية » ماهو أبعد من ذلك ، إن أكثر من نصف صبية « برمينجهام » ، والذين تتراوح أعمارهم ما بين الخامسة والخامسة عشر ، لا يواظبون على أية مدرسة من أى نوع كانت ، وأن الذين يفعلون ذلك ، يغيرون مدرستهم باستمرار ، وبالتالى ، يستحيل عليهم أن ينالوا أى تدريب له صفة الدوام . إنهم جميعاً يسحبون من المدرسة فى فترة مبكرة للغاية ويرسلون للعمل . ويوضح التقرير نوع من المدرسين الذين يعملون فى هذا المجال . إن إحدى المدرسات ، فى إجابتها على السؤال ، إذا ماكانت تعطيهم أى تعليم أخلاقى ، قالت ، كلا ، إن هذا ليكون كثير للغاية على من يدفع ثلاث بنسات فى الأسبوع مصاريف مدرسية ، وأخريات عديدات لم يفهمن حتى هذا السؤال . ومازالت أخريات لا يعتبرن أن هذا جزء من واجبهن . ولقد قالت إحدى المدرسات ، أنها لم تعط أى تعليم أخلاقى ، لأنها لقيت الكثير من المتاعب لتبث المبادىء الطيبة بين الصبية (إنها بقولها هذا قد وقعت فى زلة عمدية ضد إنجليزيتها) . لقد وجد المندوب المدرسة فى حالة من الفوضى والضجة الدائمة . إن حالة الصبية الخلقية تثير أعلى درجة من الرثاء . إن نصف كل المجرمين ، من الصبية دون الخامسة عشر . كان هنالك تسعين مجرما ، فى عام واحد ، فى سن العاشرة ، منهم أربعة وأربعين حالة من الجرائم الخطرة التى أدانها القضاء . ويبدو أن العلاقات الجنسية الجامحة ، طبقاً لرأى المندوب ، تكاد أن تكون عامة . كما أنها تمارس فى سن مبكر للغاية** .

أما عن الأوضاع فى حى الحديد « بستافورد شاير » فهى سيئة أيضا ، حيث لم يكن من الممكن تطبيق أى نظام لتقسيم العمل إلى تقسيمات كثيرة (مع بعض الاستثناءات الخاصة) ، أو إدخال قوة البخار أو الآلات ، على السلع غير المصقولة المصنوعة هنا . ومن ثم فإنه يوجد فى « وولفرهامبتون » ، « ويلهول »

---

* انظر صفحة ١١٢ من الكتاب الأصلى (ص ٢٦٣ ، ٢٦٤ الجزء الحالى) .

** « جراينجر » ، التقرير والشهادة .

« سيد جيلى » ، « وبدنسفيلد » ، « دارلاستون » ، « دورلى » ، « والسال » ، و « بدنسبيرى » . . . إلخ مصانع أقل ، إلا أنها فى الأساس ، مسابك تعمل منفردة ، حيث يعمل السادة الصغار بمفردهم ، أو مع واحد أو أكثر من الصبيان الذين يخدمونهم حتى يبلغوا الواحدة والعشرين من عمرهم . إن المستخدمين الصغار هنا ، فى نفس الوضع تقريباً ، الذى عليه هؤلاء الذين هم فى « برمينجهام » . غير إن الصبيان كقاعدة، فى حال أسوأ بكثير . يكاد اللحم الذى يحصلون عليه أن يكون بالكلية لحم حيوانات مريضة أو ماتت موتاً طبيعياً ، أو لحماً فاسداً ، أو أنهم يقومون بصيد السمك ليأكلوه ، مع لحم كندوز من أبقار ذبحت وهى صغيرة للغاية . كما يأكلون لحم خنزير من تلك الخنازير التى اختنقت أثناء النقل ولا يعتمد على هذا الطعام صغار المستخدمين فقط ، بل يعتمد عليه أصحاب كبار المصانع أيضا ، الذين يعمل لديهم من ثلاثين إلى أربعين صبيا . يبدو أنها عادة عامة فى « وولفرهامبتون » ، ونتيجتهـــا الطبيعية هى الشكاوى المتكررة من الأمعاء وأمراض أخرى . يضاف إلى ذلك ، أن الصبية لا يحصلون عادة على كفايتهم من الأكل ، وهم نادراً ما يكون لديهم أى ملبس غير الهلاهيل التى يرتدونها أثناء العمل . ولهذا السبب ، دون أى سبب آخر ، فإنهم لا يستطيعون الذهاب إلى مدارس أيام الآحاد . إن المساكن رديئة وقذرة إلى حد كبير ، حتى أنها تشكل مصدراً للمرض . ورغم أن العامل من الناحية المادية ليس بالعمل غير الصحى ، إلا أن نمو الصبية قاصر ، وهم ضعاف ، مصابون بالكساح الحاد فى حالات كثيرة . يوجد مثلا فى « ويلنهول » عدد لا حصر له من الأشخاص الذين انحنت ظهورهم نتيجة البرادة على المخرطة بصورة دائمة ، أو التوت رجلهم ، التى يطلقون عليها إسم « الرجل الخلفية » ، حتى أن هيئة الرجل تتخذ شكل الحرف K و بينما يقال إن أكثر من ثلث العمال هناك مصابين بالفتاق ـ ولقد وجدت هنا ، كما هو الحال فى«وولفرهامبتون»، حالات من الفتيات لاحصر لها ، تأخرن فى سن البلوغ (فالفتيات أيضا يعملن فى المسابك) وكذا الحال بين الصبية، وقدامتد هذا التأخير حتى سن التاسعة عشر. وفى «سيد جيلى» والمنطقة المحيطة بها ،حيث تشكل المسامير، المنتج الوحيد على وجه التقريب ، يعيش العاملون فى صناعة المسامير ويعملون فى أقذر الأكواخ التى تشبه الاسطبلات ، وهى أكواخ لا نظير لها فى قذارتها .

وتعمل الفتيات والأولاد منذ العاشرة أو الثانية عشر من أعمارهم ، وهم لا يدخلون فى أعداد العمال المهرة بحق ، إلا عندما يصنع الواحد منهم ألف مسمار فى اليوم . إن أجر الألف ومئتا مسمار هو ٣/٤ ٥ بنس ، وكل مسمار يحتاج إلى إثنتى عشر خبطة ، وحيث أن المطرقة تزن ١ ١/٤ رطلا ، فإن على صانع المسامير أن يرفع ١٨٠٠ رطلا ليحصل على هذا الأجر البائس . وفى ظل هذا العمل الشاق ، والطعام غير الكاف ، لابد وأن ينمو الصبية بالضرورة عليلى الهيئة ، وذات بنيان دون الحجم الطبيعى ، وتؤكد شهادات المندوبين تلك الأوضاع . أما بالنسبة للتعليم فى هذه المنطقة فقد سبق وقدمنا البيانات الخاصة بذلك . إنها منخفضة المستوى إلى حد لا يمكن تصديقه . إن نصف الصبية لا يذهبون حتى إلى مدارس أيام الآحاد ، ويذهب النصف الآخر بشكل غير منتظم . إن عددا قليلا جدا ، إذا قورن بالأحياء الأخرى ، هو الذى فى وسعه القراءة . أما مسألة الكتابة فحالها أسوأ بكثير بالطبع ، إذ أنهم يرسلون إلى العمل ، فى سن السابعة ، فى الوقت الذى يبدأون فيه تحصيل شىء مفيد من ذهابهم إلى المدرسة . أما مدرسوا مدارس أيام الآحاد ، وهم من الحدادين وعمال المناجم ، فإنهم غالبا ما يستطيعون قراءة أو كتابة أسمائهم بصعوبة . وتتطابق الأخلاق مع وسائل التعليم تلك . ويؤكد المندوب « هورن » مقدما الأدلة الوفيرة على تأكيده هذا ، أنه لا يوجد على الإطلاق فى « ويلنهول » أى حس خلقى بين العمال . لقد وجد ، بشكل عام ، أن الصبية لا يعرفون واجباتهم قبل والديهم ، ولا يكنون أى مشاعر لهم . إن قدرتهم على التفكير فيما يقولون محدوده ، إنهم بلهاء للغاية ، أغبياء إلى درجة مؤسفة ، حتى أنهم غالبا ما يزعمون ، أنهم كانوا يعاملون معاملة حسنة ، وأنهم كانوا فى طريقهم إلى الشهرة فى الوقت الذى كانوا يجبرون فيه على العمل من إثنتى عشر إلى أربعة عشر ساعة ، مرتدين الأسمال ، لا يحصلون على ما يكفى من المأكل ، ويضربون إلى الحد الذى يحسون فيه بآثار الضرب لأيام عديدة لاحقة. إنهم لا يعرفون أى نوع آخر من أنواع الحياة ، غير تلك التى يكدحون فيها منذ الصباح حتى يسمح لهم بالنوم ليلا ، إنهم حتى لا يفهمون معنى السؤال الذى لم يسمعوه من قبل ، إن كانوا قد أصيبوا بالتعب* .

* تقرير « هورن » وشهادته .

الأجور فى «شيفيلد» أفضل، وكذا الوضع الخارجى للعمال. كذا هنالك من ناحية أخرى، فروع أخرى من العمل يمكن ملاحظة وجودها هنا، بسبب تأثيرها الخطر على الصحة بصورة غير عادية. إن عمليات معينة تحتاج إلى ضغط متصل للآلات على الصدر، مما يولد السل فى حالات كثيرة، كما يتأخر النمو العام لأجساد آخرين من بينهم البرادين ويصابون باضطرابات فى الهضم. ويصاب قاطعوا العظام اللازمة لصناعة مقابض السكاكين بالصداع والصفراء، وتصاب الفتيات، واللائى يعمل منهن عدد كبير، بالأنيميا. أما العمل فى شحذ الشوك وحواف السكاكين، فإنما يفوق كل ذلك بمراحل من حيث كونه عملا ضاراً بالصحة، وخاصة إذا تم إنجازه باستخدام حجر جاف، حيث يسبب الموت المبكر المؤكد. إن عدم صحية هذا العمل ترجع جزئياً إلى الوضع المنحنى، والذى ينضغط فيه الصدر والمعدة، إلا أن الضرر المتميز، يكمن فى كمية جزئيات الغبار المعدنى الحاد الأطراف والذى ينطلق أثناء عملية الشحذ، فيملأ الجو، ويتم إستنشاقه بالضرورة. إن متوسط أعمار الذين يعملون على المسن الجاف لا يكاد يكون خمسة وثلاثين عامة ونادراً ما يتجاوز الذين يعملون على المسن المرطب بالماء خمسة وأربعين عاماً. يقول دكتور «نايت» من شيفيلد* .

«فى وسعى أن أنقل فكرة ما عن أضرار هذه الحرفة، بأن أؤكد فقط أن أشد مدمنى الخمور من السنانين هم أطولهم عمراً، لأنهم أطولهم وأغلبهم غياباً عن عملهم. إنهم، فى مجملهم، قرابة ٢٥٠٠ سنان فى «شيفيلد»، حوالى ١٥٠ منهم سنانى شوك (٨٠ رجلا و ٧٠ ولداً)، وهؤلاء يموتون فى سن تتراوح ما بين الثامنة والعشرين والثانية والثلاثين من أعمارهم. ان سنانى أمواس الحلاقة، وهم يعملون بالسن الرطب والجاف أيضاً، يموتون فيما بين الأربعين والخمسة والأربعين من أعمارهم، ويموت سنانى أدوات السفرة، وهم الذين يسنون على الرطب، ما بين الأربعين والخمسين من أعمارهم».

ويقدم نفس الطبيب، الوصف التالى، للمجرى الذى يتخذه المرض المعروف بإسم «ربو السنانين».

---

* دكتور (نايت)، (شيفيلد).

« إنهم عادة ما يبدأون فى العمل فى سن الرابعة عشر ، ونادراً ما يلاحظون أية عوارض للمرض قبل سن العشرين ، إن كانوا جيدوا البنيان . ثم تبدأ عوارض مرضهم الخاص فى الظهور . إنهم يعانون من قصور التنفس عند بذل أبسط جهد فى صعود تل أو درج ، وهم يعتادون رفع أكتافهم ليغذو الحاجة الدائمة والمتزايدة للتنفس ، إنهم ينحنون إلى الأمام ويبدون ، بشكل عام ، وكأنهم يحسون فى وضعهم الجاثم الذى يعملون به ، بالراحة الكبرى . إن لون بشرتهم يصبح أصفر مترباً ، وتعبر ملامحهم عن القلق ، ويشكون من الضغط على صدورهم وتصبح أصواتهم أجشة خشنة ، ويسعلون فى صوت مرتفع ، ويبدو الصوت وكأنه هواء مدفوع من أنبوب خشبى ، وهم يبصقون من وقت لآخر ، كميات وافرة من الغبار ، إما مختلطة بالبلغم ، أو فى كتل كروية أو إسطوانية مغطاة بطبقة رقيقة من المخاط . ثم يأتى بصق الدم ، وعدم القدرة على الرقاد ، العرق ليلا والإسهال والخسسان غير العادى ، كل عوارض الإصابة بالسل ، والتى تنتهى بهم إلى الموت ، بعد أن يكونوا قد ظلوا شهوراً أو حتى أعواماً ، غير صالحين ليعولوا أنفسهم أو هؤلاء الذين يعتمدون عليهم . ويجب أن أضيف ، أن كل المحاولات التى بذلت حتى الآن لمنع « ربو السنانين » أو لعلاجه قد باءت جميعاً بالفشل » .

لقد كتب « نايت » كل هذا منذ عشر سنوات مضت ، ومنذ ذلك الحين زاد عدد السنانين ، كما زاد عنف المرض ، رغم المحاولات التى بذلت لمنعه ، بتغطية أحجار السن ، وطرد الغبار باصطناع تيار هواء . لقد كانت هذه الوسائل على الأقل ناجحة ، غير أن السنانين لا يرغبون فى أن يتبناهم أحدا . لقد حطموا ذلك الإختراع هنا وهناك ، باقتناع أن وجوده سيجذب مزيداً من العمال إلى العمل وبذا تنخفض الأجور. إنهم دعاة حياة قصيرة مرحة، وغالباً ما كان دكتور نايت يخبر السنانين الذين يحضرون إليه وقد ظهرت عليهم عوارض الربو ، بأن عودتهم إلى السنانة تعنى الموت المؤكد . ولكن عبثاً ما يقول إن هذا الذى قد غدا سناناً يهوى إلى اليأس، وكأنه قد باع نفسه إلى الشيطان. إن مستوى التعليم فى «شيفيلد» منخفض للغاية . إن أحد رجال الدين وقد شغل نفسه إلى حد كبير بإحصائيات التعليم ، يرى أنه من بين ١٦٥٠٠ فرداً من أبناء الطبقة العاملة ، والذين كان عليهم

المواظبة على المدرسة ، هنالك ٦٥٠٠ فى وسعهم بالكاد أن يقرأوا . ويرجع ذلك إلى حقيقة أن الصبية يأخذون من المدرسة فى سن السابعة ، وإن تأخر الأمر كثيراً ففى سن الثانية عشر ، وأن المدرسين لا يصلحون لشىء ، قاصرهم لص محكوم عليه بالأشغال الشاقة ، ولم يجد عند الإفراج عنه عملا يعول به نفسه غير التدريس بالمدرسة ! إن فساد الآداب بين الشباب يسود فى « شيفيلد » أكثر من أى مكان آخر . إنه من الصعوبة بمكان ، أن يحدد المرء أى مدينة يجب أن تفوز بالجائزة ، وعند قراءة التقرير ، فإن المرء يقتنع بأن كلا منها يستحقها بجدارة ! إن الجيل الأصغر يقضى طوال يوم الأحد متسكعاً فى الشوارع يقترع بالنقود ، أو يصارع الكلاب ، كما يذهب بانتظام إلى صالة مشروب الجن ، حيث يجلس الفتية هناك مع حبيباتهم حتى ساعة متأخرة من الليل ، وعندها يبدأون النزهة فى ثنائيات منفردة. لقد وجد المندوب فى أحد بيوت الجعة التى زارها هناك ، من أربعين إلى خمسين شاباً من كلا الجنسين ، كانوا جميعاً دون السابعة عشر من العمر تقريباً . وكان كل فتى يجلس إلى جوار فتاته ، وهنا وهناك كانوا يلعبون الورق ، وفى أماكن أخرى كانوا يرقصون ، أما الشرب ففى كل مكان . وكان بين الصحبة مومسات محترفات معترف بهم علناً . إذن لا عجب ، كما يشهد بذلك كل الشهود ، أن تبدأ العلاقات الجنسية الجامحة والدعارة الفتية مبكراً ، بأشخاص تتراوح أعمارهم ما بين الرابعة عشر والخامسة عشر بكثرة غير عادية فى « شيفيلد » . إن الجرائم ذات الطابع الوحشى والمتهور عامة الوقوع ، ولقد قبض قبل عام من زيارة المندوب على عصابة كانت على وشك إشعال النار فى المدينة . كانوا مجهزين تجهيزاً تاماً بأدوات الطعن والمواد سريعة الالتهاب . وسنرى فيما بعد ، أن حركة العمال فى « شيفيلد » تحمل نفس هذه السمة الوحشية* .

وتوجد إلى جوار هذين المركزين من مراكز صناعة المعادن مصانع للإبر فى « دارينجتون » ، « لانكشاير » حيث تسود الحاجة إلى حد كبير ، وكذا فساد الآداب والجهل بين العمال ، خاصة بين الصبية . كما يوجد أيضاً عدد من مسابك

* تقرير (سيموانز) وشهادته .

المسامير فى جوار « ويجان » فى « لانكشاير » وفى شرق اسكتلندا . وتروى التقارير الواردة من المناطق الأخيرة ، نفس قصة الأوضاع الجارية فى « ستافورد شاير » على وجه التقريب بالضبط . كما يوجد فرع آخر من فروع هذه الصناعة تتم مباشرته فى المناطق الصناعية وخاصة فى « لانكشاير » . والخاصية الأساسية لهذا الفرع ، هو إنتاج الآلات بالآلات ، وبذا يطرد العمال من أماكن أخرى ، ويحرمون من آخر ملاذ لهم ، بخلق عدوهم الذى يقينا سيحل محلهم . لقد ألقت آلات مسح الخشب وقطع مسامير القلاووظ والعجلات والصمولات القلاووظ .. الخ . وكذا المخارط الآلية ، بالعديد من العمال الذين كانوا يجدون فيما سبق ، عملا منتظماً بأجور مجزية ألقت بهم خارج نطاق العمل ، وفى وسع أى أمرىء يشاء أن يقوم بهذا ، أى يرى جموعهم فى « مانشستر » .

ويرقد شمال منطقة الحديد فى « ستافورد شاير » منطقة صناعية ، سنوجه إلتفاتنا إليها الآن . إنها منطقة الفاخورات ، والتى توجد مقار إداراتها فى دائرة « ستوك » ، التى تضم « هنلى » ، « بورسلم » ، « لين إند » ، « لين ولف » ، « ترووريا » ، « كولريدج » ، « لانجبورت » ، « تونستول » و « جولدن هيل » . وتحتوى كلها على ٦٠٫٠٠٠ من السكان . ويقرر « تقرير لجنة تشغيل الصبية » فى هذا الصدد ، بأنه فى عـــدد من فروع هذه الصناعة ، العاملة فى إنتاج الأوانى الفخارية ، يتعين على الصبية أن يقوموا بعمل خفيف ، فى حجرات دافئة طلقة الهواء ، وعلى نقيض ذلك فى فروع أخرى ، إذ أن المطلوب هو عمل قاس مرهق ، بينما لا يحصل العاملون فيه على الطعام الكافى أو الملبس الجيد . إن كثيراً من الصبية يشكون ، « إننا لا نحصل على ما يكفى للأكل ، إننا غالباً ما نتناول البطاطس بالملح ، لا لحم على وجه الإطلاق ، لا خبز على وجه الإطلاق ، لا نذهب إلى المدرسة ، ولم نحصل على أية ملابس » . « إننا لم نحصل على شىء نأكله لغذاء اليوم ، إننا لا نتناول غذاءنا فى المنزل إطلاقاً ، نحن نتناول البطاطس والملح فى غالب الأوقات والخبز فى بعض الأحيان » — « ذلك هو كل ما لدى من ملابس . لا توجد فى منزلنا بزة ليوم الأحد » . إن حاملى الطين هم من بين الصبية الذين يقومون بعمل خطر على وجه الخصوص ، إذ عليهم أن

يحملوا المادة الطينية بقالبها إلى حجرة التجفيف ؛ وإعادة القالب فارغاً فيما بعد ؛ عندما تجف المادة تمام الجفاف . وبذا فإنه يتوجب عليهم أن يقضوا النهار جيئة وذهاباً ، يحملون أحمالا أثقل نسبياً من أعمارهم ، بينما درجة الحرارة العالية والتي يتوجب عليهم العمل فى ظلها ، تزيد بشكل ملحوظ من إنهاك العمل . إن هؤلاء الصبية ، باستثناءات تكاد تكون مفردة ، نحاف ، ضعاف ، شاحبون ، دائخون ، يعانون جميعاً ، على وجه التقريب ، من إضطرابات المعدة ، الغثيان ، فقدان الشهية ، ويموت العديدون منهم بالسل . إن الصبية وهم على هذا القدر من الوهن يسمون « بالدواليب » ، إشتقاقاً من دولاب الفخراني الذى يديرون عجلته . إلا أن أشد تلك الأعمال خطراً إلى أبعد حد ، هو عمل هؤلاء الذين يغمسون المادة المعدة فى سائل يحتوى على كميات كبيرة من الرصاص ، وفى الغالب من الزرنيخ ، أو يتناولون باليد المادة الخام المغموسة لتوها فى السائل . أن أيدى وملابس الراشدين والصبية من هؤلاء العمال ، تظل على الدوام مبتلة بهذا السائل ، فيلين الجلد ويتساقط عند وجود أى إحتكاك متصل بأشياء خشنة ، وبذا تدمى الأصابع فى غالب الأحوال ، وتظل دائماً فى أنسب حالاتها لامتصاص هذه المادة الخطرة . والنتيجة ألم عنيف ، وأمراض المعدة والأمعاء الخطرة . الأمساك الشديد ، القولون ، السل أحياناً والصرع الذى هو أكثر الأمراض إنتشاراً بين الصبية . إن الشلل الجزئى لعضلات اليد ، المغص الناجم عن مركبات الرصاص والشلل الكلى للأطراف ظاهرة عادية بين الرجال ، يروى أحد الشهود أن صبيين كانا يعملان معه ، ماتا من الرعشة وهما فى العمل ، ويروى آخر كان يعاون فى عملية الغمس لمدة عامين عندما كان صبياً ، أنه عانى فى مبدأ الأمر آلاماً رهيبة فى إمعائه ، ثم أصيب بالرعشة ، ولزم الفراش مدة شهرين نتيجة ذلك ، حيث كانت تتكرر نوبات الرعشة بشكل متزايد ، ثم غدت يومية ، مصحوبة فى غالب الأحيان بعشرة إلى عشرين نوبة من نوبات الصرع . وأصيب ذراعه الأيمن بالشلل ، وقد أخبره الأطباء ، بأنه لن يكون فى وسعه أن يستعيد إستخدام أطرافه على الإطلاق . ولقد وجد فى مصنع واحد ، فى حجرة الغمس ، أربعة رجال مصابون جميعاً بالصرع ، ويعانون من قولون حاد ، وإحدى عشر صبياً ، أصاب الصرع العديدين منهم بالفعل . وفى إيجاز ، فإن هذه الأمراض المخيفة ، تتبع هذه الحرفة عامة : وأن هذا أيضاً ، يرجع إلى ما تربحه البورجوازية

من ربح كبير للغاية ! إن الجو فى الحجرات التى تنشف فيها الأوانى الفخارية بالدعك ، ملىء بحجر الصوان المسحوق ، والذى يشكل إستنشاقه خطراً يماثل خطر إستنشاق غبار الصلب بين سنانى « شيفيلد » . إن العمال يفقدون القدرة على التنفس ، ويعانون من إحتقان الزور والسعال العنيف ، كما يغدو صوتهم واهناً حتى أنه بالكاد يمكن سماعهم . إنهم جميعاً يموتون بالسل أيضاً . يقال أن المدارس فى منطقة صناعة الفخار عديدة نسبياً ، وأنها تقدم للصبية فرصاً للتعليم ، ولكن حيث أن الصبية يرسلون فى سن مبكرة للغاية للعمل إثنتى عشر ساعة وأكثر يومياً فى غالب الأحيان ، فإنهم ليسوا فى وضع يمكنهم من الإستفادة من المدارس ، حتى أن ثلاثة أرباع الصبية الذين إمتحنهم المندوب ، لم يستطيعوا القراءة أو الكتابة ، بينما تغوص المنطقة كلها فى أعمق جهالة . إن الصبية الذين واظبوا على مدارس أيام الآحاد لسنوات ، لم يستطيعوا أن يفرقوا بين حرف وآخر ، كما أن التعليم الدينى والأخلاقى منخفض المستوى للغاية ، مثله فى ذلك مثل التعليم التثقيفى * .

وهكذا يجرى العمل أيضاً فى مصانع الزجاج ، حيث يبدو قليل الخطر على الرجال ، إلا أن الصبية لا يستطيعون إحتماله . إن العمل الشاق ، وعدم إنتظام ساعات العمل ، وتكرار العمل ليلا ، والحرارة العالية (١٠٠ إلى ١٣٠ فهرنهيت) لمكان العمل على وجه الخصوص ، تولد عند الصبية الهزال العام والمرض ووقف النمو الطبيعى وإصابات العين بشكل خاص ، الشكوى من الأمعاء ، الإصابات الروماتيزمية والخاصة بالشعيبات الرئوية . إن كثيراً من الصبية شاحبون ، حمر العيون ، وغالباً ما يصابون بالعمى لأسابيع متصلة مرة واحدة ، يعانون من الغثيان العنيف ، القىء ، السعال ، أمراض البرد والروماتيزم . إذ عندما يسحب الزجاج من النار ، يتوجب على الصبية أن يبدأوا العمل فى مثل تلك الحرارة ، التى تشتعل بسببها ألواح الخشب الموجودة تحت أقدامهم . إن نافخى الزجاج عادة ما يموتون صغار السن من الهزال وإصابات الصدر ** .

---

* تقرير وشهادة (اسكريفن) .

** ملحق تقرير (ليفشيلد) الجزء الثانى ، صفحات ل ٢ ، ١١ ، ١٢ — تقرير لجنة تشغيل الصبية
» » » فرانكس » » » ك ٧ ، ٤٨
» » » نافسرد » » » » أ ٧٦ وما بعدها

وبشكل عام ، فإن هذا التقرير يشير إلى الإدخال التدريجى المؤكد لنظام المصنع فى كل فروع الصناعة ، مبيناً بشكل خاص مسألة تشغيل المرأة والصبية ، إننى لم أرى أنه من الضرورى أن أتابع تقدم الآلات وحلولها محل الرجال كعمال فى كل حالة . أن أى إمرىء على أى درجة من الإلمام بطبيعة الصناعة يستطيع أن يسد هذه الناحية بنفسه ، بينما فسحة الوقت لم تكن كافية لأصف بالتفصيل ، وجها من وجوه نظامنا الحالى للإنتاج ، ونتيجة ذلك ، قدمته فى وصف مختصر فيما سبق ، أثناء تناول نظام المصنع . إن الآلة تدخل كل النواحى ، وبالتالى فإن آخر بقايا استقلال العامل قد تحطمت . إن العائلة تنحلل من كل النواحى . بتشغيل الزوجة والأبناء ، أو ترتد بطرد الزوج من العمل وجعله يعتمد عليهم فى لقمة عيشه ، وفى كل مكان ، تضفى الآلة التى لا مفر منها ، تسلط الرأسمالى الكبير على المهنة وعلى عمالها معها . إن مركزة رأس المال توسع الخطى قدما دون عقبة ، ويحتد كل يوم تقسيم المجتمع إلى رأسماليين كبار وعمال لا يملكون ، ويتقدم النمو الصناعى للأمم بخطى عملاقة نحو أزمة لا مفر منها .

لقد أوضحت فيما سبق ، أن قوة رأس المال فى الصناعات اليدوية ، وتقسيم العمل أيضاً فى بعض الحالات . قد أنتج نفس النتائج ، سحق أصحاب الحرف الصغار ووضع الرأسماليين الكبار والعمال الذين لا يملكون فى مكانهم . أما بالنسبة للحرفيين، فهنالك القليل ليقال، حيث أن كل ماله علاقة بهم قد وجد مكانه فيما سبق عندما كانت تناقش حالة البروليتاريا بشكل عام . لم يحدث هنا غير تغير طفيف فى طبيعة العمل وتأثيره على الصحة منذ بداية الحركة الصناعية . إلا أن الإتصال الدائم بعمال المصانع ، وضغط كبار الرأسماليين والذى يمكن الإحساس به أكثر بكثير من ضغط المستخدم الصغير ، والذى ما يزال يجرى تعامل صبيته معه فى صورة علاقة شخصية على وجـــه التقريب ، وتأثيرات الحياة فى المدن ، وهبوط الأجور ، قد جعلت من كل الحرفيين تقريباً مشاركين نشطاين فى حركات العمل . إننا سنتقول المزيد عن هذه النقطة عما قريب ، وفى تلك الاثناء فإننا سنتناول قسما من عمال لندن يستحق إنتباهنا بسبب الهمجية الشاذة التى يستغلهم بها جشع البورجوازيين إلى المال ، وأعنى بهذا القسم صانعات الملابس والنساء الحائكات .

إنها لحقيقة غريبة ، إن إنتاج هذه الحاجيات بالتحديد ، وهى التى فى خدمة زينة سيدات البورجوازية ، تنطوى على أشد النتائج المحزنة على صحة العمال ، لقد رأينا ذلك آنفا فى صانعى الدانتلا ، ونأتى الآن إلى مؤسسات صناعة الملابس فى لندن ، لنتقدم مزيداً من الأدلة والبراهين . إنهم يشغلون حشداً من الفتيات الصغيرات - يقال أن عددهن جميعاً ١٥,٠٠٠ واحدة — إنهن ينمن ويأكلن عند محال العمل ، يأتين عادة من الريف ، وهن بذلك عبيد لمستخدميهم بشكل مطلق . إن ساعات العمل ، خلال موسم « الموضة » ، والذى يستمر حوالى أربعة شهور ، هى خمسة عشر ساعة تمتد إلى ثمانية عشر ساعة يوميا فى حالات الضغط الشديد ، إن ذلك يحدث حتى فى أفضل المؤسسات . إلا أن العمل فى أغلب الحوانيت يستمر فى تلك الأوقات دون نظام محدد ، حتى أن الفتيات لا يحصلن أبداً على أكثر من ست ساعات فى الأربع وعشرين ساعة ، للراحة والنوم ، ولا يزيد ذلك الوقت فى غالب الأحوال عن ثلاث أو أربع ساعات . وأحياناً لا يزيد فى الحقيقة عن ساعتين . إنهن يعملن من تسعة عشر إلى عشرين ساعة إن لم يكن الليل بطوله كما يحدث فى الغالب ! إن الحد النهائى الوحيد لعملهن هو العجز البدنى المطلق من إمساك الإبرة دقيقة أخرى . لقد حدثت حالات تخلع فيها هاته المخلوقات ، التى لا حول لها ، ملابسها طوال تسعة أيام وليالى متتالية ، لم يكن فى وسعهن الراحة غير لحظة هنا أو هناك ، فوق مرتبه ، حيث كان يقدم الطعام لهن جاهز التقطيع حتى لا يحتاج إلا إلى أقل وقت ممكن لابتلاعه . وفى إيجاز ، يحتفظ بتلك الفتيات البائسات بسوط معنوى يمسك به سائق العبيد الحديث . إنه التهديد بالضرب ، يحتفظ بهن فى مثل هذا الكدح الطويل الذى لا ينقطع ، والذى لا يستطيع إحتماله أى رجل قوى ، فما بالنا بالفتاة النحيلة التى يتراوح عمرها من الرابعة عشر إلى العشرين . وهى دون الرجل بكثير . يضاف إلى ذلك ، أن هواء حجرة العمل وأماكن النوم الرديئة ، والوضع المنحنى ، والطعام السىء عسر الهضم فى غالب الأحوال ، وفوق كل تلك الأسباب مجتمعه ، ساعات العمل الطويلة المرتبطة بالحرمان الكلى من الهواء الطلق تقريبا ، تتسبب فى أشد النتائج المحزنة على صحة الفتيات . ويبدأ الضعف والإنهاك والنحول وفقدان الشهية وآلام الأكتاف والأرادف والصداع خاصة ، فى سرعة شديدة ، ثم تتبع ذلك إنحناءات العمود الفقرى والأكتاف المرتفعة المشوهة والنحافة والعيون الدامعة المنتفخة والتى

يحسسن فيها بالوخز ، والتى سرعان ما تصبح قصيرة النظر ، والسعال والصدور الضيقة وقصور التنفس ، وكل اضطراب نمو التركيب العضوى للأنثى .

وفى حالات كثيرة تعانى العيون معاناة شديدة إلى حـــد ينتج العمى الذى لا براء منه . ولكن إن ظل النظر قوياً إلى حد يسمح بأن يكون العمل المتصل ممكناً ، فإن السل عادة ما ينهى الحياة الحزينة لصانعات القبعات والملابس ، وحتى هؤلاء اللواتى يتركن العمل فى سن مبكرة ، فإنهن يحتفظن بصحة قد أضيرت ضرراً دائماً ، وببنيان حطم . وهن عندما يتزوجن فإنهن ينجبن إلى هذا العالم أطفالا ضعافا ومرضى . لقد انفق كل الرجال الذين استجوبهم المندوب بأنه ليس فى الإمكان ابتكار طريقة للحياة محسوبة على نحو أفضل من تلك ، لتدمير الصحة والدفع إلى الموت المبكر .

وتستغل باقى النساء العاملات فى لندن ، بنفس القدر من القسوة وإن كان بشكل غير مباشر إلى حد ما . إن الفتيات اللاتى يعملن فى صناعة المشدات ، إنما يعملن فى حرفة صعبة مرهقة شاقة على الأعين . وأى أجر ينلن على هذا العمل؟ إننى لا أدرى ، وإن كنت أعرف أن الوسيط الذى عليه أن يقدم ضماناً للمواد المسلمة ، والذى يقوم بتوزيع العمل بين النساء العاملات بالإبرة ، يحصل على ١½ بنس عن كل قطعة ، يقوم هو بخصم ½ بنس على الأقل لحسابه ، وبذا فإن بنساً واحداً عل الأكثر سيصل إلى جيب الفتاة عن كل قطعة . إن على الفتيات اللواتى يخطن أربطة العنق أن يقيدن أنفسهن إلى العمل ستة عشر ساعة فى اليوم ، ويتقاضين ½ ٤ شلناً فى الأسبوع * . إلا أن نصيب صانعات القمصان أسوأ ، إنهن يتقاضين ½ ١ بنساً عن القميص العادى ، وكن فيما سبق ، يتقاضين من ٢ إلى ٣ بنساً ، إلا أنه منذ بدأ مشغل «سانت بانكراس» ، والذى يديره مجلس راديكالى من الأوصياء ، فى العمل بسعر ½ ١ بنساً ، فإن النساء الفقيرات فى خارجه ، قد أجبرن على فعل المثل . إن ٦ بنسات تدفع من أجل القمصان الرقيقة الجميلة ، والذى يتم صنع الواحد منها فى يوم عمل واحد طوله ثمانية عشر ساعة. إن الأجر

---

* أنظر (ويكلى ديسباتش) ١٦ مارس ١٨٤٤ .

الأسبوعى لهاته النسوة الحائكات طبقاً لهذا ، وطبقاً لشهادة أطراف عدة منها النسوة العاملات بالإبر والمستخدمين ، يتراوح ما بين ٢ شلناً و ٦ بنسات — و ٣ شلنات ، لأشد أنواع العمل إجهاداً ، والذى يستمر إلى ساعة متأخرة من الليل . إن ما يتوج هذه الهمجية المخزية ، هو حقيقة إلزام دفع هاته النسوة تأميناً مالياً على جزء من المواد التى أأتمن عليها ، وهو الأمر الذى لا يستطعن فعله بالطبع دون رهن جزء من المواد (وذلك ما يعرفه المستخدمون جيداً) وهن يفككن رهنها بالخسارة ، وأن عجزن عن فك رهن المواد ، فإنهن يقدمن إلى قاضى الصلح كما حدث لإحدى الحائكات فى نوفمبر عام ١٨٤٣ . لقد أغرقت إحدى الفقيرات نفسها فى القنال عام ١٨٤٤ عندما وقعت فى هذا الحرج ، ولم تعرف ماذا تفعل بعد ذلك . وتعيش هاته النسوة عادة فى أشد حالات الضيق فى غرف صغيرة فوق الأسطح ، حيث يكتظظن معاً بالعدد الذى يمكن لمساحة المكان أن تسمح به ، وحيث يكون دفء العمال الحيوانى ، هو الدفء الوحيد المتاح فى فصل الشتاء . هنا يجلسن منحنيات فوق عملهن ، يحكن من الرابعة أو الخامسة صباحاً حتى منتصف الليل ، مدمرين صحتهن فى عام أو اثنين ، ثم ينتهين إلى قبر مبكر دون أن يستطعن الحصول على أفقر ضرورات الحياة فى تلك الأثناء* فى الوقت الذى تتدحرج فيه عربات البورجوازية العليا المتلألئة أسفلهن ، وربما كان هنالك غندور ما على بعد عشر خطوات ، يثير الرثاء لأنه فقد فى ليلة واحدة فى لعب القمار ، مالا يزيد عما يكسبنه هن فى عام .

* * *

---

* إن «توماس هود» وهو أكثر المضحكين الانجليز المعاصرين — موهبة ملىء بالمشاعر الإنسانية ، شأنه فى ذلك شأن كل المضحكين ، وإن كان يفتقد الطاقة الذهنية . لقد نشر فى مطلع عام ١٨٤٤ قصيدة جميلة اسمها (أغنية قميص) ، أسالت دموع التعاطف الذى لا يجدى، من عيون بنات البورجوازيين . لقد نشرت تلك القصيدة أصلا فى الـ (بوتش) ثم دارت فى جولة فى كل الصحف، حيث كانت المناقشات حول حال النسوة الحائكات تملأ الصحف فى ذلك الوقت ولا أرى ضرورة لاقتباسات جديدة

هذا هو حال البروليتاريا الصناعية الانجليزية ، إننا نجد فى كل النواحى وحيثما اتجهنا ، الحاجة والمرض دائمين أو مؤقتين، وفساد الآداب النابع من حال العمال، فى كل المناحى تقويض بطىء وإن كان أمراً مؤكداً ، وتدمير نهائى للإنسان جسدياً وعقلياً . هل هذه الأوضاع التى يمكن أن تدوم ؟ إنه حال لا يمكن أن يدوم ولن يدوم . إن العمال غالبية الأمة الكبرى ، لن يصبروا عليه . دعونا نرى ماذا يقولون فى هذا الصدد .

□

يجب الاعتراف ، بأنى حتى لم اثبت تفصيلا فى غالب الأحوال ، أن العمال الإنجليز لا يستطيعون الإحساس بالسعادة وهم فى وضعهم هذا ، فإن حالهم ليس بالحال الذى يمكن فيه لرجل أو لطبقة من الرجال ، أن تفكر وتحس وتعيش كما يعيش البشر . ومن ثم فإنه على العمال أن يكافحوا للإفلات من هذا الوضع الذى يقودهم إلى الوحشية ، الأمر الذى لا يمكن القيام به دون الهجوم على مصالح البورجوازية التى تتوقف على إستغلالهم . غير أن البورجوازية تدافع عن مصالحها بكل القوة الموضوعة تحت تصرفها ، بموجب ثروتها وقوة الدولة . إن البورجوازى يصبح عدو العامل الصريح ، بقدر ما يحاول هذا الأخير تغيير الأوضاع الحالية .

يضاف إلى ذلك ، أنهم يجعلون العامل يحس فى كل لحظة بأن البورجوازية تعامله كقطعة من متاع ، كملكيتها الخاصة ، ولهذا السبب ، إن لم يكن لأى سبب آخر ، يجب عليه أن يواجهها كعدو له . لقد بينت بمئات السبل فى الصفحات السابقة ، وكان فى وسعى أن أبين بمئات أخرى ، أنه لا يمكن للعامل فى مجتمعنا الحالى ، أن ينقذ رجولته إلا بكراهية البورجوازية والثورة ضدها . كما أن فى وسعه أن يحتج بأشد عواطفه عنفا ضد استبداد الطبقة الحاكمة . شكراً لتعليمه ، أو بالأحرى لعدم تعليمه ، وغزارة الدم الايرلندى الحار الذى ينساب فى عروق الطبقة العاملة الإنجليزية . إن العامل الإنجليزى ليس إنجليزياً فى أيامنا تلك ، إنه لا يضع فى حسبانه أن يكون خطاف مال ، مثل جاره الثرى . إنه يمتلك مشاعر متطورة إلى حد كبير ، لقد تغلب تطور عواطفه الجامح ، على بروده الفطرى

الشمالى ، وتحكم فيه . إن تهذيب الإدراك ، والذى قوى إلى حد كبير ، نزعة الأنانية عند البورجوازى الإنجليزى الذى جعل الأنانية سمته السائدة ، وركز كل قواه العاطفية فى نقطة واحدة هى الشره للمال ، مفتقد عند العامل ، ومن ثم فإن عواطفه قوية وعظيمة كتلك التى للأجنبى . لقد أفنيت الجنسية الإنجليزية عند العامل .

وحيث أنه لم يترك للعامل مجال واحد يمارس فيه رجولته كما رأينا ، غير معارضته لأوضاع حياته كلها ، فإنه من الطبيعى أن يكون فى معارضته هذه بالتحديد ، أشد رجولة ونبالة ، وأكثر من يستحق التعاطف معه . ولسوف نرى أن كل طاقة العمال ونشاطهم موجه إلى هذه النقطة ، حتى محاولاتهم تحصيل تعليم عام ترتبط كلها إرتباطاً مباشراً مع هذا . حقا سيكون لدينا أفعال عنف فردية وكذا أعمال وحشية يمكن الكتابة عنها ، إلا أنه يجب أن نضع فى حسباننا على الدوام ، أن الحرب الاجتماعية فى إنجلترا تحتدم بشكل صريح . وفى حين أن مصلحة البورجوازية هى أن تسوس هذه الحرب بطريقة منافقة ، متخفية تحت إسم السلام والبذل فى سبيل الإنسانية أيضاً ، فإن العون الوحيد الذى يقدم للطبقة العاملة يتضمن تعرية حقيقة تلك الأوضاع وتحطيم هذا النفاق . إن أشد هجمات العمال عنفا على البورجوازية وخدعها ، إنما هى التعبير الوحيد السافر المكشوف، غير ذلك الذى ترتكبه البورجوازية ضد العمال سراً وبصورة مخادعة .

سرعان ما بدأ تمرد العمال بعد أول تطوير صناعى ، ثم مر هذا التمرد عبر عدة مراحل . إن بحث أهمية هذه المراحل فى تاريخ الشعب الإنجليزى أمر يتوجب على أن أبقيه لحين تناوله منفصلا ، وفى أثناء ذلك فإننى سأحصر نفسى فى حدود الحقائق المجردة ، والتى تميز حال البروليتاريا الإنجليزية .

كانت الجريمة هى أكثر تلك الأشكال تبكيراً وفجاجة ، وأقلها ثمرة . لقد عاش العامل فى فقر وعوز ، ورأى الآخرين أفضل منه حالا . لم يكن واضحا لعقله ، لماذا وهو الذى يفعل للمجتمع أكثر من الغنى الكسول ، يجب أن يعانى فى ظل هذه الظروف ، إن العوز قد قهر إحترامه الموروث لقدسية الملكية ، فسرق . لقد

رأينا كيف تزايدت الجريمة مع إتساع الصناعة ، كيف أن لعدد المقبوض عليهم سنويا ، علاقة ثابتة مع عدد بالات القطن التى تستهلك سنويا .

وسرعان ما أدرك العمال أن الجريمة لا تحل المشاكل . إن فى وسع المجرم أن يحتج ضد نظام المجتمع القائم إحتجاجا فردياً فقط ، إلا أن قوى المجتمع كلها تحمل على كل مجرم ، وتسحقه بسيطرتها الضخمة . يضاف إلى ذلك أن السرقة كانت أكثر أشكال الاحتجاج بدائية . ولهذا السبب ، إن لم يكن لأى سبب غيره ، لم تصبح أبداً وسيلة التعبير العامه للرأى العام العمالى ، مهما كانت موافقتهم الصامتة عليها أمراً كبير الإحتمال . إنهم كطبقة قد جاهدوا أول ما جاهدوا بمعارضتهم للبورجوازية عندما قاوموا إدخال الآلات فى البداية الأولى للمرحلة الصناعية . إن المخترعين الأول ، مثل « آركريت » وأخرين قد إضطهدوا بهذا الأسلوب ودمرت آلاتهم . وقامت فيما بعد عدة تمردات ضد الآلات ، تكاد أن تتماثل فى ملابساتها مع إضطرابات الطباعين فى بوهيميا عام ١٨٤٤ ، إذ خربت الآلات ودمرت .

هذا الشكل من المعارضة أيضاً ، تم التخلى عنه ، وإنحصر فى مناطق معينة ، ووجه ضد سمة واحدة فقط ، من نظمنا الإجتماعية الحالية . وعندما تحقق الهدف المرحلى ، إنهالت قوة المجتمع كلها ، بثقلها ، على العمال الأشرار الذين لا يحميهم شىء ، وأوقع بهم العقاب ، الذى بعث الرضا إلى قلب تلك القوة ، بينما الآلات تدخل دون نقص على الإطلاق . وكان لابد من العثور على شكل آخر للمعارضة .

عند تلك النقطة جاء العون على شكل قانون صدق عليه برلمان القلة الخاصة من المحافظين ، البرلمان القديم غير المقوم . قانون ماكان من الممكن أن يمر فيما بعد من مجلس العموم . لقد أقرت « لائحة الإصلاح » التمايز بين البورجوازية والبروليتاريا بصورة قانونية ، وجعلت البورجوازية هى الطبقة الحاكمة . لقد صدق على هذا القانون عام ١٨٢٤ ، وألغيت كل القوانين ، التى كانت تمنع حتى الآن ، الائتلافات العمالية من أجل أغراض العمل . لقد حصل العمال على حق ، كان من قبل قاصراً على الارستقراطية البورجوازية ، حق الاتحاد الحر . وللحقيقة ، فإن الائتلافات السرية قائمة ، لكنها لم تحقق أبداً نتائج كبيرة . ففى

« جلاسجو » وكما يروى « سيمونز »* ، حدث إضراب عام للنساجين عام ١٨١٢، وكان قد أعد له إتحاد سرى . وتكرر الإضراب عام ١٨٢٢ ، وألقى فى هذه المناسبة بحامض الكبريتيك فى وجه عاملين لم يلتحقا بالاتحاد ، ومن ثم فقد اعتبرهما الأعضاء خائنين لطبقتهما . ولقد فقد العاملان اللذان هوجما القدرة على إستخدام عينيهما إثر الإصابة . وكذا الأمر أيضاً بالنسبة لاتحاد عمال المناجم الأسكتلنديين ، الذى كان من القوة بحيث أنه دبر إضرابا عاما فى عام ١٨١٨ . كانت الاتحادات تطالب أعضاءها بأن يؤدوا قسم الإخلاص والسرية . كان لديها قوائم منظمة ، مدخرات ، محاسبين وفروع محلية . إلا أن السرية التى كانت تدار بها كل الأمور قد عوقت نموها . إلا أن هذه الاتحادات ، من ناحية أخرى ، قد إنتشرت إنتشاراً سريعاً للغاية فى كل إنجلترا . وبلغت حداً كبيراً من القوة عندما حصل العمال على حق الإتحاد الحر فى عام ١٨٢٤ . وتكونت نقابات العمال فى كل فروع الصناعة ، مجاهرة بما تنتويه من حماية العامل الفرد ضد إستبداد وإهمال البورجوازية . كانت أهدافها ، تثبيت الأجور ، التعامل مع المستخدمين جملة كقوة ، تنظيم معدل الأجور طبقاً لربح المستخدمين وأن ترفع عندما تسنح الفرصة لذلك ، وأن يحافظ عليها متماثلة فى كل صناعة فى طول البلاد وعرضها . ومن ثم ، فقد حاولوا ترسيخ معيار للأجور مع الرأسماليين ، يتم الإلتزام به عامة ، وأمروا العاملين لدى الأفراد الذين يرفضون قبول هذا المعيار ، بالإضراب وهدفوا إلى أبعد من ذلك حفاظاً على طلب العمالة ، بتقييد عدد الصبيان ، حتى يحافظ على الأجور مرتفعة بواسطة الأدوات والآلات الجديدة ، قدر المستطاع وفى النهاية ، مساعدة العمال العاطلين ، ماليا . كانت تفعل ذلك مباشرة ، وإما عن طريق بطاقة تقر شرعية حاملها « كرجل فى المجتمع » ، تبيح للعامل التجول من مكان إلى آخر مدعوما من زملائه العمال ، موجها إلى أفضل الفرص للعثور على عمل . كانت تلك صعلكة ، والمتجول صعلوك . ولوضع حد لكل ذلك ، فقد تم تعيين رئيس وسكرتير بمرتبات (حيث كان من المتوقع ألا يقوم أى صاحب مصنع بتشغيل مثل هؤلاء الأشخاص) ، وتكوين لجنة تقوم بجمع المعونات الأسبوعية ، وتراقب صرفها لأغراض الإتحاد . وعندما ثبت أن ذلك أمر ممكن

* « الصنائع والصنائعية » ص ١٣٧ وما يليها .

ومفيد ، فإن النقابات المختلفة للمناطق المنفردة ، اتحدت في اتحاد إئتلافي (فيدرالي) وعقدت مؤتمرات مندوبين ، في أوقات محددة . إن محاولة توحيد عمال فرع واحد على نطاق انجلترا كلها ، في اتحاد كبير ، قد تمت في حالات مفردة ، كما تمت عدة محاولات (لأول مرة في عام ١٨٣٠) لتكوين اتحاد النقابات العامة لكل المملكة المتحدة ، على أن يكون لكل نقابة تنظيمها المستقل. هذه الاتحادات ، على كل حال ، لم تتماسك معاً طويلا ، بل ولم تكن معروفة في حينها ، حيث يلزمها إثارة عامة غير عادية ، حتى تصبح مثل هذه الاتحادات الفيدرالية ممكنة ومؤثرة .

كانت الأساليب التي تستخدمها هذه الاتحادات عادة كالتالي : إرسال وفد أو تقديم إلتماس ، إذا رفض واحد أو أكثر من المستخدمين دفع الأجر الذي حددته النقابة ، (إن العمال ، كما ترى ، يعرفون كيف يقدرون السلطة المطلقة لسيد المصنع في ولايته الصغيرة) ، وإن أثبت ذلك عدم جدواه ، تأمر النقابة العمال بوقف العمل ، وتعود كل الأيدي العاملة إلى منازلها . إن هذا الإضراب، إما أن يكون جزئياً إذا كان الأمر مع واحد أو عدد من المستخدمين، أو عاما إذا رفض كل المستخدمين في الصنعة ، أن ينظموا الأجور طبقاً لإقتراحات النقابة . إلى هذا المدى تذهب الوسائل القانونية للنقابة مفترضة أن الإضراب سوف يكون مؤثراً بعد إنتهاء أجل المذكرة القانونية ، وهو أمر لا يحدث دائما . إلا أن هذه الوسائل القانونية تكون ضعيفة للغاية عندما يكون هنالك عمال خارج النقابة، أو عندما ينفصل عنها أعضاء بسبب مكسب وقتي قدمته البورجوازية ، ويمكن لصاحب المصنع ، خاصة في الإضرابات الجزئية ، أن يضمن في الحال ، مجندين من هذا القطيع الأسود (والمعروفين باسم عصى الفلكة) ، وبذا يجعل جهود العمال المتحدين بلا ثمرة . إن عصى الفلكة هؤلاء عادة ما يهددون ويضربون أو يسيء أعضاء النقابة معاملتهم ، وفي إيجاز ، يلقي الرعب في قلوبهم بكل السبل ، ثم يأتي التقاضي ، ولما كان القانون الدائم للبورجوازية يملك السلطة بين يديه ، فإن قوة النقابة تتحطم كل مرة تقريباً بسبب أول عمل غير قانوني ، أول إجراء قضائي ضد أعضائها .

إن تاريخ هذه النقابات إنما هو سلسلة طويلة من هزائم العمال ، تقطعها

إنتصارات قليلة منفصلة . إن كل تلك الجهود ، لا تستطيع بالطبع ، أن تغير القانون الإقتصادى الذى تتحدد الأجور بمقتضاه ، طبقاً للعلاقة بين العرض والطلب فى سوق العمالة . ومن ثم تظل النقابات عاجزة فى مواجهة كل القوى الكبرى التى تؤثر فى تلك العلاقة . إن على النقابة ذاتها فى ظل الأزمة التجارية ، أن تخفض الأجور وإلا تحللت كلية . كما أن النقابة لا تستطيع أن تحدد معدلات الأجور أعلى من تلك التى تصل إليها المنافسة التلقائية بين الرأسماليين وبعضهم البعض ، فى الوقت الذى يزيد فيه الطلب على العمالة إلى حد كبير ، إلا أنها تكون قوية عندما تواجه قوة منفردة قليلة الأهمية . كما يقوم المستخدم ، إن لم يتوقع معارضة مجمعة مركزه ، بتخفيض الأجور — لمصلحته الخاصة إلى نقطة أدنى وأدنى ، إن معركة المنافسة التى عليه خوضها ضد زملائه أصحاب المصانع . تضطره حتماً إلى فعل ذلك ، وحينئذ تصل الأجور إلى حدها الأدنى فى سرعة . إلا أن تلك المنافسة بين أصحاب المصانع وبعضهم البعض ، تقيدها معارضة العمال إلى حد ما ، فى ظل المعدل العام للأوضاع .

يعرف صاحب كل مصنع ، أن نتيجة التخفيض الذى لا تبرره الظروف ، والذى يتعرض له منافسوه بالمثل ، ستكون الأضراب ، وهو غالباً ما يضار من الاضراب على نحو مؤكد ، حيث أن رأسماله خاملا طالما ظل الاضراب قائماً ، كما سيصيب الصدأ آلاته . إن قدرته على فرض التخفيض فى هذه الحالة ، أمر مشكوك فيه تماماً ، إذ أنه على يقين من أن منافسيه سيتبعونه فى حالة نجاحه ، مخفضين سعر السلع المنتجة ، وبالتالى فإنهم سيجردونه من فائدة سياسته . إن النقابات أيضاً ، غالباً ما تحقق زيادة أسرع فى الأجور بعد الأزمة ، على عكس ما يجب حدوثه . حيث أن مصلحة صاحب المصنع هى تعطيل رفع الأجور حتى تضطره المنافسة إلى ذلك . إلا أن العمال يطالبون الآن بزيادة الأجر ، بمجرد أن تتحسن حال السوق ، وهم قادرين على تقديم مطلبهم بحجة صغر إحتياطى العمال الذى تحت تصرف صاحب المصنع فى مثل تلك الظروف . إلا أن النقابات لا حول لها ، إن كان الأمر يقتضى مقاومة قوى أكثر أهمية ، قوى لها تأثيرها فى سوق العمالة . إذ يدفع الجوع المضربين فى مثل تلك الحالات ، إلى إستئناف العمل بأية شروط ، وما تبدأه قلة منهم مرة واحدة ، حتى تتحطم النقابة ، حيث

أن هذه القلة من عصى الفلكة ، بالإضافة إلى الإحتياطى المدخر من البضائع فى السوق يمكنان البورجوازيه من التغلب على أسوأ تأثيرات توقف العمل . وسرعان ما تستنفذ مدخرات النقابة ، بسبب الأعداد الكبيرة ممن يطلبون المعونة، ويسحب أصحاب المتاجر ما كانوا يقدمونه من قروض بفائدة كبيرة ، بعد فترة من الوقت . وتضطر الحاجة العامل إلى أن يضع نفسه مرة أخرى تحت نير البورجوازية . إلا أن الاضرابات غالباً ما تنتهى بكارثة على العمال ، لأن أصحاب المصانع يجبرون فى سبيل مصلحتهم (والتى دعنا نقول أنها قد غدت مصلحتهم فقط ، على ضوء مقاومة العمال) على تجنب كل التخفيضات التى لا جدوى منها ، بينما يحس العمال بتدنى حالهم مع كل تخفيض يفرض عليهم بسبب حالة التجارة ، الأمر الذى يجب أن يحموا أنفسهم فى مواجهته ، بقدر ما فيهم من قدرة .

وسيسأل سائل : « لماذا إذن ، يضرب العمال فى مثل تلك الحالات ، التى تكون فيها عدم جدوى المعايير واضحة بهذا الشكل ؟ إن الأمر ببساطة ، هو أنهم يجب أن يحتجوا ضد كل تخفيض حتى وإن كانت تمليه الضرورة ، إذ أنهم كبشر ، مضطرين للإعلان عن أنهم لن يوضعوا فى وضع ينحنون فيه للظروف ، بل إنهم كبشر . يجب أن تخضع لهم الظروف الإجتماعية ، حيث أن الصمت من جانبهم ، إنما هو تسليم لهذه الأوضاع الاجتماعية ، وإقرار بحق البورجوازية فى إستغلال العمال فى الأوقات الطيبة ، وتركهم يموتون جوعاً فى الأوقات السيئة . على العمال أن يتمردوا ضد هذا ، طالما لم يفقدوا شعورهم الإنسانى . إن إحتجاجهم بهذه الطريقة ، وليس بطريقة أخرى ، إنما يرجع إلى أنهم شعب إنجليزى عملى ، يعبر عن نفسه بالحركة . إنهم ليسوا مثل المنظرين الألمان ، الذين يذهبون إلى النوم فور تسجيل إحتجاجهم كما يجب ، ووضعه فى الملف حيث ينام فى هدوء كما ينام المحتجون أنفسهم ، أن للمقاومة النشطة للعمال الانجليز تأثيرها فى إمساك جشع البورجوازيه للمال فى حدود معينة ، وتحافظ على معارضة العمال للهيمنة الاجتماعية والسياسية للبورجوازية ، حية ، بينما تفرض الاقرار ، بأن شيئاً أكبر من النقابات العمالية والاضرابات ، مطلوب لتحطيم قوة الطبقة الحاكمة . إلا أن ما يعطى هذه النقابات وتلك الاضرابات الناشئة عنها ، أهميتها الحقيقية ، هى أنها أول محاولة للعمال لمحو المنافسة . إنها تتضمن إدراك حقيقة ، أن سيادة البورجوازية إنما تقوم بشكل كلى على منافسة العمال لبعضهم البعض ، أى على

افتقادهم للتماسك . إن النقابات توجه نفسها بالتحديد ، ضد العصب الحيوى للنظام الإجتماعى ، ولذا فإنها خطرة للغاية على هذا النظام الإجتماعى ، مهما كان هذا التوجه أحادى الجانب ومهما كان ضيق الطريق ، إن العمال لا يستطيعون مهاجمة البورجوازية ومعها كل النظام الإجتماعى القائم ، فى موضع أكثر إيلاما من هذا الموضع ، إذ لو تحطمت منافسة العمال لبعضهم البعض ، وصمم الجميع على ألا يستغلوا من البورجوازية إلى مدى أبعد من ذلك ، فإن حكم الملكية يكون فى نهايته . إن الأجور تتوقف على علاقة العرض بالطلب ، على حالة سوق العمالة الطارئة ، ويرجع ذلك فى بساطة ، إلى أن العمال قد إرتضوا حتى الآن ، أن يعاملوا كالمتاع ، أن يباعوا ويشتروا . إن اللحظة التى يصمم فيها العمال على ألا يباعوا ويشتروا بعدئذ ، وأن يلعبوا دور الرجال الذين يمتلكون إرادة — مثلما هم قوة عاملة — عند تقرير قيمة العمالة ، سوف تكون اللحظة التى يكون فيها كل الإقتصاد السياسى القائم الآن ، فى نهايته .

حتماً ، إن القوانين التى تقرر معدل الأجور تصبح سارية المفعول فى المدى الطويل ، إن لم يتخطى العمال خطوة محو المنافسة فيما بينهم . إلا أنه يجب عليهم تجاوز ، ما لم يكونوا معدين للتراجع مرة أخرى ، والسماح للمنافسة بأن تعاود الظهور فيما بينهم . إنهم ما داموا قد تقدموا إلى هذه المدى مرة ، فإن الضرورة تفرض عليهم أن يسيروا إلى أبعد من ذلك ، أن يمحوا ليس فقط صورة واحدة من صور المنافسة ، بل المنافسة ذاتها كلية ، وهذا ما سوف يصنعون .

إن العمال سيدركون بصورة أكثر وضوحاً ، مع مرور كل يوم ، كيف تؤثر المنافسة عليهم . إنهم يرون بوضوح أكثر من البورجوازى ، أن المنافسة بين الرأسماليين بعضهم البعض ، إنما تضغط على العمال أيضاً بجلب الأزمات التجارية ، وأن هذا النوع من المنافسة أيضاً ، يجب محوه . إنهم سيتعلمون فى القريب ، كيف يتوجب عليهم خوض ذلك أيضاً .

إن كون هذه النقابات تعاون إلى حد كبير ، فى تغذية كراهية العمال المرة ضد الطبقة القابضة على الملكية ، أمر يصعب قوله . وبالتالى ، فإن صدور أعمال فردية عن العمال ، سواء كانت بتواطىء أعضاء قياديين أو عدم تواطئهم ، إنما

يمكن تفسيرها فقط ، بسبب الكراهية التى صنعتها ذروة اليأس ، وبسبب عاطفة وحشية تتغلب على كل الضوابط . إن هجمات حامض الكبريتيك التى ذكرت فى الصفحات السابقة ، وسلسلة من هجمات أخرى ، سأستشهد بالعديد منها ، هى من هذا النوع . فقد أطلق الرصاص ، خلال حركة عمالية عنيفة فى عام ١٨٣١ ، على الشاب « آشتون » صاحب مصنع فى « هايد » قرب « مانشستر » ، ولم يكتشف أى أثر للقاتل. لاشك أن هذا العمل كان عملا إنتقامياً من جانب العمال. إن الحرائق العمد ، ومحاولات النسف أمر شائع للغاية . لقد تمت يوم الجمعة ٢٩ سبتمبر عام ١٨٤٣ . محاولة نسف ورش « بادجين » لنشر الأخشاب فى شارع « هوارد » فى « شيفيلد » . كانت الوسيلة المستخدمة هى أنبوبة مسدودة ملئت بالمسحوق ، وكان الضرر جسيما . وتمت فى اليوم التالى محاولة مماثلة فى ورش « ابيتسون » للسكين والمبرد فى « شالزمور » قرب « شيفيلد » لقد جعل مستر « إبيتسون » من نفسه شخصاً ممقوتاً باشتراكه الفعال فى حركات البورجوازية ، بدفعه أجور منخفضة ، وباقتصاره على تشغيل العمال عصى الفلكة ، وباستغــــلاله قانون الفقراء لمنفعته الخاصة . لقد كتب خلال أزمة ١٨٤٢ ، بأن هؤلاء العمال الذين يرفضون تخفيض الأجور ، وهؤلاء الأشخاص الذين يمكن أن يجدوا عملا لكنهم لايشغلوه ، لايستحقون المعونة بالتالى ، مما أجبرهم على قبول التخفيض . لقد أحدث الإنفجار ضرراً بالغاً ، كما أن العمال الذين تصادف ورأوا هذا الإنفجار ، قد أسفوا فقط « لأن كل هذا المكان لم يتطاير فى الهواء » . وتمت يوم الجمعة ٦ أكتوبر عام ١٨٤٣ محاولة لإشعال النيران فى مصنع « اينسورث وكرومبتون » ، فى « بولتون » ، ولم ينتج عنها أية خسائر . كانت المحاولة الثالثة أو الرابعة فى نفس المصنع خلال فترة زمنية قصيرة . وفى يوم الاربعاء ١٠ يناير ١٨٤٤ عرض مأمور الشرطة فى اجتماع مجلس مدينة « شيفيلد » آلة من حديد الزهر ، صنعت بغرض خاص ، لإحداث التفجير ، وقد وجدت مليئة بأربعة أرطال من المسحوق ، وفتيل مفرقعات كان قد أشعل ، فى ورش مستر « كيتشن » ، « ايرل ستريت » و« شيفيلد » ، إلا أن مفعوله لم يتحقق . وفى يوم الأحد ٢٠ يناير عام ١٨٤٤ وقع انفجار ناتج عن ربطة مسحوق فى مصنع « بنتلى وهوايت » لنشر الأخشاب فى « بورس » فى « لانكشاير » ، وقد نجمت عنه خسائر فادحة . وفى يوم الثلاثاء ١ فبراير ١٨٤٤ إشتعلت النيران فى ورش « سوهو » للعجلات ، واحترقت الورش كلها .

هنالك ست حالات مماثلة لتلك الحالات ، حدثت خلال أربعة شهور ، ولكل حالة من تلك الحالات أساسها الخاص بها ، من مرارة العمال ضد المستخدمين . انني لأجد صعوبة فى الحديث ، عن نوع الوضع الاجتماعى الذى تصبح فيه مثل هذه الأمور ممكنة . إن هذه الحقائق لبرهان كاف ، على أن الحرب الاجتماعية فى انجلترا ، حتى فى سنوات العمل الجيد مثل عام ١٨٤٣ « هى حرب معلنة ومستمرة بطريقة صريحة ، فى الوقت الذى ما زالت فيه البورجوازية الانجليزية لا تتوقف لتمعن التفكير ! . إلا أن الحادثة التى أحدثت دوياً أكثر من غيرها ، إنما هى حادثة قتلة « جلاسجو » المأجورين * ، والتى قدمت أمام محكمة الجنايات العليا من ٣ إلى ١١ يناير عام ١٨٣٨ . ويظهر من المحاكمة أن اتحاد غزالى القطن والذى وجد هنا واستمر منذ عام ١٨١٦ ، كان يمتلك قوة وتنظيما نادر الوجود . كان الأعضاء ملتزمين بقسم أن يلتزموا بقرار الأغلبية ، وكان لديهم فى كل اعتصاب عمالى ، لجنة سرية غير معروفة لجمهرة الأعضاء ، لجنة تتحكم تحكماً مطلقاً فى المدخرات المالية . ولقد حددت تلك اللجنة سعراً لرأس كل من عصى الفلكة ، وأصحاب المصانع الممقوتين ، وللحرائق العمد فى المصانع . وبناء على ذلك ، فقد أشعلت النار فى مصنع كانت تعمل به إناث من هاته العصى ، بدلا من الرجال فى عملية الغزل . لقد أغتيلت مسز « م . فيرسون » ، أم واحدة من هاته الفتيات ، وأرسل القاتلان إلى أمريكا على نفقة الاتحاد . وفى فترة مبكرة من عام ١٨٢٠ أطلق الرصاص على واحدة من عصى الفلكة . تدعى « م كوارى » فجرحت ، وقد حصل الفاعل على عشرين جنيهاً مقابل فعلته . وفيما بعد أطلق الرصاص على من يدعى « جراهام » وتسلم الفاعل عشرين جنيهاً ، إلا أن أمره انكشف ، ونفى مدى الحياة . وأخيراً وقعت فى مايو عام ١٨٣٧ ، إضطرابات نتيجة اعتصاب عمال مصانع « أوتباتك » و « مايل إند » ، والتى أوذى فيها دستة من عصى الفلكة تقريباً . واستمرت الإضطرابات حتى يوليو من نفس العام ، واعتدى على واحد من عصى الفلكة يدعى « سميث » إلى حد الموت . والآن قبض على اللجنة ، وبدىء التحقيق معها ووجد أن الأعضاء القياديين مدانين بالاشتراك فى المؤامرة على عصى الفلكة

* أخذوا هذا الاسم عن قبيلة الهند الشرقية ، والتى كانت حرفتها الوحيدة هى قتل كل أجنبى يقع فى يديها .

وإيذائهم ، وإشعال الحرائق العمد فى مصنع «جيمس وفرانسيس وود» ، فنفوا لمدة سبع سنوات. ماذ يقول مواطنونا الألمان الطيبون عن هذه القصة ؟ * .

إن الطبقة القابضة على الملكية وخاصة القسم الصناعى منها ؛ والذى له اتصال مباشر بالعمال ؛ يندد أعنف التنديد بالنقابات ؛ ويحـــاول دوماً إثبات عدم جدواها للعمال على أسس إقتصادية سليمة ، لكن حيث أن هذا السبب بالذات خاطىء جزئياً ، وبسبب فهم العمال ، فإنه لا تأثير البته له عليهم . إن حماس البورجوازية بالذات ، يوضح أنها ليست منزهة عن الغـــرض بخصوص هذه المسألة ، إذ فضلا عن الخسارة المباشرة التى يتضمنها اعتصاب العمال فإن وضع المسألة هو أنه مهما كان ذلك الذى يدخل جيوب أصحاب المصانع ، فإنه ناتج عن ضرورة غير تلك التى للعمال . إذ حتى لو لم يعرف العمال أن النقابات تتمسك بالتفوق على سادتهم فى قضية تخفيض الأجور ، على الأقل بمعيار ما ، بعملية منع ما ، فإنهم سيقفون إلى جوارها ، وذلك فى بساطة ، للإضرار بأعدائهم أصحاب المصانع . إن الإضرار بفريق فى الحرب ، هو كسب للفريق الآخر ، وحيث أن العمال فى حالة حرب ، فى مواجهة مستخدميهم ، فإنهم لا يفعلون غير ما يفعله الصولة الكبار عندما ينغمسون فى مشاجرة ما .

ويقف صديقنا دكتور « أور » ، أشد أعداء النقابات شراسة ؛ خلف كل البورجوازيين الآخرين . إنه يرغى ويزيد على « المحاكم السرية » لغزالى القطن ؛ أقوى قطاع من العمال . تلك المحاكم التى تتباهى بقدرتها على شل كل عاق من

---

* « أى نوع من العدالة الوحشية يمكن أن يكون كامناً فى قلوب هؤلاء الرجال ، يحفزهم ، وقد بيتوا النية ، فى اجتماعات سرية ، على إدانة أخيهم العامل ، كهارب من طبقته وقضية طبقته ، وأن يموت ميتة الخائن الهارب ، وأن يهدم بطريقة سرية ، بعد أن حكم عليه غيابياً دون قاضى علنى أو جلاد « كفرسان الفهمجريخت والمحكمة السرية » التى كانت لديكم ، إنها تبعث فجأة فى هذا الثوب القريب ، فجأة تهب مرة أخرى أمام العين الذاهلة ، إنهم لا يرتدون الآن قصاناً مدرعة ، لكن سترات من قماش قطنى وبرى ، انهم لا يجتمعون الإن فى غابات « وستفاليا » . ولكن فى دروب الإعدام المهدة فى « جلاسجو » ! إن هذا المزاج لابد وأن يكون سما واسع الانتشار بين الكثيرين، حتى عندما يتخذ فى ذروه سوءه ، مثل هذه الصورة بين القلة» . — « كارايل» ، «الميثاقية» ص ٤٠ .

أصحاب المصانع* ، وبذا يجلبون الخراب للرجل الذى أعطاهم عملا مربحا لسنوات عدة » . إنه يتحدث عن زمان** « كان كل الأعضاء المتمردين والأدنى مكانة يستعبدون كل رأس حاذق مخترع وكل قلب يدعم الصناعة » . من المؤسف أن العمال الإنجليز لن يتركوا أدعائك الكاذب وأسطورتك تقودهم إلى الإستكانة بسهولة ، كما فعل عامة الرومان ، أنت يا « مينينيوس أجريبا(١٧) » الحديث . وهو يروى فى النهاية ما يلى : حدث فى وقت من الأوقات أن أساء الغزالون الذين يعملون على آلة الغزل الخشن ، استخدام قوتهم إلى مدى أبعد من كل احتمال . إن ما يحصلون عليه من أجور عالية ، قد أدى إلى الزهو فى كثير من الأحوال ، ووفر لهم مدخرات تدعم المتمردين خلال الإضرابات التى زاروا بها عددا من أصحاب المصانع واحدا بعد الآخر ، بطريقة تعسفية للغاية ، بدلا من أن توقظ فيهم تلك الأجور الشعور بالعرفان نحو أصحاب المصانع ، وتقودهم إلى تحسين ثقافتهم (فى دراسة للعلوم التى لا ضرر منها والتى تفيد البورجوازية بالتأكيد) . لقد حدث أثناء واحد من تلك الإضرابات الكئيبة فى « هايد » ، « دوكينفيلد » والضاحية المحيطة بها ، أن توجه أصحاب مصانع المنطقة ، وهم يحسون القلق ، مخافة أن يزيحهم الفرنسيون والبلجيكيون والأمريكيون من السوق ، إلى مصانع « شارب ، روبرتس وشركاهم » للآلات ، والتمسوا من مستر « شارب » أن يوجه مهارته العقلية فى الاختراع ، نحو آلة غزل أوتوماتيكية ، يمكن أن « تحرر الصنعة من العبودية الحاقدة والدمار الوشيك »***

« لقد انتج فى غضون أشهر قليلة آلة تزخر ، بصورة واضحة ، ويفكر وإحساس وحصافة العامل المحنك — آلة قدمت وهى ماتزال فى طفولتها ، مبدأ جديدا فى التنظيم ، وأبدت استعدادها ، فى حالة نضجها ، للقيام بوظائف غزال تام الإعداد . وهكذا فإن (الرجل الحديدى) ، كما سماها العمال عن حق ، إنطلق من أيدى رجالنا « بروميثيوس » الحديث بناء على دعوة « مينيرفا » — ليؤكد

---

* دكتور « أور » « فلسفة الصناعات » ص ٤٠ .

** نفس المصدر ص ٢٨٢ .

*** نفس المصدر ص ٣٦٧ .

هيمنة بريطانيا العظمى على المهارة الفنية . إن أخبار هذه المعجزة « الحرقلية » قد نشر الرعب عبر النقابة ، لقد صرعت « هيدرا » الشغب والفوضى ، حتى قيل أن تترك مهدها بوقت طويل ، بل وحتى قبل أن تتكلم »* .

ويذهب « أور » أبعد من ذلك ، ليبرهن على أن اختراع الآلة التى تطبع أربعة أو خمسة ألوان دفعة واحدة ، إنما كان نتيجة إضطرابات حدثت بين طباعى البفته. أن تمرد العاملين فى تسوية خيوط الغزل فى الأنوال الآلية لمصانع النسيج قد أثار مسألة آلة جديدة متقنة لتسوية سداة النسيج ، كما يذكر الكثير من الحالات الأخرى المماثلة . ويجهد « أور » نفسه كثيراً قبل هذا بصفحات قليلة ليبرهن بالتفصيل ، على أن الآلات مفيدة للعمال ! إلا أن « أور » ليس الوحيد فى ذلك المضمار. إن مستر « آشوورث » وآخرين عديدين ، لا يتركون فى « تقرير المصنع» فرصة إلا وعبروا فيها عن سخطهم على النقابات. إن هؤلاء البورجوازيين الحكماء ، مثل بعض الحكومات المعينة ، يرجعون كل حركة لا يفهمونها إلى تأثير المهيجين ذوى النية السيئة ، المضللين ، الخونة والبلهاء والمندفعين والشباب غير المتزن . إنهم يعلنون أن العملاء الذين تدفع لهم النقابات، لهم مصلحة فى أعمال الإثارة والتهييج ، لأنهم يعيشون عليها . وكأن الحاجة إلى هذا الدفع لم تكن مفروضة عليهم من قبل البورجوازية ، التى لن تعطى لمثل هؤلاء الرجال أى عمل !

إن تعدد هذه الإضرابات بصورة لا يمكن تصديقها ، إنما يثبت أفضل من كل شىء ، إلى أى مدى قد نشبت الحرب الإجتماعية فى طول إنجلترا وعرضها . حقا لا يمر أسبوع ، بل بالكاد يوم ، دون أن يقع إضراب فى إتجاه ما ، مرة ضد التخفيض ، ثم ضد رفض معدل الأجور ، ومرة أخرى بسبب تشغيل عصى الفلكة أو استمرار سوء المعاملة ، وأحياناً ضد الآلات الجديدة أو لمائة سبب آخر . إن هذه الإضرابات تبدأ كمناوشات ، تصل أحيانا إلى صراعات خطيرة . حقاً إنها لا تحسم شيئاً ، إلا أنها أقوى دليـــل على أن المعركة الحاسمة بين البورجوازية والبروليتاريا تقترب . إنها المدرسة العسكرية التى يعد العمال فيها أنفسهم للصراع الكبير الذى لا يمكن تجنبه . إنها إعلان من فروع مفردة فى الصناعة بالإلتحاق بالحركة العمالية أيضاً . إن فحص ودراسة ملف جريدة « نورثن

---

* نفس المصدر ص ٣٦٦ وما يليها .

ستار » — وهى الصحيفة الوحيدة التى تكتب عن كل حركات البروليتاريا — خلال عام ، يوضح أن كل بروليتارى الصناعة فى المدن والريف قد اتحدوا فى اتحادات ، وأنهم قد احتجوا من وقت لآخر ضد سيادة البورجوازية ، باستخدام أشكال من الإضراب العام . إن النقابات ، مثلها مثل مدارس الحرب ، ليست فريدة . لقد نمت فيها الشجاعه التى اختص بها الإنجليز . يقال فى القارة ، أن الإنجليز وخاصة العمال جبناء ، إنهم لا يستطيعون الاستمرار بالثورة ، لأنهم على خلاف الفرنسيين ، لا يثورون هنا وهناك ، لأنهم بوضوح ، يقبلون النظام البورجوازى فى هدوء . إن هذا خطأ تام . إن الانجليز لا يضارعهم أحد فى شجاعتهم ، إنهم متبرمين مثل الفرنسيين تماما ، إلا أنهم يحاربون بطريقة مختلفة . إن الفرنسيين ، الذين هم بطبيعتهم سياسيين ، يناضلون ضد آثام المجتمع بأسلحة سياسية ، أما الإنجليز ، والذين قامت السياسة لديهم كموضوع مصلحة فقط ، مصلحة المجتمع البورجوازى وحده ، فقد حاربوا ضد البورجوازية مباشرة وليس ضد الحكومة ، وفى الوقت الحالى ، لا يمكن القيام بهذا إلا بأسلوب سلمى . إن ركود العمل والعوز الناجم عنه قد أوجد الثورة لمصلحة الجمهورية فى « ليون » عام ١٨٣٤ : ولقد أثار سبب مماثل فى « مانشستر » عام ١٨٤٢ ، إعتصاب عمالى عام ، من أجل ميثاق للحقوق ، ومن أجل زيادة الأجور . إن الشجاعة مطلوبة لاعتصاب العمل ، إنها فى الحقيقة شجاعة أعلى بكثير ، وأجسر بكثير ، وتحتاج إلى تصميم أشد ، من خروج ما على السلطة القائمه . إن هذا الأمر يوضح نفسه بنفسه . إنه ، فى الحقيقة ، ليس بالأمر التافه لعامل يعرف العوز من تجربته ، أن يواجهه هو وزوجته وأطفاله ، وأن يواجه الجوع والشتاء معا لشهور ، ويقف خلال ذلك كله ، صلباً لا يهتز . ما هو الموت ، ما هى المكارة التى تنتظر الثائر الفرنسى ، إن قورنت بالموت جوعا بالتدريج ، بالمنظر اليومى لعائلة تموت جوعا ، باليقين من إنتقـــام البورجوازية مستقبلا ؟ إن العامل الإنجليزى يختار كل ذلك ، مفضلا أياه عن الخضوع لنير الطبقة المسكة بالملكية . إننا سنلتقى فيما بعد ، بمثال آخر من أمثلة عناد الرجال هذا ، وشجاعتهم التى لا تقهر ، هؤلاء الذين لا يخضعون للقوة ، إلا عندما تغدو المقاومة بلا هدف ولا معنى ، إن العامل الإنجليزى ، ينمى بالتحديد ، فى ظل تلك المثابرة وهذا التصميم المتين الذى يمر كل يوم بمئات الاختبارات ، ذلك الجانب من شخصيته

الذى يفرض أكبر قدر من الاحترام . إن الرجال الذين يكابدون كثيراً على هذا النحو ، من أجل ثنى بورجوازى واحد ، سيكونون قادرين على تحطيم البورجوازية كلها .

إلا أن العامل الإنجليزى قد برهن ، إلى جانب ذلك ، على شجاعته مراراً كافية . إن كون إعتصاب العمال فى عام ١٨٤٢ ، لم يحقق مزيداً من النتائج ، إنما يرجع إلى حقيقة أن البورجوازية قد أجبرت الرجال عليه ، وجزئياً إلى أنهم لم يكونوا واضحين أو متحدين حول الغرض منه . لكنهم أظهروا ، إلى جانب ذلك ، شجاعة كافية فى مرات عديدة ، عندما كانت المسألة المطروحة ، مسألة إجتماعية خاصة . إننى لن أتناول هنا تمرد « ولش » عام ١٨٣٩ ، فقد نشبت فى مايو من عام ١٨٤٣ معركة كاملة فى « مانشستر » أثناء إقامتى هناك . لقد قامت شركة بولينج وهنفرى » للقرميد بزيادة حجم القرميد المنتج دون أن تزيد الأجور . وأضرب العمال الذين رفضت مطالبهم بزيادة الأجور ، وأعلنت نقابة صانعى القرميد الحرب على الشركة . ونجحت الشركة فى تلك الأثناء ، وبعد صعوبة كبيرة ، فى توفير الأيدى العاملة من المناطق المجاورة ، ومن العمال عصى الفلكة ، والذين إستخدم الإرهاب معهم فى البداية ، واستخدم أصحاب الشركة إثنى عشر رجلا لحراسة الساحة ، كانوا كلهم من الجنود السابقين ورجال الشرطة المسلحين بالبنادق. وعندما أثبت الإرهاب أنه غير مجد ، إقتحمت جمهرة من صانعى القرميد فى أحد الامسيات فى الساعة العاشرة ، ساحة القرميد ، والتى تقع على وجه التقريب على بعد مائة خطوة من معسكر لجنود المشاة ، لقد تقدموا فى نظام عسكرى وقد تسلحت صفوفهم الأولى بالبنادق * ، وشقوا طريقهم إلى الداخل ، مطلقين الرصاص على العمال بمجرد أن رأوهم ، ثم داسوا القرميد المنشور كى يجف ، وهدموا صفوف القرميد الذى جف بالفعل ، مقوضين كل شىء فى طريقهم ، ثم حملوا على واحد من الابنية ، حيث دمروا الأثاث ، وأساءوا معاملة زوجة المشرف الذى كان يعيش هناك . وكان الحراس فى تلك الأثناء قد احتموا خلف سياج ، حيث يمكنهم أن يطلقوا النار وهم آمنين دون أن يعيقهم عائق . وكان

* عند ناصية « كروس لين » و« ريجينت رود » أنظر خريطة (مانشستر) (ملحوظة فى الطبعة الألمانية)

المهاجمون يقفون أمام قمينة حرق القرميد ، وهى تلقى بضوئها الساطع عليهم ، مما جعل كل طلقة من أعدائهم تصيب هدفها ، بينما كل طلقة من طلقاتهم تخطىء هدفها ، ومع ذلك ، فقد دام إطلاق النار نصف الساعة ، حتى نفدت الذخيرة ، وتحقق الغرض من الزيارة ألا وهو تقويض كل شيء قابل للإتلاف فى الساحة. ثم تقدم العسكر ، وانسحب صانعوا القرميد إلى « إكلس » وهى تبعد ثلاثة أميال عن « مانشستر » . وقبل الوصول إلى « إكلس » بفترة قصيرة ، تليت قائمة الأسماك ، ونودى على كل رجل طبقاً لرقمه فى القسم التابع له ، ثم تفرقوا ، ليصبح سقوطهم ، فى أيدى الشرطة التى كانت تتقدم من جميع الجهات ، أمراً مؤكداً . لابد أن عدد الجرحى كان جسيما للغاية ، إلا أن الذين أمكن عدهم ، هم أولئك الذين قبض عليهم ، وكان أحد هؤلاء قد تلقى ثلاث رصاصات (واحدة فى الفخذ والثانية فى سمانة الرجل والثالثة فى الكتف) ، ورغم كل ذلك فإنه قد سار على قدميه أكثر من أربعة أميال . لقد أثبت هؤلاء الرجال أيضاً ، أنهم يمتلكون شجاعة ثورية ، وأنهم لا يهربون من الرصاص المنهمر عليهم كالمطر . وعندما تحجز جماعة غير مسلحة ، دون أن يكون لأفرادها هدف عام محدد ، من مكان السوق المعزول ، وقد حرست مخارجه بزوج من رجال الشرطة والفرسان ، كما حدث فى عام ١٨٤٢ ، فإن هذا الأمر يثبت دون شك ، إفتقاد الشجاعة . إلا أن العكس هو الصحيح ، ذلك أن تلك الجماعة كان من الممكن أن تتحرك حركة محدودة ، لو لم يكن خدم النظام العام (أى خدم البورجوازية) موجودين . إن العمال يبدون شجاعة كافية عندما يكون لهم هدف محدد يسعون إليه ؛ كما حدث مثلاً فى الهجوم على مصنع « بيرلى » ، والذى كان لابد من حمايته فيما بعد بإستخدام المدفعية .

وفى هذا الصدد ، هنالك كلمة أو إثنين بخصوص القانون فى إنجلترا . حقيقة أن القانون مكرس للبورجوازى ، لأنه من تأليفه الخاص ؛ شرع برضاه ، لمصلحته ولحمايته . أنه يعرف ، حتى إن كان هنالك قانون خاص يمكن أن يضير به ، فإن كل النسيج يحمى مصالحه ، وأكثر من ذلك ، فإن قدسية القانون ؛ وحرمة النظام ، كما أسست بالإرادة النشطة لفريق واحد من المجتمع ، والقبول السلبى من الفريق الآخر ، إنما تشكل أكبر دعامة لوضعه الإجتماعى . وحيث أن البورجوازى الإنجليزى يجد فى قانونه ، كما يجد فى إلهه ، صورة طبق الأصل

من ذاته ، فإن هراوة رجل الشرطة ، والتي هي بمعيار معين نبوته الخاص ، تمثل بالنسبة له قوة رائعة للتهدئة . إلا أنها عكس ذلك تماماً بالنسبة للعامل . إن العامل يدرك بصورة جيدة للغاية ، وقد تعلم من خبرته التي تتكرر مراراً ، أن القانون إنما هو عصا أعدتها البورجوازية له ، وأنه أن لم يكن مضطراً للجوء إلى القانون فإنه لا يفعل ذلك أبداً . إن البعض يزعم أن العامل الإنجليزي يخاف الشرطة ، وهذا أمر مسير للسخرية ، إذ أن رجال شرطة « مانشستر » يضربون أسبوعياً ، ولقد تمت في العام الماضي ، محاولة لإقتحام مخفر شرطة كان مؤمناً بأبواب ونوافذ حديدية . إن قوة الشرطة في اعتصاب العمال عام ١٨٤٢ ، تكمن كما قلت ، في افتقاد العمال أنفسهم إلى غرض واضح التحديد .

وحيث أن العمال لا يحترمون القانون ، إلا أنهم ببساطة يذعنون لقوته عندما لا يستطيعون تغييره ، فإنه من الطبيعي تماماً ، أن يقترحوا على الأقل ، إجراء تغييرات به ، وأن يرغبوا في وضـــع قانون بروليتاري مكان النسيج القانوني للبورجوازية . إن هذا القانون المقترح هو « ميثاق الشعب » ، وهو عمل سياسي تماماً من ناحية الشكل ، ويطالب بأن يقوم مجلس العموم على أسس ديمقراطية . إن « الميثاقية » هي الشكل المتماسك لمعارضتهم للبورجوازية . لقد ظلت معارضة النقابات واعتصابات العمال منفصلة على الدوام : كانت الحرب حرباً منفردة لعمال أو لقطاعات منهم ، ضد بورجوازي فرد . وإن تحدث الحرب عامة ، فإن ذلك أمر يندر أن يقوم به العمال عن عمد ، وإن حدث وكان مقصوداً ، فإنما يرجع ذلك إلى أن « الميثاقية » كانت هناك في أعماقه . كانت الطبقة تهب كلها «بالميثاقية» ضد البورجوازية ، وتهاجم قبل كل شيء ، القوة السياسية ، المتراس التشريعي الذي تحيط البورجوازية به نفسها . لقد انبثقت « الميثاقية » من « الحزب الديمقراطي» الذي نشأ مابين عام ١٧٨٠ و ١٧٩٠ ، مع البروليتاريا ومن داخلها ، واكتسب قوة خلال الثورة الفرنسية ، وظهر « كالحزب الراديكالي » بعد السلام . لقد كان مقر رئاسته حينذاك في « برمينجهام » و « مانشستر » ، ثم في « لندن » فيما بعد ، وانتزع « لائحة الإصلاح من القلة الحاكمة في البرلمان القديم » باتحاده مع البورجوازية الليبرالية ، وثبت أكثر فأكثر منذ ذلك الحين ، كحزب صريح للطبقة العاملة في مواجهة البورجوازية . وفي عام ١٨٣٥ ، كتبت لجنة الاتحاد العام للعمال في لندن ، برئاسة « ويليام لوفيت » ، « ميثاق الشعب » ، الذي اشتمل

على النقاط الست التالية : (١) التصويت العام لكل رجل بلغ السن ، صحيح العقل وغير مدان فى جريمة ما . (٢) برلمانات سنوية . (٣) مرتبات لأعضاء البرلمان ، لتمكين الرجال الفقراء من الترشيح للإنتخابات . (٤) التصويت بالاقتراع السرى لمنع الرشوة وإرهاب البورجوازية . (٥) مناطق انتخابية متساوية لضمان تمثيل متساو . (٦) إلغاء صلاحية الملكية العقارية بـ ٣٠٠ جنيهاً استرلينياً للعضو ، وحتى إن كان هذا الأمر الآن مجرد أمر اسمى فقط ، حتى يصبح كل ناخب صالحاً للإنتخاب . إن هذه النقاط الست والتى ترتبط كلها بمجلس العموم ، والتى لا ضرر منها كما تبدو ، لكافية للإطاحة بكل الدستور الانجليزى ، بما فيه الملكية واللوردات . إن ما تسمى بمواد الدستور الملكية والارستقراطية ، يمكنها الحفاظ على نفسها فقط ، لأن للبورجوازية مصلحة فى استمرار وجودها الصورى ، وهى لا تملك الآن أكثر من هذا الوجود الصورى. ولكن ، إن ساند رأى عام حقيق مجلس العموم ، وإن وحد مجلس العموم الإرادة، لا إرادة البورجوازية وحدها ولكن إرادة الأمة كلها، فإنه سيستوعب السلطة كلها تماماً ، حتى أن الهالة الأخيرة على رأس الملكية والارستقراطية لا بد وأن تسقط . إن العامل الانجليزى لا يحترم أى من الملكية أو اللوردات . أما البورجوازية فإنها تقدم لهم تكريماً شخصياً صورياً، رغم أنها فى الواقع لا تسمح لهم إلا بنفوذ ضئيل . إن الميثاقى الانجليزى ، جمهورى من الناحية السياسية ، رغم أنه نادراً مايذكر الكلمة أو لا يذكرها على الإطلاق ، بينما يتعاطف مع الأحزاب الجمهورية فى كل البلاد ، ويفضل أن يطلق على نفسه اسم ديمقراطى ، إلا أنه أكثر من مجرد جمهورى ، إن ديمقراطيته فى بساطة ليست سياسية .

لقد كانت « الميثاقية » منذ البداية فى عام ١٨٣٥ حركة بين العمال أساساً، رغم إنها لم تنفصل بعد إنفصالا حادا عن البورجوازية الصغيرة الراديكالية. إن راديكالية العمال قد سارت يداً فى يد مع راديكالية البورجوازية ، لقد كان « الميثاق » هو شعار كلا منهما . كانا يعقدان « مؤتمرهما القومى » كل عام بشكل مشترك ، حتى يبدوان وكأنهما حزب واحد . كان الجزء الأدنى من الطبقة الوسطى فى ذلك الوقت بالضبط ، فى حالة عقلية هائجة مشاكسة ، نتيجة الشعور بخيبة الأمل من « لائحة الإصلاح » وبسبب السنوات التى ركدت فيها الأعمال منذ عام ١٨٣٧ حتى عام ١٨٣٩ ، ونظر هذا الجزء إلى الإثارة « الميثاقية » العاصفة بعين الرضا

التام. لا يوجد فى ألمانيا من لديه فكرة عن حدة هذه الإثارة. لقد طلب من الرجال أن يسلحوا أنفسهم، واستحثوا مراراً على الثورة، وأعدت الحراب كما حدث فى الثورة الفرنسية، ووقف فى عام ١٨٣٨ قسيس من «طائفة الميثوديست الكنيسة» يدعى «ستيفنس» يقول فى الرجال المحتشدين فى «مانشستر»:

«لستم فى حاجة للخوف من قوة الحكومة، من حراب بنادق الجنود، من المدفع، من كل ذلك الموجود تحت تصرف مضطهديكم، إن لديكم سلاحاً أكثر مضاء بكثير من كل ذلك. سلاحاً تعجز حراب البنادق والمدفع فى مواجهته. إن صبياً فى العاشرة من عمره لقادر على استعماله بطريقة حسنة. ما عليكم إلا أن تأخذوا زوجاً من أعواد الكبريت وحزمة من القش المغموس فى القار، وسأرى ما تفعل الحكومة ومئات الآلاف من جنودها فى مواجهة هذا السلاح، إن استخدم بجسارة» *.

لقد عبرت الصفة الاجتماعية «لميثاقية» العمال عن نفسها مبكراً من ذلك العام إن نفس «ستيفنس» هذا يقول فى اجتماع ضم ٢٠٠,٠٠٠ فى «كيرسال مور»، وهى الـ «موترساكر» فى «مانشستر».

«إن (الميثاقية) أصدقائى، ليست حركة سياسية، حيث يكون حصولكم على الاقتراع السرى، هو النقطة الرئيسية. (الميثاقية) هى مسألة شوكة وسكين: (الميثاق) يعنى منزل جيد، طعام وشراب جيد، الرفاهية وساعات عمل قصيرة».

إن الحركات المضادة «لقانون الفقراء»، والمناصرة «للائحة الساعات العشر»، كانت بالفعل وثيقة الصلة «بالميثاقية». ففى كل الاجتماعات التى عقدت فى ذلك الوقت، كان «أوستلر» من حزب المحافظين نشطا، وكانت مئات الإلتماسات لإجراء تحسينات فى حالة العمال الاجتماعية، تتداول مع الإلتماس القومى «لميثاق الشعب»، الذى تم تبنيه فى «برمينجهام»، واستمرت الإثارة عنيفة عام ١٨٣٩ كما كانت، وعندما بدأت تتراخى فى نهاية العام، أسرع «بوساى» و «تايلور» و «فورست» إلى الدعوة لإنتفاضات تهب فى آن واحد فى كل من شمال انجلترا و «يوركشاير» و «ويلز». واضطر «فورست» عندما خذلت

* لقد أخذ العمال، كما رأينا، هذه النصيحة، مأخذا جديا (ملحوظة فى الطبعة الألمانيه).

خطة، للمجاهرة بخصومات لم يكن قد حان حينها بعد. وسمع هؤلاء الذين فى الشمال بفشل خطته، فى الوقت الذى بدأوا ينسحبون فيه. وفيما بعد، بعد شهرين فى يناير ١٨٤٠، وقع العديد مما يسمى بتفشى الجاسوسية(١٨) فى «شيفيلد» و «برادفورد» وفى «يوركشاير»، وخمد الإضطراب بالتدريج. فى تلك الأثناء وجهت البورجوازية أنظارها إلى مشروعات أكثر عملية، أكثر فائدة لها، أعنى «قوانين القمح». وتشكل «الاتحاد المضاد لقانون القمح» فى «مانشستر»، وكانت النتيجة هى تراخى العلاقة بين البورجوازية الراديكالية والبروليتاريا. إذ سرعان ما أدرك العمال أن الغاء «قانون القمح» سيعود عليهم بفائدة ضئيلة، فى حين أن هذا الإلغاء يفيد البورجوازية للغاية، ولذا لم يكن من الممكن كسبهم إلى هذا المشروع. وحلت أزمة ١٨٤٢، وعنفت الإثارة مرة أخرى كما كانت فى عام ١٨٣٩. غير أن البورجوازية الصناعية الثرية؛ والتى كانت تعانى بعنف فى ظل هذه الأزمة الخاصة. شاركت فى هذه المرة. واتخذت «الرابطة المضادة لقانون القمح». كما كانت تدعى حينذاك أسلوباً ثورياً صريحاً. واستخدمت صحافتها ومثيروها لغة ثورية سافرة؛ وكان أحد الأسباب الوجيهة لذلك. هو أن الحزب المحافظ كان فى السلطة منذ عام ١٨٤١. وكما فعل «الميثاقيون» من قبل؛ طالب هؤلاء القادة البورجوازيين الشعب بالتمرد؛ ولم يكن العمال الذين عانوا الكثير من الأزمة ساكنين؛ كما يبرهن على ذلك عام الإلتماس القومى؛ وما عليه من توقيعات، بلغ عددها ثلاثة ملايين ونصف توقيع. وفى إيجاز؛ فإن الحزبين الراديكاليين قد وجدا نفسيهما مرة أخرى. بعد أن كانا قد تباعدا بعض الشىء. وفى ١٥ نوفمبر عام ١٨٤٢ عقد اجتماع بين «الأحرار» و«الميثاقيين» فى «مانشستر» وفيه كتب التماس يستعجل إلغاء «قوانين القمح» وتبنى «الميثاق». وفى اليوم التالى تبنى الحزبان الإلتماس وإنقضى الربيع والصيف وسط إثارة عنيفة وضيق متزايد. كانت البورجوازية مصممة على المطالبة بإلغاء «قوانين القمح» مستعينة فى ذلك بالأزمة وبالعوز الذى سببته وبالإضطراب العام. كان «المحافظون» فى ذلك الوقت فى السلطة. وتخلى البورجوازيون «الأحرار» — نصف تخلى — عن قانون عاداتهم المستقرة. كانوا يرغبون فى إحداث ثورة بمساعده العمال. كان على العمال أن يخرجوا الكستناء من النار حتى ينقذوا البورجوازيين من إحراق أصابعهم وأعيدت الفكرة القديمة عن «شهر عطلة» والإضراب العام؛ والتى كان

«الميثاقيون» قد بدأوها عام ١٨٣٩ ؛ إلى الحياه.لم يكن العمال ؛ على أى حال، هم الذين يرغبون فى إغلاق مصانعهم وإرسال العمال إلى الأبرشيات المحلية الواقعة فى عقارات الارستقراطية .وبذا يجبرون برلمان « المحافظين » ووزارة « المحافظين» على إلغاء « قوانين القمح » . كان من الطبيعى أن تلى الثورة ما حدث ، إلا أن البورجوازية وقفت فى الخلفية فى أمان . وكان فى وسعها أن تنتظر النتيجة دون أن تعرض نفسها للخطر فى أسوأ الحالات . وفى آخر يوليو بدأت الأعمال فى التحسن ، كان الوقت قد أزف . وحتى لا تضيع الفرصة ، قامت ثلاث شركات فى « ستالى بريدج » بتخفيض الأجور برغم هذا التحسن* . إننى لا أعرف إن كان هذا التصرف قد تم بدافع ذاتى ، أم باتفاق مع أصحاب مصانع آخرين ، وخاصة هؤلاء الذين ينتمون إلى الرابطة . وبعد فترة من الوقت إنسحب إثنان منهم ، إلا أن الثالث وهو « ويليام بايلى وأخوته » وقف فى صلابة ، وقال للعمال المعترضين . « إن كان ذلك لا يسرهم ، فعليهم أن يذهبوا للعب قليلا » ، واستقبل العمال هذا الرد المتعجرف بالاستهزاء . فتركوا المصانع ، وتظاهروا عبر المدينة يدعون كل زملائهم إلى ترك العمل . وفى ساعات قليلة توقفت خامده كل المصانع ، وسار العمال إلى « مورتون مور » كى يعقدوا إجتماعا . كان ذلك فى ٥ أغسطس ، وفى ٨ أغسطس إنتقلوا إلى « أشتون » و « هايد » ، كانوا خمسه آلاف من الأقوياء ، الذين أغلقوا كل المصانع وحفر الفحم ، وعقدوا إجتماعات ، كان السؤال المطروح فيها للنقاش ، ليس بأى حال من الأحوال ، إلغاء « قوانين القمح » ، كما كانت ترغب البورجوازية ، ولكن « أجور يومية عادلة عن عمل يومى عادل » . وإنتقلوا فى ٩ أغسطس إلى « مانشستر » دون أن تقاومهم السلطات (والتى كانت كلها من الأحرار) ، وأغلقوا المصانع ، وفى ١١ أغسطس كانوا فى « ستوك بورت » ، حيث واجهوا أول مقاومه بينما كانوا يقتحمون دار تشغيل الفقراء ابن البورجوازية المفضل . وفى نفس اليوم . كان هنالك إضراب عام وإضطراب فى « بولتون » ، ولم تقاومه السلطات هنا أيضاً . وسرعان ما انتشرت الهبة فى كل المنطقة الصناعية ، وتوقفت كل أنواع العمل باستثناء أعمال الحصاد وإنتاج الطعام . إلا أن العمال المتمردين كانوا هادئين . لقد دعوا إلى الثورة

---

* قارن « تقرير الغرف التجارية » فى « مانشستر » و« ليدز » فى نهاية يوليو وبداية أغسطس .

دون أن يكونوا راغبين فيها . إن أصحاب المصانع ، لم يعارضوا ما حدث خلافاً لعاداتهم ، باستثناء محافظ واحد فقط هو « بيرلى » من « مانشستر » . لقد بدأ الأمر دون أن يكون للعمال هدف واضح أمام أنظارهم ، وهذا السبب قد جعلهم يتحدون ، مصممين على ألا يطلق الرصاص عليهم ، لصالح البورجوازيه المطالبة بإلغاء « قانون القمح » . كان البعض من الباقيين ، يرى المطالبة بالميثاق ، وأعتقد آخرون أن هذا الأمر سابق لأوانه ، وطالبوا بمجرد تأمين معدل أجور عام ١٨٤٠ . وتحطم العصيان كله على هذه النقطة . إن الأمر ، لو كان منذ البداية . عصيانا عماليا مقررا ومقصودا ، لطالب بالتأكيد بمقصده ، إلا أن هذه الجموع التى ساقها سادتها إلى الشوارع ، ضد إرادتها الخاصه ، وبدون غرض محدد ، لم يكن فى مقدورها أن تفعل شيئاً . وسرعان ما شعرت البورجوازية ، التى لم تفعل شيئاً لوضع تحالف ١٥ فبراير موضع التنفيذ . شعرت فى تلك الأثناء بأن العمال قد إرتأوا ألا يكونوا أدواتها ، وأن سلوكها غير المنطقى الذى تخلت بمقتضاه عن قانون موقفها الثابت ، قد أصبح خطر مهددا . ومن ثم استعادت قانون إتجاهها الثابت ، ووضعت نفسها إلى جانب الحكومة ، كما وقفت ضد العمال بالمثل .

إنها تؤمن بالتابعين الذين يوثق بهم كالكونستبلات الخصوصيين (لقد شارك التجار الألمان فى « مانشستر » فى هذه المراسيم ، وساروا عبر المدينة بطريقة لا لزوم لها البتة ، بسيجارهم فى أفواههم وهرواتهم الغليظة فى أيديهم) . لقد أعطت الأمر بإطلاق النار على الحشد فى « بريستون » حتى أن ثورة الشعب التى لم يكن لها هدف محدد ، قد وقفت كلها وفى الحال وجها لوجه ، مع كل الطبقة الممسكة بالملكية ، وليس فقط مع كل القوى العسكرية الحكومية . وانفض العمال الذين لم يكن لهم هدف محدد بالتدريج . وانتهى التمرد دون نتائج سيئة . وفيما بعد حاولت البورجوازية المدانة القيام بعمل مخزى تلو آخر . أن تبيض نفسها ، بالإعراب عن فزعها من العنف الشعبى ، بلغة لا تتطابق بأى حال من الأحوال مع لغتها الثوريه عن الهبة ، ملقية مسئولية التمرد على المهيجين « الميثاقيين » . فى حين أنها هى ذاتها قد فعلت أكثر مما فعلوا هم مجتمعين ، كى تثير الهبة ، واستعادت منحاها القديم بتقديس إسم القانون ، دون حياء لا مثيل له حقا . إن « الميثاقيين » الذين كانوا جميعاً أبرياء من إثارة هذه الهبة ، والذين

فعلوا ببساطة ماقصدت أن تفعله البورجوازية، فذاتهموا وأدينوا ، بينما هربت البورجوازية دون خسائر ، وباعت إلى جانب ذلك كل مخزونها من البضائع القديمة خلال فرصة توقف العمل .

كان الانفصال الحاسم للبروليتاريا عن البورجوازية ، هو ثمرة هذه الهبة . إذ لم يكف «الميثاقيون» عن تصميمهم فى المطالبة « بالميثاق » بأى ثمن ، وحتى وإن كان الثورة . ورفضت البورجوازية ، التى أدركت الآن ودفعة واحدة ، ذلك الخطر الذى يهدد به أى تغيير عنيف وضعها ، رفضت أن تستمع إلى شيء آخر عن القوة الجسدية ، واقترحت أن تحقق غرضها بالقوة المعنوية ، وكان ذلك شيء آخر غير التهديد بالقوة الجسدية ، سواء بشكل مباشر أم غير مباشر ، كانت تلك النقطة واحدة من نقاط الشقاق ، التى أزيلت فيما بعد ، بتأكيد « الميثاقيين » (وهم الذين يمكن تصديقهم على الأقل مثل البورجوازية) بأنهم قد كفوا عن الإلتجاء إلى القوة الجسدية أيضاً . أما نقطة الشقاق الثانية والإساسية ، والتى وضعت « الميثاقية » فى دائرة ضوء لا تشوبه شائبه ، فقد كانت إلغاء « قوانين القمح » . لقد كان للبورجوازية مصلحة مباشرة فى هذا الأمر ، أما البروليتاريا ، فلم يكن لها . ومن ثم فقد إنقسم « الميثاقيون » إلى حزبين ، إتفق برنامجهما حرفياً ، وإن كانا مع ذلك ، مختلفين إختلافاً كلياً وعاجزين عن الوحدة . ففى مؤتمر «برمينجهام» القومى فى يناير ١٨٤٣ ، إقترح « ستورج » ممثل البورجوازية الراديكالية حذف إسم « الميثاق » من قوانين « إتحاد الميثاقيين » ، باعتبار أن هذا الإسم قد إرتبط بذكريات العنف أثناء التمرد . وبالمناسبة ، فإن هذا الإرتباط قد إستمر سنوات دون أن يعترض عليه مستر «ستورج» قبل الآن . ورفض العمال إسقاط الإسم . وعندما هزم «ستورج» فى الإنتخابات بأغلبية الأصوات ، أصبح هذا «الكويكر» الفاضل أميناً فجأة ، فانصرف من القاعة ، وأسس « إتحاد التصويت الإنتخابى التام » ، فى إطار البورجوازية الراديكالية . لقد أصبحت ذكرى تغيير إسم « التصويت الإنتخابى العام » إلى « التصويت الإنتخابى التام » مسألة كريهة للغاية عند البورجوازية « اليعقوبية » أما العمال فقد سخروا منه وساروا فى طريقهم .

منذ تلك اللحظة ، غدت « الميثاقية » ، وقد تحررت من كل عناصر بورجوازية هى قضية العامل ، وسقطت صحف «التام» وهى الـ« ويكلى ديسباتش» والـ« ويكلى كرونيكل » و « إيكسامينر » ... الخ ، بالتدريج فى اللهجة الناعسة

لباقى جرائد « الأحرار » . فساندت قضية « الصناعة الحرة » ، وهاجمت «لائحة الساعات العشر» وكل مطالب العمال بنوع خاص وبالتالى فقد تركوا «راديكاليتهم» كى تسقط فى الخلفية . وضمت البورجوازية « الراديكالية » أيديها بأيدى « الأحرار » ضد العمال فى كل صدام « وجعلوا بشكل عام » قضية «قانون القمح» والذى كان يعنى بالنسبة للإنجليز قضية « الصناعة الحرة » ، قضيتهم الأساسية . وهم لذلك ، قد سقطوا تحت سيطرة البورجوازية « الليبرالية » وأصبحوا الآن يلعبون دورا من أكثر الادوار إثارة للرثاء .

وعلى نقيض ذلك ، ساند العمال « الميثاقيون » كل صراعات البروليتاريا ضد البورجوازية ، بحمية مضاعفة . إن حرية المنافسة قد سببت للعمال ما يكفى من المعاناة كى يكرهونها ، إن حواريها البورجوازيين ، هم أعدائهم الواضحين . إن العامل لا ينتظر غير الأضرار من الحرية الكاملة للمنافسة . إن المطالب التى تقدم بها حتى الآن هى ، « لائحة الساعات العشر » حماية العمال ضد الرأسماليين ، الأجور الجيدة ، الوضع المؤمن ، إلغاء « قانون الفقراء » الجديد ، كل المسائل التى تنتمى « للميثاقيه » ولها نفس أهمية « النقاط الست » ، كانت تتعارض بشكل مباشر والمنافسة الحرة و « الصناعة الحرة » . لا عجب ، إذن ، أن لا يستجيب العمال « للصناعة الحرة » وإلغاء «قوانين القمح» (وهى حقيقة غير مفهومة لكل البورجوازية الإنجليزية) إذ بينما هم ، على الأقل لا يبالون بقضية « قانون القمح » ، فإنهم ساخطون بعمق شديد ضد المدافعين عنها . إن هذه القضيه بالتحديد ، هى النقطة التى تنفصل فيها البروليتاريا عن البورجوازية ، «الميثاقية » عن « الراديكاليه» وإدراك البورجوازية عاجز عن إستيعاب هذا ، لأن البورجوازية عاجزة عن فهم البروليتاريا .

هنا يكمن الفرق بين ديمقراطيه « الميثاقيين » وكل ديمقراطية بورجوازية سياسية سابقة . إن « الميثاقية » طبيعة إجتماعيه أساسية ، إنها حركة طبقية . إن (النقاط الست) والتى تمثل بالنسبة للبورجوازى « الراديكالى » بداية الأمر ونهايته ، والتى تعنى فى غايتها القصوى ، الدعوة إلى مزيد من إصلاحات معينة فى الدستور ، إنما تعنى بالنسبة للبروليتاريا مجرد وسائل إلى مزيد من الأهداف . « القوة السياسيه سبيلنا ، والسعادة الإجتماعية غايتنا » هى الآن الصيغة الواضحة

لصرخة حرب « الميثاقيين » . إن قضية الواعظ (ستيفنس) عن السكين والشوكة كانت حقيقة ، فقط بالنسبة لجزء من « الميثاقيين » فى عام ١٨٣٨ ، ثم غدت حقيقة بالنسبة لجميعهم فى عام ١٨٤٥ . لم يعد هنالك بين « الميثاقيين » من هو مجرد سياسى فقط ، إذ رغم أن « اشتراكيتهم » ضئيلة التطور للغاية ، ورغم أن علاجهم الأساسى للفقر ، قائم حتى الآن على نظام توزيع الأرض حصصا الأمر الذى أبطل بإدخال الصناعة ورغم أنه من الواضح أن إقتراحاتهم لعملية الأساسية ذات طبيعة رجعية إلا أن هذه المعايير مع ذلك ، تتضمن البديل بالذات ، وهو أنه يتوجب عليهم ، إما أن يذعنوا لقوة المنافسة مرة أخرى ويرجعون الوضع القديم للأمور ، وإما عليهم هم أنفسهم ، أن يتغلبوا على المنافسة وأن يبطلوها . ومن ناحية أخرى ، فإن الوضع الراهن غير المحدد « للميثاقية » ، الانفصال عن الحزب السياسى البحت ، يتضمن ضرورة تطوير وجهها الاجتماعى — وهو سمتها المميزة بالتحديد — تطويراً أكثر مما هو عليه . إن التقدم نحو « الاشتراكية » لا يمكن أن يتوقف ، خاصة عندما توجه الأزمة التالية العمال — بقوة العوز المحض — إلى وسائل علاج إجتماعية بدلا من الوسائل السياسية . هنالك أزمة لابد قادمة ، تلو الحالة الراهنة النشطة للصناعة والتجارة ، إنها على الأقل ستكون فى عام ١٨٤٧ ، ومن المحتمل أن تكون فى عام ١٨٤٦ ، إنها أيضا ، أزمة ستتجاوز إلى حد كبير ، فى مداها وعنفها ، كل الأزمات السابقة . سيطالب العمال « بميثاقهم » ، وهذا أمر طبيعى ، إلا أنهم سيتعلمون فى تلك الأثناء . أن يروا بوضوح كثيرا من النقاط التى تتعلق به ، والتى يمكن أن يحققها لهم ، والتى يعرفونها الان معرفة ضئيلة .

وفى تلك الأثناء ، فإن الإثارة الاشتراكية أيضا تسير قدما . إن « الاشتراكية الإنجليزية » تدخل فى حسابنا فقط ، بمقدار ما تؤثر فى الطبقة العاملة . إن « الاشتراكيين الإنجليز » يطالبون بالإدخال التدريجى للملكية على المشاع ، فى مستعمرات وطنية تضم إثنين أو ثلاثة آلاف شخص ، يقومون بكلا من الزراعة والصناعة ، وهم يتمتعون بحقوق متساوية وتعليم متساو . إنهم يطالبون بتسهيل أكثر للحصول على الطلاق ، بتأسيس حكومة عقلانية ، مع حرية تامة للضمير ومحو للعقاب ، الذى يستبدل بمعامله المذنب معاملة عقلانية . تلك هى معاييرهم

العملية ، أما عن مبادئهم النظرية ، فهى لا تهمنا هنا . لقد نشأت « الاشتراكية الإنجليزية » مع « أوين » وهو صاحب مصنع ، ولذا فإنها تتخذ من الأساليب ما يتسم بالإحترام نحو البورجوازية والأجحاف الكبير للبروليتاريا ، رغم بلوغها الذروة فى المطالبة بمحو الخصومة الطبقية بين البورجوازية والبروليتاريا .

إن « الإشتراكيين » مروضين تماما ومسالمين . إنهم يقبلون نظامنا القائم ، سيئاً كما هو ، بقدر ما ينبذون كل الوسائل الأخرى ، عدا استمالة الرأى العام . ومع ذلك ، فإنهم جامدين ، حتى أن نجاحهم بهذه الطريقة وبمبادئهم كما هى مصاغة حالياً ، إنما هو أمر ميئوس منه تماما . إذ بينما يندبون فساد آداب الطبقات الدنيا ، يصابون بالعمى عن العناصر التى تعاون هذا التحلل فى نظام المجتمع القديم ، ويرفضون الأقرار بأن الفساد الذى صنعته المصالح الخاصة ورياء الطبقة المتمسكة بالملكية ، أكثر بكثير . إنهم لا يعترفون بأى تطور تاريخى ، ويرغبون فى وضع الأمة فى حالة «الشيوعية على الفور ، من الليلة الماضية»* ، لا بالمسيرة التى لا مفر منها ، لتطورها السياسى ، إلى النقطة التى يصبح فيها هذا التحول ممكنا وضروريا معا . إنهم يفهمون ، وهذا حق ، لماذا ينقم العامل على البورجوازى ، لكنهم ينظرون إلى هذه الكراهية الطبقية على أنها عقيمة . إنها ، رغم كل شىء ، الحافز المعنوى الوحيد الذى يمكن العامل من الاقتراب من هدفه . إنهم يبشرون ، بدلا من ذلك ، بحب إنسانى عام ، أكثر عقما بكثير ، بالنسبة لحالة انجلترا الراهنة إنهم يعترفون فقط ، بتطور فسيولوجى ، تطور مجرد للإنسان ، بعيدا عن كل علاقة تربط الإنسان الفرد بالماضى ، بينما كل العالم يستند إلى ذلك الماضى . وبالتالى فإنهم مجترؤن للغاية ، ميتافيزيقيون للغاية ، ولا ينجزون إلا القليل . إنهم يجندون جزئيا من الطبقة العاملة ، التى لم يكسبوا منها غير جزء صغير للغايه ، يمثل ، على أية حال ، أشد عناصرها تعلما وصلابة . إن « الاشتراكية » بوضعها الراهن لا يمكن أن تكون المعتقد العام للطبقة العاملة ، وعليها أن تتنازل وأن تعود للحظة ، إلى وجهة نظر « الميثاقيين » . إلا أن الاشتراكية البروليتارية الحقة ، وقد مرت من خلال «الميثاقية» التى تطهرت من عناصرها البورجوازية ،

---

* إن باقى الجملة فى النص الألمانى يستمر من هنا كما يلى : « دون الاستمرار فى الاشتغال بالسياسة ، حتى تحقق هدفها ، حيث تتلاشى عند هذه النقطة » . — الناشر .

متخذة الشكل الذى بلغته بالفعل فى عقول كثير من القادة « الاشتراكيين » و « الميثاقيين » (والذين يكادون أن يكونوا جميعا إشتراكيين*) ، يجب خلال فترة زمنية قصيرة ، أن تلعب دوراً له ثقله ، فى تاريخ تطور الشعب الإنجليزى. إن أسس « الاشتراكية الإنجليزية » والتى هى مشبهة أكثر بكثير من تلك التى للفرنسيين ، ومتخلفة عنها فى التطور النظرى ، يجب أن تتراجع للحظة إلى وجهة النظر الفرنسية حتى تتجاوزها فيما بعد . وفى تلك الأثناء ، فإن الفرنسيين أيضا سيتطورون إلى أبعد من ذلك . إن « الاشتراكية الإنجليزية » تقدم أوضح تعبير عن الغياب السائد للدين بين العمال ، تعبير صريح حتما إلى حد أن كتلة العمال ، رغم كونها غير متدينة دون وعى منها ومن الناحية العملية فقط ، كانت تتراجع أمامه . إلا أن الضرورة هنا أيضاً ، ستضطر العمال إلى التخلى عن بقايا معتقد سيدركون بوضوح أكثر فأكثر أنه لايخدم فى شىء غير أن يجعلهم ضعافا مستسلمين لقدرهم مطيعين أوفياء لطبقة مصاصى الدماء الممسكة بالملكية .

ومن ثم ، فإنه من الواضح أن حركة العمال مقسمة إلى جزأين ، « الميثاقيين » و « الاشتراكيين » . « الميثاقيون » هم الأكثر تخلفا من الناحية النظرية ، والأقل تطوراً ، إلا أنهم بروليتاريون أصلا بشكل عام ، إنهم ممثلو طبقتهم . و « الاشتراكيون » أكثر منهم بعد نظر ، يقترحون العلاجات العملية ضد البلاء ، إلا أنهم وقد نبعوا أصلا من البورجوازية ، غير قادرين على الإندماج تماما مع الطبقة العاملة لهذا السبب . إن وحدة « الاشتراكية » مع « الميثاقية » ، نسخة « الشيوعية الفرنسية على الطريقة الانجليزية » ، ستكون الخطوة التالية . وهى قد بدأت بالفعل . عند إنجاز ذلك فقط ، ستكون الطبقة العاملة حينئذ هى القائد المثقف الحقيقى لانجلترا . وفى تلك الأثناء سوف يتقدم التطور السياسى والاجتماعى ، وسوف يغذى هذا الحزب الجديد ، هذا التحول الجديد « للميثاقية » .

إن الأجزاء المختلفة من العمال ، غالبا ما تتحد ، وغالبا ما تنفصل . لقد أنشأ « النقابيون » و « الميثاقيون » و « الاشتراكيون » ، بالاعتماد على أنفسهم ، عددا

---

* بالطبع ، اشتراكيين بالمعنى العام ، وليس بالمعنى الخاص للمنتسبين إلى « أوين » . (ملحوظه فى النسخه الألمانيه) .

من المدارس وحجرات المطالعة لتقدم العلم . إن كل مؤسسة « إشتراكية » ، وتكاد كل مؤسسة « ميثاقية » ، أن يكون لديها مثل هذا المكان ، وكذا لديها نقابات عديدة أيضاً . هنا يتلقى الصبية تعليما بروليتاريا بحتا ، خالصا من كل تأثيرات البورجوازية ، ولا توجد ، أو لا تكاد توجد فى حجرات المطالعة غير الصحف والكتب البروليتارية . إن هذه الأوضاع خطرة جداً على البورجوازية ، التى نجحت فى سحب العديد من أمثال هذه المعاهد « معاهد الميكانيكا »(١٩) من التأثيرات البروليتارية ، وجعلتها أدواتها ، لبث العلوم النافعة للبورجوازية ، هنا يدرسونهم العلوم الطبيعية الآن ، وهى علوم ربما تسحب العمال بعيداً عن معارضة البورجوازية ، وهى ربما تضع فى أيديهم وسائل تحقيق إختراعات سوف تعود بالمال على البورجوازية ، بينما دراية العامل بالعلوم الطبيعية عديمة النفع له تماما ، « الآن » فى الوقت الذى لا يحصل فيه أبداً ، فى الكثير من الأحوال ، على نظرة من « الطبيعة » ، فى مدينته الكبيرة ، وهو يعمل كل تلك الساعات الطويلة . هنا يبشر بالاقتصاد السياسى ، الذى تعتبر المنافسة الحرة معبودته ، والتى تعنى خلاصته ومادته ، بالنسبة للعامل ، أنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً أكثر معقولية من إخضاع نفسه للمجاعة . التعليم كله هنا مروض ، يدعو للاسترخاء والخضوع للسياسات الحاكمة والدين ، حتى أنه لا يمثل بالنسبة للعامل ، غير موعظة عن الطاعة التامة والسلبية والإذعان لقدره .

إن كتلة العمال بالطبع ، ليس لديها مايربطها بتلك المعاهد ، وهم يعمدون للذهاب إلى حجرات المطالعة البروليتارية ، ومناقشة الأمور التى تهم مصالحهم بشكل مباشر ، ومن ثم فإن البورجوازية الراضية عن ذاتها تقول مأثورانها : Dixi et Salva vi* ، ثم تستدير فى إزدراء عن الفصل الدراسى الذى « يفضل الهراء الغاضب للمعانى التضليلية السيئة ، عن مزايا التعليم الراسخ » . إن العمال ، على أى حال ، يعرفون قدر التعليم الراسخ ، عندما يستطيعون الحصول عليه غير مخلوط برطانة المصالح البورجوازية . إن المحاضرات المتعددة عن الموضوعات العلمية والجمالية والاقتصادية ، والتى تقدم خاصة فى المعاهد الاشتراكية ، حيث

---

* قد تكلمت وأنقذت روحى .

يواظب العمال على حضورها بصورة جيدة للغاية ، تبرهن على ذلك ، انني كثيرا ماسمعت عمالا ، مما يندر أن تتماسك ستراتهم المصنوعة من القطن الوبرى ، يتحدثون فى موضوعات جيولوجية وفلكية وموضوعات أخرى ، بمعرفة أكثر بكثير من غالبية « المثقفين » البورجوازيين فى ممتلكات « المانيا » . أما كبر المدى الذى نجحت البروليتاريا الإنجليزية فى تحقيقه ، فى مجال التعليم المستقل ، فأمر يمكن أن توضحه بشكل خاص ، حقيقة أن المنتج من المؤلفـــات الفلسفية والسياسية والشعرية الحديثة ، والتى تشكل هذه الحقبة ، تـكاد قراءتها أن تكون قاصرة على العمال . إن البورجوازى الذى تستعبده الظروف الإجتماعية ، والمآثم التى تشتمل عليها هذه الظروف ، ليرتعش ويذكر إسم الله ويرسم الصليب على نفسه ، أمام أى شىء يمهد الطريق بالفعل أمام التقدم ، فى حين يفتح البروليتارى عينيه على ذلك الشىء ، ويدرسه بسعادة ونجاح . إن « الاشتراكيين » ، من هذه الزاوية على الخصوص ، قد حققوا المعجزات فى تعليم البروليتاريا . لقد ترجموا الماديين الفرنسيين ، « هيلفيتيوس » ، « هولباك » ، « ديدروت » . . . إلخ ، ونشروها مع أفضل الأعمال الإنجليزية ، فى طبعات رخيصة . وكذلك نشرت « حياة المسيح » « لستراوس » ، و « الملكية » « لبرودون » . ووجد «شيللى» العبقرى والنبى ، « شيللى » ، و « بايرون » بحسيته المتوهجة وهجوه المرير لمجتمعنا القائم ، معظم قرائهما بين البروليتاريا ، فى حين تمتلك البورجوازية طبعات فاقدة الرجولة طبعات أسرية اختصرت طبقا للأخلاق المرائية فى أيامنا تلك . إن حيازة أعمال الفيلسوفين العمليين الكبيرين « بنتام » و « جودوين » فى الأيام الأخيرة وخاصة « جودوين » ، تـكاد أو تـكون قاصرة على البروليتاريا . إذ رغم أن « لبنتام » مدرسته داخل البورجوازية « الراديكالية » إلا أن « البروليتاريا والاشتراكيين » وحدهما ، هما اللذان نجحا فى تطوير تعاليمه خطوة إلى الأمام . وشكلت البروليتاريا على هذه الأسس ، مؤلفات تتكون من جرائد وكتيبات ، تتجاوز فى تقدمها كل المؤلفات البورجوازية ، من ناحية قيمتها الجوهرية .

تبقى نقطة واحدة يلزم الإلتفات اليها ، وهى أن عمال المصانع ، خاصة عمال منطقة القطن ، هم الذين يكونون نواة الحركة العمالية . ان « لانكشاير » وخاصة « مانشستر » هى بؤرة أكثر النقابات قوة ، انها مركز « الميثاقية » ، والمكان

الذى يوجد به أكبر عدد من « الاشتراكيين » . إذ كلما اشتدت قبضة نظام المصنع على فرع من فروع الصناعة ، كلما زاد اشتراك العمال العاملين فى هذا الفرع فى الحركة العمالية ، واحتدم التعارض بين العمال والرأسماليين ، ووضح الضمير العمالى بين العمال . إن سادة « برمينجهام » الصغار ، رغم معاناتهم للأزمات ، مازالوا يقفون على أرض تعسة ، هى وسط بين «ميثاقية» البروليتاريا و (راديكاليه) أصحاب الدكاكين . إلا أن كل العاملين فى الصناعة ، بشكل عام ، قد كسبهم شكل أو آخر من أشكال مقاومة رأس المال والبورجوازية . إنهم جميعاً قد اتحدوا حول نقطة أنهم عمال ، وهو إسم يفخرون به ، وهو الصيغة المعتادة للتخاطب فى إجتماعات (الميثاقيين) . إنه يشكل طبقة منفصلة ، ذات مصالح ومبادىء منفصلة ، لها طريقة فى النظر إلى الأمور منفصلة ومتناقضة مع تلك التى لأصحاب الملكية ، وأنه تكمن فى هذه الطبقة ، قوة ومقدرة الأمة على التطور .

إن إنتاج المواد الخام والوقود اللازم لصناعة ضخمة ، كتلك التي في إنجلترا يحتاج إلى عدد كبير من العمال . إلا أن انجلترا لا تنتج من كل تلك المواد التي تحتاجها صناعاتها (باستثناء الصوف ، الذي ينتمي إلى المناطق الزراعية) غير المعادن : الفلزات والفحم . بينما تمتلك « كورنوال » مناجم غنية بالنحاس والقصدير والزنك والرصاص ، وتنتج « ستافورد شاير » و « ويلز » ومناطق أخرى كميات ضخمة من الحديد ، ويكاد كل شمال وغرب انجلترا واسكتلندا الوسطى ومناطق معينة من أيرلندا ينتج الفحم بوفرة* .

---

* ان عدد العمال العاملين في مناجم بريطانيا العظمى ، دون ايرلندا ، طبقا لتعداد ١٨٤١ كان كما يلي :

	الرجال فوق سن العشرين	الرجال دون سن العشرين	النساء فوق سن العشرين	النساء دون سن العشرين	المجموع
مناجم الفحم	٨٣٤٠٨	٣٢٤٧٥	١١٨٥	١١٦٥	١١٨٢٣٣
مناجم النحاس	٩٨٦٦	٣٤٢٨	٩١٣	١٢٠٠	١٥٤٠٧
الرصاص	٩٤٢٧	١٩٣٢	٤٠	٢٠	١١٤١٩
الحديد	٧٧٧٣	٢٦٧٩	٤٢٤	٧٣	١٠٩٤٩
القصدير	٤٦٠٢	١٣٤٩	٦٨	٨٢	٦١٠١
أنواع مختلفة معادن غير محدودة	٢٤١٢٦	٦٥٩١	٤٧٢	٤٩١	٣١٧١٦
الإجمالي	١٣٩٢٣٨	٤٨٤٥٤	٣١٠٢	٣٠٣١	١٩٣٨٢٥

وحيث أن تشغيل مناجم الفحم والحديد يتم بنفس الناس ، فان جزءاً من عمال المناجم الذين ينسبون الى مناجم الفحم ، وجزء كبير ممن ذكروا تحت العنوان الأخير ، يجب أن ينسبوا الى مناجم الحديد .

ويعمل فى مناجم (كورنيش) حوالى ١٩٫٠٠٠ رجلا، و ١١٫٠٠٠ إمرأة وصبى، البعض فوق الأرض، والبعض تحت الأرض، ويكاد يقتصر العمل فى المناجم تحت الأرض على الرجال والصبية فوق سن الثانية عشر. ويبدو أن الحالة المادية لهؤلاء العمال طبقا لتقرير «لجنة تشغيل الصبية» محتملة نسبيا، وكثيرا ما يفاخر العمال الانجليز بعمال مناجمهم الأقوياء الشجعان الذين يتابعون عروق المعدن تحت قاع البحر ذاته. إلا أن نفس التقرير، «تقرير لجنة تشغيل الصبية» يصدر حكما مختلفا، فيما يخص صحة هؤلاء العمال. إذ يوضح التقرير الذكى للدكتور «بارهام»، كيف أن إستنشاق جو تحليل المحتوى من الأوكسجين، مختلط بغبار ودخان المسحوق الناسف، كذا الجو السائد فى المناجم، يؤثر تأثيرا خطيرا على الرئتين، ويسبب إضطرابا فى عمل القلب، ويقلل نشاط أعضاء الجهاز الهضمى، إن هذا الكدح المرهق، وخاصة عملية تسلق السلالم صعودا وهبوطا، والتى يقضى فيها حتى الشباب متين البنيان أكثر من ساعة قبل العمل وبعده، يسهم إلى حد كبير فى إنماء تلك المصائب، حتى أن الرجال الذين يبدأون هذا العمل فى شبابهم المبكر، لا يبلغون أبدا طول قامة إمرأة تعمل فوق سطح الأرض، إن الكثيرين منهم يموتون صغارا من السل المستعجل، كما يموت غالبية عمال المناجم فى منتصف العمر من السل البطىء، كما أنهم يشيخون قبل الأوان، ويصبحون غير صالحين للعمل فيما بين سن الخامسة والثلاثين والخامسة والأربعين ويصاب الكثيرون منهم بالتهابات حادة فى الأعضاء التنفسية، عندما يتعرضون للتغيير المفاجىء فى هواء المدخل الدافىء (بعد تسلق السلم فى عرق غزير) . إلى الريح الباردة فوق سطح الأرض، وأن تلك الإلتهابات غالبا ما تكون قاتلة. وتقوم الفتيات والصبية بالعمل فوق سطح الأرض، فى تكسير الخام وفرزه، وهو عمل يوصف بأنه صحى للغاية، حيث يتم إنجازه فى الهواء الطلق.

تقع مناجم رصاص (إستون مور) الواسعة الامتداد، فى شمال إنجلترا، عند حدود (نورثومبرلاند) و (دورهام). وتكاد تتفق التقارير الواردة من تلك المنطقة* تمام الاتفاق، مع الواردة من (كورنوال). هنا، أيضا،

* كذلك ورد أيضا فى «تقرير لجنة تشغيل الصبية»: تقرير المندوب «ميتشيل».

شكاوى من إفتقاد الأوكسجين ، من كمية الغبار الزائدة عن الحد ، من دخان البارود ، من غاز حامض الكربونيك ومن الكبريت فى الجو المحيط بالعمال ، وبالتالى فإن عمال المناجم هنا ، كما هو الحال فى «كورنوال» ، قصار القامة ، ويكاد يعانى الجميع إبتداء من سن الثلاثين وحتى آخر العمر من إصابات الصدر ، التى تنتهى إلى السل ، كما هو الحال دائما على وجه التقريب ، خاصة إذا مورس هذا العمل باستمرار ، وبذا ينتقص متوسط عمر هؤلاء البشر إلى حد كبير . وإذا كان عمال تعدين هذه المنطقة أطول عمرا إلى حـــد ما عن هؤلاء العاملين فى «كورنوال» ، فإنما يرجع ذلك إلى أنهم لا يدخلون المناجم قبل أن يبلغوا سن التاسعة عشر ، فى حين أنهم يبدأون العمل فى «كورنوال» ، كما رأينا ، فى سن الثانية عشر ومع ذلك ، فإن الغالبية هنا أيضاً ، تموت فيما بين سن الأربعين والخمسين ، طبقاً لما جاء فى بيان طبى . إن ٧٩ من عمال المناجم الذين أدرج موتهم فى السجل العام للمنطقة ، والذين بلغت أعمارهم ٤٥ عاما فى المتوسط ، قد مات منهم ٣٧ عاملا بالسل ، ٦ عمال بالربو . إن متوسط طول العمر فى المناطق المحيطة ، فى (اليندال) و (ستانهوب) و (ميدلتون) هو ٤٩ ، ٤٨ ، ٤٦ على التوالى . وتشكل الميتات الناجمة عن إصابات الصدر ، ٤٨ ، ٥٤ ، ٥٦٪ من العدد الإجمالى . يجب أن يكون واضحا فى الأذهان ، أن كل البيانات تشير فقط إلى عمال المناجم الذين لم يبدأوا العمل إلا بعد سن التاسعة عشر من أعمارهم . دعنا نقارن تلك الأرقام بما يسمى بالجداول السويدية ، وهى قوائم تفصيلية لإحصائيات الوفاة تشتمل على كل سكان السويد ، وهى المسلم بها فى انجلترا ، على أنها المعيار الأكثر صحة والمتاح حتى الآن ، لمتوسط أطوال حياة الطبقة العاملة البريطانية . وطبقاً لتلك القوائم فإن الذكور من البشر ، الذين يعيشون بعد سن التاسعة عشر ، يبلغون متوسطا من العمر يصل إلى ٥٧ز٥ عاما ، ولكن طبقاً لهذا ، فإن عشرة أعوام من الحياة فى المتوسط تسلب من عمال شمال انجلترا ، بسبب عملهم . ومع ذلك ، فإن الجداول السويدية مقبولة على أنها المعيار لطول حياة العمال ، وبالتالى فإنها توضح متوسط فرص الحياة وقد تأثرت بالظروف غير الملائمة التى تعيشها البروليتاريا ، معيار لطول الحياة أقل من المعيار القياسى . إننا مرة أخرى ، نجد المنازل التى تؤجر مفروشة ، وأماكن المبيت ، والتى اعتدناها هنا فى المدن فيما سبق ، وهى فى حالة من الإزدحام وإثارة التقزز والقذارة ، تماثل

تلك التى هناك . لقد زار المندوب (ميتشيل) ، واحدة من أمثال ثكنات المبيت تلك ، إن طولها يبلغ ١٨ قدما ، واتساعها ١٣ قدما ، وهى معدة لاستقبال ٤٢ رجلا و ١٤ صبياً ، أى ما مجموعه ٥٦ شخصاً ، ينام نصفهم فوق النصف الآخر فى مراقد كتلك الموجودة فوق ظهر السفن . إن المندوب (ميتشيل) لم يستطع أن يحتمل رائحتها ولا جوها للحظه ، رغم أن أحدا لم يكن قد نام فى تلك الزريبة منذ ثلاثة ليالى سابقة على الزيارة . ما حالها إذن خلال ليلة صيف حارة بشاغليها الستة والخمسين ؟ إنها ليست مقدمة سفينة عبيد أمريكية ، إنها مأوى بريطانيين أحرار المولد !

دعونا نعود الآن إلى أكثر فروع التعدين البريطانى أهمية ، إلى مناجم الفحم والحديد ، والتى يتناولها « تقرير لجنة تشغيل الصبية » بشكل عام ، وبكل التفصيل الذى تقتضيه أهمية الموضوع . يكاد كل الجزء الأول من هذا التقرير أن يكون مخصصاً لحالة العمال الذين يعملون فى هذه المناجم . إننى سأكون على أى حال ، قادراً على تناول هذا الموضوع بالاختصار الذى يقتضيه غرض العمل الحالى ، بعد الوصف التفصيلى الذى قدمته عن حال العمال الصناعيين .

يشتغل الصبية من الرابعة والخامسة والسابعة فى مناجم الفحم والحديد ، وهى تعمل بطريقة تكاد تتماثل تمام التماثل . إنهم يعملون فى نقل الخام أو الفحم الذى فككه عامل المنجم ، من مكانه إلى طريق الخيل أو المدخل الرئيسى ، كما يعملون فى فتح وإغلاق الأبواب (التى تفصل أقسام المنجم وتنظم تهويته) لمرور العمال والمواد . وعادة ما يشتغل أصغر الصبية فى مراقبة الأبواب ، وبذ يصبح عليهم ، أن يقضوا فى الظلام بمفردهم ، إثنتى عشر ساعة يومياً ، جالسين عادة فى ممرات رطبة ، دون أن يكون لديهم أيضاً ، عمل كاف ينقذهم من ملل عدم فعل شىء ، مما يضيع الرشد ويصير الإنسان وحشا . كما أن نقل الفحم وخام الحديد ، من ناحية أخرى ، عمل شـــديد الصعوبة ، فالمادة تدفع فى براميل كبيرة دون عجلات فوق أرضية المنجم غير الممهدة ، وغالباً ما يكون ذلك فوق طفلة مبتلة أوخلال الماء ، وغالبا فوق منحدرات حادة الميل وعبر ممرات منخفضة الأسقف ، حتى أن العمال يضطرون إلى الزحف على أيديهم وركبهم . ولذا فإن الذين يعملون فى مثل هذا العمل الأكثر ارهاقا ، هم الصبية الأكبر سنا والفتيات نصف الناميات .

ويعمل ، طبقاً للظروف ، رجل أو صبيان على كل برميل ، وإن كان العاملان صبيين ، فإن أحدهما يدفع والآخر يشد . أما تفكيك الخام أو الفحم ، والذى يقوم به رجال أو شباب أشداء فى السادسة عشر من العمر أو يزيد ، فهو أيضاً عمل مرهق للغاية . إن يوم العمل يتراوح ما بين إحدى عشر أو إثنتى عشر ساعة ، وأطول من ذلك فى غالب الأحوال وهو يصل فى إسكتلندا إلى أربعة عشر ساعة ، وغالبا ما يتضاعف يوم العمل ، عندما يستمر العاملون فى العمل تحت الأرض أربع وعشرين ساعة ، بل وستة وثلاثين ساعة بلا انقطاع . إن هؤلاء الناس يأكلون عندما يحسون الجوع ويسمح وقتهم بذلك ، حيث أن فواصل الوقت من أجل الوجبات ، غير معروفة لديهم .

يوصف معيار معيشة عمال المناجم بشكل عام ، بأنه متوسط الجودة ، وتعتبر أجورهم مرتفعة بالنسبة لأجور العمال الزراعيين المحيطين بهم (والذين يعيشون ، على أى حال ، فى معدلات المجاعة) ، باستثناء مناطق معينة فى اسكتلندا وفى المناجم الايرلندية ، حيث يسود شقاء بالغ ، ولسوف تكون لدينا الفرصة للعودة إلى هذا الوضع فيما بعد ، والذى هو بالمناسبة ، مجرد علاقة نسبية ، إذ أنه يتضمن المقارنة بأفقر طبقة فى إنجلترا كلها . وفى تلك الأثناء ، فإننا سوف ننظر فى المكاره التى تنشأ عن الطريقة الحالية للتعدين ، وفى وسع القارىء أن يحكم ، إن كان من الممكن لأى أجر نقدى أن يعوض عامل المنجم عن مثل تلك المعاناة .

إن الصبية والشباب الذين يعملون فى نقل الفحم وخام الحديد يشتكون جميعا من أنهم متعبون يعانون تعبا يفوق الحد ، ولا يوجد مثل هذا العمل الزائد عن الحد بصورة بالغة ، حتى فى المنشآت التى تدار بأشد الأساليب طيشا ومغامرة . إن التقرير كله يثبت ذلك ، مقدما عددا من الأمثلة فى كل صفحة من صفحاته ، إن الصبية يلقون بأنفسهم على الدوام ، على حجر الموقد أو على الأرض بمجرد أن يبلغوا منازلهم ، إنهم ينامون على الفور دون أن يكونوا قادرين على تناول قضمة طعام ، ويتم غسلهم ووضعهم فى السرر وهم نيام ، بل يحدث أن يرقدوا وهم فى الطريق إلى منازلهم ، حيث يجدهم ذووهم فى ساعة متأخرة من الليل ، نائمين على الطريق . ويبدو أن قضاء يوم الأحد فى السرير ، إنما هو عادة عامة بين هؤلاء الصبية ، وذلك حتى يستردوا بعضا من الجهد الزائد عن الحد الذى بذلاه خلال الأسبوع . إن قلة منهم تتردد على الكنيسة أو المدرسة ، والمدرسون يشتكون

حتى من هذه القلة لنومها وإفتقادها أى حماس للتعليم . ونفس الأمر كذلك حتما ، بالنسبة للفتيات الأكبر سنا والنساء . إنهن يشتغلن بأشد الطرق وحشية . إن هذا الإرهاق، والذي يكاد يصل دائماً إلى ذروة الألم، لا يمكن إلا أن يؤثر على تركيب الجسم ، إن النتيجة الأولى لمثل هذا الإرهاق الزائد عن الحد ، هى تحول النشاط الحيوى إلى نمو أحادى الجانب للعضلات ، حتى أن عضلات الأذرع والأرجل والأكتاف والصدر خاصة ، والتى تستنفر بشكل أساسى فى عمليات الدفع والشد، تبلغ درجة غير عادية من النمو ، بينما يعانى باقى الجسد وهو ضامر ، من عملية التنشيط ، كما تعانى القامة ، أكثر من أى شيء آخر ، وقد وقف نموها الطبيعى وعوقت . ويكاد يكون كل عمال المناجم قصار القامة ، باستثناء عمال « ليسستر شاير » و « مراروكشاير » ، الذين يعملون تحت ظروف مواتية ، شاذة عن القاعدة العامة. وأكثر من ذلك ، أن سن البلوغ يتأخر عند الأولاد مثلهم فى ذلك مثل البنات . أنه يتأخر عند الأولاد حتى سن الثامنة عشر ، ولقد حضر ولد من سن التاسعة عشر أمام المندوب « سيمونز » ولم يكن يبدو عليه أى دليل غير دليل الأسنان ، يشير إلى أنه لم يتجاوز الحادية عشر أو الثانية عشر من عمره . إن تلك الإطالة فى فترة الطفولة ليست فى الأساس غير دليل على النمو المعوق، والذى نجح فى أن يثمر فى السنوات التالية. إن تشوهات الأرجل، وإنحناءات الركب إلى الداخل والأقدام إلى الخارج، وعاهات العمود الفقرى، إنما تنتج عن وضع العامل أثناء العمل، وهو وضع غالباً ما يكون العامل مضطرا إليه بشكل عام ، وتظهر تلك التشوهات سريعاً فى البنية، عندما يصيبها الوهن. إن تلك التشوهات منتشرة بشكل كبير ، حتى أن العديد من الشهود ـ ليس فقط من الأطباء ـ فى «يوركشاير» و « لانكشاير »، و « نورثومبرلاند » و « دورهام » ، يؤكدون أنه يمكن التعرف على عامل المناجم ، من بين مائة من الأشخاص الآخرين ، من هيئته . ويبدو أن النساء خاصة يعانين من هذا العمل ، وهن من النادر ، إن لم يكن على الإطلاق ، ذوات قامة مستقيمة مثل باقى النساء . وهنا أيضاً شهادة ، عن ان تشوهات الحوض ، ونتيجتها صعوبة الحمل ، إن لم يكن الحمل القاتل ، إنما تنشأ من إشتغال المرأة فى المناجم . إلا أن عمال مناجم الفحم يعانون ، إلى جانب هذه العاهات الموضعية ، من عدد من الإصابات الخاصة ، والتى يمكن تفسيرها بطبيعة العمل — إن أمراض أعضاء الجهاز الهضمى ، كفقدان الشهية ، وآلام المعدة ، والغثيان والقيء ، تأتى

فى المرتبة الأولى وهى الأكثر إنتشاراً ، كذلك الظمأ الشديد الذى لا يطفئه غير ماء المنجم الفاتر القذر. إن عملية الهضم تعوق، وبذا تحل كل الإصابات الأخرى. إن أمراض القلب وخاصة التضخم والتهاب القلب وغشاء التامور الذى يغلفه وضيق الصمامات الأذينية البطينية ومدخل الأورطى أيضاً ، تذكر بصورة متكررة كأمراض تصيب عمال المناجم ، الأمر الذى يفسره بالفعل ، العمل الزائد عن الحد ، كما أن الأمر صحيح بالنسبة للفتاق الذى يكاد أن يكون عاما ، وهى نتيجة مباشرة للإرهاق الممتد الزائد عن الحد . إن إصابات عديدة مؤلمة وخطرة على الرئات ، وخاصة الربو الذى يظهر فى بعض المناطق فى سن الرابعة عشر وفى مناطق أخرى فى سن الثالثة عشر ، تنشأ بين الغالبية من عمال المناجم ، جزئياً بسبب الإرهاق الزائد عن الحد ، وجزئياً بسبب الجو الردىء المليء بالغبار المختلط بحامض الكربونيك وغاز الهيدروكربون الذى يمكن تجنبه فى الحال . إن هذا يجعلهم غير صالحين للعمل خلال فترة قصيرة ، ويظهر ضيق الصدر بالطبع بين هؤلاء العاملين فى أشغال رطبة ، فى فترة أكثر تبكيراً . إنه يظهر فى بعض مناطق « اسكتلندا » فيما بين سن العشرين والثلاثين ، وهو الوقت الذى تكون فيه الرئات المصابة عرضة للإلتهابات والأمراض ذات الطبيعة المحمومة بنوع خاص . إن المرض الذى يختص العمال به ، من هذا النوع ، هو « البصاق الأسود» والذى ينشأ من تشبع كل الرئة بجزئيات الفحم ، وهو يعلن عن نفسه بالضعف العام والصداع وضيق الصدر والمخاط الأسود الغليظ . ويظهر هذا المرض بصورة معتدلة فى بعض المناطق، وعلى عكس ذلك فى مناطق أخرى، إذ لا يبرأ منه المريض البتة ، وخاصة فى « اسكتلندا » . أن التنفس اللاهث المصحوب بتزييق الصدر ، والنبض السريع (والذى يتجاوز مائة نبضة فى الدقيقة) والسعال الجاف ، مع ازدياد النحافة والهزال ، إلى جوار الأعراض التى سبق ذكرها ، والتى تظهر فى صورة مكثفة ، تجعل المريض غير لائق للعمل فى سرعة . إن كل حالة من هذا المرض تنتهى نهاية مميتة . ويقرر دكتور « ماكيلار » من « بنسيت لاند » ، « إيست لوثيان » ، أن هذا المرض غير معروف ، فى كل مناجم الفحم جيدة التهوية ، بينما يحدث كثيراً أن يصاب به عمال المناجم الذين ينتقلون من مناجم جيدة التهوية إلى مناجم رديئة التهوية . إن جشع أصحاب المصانع للربح ، والذى يمنع استخدام أجهزة تجديد الهواء ، هو اذن المسئول أصلا ، عن حقيقة وجود

هذا المرض الذى يصيب العمال ، وكذلك يعتبر الروماتيزم مرضاً عاماً بين عمال المناجم ، باستثناء عمال « واروبك » و « ليسستر شاير » ، وهو ينشأ على وجه الخصوص فى أماكن العمل التى تغلب عليها الرطوبة . إن كل عمال مناجم الفحم، يهرمون مبكراً ، نتيجة كل تلك الأمراض ، ويصبحون غير لائقين للعمل بعد سن الأربعين ، رغم اختلاف هذا باختلاف الأماكن . إن عامل منجم الفحم الذى يستطيع أن يوالى حرفته بعد سن الخامسة والأربعين أو الخمسين ، هو فى الحقيقة نادر تمام الندرة . إذ من المعروف بشكل عام ، أن هؤلاء العمال يهرمون فى سن الأربعين . إن هذه المسأله تنطبق على هؤلاء الذين يفككون الفحم من طبقة الفحم ، والحمالين الذين عليهم أن يرفعوا على الدوام كتل ثقيلة من الفحم إلى داخل البراميل ، ويهرمون عند سن التاسعة والعشرين أو الثلاثين ، حتى أن هنالك قول مأثور فى مناطق مناجم الفحم ، بأن الحمالين يشيخون قبل أن يصلوا إلى سن الشباب . ويصبح موت الفحامين أثر تلك الشيخوخة التى جاءت قبل أوانها أمر بديهى ، والرجل الذى يبلغ الستين من عمره فيما بينهم إنما هو استثناء هائل . وحتى فى « سوث ستافورد شاير » ، حيث المناجم صحية نسبياً ، فإن قليلا من الرجال هم الذين يصلون إلى سن الخمسين . وإلى جانب هذا التقاعد المبكر للعمال عن العمل ، فإننا نجد ، كما هو الحال فى المصانع ، نقصاً عاماً فى تشغيل الرجال الأكبر سنا ، والذين يعولهم فى الغالب ، صبية صغار للغاية . وإن نحن لخصنا فى إيجاز ، نتائج العمل فى مناجم الفحم ، فإننا سنجد ، كما وجد دكتور « سوث وود سميث » أحد المندوبين ، أن فترة الحياة التى يكون فيها الإنسان مالكا لكل قواه ، فترة الرجولة ، قد اختصرت للغاية ، إذ أن هناك إطالة فى فترة الطفولة من ناحية ، وشيخوخة مبكرة من ناحية أخرى ، بينما طول الحياة بشكل عام هو دون المتوسط . وهذا أيضاً أمر يقيد على حساب البورجوازية .

إن كل هذا يتناول فقط ، المعدل العام لمناجم الفحم الانجليزية . إلا أن هنالك الكثير منها ، بلغت فيه الأمور حداً أسوأ بكثير ، أعني تلك التى يتم فيها تشغيل طبقات رقيقة من الفحم . إن تكلفة الفحم ستكون مرتفعة للغاية ، إن أزيح أى جزء من الرمال أو الطفلات المحيطة به ، ولذا فإن أصحاب المناجم لا يسمحون

بالعمل إلا فى طبقات الفحم فقط ، ولذا فإن الممرات التى يصل إرتفاعها إلى أربعة وخمسة أقدام وأكثر ، فى أى مكان آخر ، تظل هنا منخفضة ، إلى حد أن مسألة الوقوف فيها منتصب القامة ، أمر لا يمكن التفكير فيه . إن العامل يرقد على جنبه ، ويفكك الفحم بمعوله ، مستنداً على كوعة ، مستخدماً إياه كمحور ، مما يصيبه بالتهابات المفصل ، وفى الحالات التى يضطر فيها للإستناد على ركبته ، فإنه يصاب بالتهابات الركبة أيضاً . إن النساء والصبية الذين عليهم نقل الفحم ، يزحفون على أيديهم وركبهم ، وقد شدوا إلى البراميل بعدة كعدة الفرس وسلسلة (تمر غالباً بين الأرجل) بينما هنالك من الخلف رجل يدفع البرميل بيديه ورأسه . إن الدفع بالرأس يولد إلتهابات موضعية ، وأورام مؤلمة وقرح . وفى كثير من الأحيان أيضاً ، تكون المداخل مبللة ، حتى أنه يتوجب على هؤلاء العمال أن يزحفوا عبر ماء قذر أو مالح بعمق عدة بوصات ، وبالتالى فهم معرضون لإلتهابات معينة فى الجلد ويمكن بالفعل تصور الحد الكبير الذى يغذى به هذا الكدح الاستعبادى المخيف بوجه عام تلك الأمراض التى أصبحت مميزة لعمال المناجم .

إلا أن تلك الأمور ، ليست هى كل الشرور التى تحط على رأس عامل المناجم ، إذ لا توجد مهنة فى كل الإمبراطورية البريطانية ، يمكن أن يلقى فيها الرجل نهايته ، بطرق عديدة شديدة التباين كتلك المهنة . إن منجم الفحم مسرح لعديد من أشد النكبات بشاعة ، وتأتى تلك المآسى مباشرة ، من أنانية البورجوازية . إن غاز الهيدروكربون الذى يظهر بوفرة كبيرة فى تلك المناجم ، يشكل عندما يتحد مع الهواء الجوى ، متفجراً يشتعل عند ملامسة أى لهب ، ويقتل كل من يكون فى متناوله أن مثل تلك الانفجارات تحدث كل يوم تقريباً ، فى منجم أو آخر . ففى ٢٨ سبتمبر ١٨٤٤ قتل إنفجار ٩٦ رجلا فى منجم «هاسويل» للفحم الحجرى فى « دورهام ». إن غاز حامض الكربونيك ، والذى يظهر أيضاً فى كميات كبيرة ، يتجمع فى الأجزاء الأكثر عمقاً من المنجم ، وهو غالباً ما يصل إلى إرتفاع قامة رجل ، ويخنق كل من بداخله . إن الغرض من الأبواب التى تفصل أجزاء المنجم ، أن تمنع إشاعة الإنفجارات وحركة الغازات ، ولكن حيث أنها معهود بها إلى صبية صغار ، غالباً ما يسقطون نياماً أو يهملون تلك الأبواب ، فإنها تصبح

وسيلة منع وهمية . إن تهوية ملائمة للمناجم ، بواسطة مداخل للهواء النقى ، يمكن أن تزيح على وجه التقريب ، تلك التأثيرات الخطرة لكلا الغازين . إلا أنه ليس لدى البورجوازية ما لا تستغنى عنه ، مفضلة أن تأمر العمال باستعمال « مصباح دافى » ، وهو مصباح عديم الفائدة لضوئه المعتم ، ولذا فإنهم عادة ما يستبدلونه بشمعة . وإن حدث إنفجار ، وقع اللوم على تهور عامل المنجم ، رغم أنه فى وسع البورجوازى أن يجعل الانفجار الوشيك مستحيلا بتوفير تهوية جيدة . وأكثر من ذلك ، فإن سقفاً من أسقف المنجم ، يسقط كل بضعة أيام ، فيدفن العمال المشتغلين فيه أو يمزقهم. إن من صالح البورجوازى أن يجرى العمل كاملا نادر الطائفة فى طبقات الفحم ، ومن ثم تقع حوادث من هذا النوع . ثم هنالك أيضاً ، تلك الحبال التى ينزل بها الرجال إلى المناجم ، وهى غالباً ما تكون مهترئة ، فتتقطع ، ويسقط تعساء الحظ ويتحطمون . إن كل تلك الحوادث ، وليس لدى متسع لحالات خاصة ، تقتل سنوياً ، طبقاً « الماينينج جورنال » قرابة الألف وربعمائة آدمى . وتكتب « المانشستر جارديان » عن حادثتين أو ثلاث على الأقل كل أسبوع ، فى « لانكشاير » وحدها . إن الجماعات التى تشكل محلفى قاضى تحقيق الجنايات فى كل مناطق التعدين تقريباً ، وفى كل الحالات تقريباً ، إنما هى من هؤلاء التابعين لأصحاب المناجم ، وحيث لا يكون الوضع كذلك ، فإن العادة المأخوذ بها منذ القدم تؤكد أن القرار سيكون « الموت قضاء وقدراً » . وإلى جانب ذلك ، فإن جماعة المحلفين لا تهتم إلا قليلا جداً بحالة المنجم ، حيث أنها لا تفهم شيئاً فى هذا الموضوع . إلا أن « لجنة تشغيل الصبية » ، لا تتردد فى جعل أصحاب المناجم مباشرة ، هم المسئولين عن العدد الأكبر من هذه الحالات .

أما بالنسبة لتعليم وأخلاقيات أهل التعدين ، فإنها جيدة إلى حد ما فى « كورنوال » ، ورائعة فى « الستون مور » ، طبقاً لتقرير لجنة تشغيل الصبية ، أما فى مناطق الفحم بشكل عام ، فإن ما يكتب عنهم يشير إلى عكس ذلك ، يشير إلى أنهم فى مستوى منحط للغاية . إن العمال يعيشون فى الريف فى مناطق مهملة ، وهم إن قاموا بعملهم المرهق ، فلا إنسان خارج إطار قوة الشرطة ، يشغل نفسه بأمرهم . ومن ثم ، وبسبب السن الغضة التى يبدأ فيها الصبية عملهم ، فإن نتيجة ذلك ، هى إهمال تعليمهم العقلى كلية . إن المدارس النهارية ليست فى متناولهم ، كما

أن المدارس الليلية ومدارس أيام الآحاد ، ما هى إلا عورات لا قيمة لمدرسيها. وبالتالى فإن قليلين هم من فى وسعهم القراءة ، وأقل من القليل هم من فى وسعهم الكتابة . إن النقطة الوحيدة التى ما تزال عيونهم مفتوحة عليها ، هى أن أجورهم منخفضة للغاية بالنسبة لعملهم الخطير البغيض . إنهم نادراً ما يذهبون إلى الكنيسة ، أو لا يذهبون البتة إليها . إن كل رجال الدين يشتكون من أن كفرهم لا يضارعه كفر . والحقيقة ، هى أن جهل عمال المصانع ، والذى وضح فى كثير من الأمثلة فى الصفحات السابقة ، يعتبر أمراً تافهاً إذا قورن بجهالة عمال التعدين بالمسائل الدينية والمسائل المقدسة بالمثل . إن مقولات الدين معروفة لديهم فقط ، من خلال لعناتهم وسبهم للدين . أن أخلاقهم قد حطمها عملهم ذاته . أما أن عمل عمال المناجم الزائد عن الحد ، يولد لديهم إدمان الخمر ، فهو أمر يوضح نفسه بنفسه . أما عن علاقاتهم الجنسية ، فإن الرجال والنساء والصبية يعملون فى المناجم فى أحوال كثيرة ، عرايا تماماً ، وشبه عرايا فى أغلب الأحوال ، بسبب الحرارة السائدة . والنتائج فى ظلام المناجم الموحشة أمر يمكن تصوره . إن عدد الأبناء غير الشرعيين هنا متفاوت إلى حد كبير ؛ وهو يشير إلى ما يجرى تحت الأرض بين قوم نصف متوحشين . وهو يثبت أيضاً أن الجماع غير الشرعى بين الجنسين هنا لم ينحدر إلى مستوى الدعارة كما فى المدن الكبرى . إن تشغيل المرأة يؤدى إلى نفس النتائج التى أدى إليها عملها فى المصانع ؛ إنه يحلل الأسرة ؛ ويجعل الأم غير قادرة كلية على العمل المنزلى .

وعندما وضع « تقرير لجنة تشغيل الصبية » أمام البرلمان ، فإن اللورد (أشلى) أسرع بتقديم لائحة تمنع اشتغال المرأة نهائياً فى المناجم ، وتحد إلى حد كبير من تشغيل الصبية . وتم تبنى اللائحة ، إلا أنها ظلت حبراً على ورق فى كثير من المناطق ، حيث لم يعين مفتشو مناجم لمراقبة وضعها فى التنفيذ(٢٠) . إن التحايل على القانون أمر سهل للغاية فى المناطق الريفية حيث تقع المناجم ، كما أن أحداً لم تصبه الدهشة عندما وضع « إتحاد عمال المناجم » فى العام الماضى ، مذكرة رسمية أمام وزير الداخلية ، جاء فيها : أنه توجد أكثر من ستين امرأة تعمل فى مناجم فحم « ديوك » فى « هاميلتون » فى « أسكتلندا » أو ما كتبت عنه « المانشستر جارديان » بأن فتاة قد هلكت فى انفجار وقع فى منجم قرب « ويجان » ولم

عيزج أحد نفسه أبعد مدى من ذلك ، فيما يخص حقيقة أن تحديا على القانون قد انكشف بذلك النبأ . وفى بعض الحالات الفردية ، كان يوقف مستخدم النساء ؛ إلا أن الحال القديم للأمور إستمر بشكل عام كما كان من قبل .

ليست تلك هى كل البلايا التى يعرفها عمـــال المناجم على أى حال . إن البورجوازية لا تكتفى بتدمير صحة هؤلاء الناس . وبوضعهم تحت الموت المفاجىء ويسلبهم من كل فرص التعليم ، بل هى تعمل على نهبهم من كل ناحية ، بأكثر السبل وقاحة . إن نظام المقايضة هنا هو القاعدة وليس الاستثناء ، وهو يمارس بأكثر الصور صراحة وسفوراً . كما أن نظام الكوخ أيضاً نظام عام ، ويكاد هنا أن يكون ضرورة، إلا أنه يستعمل هنا لنهب العمال بصورة أفضل . ويجب أن يضاف إلى كل وسائل القهر تلك كل أنواع الغش والخداع الصريح . إذ بينما يباع الفحم بالوزن ، فإن أجور العمال تحسب أساساً بالمكيال ، وإذا لم يكن برميل العامل ممتلئاً إمتلاء تاماً ، فإنه لا يتناول أجراً مهما كان ؛ بينما لا يحصل على مليم واحد لما يزيد عن المكيال . وإن كان هنالك زيادة ، عن كمية معينة ، من التراب فى البرميل ، وهو أمر يتوقف على طبيعة طبقة الفحم أكثر مما يتوقف على عامل المنجم ، فإنه لا يفقد فقط كل أجره ، بل إنه يجازى إلى جانب ذلك . إن نظام الغرامات فى مناجم الفحم على درجة عالية من الاتقان بشكل عام ، حتى أن البائس التعس الذى يعمل الأسبوع بطوله ، يعلم أحياناً عندما يذهب ليأخذ أجره من الملاحظ — وهو الذى له مطلق الحرية فى توقيع الغرامات دون إخطار العمال — فإنه ليس فقط ، لا يستحق أجراً ، بل عليه أن يدفع كذا وكذا الكثير من الغرامات الزائدة ! إن للملاحظ بشكل عام ، سطوة مطلقة على الأجور ، إنه يدون العمل المنجز ، وفى وسعه أن يحدد على مزاجه ما يدفعه للعامل ، الذى هو مضطر للتسليم بذمته . وتستخدم فى بعض المناجم ، حيث يكون الأجر طبقاً للوزن ، موازين عشرية مزيفة ، إذ أن الموازين لا تتعرض لتفتيش السلطات . ولقد كان هنالك بالفعل نظام فى أحد مناجم الفحم ، يقضى بأنه على العامل الذى ينوى الشكوى من زيف الموازين ، أن يقدم مذكرة بذلك إلى الملاحظ ، قبل شكواه بثلاثة أسابيع ! ولقد جرت العادة فى كثير من المناطق ، وخاصة شمال انجلترا ، إلى ربط العمال بالعمل مدة عام ، وهم يتعهدون بعدم العمل عند أى

مستخدم آخر طوال ذلك الوقت ، إلا أن صاحب العمل لا يتعهد من ناحيته بإعطائهم عملا ، وبذا يظلون بلا عمل عدة شهور معاً ، وإن نشدوا العمل فى مكان آخر ، فإنهم يرسلون إلى آلة تعذيب المذنبين مدة ستة أسابيع لعدم الوفاء بالعقد. ويوعد عمال المناجم ، فى عقود أخرى بعمل تصل قيمته إلى ٢٦ شلناً كل ١٤ يوماً ، إلا أن هذا الوعد لا يتم تنفيذه ، ويدفع المستخدمون لعمال المناجم ، فى بعض العقود الأخرى ، مبالغ صغيرة مقدماً ، ليعملوا بها فيما بعد ، وهم بذلك يقيدون المدينين بهم . ولقد جرت العادة فى الشمال بشكل عام ، على دفع الأجور متأخرة أسبوعاً عن موعدها ، وبذا يربطون العمال بسلاسل إلى عملهم ولإستكمال عبودية هؤلاء العمال المستعبدين ، فإن كل « قضاة الصلح » فى مناطق الفحم ، هم على وجه التقريب ، أصحاب المناجم أنفسهم ، أو أقرباء وأصدقاء أصحاب المناجم ، ويكادوا يملكون سلطة بلا حدود فى تلك المناطق التعسة المتخلفة ، حيث يوجد القليل من الصحف ، وهذه القلة فى خدمة الطبقة الحاكمة ، ولا شيء آخر غير قليل من أعمال الإثارة . إن كيفية سلب عمال المناجم التعساء هؤلاء ، وكيفية استبداد « قضاة الصلح » بهم ، هؤلاء الذين يقومون بدور القضاة فى قضيتهم الخاصة ، لأمر يفوق تصور المرء .

هكذا جرت الأمور لزمن طويل . العمال لا يعرفون شيئاً أفضل من أنهم قد وجدوا هناك بغرض إختلاس حياتهم ذاتها . إلا أنهم بالتدريج وفيما بينهم ، خاصة فى المناطق الصناعية ، حيث يثمر الإتصال بعمال أكثر ذكاء ، وحيث نشأت روح معارضة لظلم وجود « ملوك الفحم » ، بدأو فى تكوين نقابات ، والقيام بإضراب ما بين وقت وآخر . وإنضموا إلى « الميثاقيين » قلباً وقالباً فى المناطق المتحضرة . وظلت مناطق الفحم الضخمة فى شمال انجلترا والمعزولة عن كل مخالطة صناعية ، متخلفة ، حتى نشأت بعد مجهودات عدة ، ترجع جزئياً إلى « الميثاقيين » ، وجزئياً إلى العمال الأكثر ذكاء بين عمال المناجم أنفسهم ، روح المعارضة عام ١٨٤٣ ، ولقد سيطرت تلك الحركة على العمال فى « نورثومبرلاند » و « دورهام » ، حتى أنهم وضعوا أنفسهم فى صدارة اتحاد شامل لعمال المناجم فى طول المملكة وعرضها ، وعينوا « و.ب. روبرتس» « مدعياً عاماً » لهم ، وهو « ميثاقى » كان يعمل وكيل قضايا فى « بريستول » ، وكان قد اشتهر فى المحاولات

المبكرة «للميثاقيين» . وسرعان ما انتشر الاتحاد عبر الغالبية العظمى من المناطق . وعين الوكلاء من كل النواحى ، وعقدوا إجتماعات فى كل مكان ، وكسبوا أعضاء جدد . ولقد مثل المؤتمر الأول للمندوبين فى «مانشستر» عام ١٨٤٤ - ٦٠,٠٠٠ عضو ، ومثل المؤتمر الثانى الذى إنعقد فى « جلاسجو » بعد ستة شهور ١٠٠,٠٠٠ عضو . هنا ، نوقشت كل أمور عمال المناجم ، وأخذت قرارات خاصة بالإضرابات الكبيرة ، وأسست عدة صحف وخاصة «الميترز ادفوكات» ، فى « نيوكاسل - تاين » للدفاع عن حقوق عمال المناجم . وفى ٣١ مارس ١٨٤٤ ، أنهيت كل عقود العمال ، و « وض « روبرتس » فى كتابة إتفاق جديد ، طالب الرجال فيه بما يلى : —
(١) يحسب الأجر على أساس الوزن لا على أساس المكيال . (٢) تحديد الوزن بموازين عادية خاضعة للمفتشين العموميين . (٣) تجديد العقود كل نصف سنة . (٤) إلغاء نظام الغرامات ، ويكون الأجر طبقاً للعمل المنجز بالفعل . (٥) أن يضمن المستخدمون للعمال أربعة أيام عمل على الأقل فى الأسبوع ، أو أجور هذه الأيام الأربعة طوال فترة عملهم الشاملة . ورفع العقد إلى « ملوك الفحم » وعين وفد مفوض ، للتفاوض معهم ، إلا أنهم ردوا بأن الاتحاد غير قائم بالنسبة لهم ، وأنهم يتعاملون مع العمال كأفراد فقط ، وأنهم لن يعترفوا بالاتحاد .. وقدموا هم أيضاً إتفاقاً خاصاً بهم ، تجاهل كل النقاط السابقة ، وكان من الطبيعى أن يرفضه عمال المناجم . وبذا أعلنت الحرب . وفى ٣١ مارس ١٨٤٤ ، ألقى ٤٠,٠٠٠ من عمال المناجم بمعاولهم ، ووقفت كل المناجم فى الريف خالية . كانت مدخرات الاتحاد كبيرة إلى حد ضمان إعانة أسبوعية لكل أسرة قدرها ٢ شلن ، ٦ بنسات لعدة شهـــور . وبينما كان العمال ، يضعون بذلك صبر سيادتهم فى الإختبار ، نظم (روبرتس) كلا من الإضراب وعملية الإثارة ، بمثابرة منقطعة النظير ، أعد لعقد الاجتماعات ، قطع انجلترا من طرف إلى آخر ، كان أسلوبه فى الإثارة سلمياً وقانونياً ، وحمل حملة صليبية ضد « قضاة الصلح » الظالمين وضد سادة المقايضة ، حمل حملة لم يعرف لها مثيل فى انجلترا من قبل . لقد بدأ هذه الحملة مع بداية العام . إذ عندما كان يدين «قاضى الصلح» عاملا من عمال المناجم ، كان يحصل له من محكمة هيئة قضاء الملكة ، على أمر بأن يمثل أمام القاضى للتحقيق فى عدم قانونية إحتجازه ، وكان يحضر عميله إلى لندن ، ضامنا تبرأته على الدوام . وبناء على ذلك ، برأ القاضى « ويليامز » من هيئة قضاء الملكة ، فى ١٣ يناير ثلاثة من

عمال المناجم كان « قضاة الصلح » فى « بيلستون » ، « سوث ستافورد شاير » قد أدانوهم . كانت تهمة هؤلاء الرجال ، أنهم قد رفضوا العمل فى مكان مهدد بالانهيار على من فيه ، وبالفعل إنهار هذا المكان قبل عودتهم . وفى مناسبة سابقة مبكرة ، برأ القاضى « بانيسون » ستة من العمال ، حتى أن إسم « روبرتس » بدأ يصبح رعباً لأصحاب المناجم . وفى « بريستون » وضع أربعة من زبائنه فى السجن ، وإنتقل فى الأسبوع الأول من يناير إلى هناك ليفحص الحالة فى موقعها ، لكنه وجد عندما وصل ، أن المحكوم عليهم قد أفرج عنهم قبل نهاية الحكم . وفى « مانشستر » كان هنالك سبعة عمال فى السجن ، وحصل لهم « روبرتس » على أمر تحقيق لعدم قانونية إحتجـــازهم ، وبرؤوا جميعاً أمام القاضى « ديتمان » وفى « بريسكوت » كان هنالك تسع عمال مناجم فى السجن ، متهمين بخلق الإضطرابات فى « سانت هيلز » « سوث لانكشاير » . كانوا فى إنتظار المحاكمة ، وعندما وصل « روبرتس » إلى المكان ، أخلى سبيلهم على الفور . كل ذلك وقع فى النصف الأول من فبراير . وفى أبريل أطلق « روبرتس » سراح عامل مناجم من السجن فى « دربى » ، وأربعة فى « ويكفيلد » وأربعه فى « ليسستر » . وسار الحال على هذا المنوال فترة من الزمن ، حتى وصلت « كلاب الحراسة » تلك إلى احترام عمال المناجم بعض الاحترام . وحل بنظام المقايضة نفس المصير . كان « روبرتس » يقدم أصحاب المناجم سيئى السمعة واحداً بعد الآخر أمام المحاكم ، ويضطر قضاة الصلح الكارهين ، على إدانتهم ، وانتشر الفزع بينهم من هذا « المدعى العام » الذى يبدو كوميض البرق ، وكأنه فى كل مكان ، حتى فى « بيلبر » مثلا ، نشرت إحدى شركات المقايضة الإعلان التالى :

« إعلان »

مناجم بنتريك للفحم

« يعتقد لسادة « هاسلام » ، أنه من الضرورى ، منعاً لكل الأخطاء ، أن يعلنوا أن كل الأشخاص الذين يعملون فى مناجم الفحم الخاصه بهم ، سيتسلمون أجورهم بالكامل نقداً ، وأنه فى وسعهم ، أن يصرفوها فى الوقت وبالطريقة التى يختارونها ، فإن اشتروا بضائع من حوانيت لسادة «هاسلام» ، فإنهم سيتسلمونها

كما كان قبلا بأسعار الجملة ، غير أنه ليس متوقعاً منهم أن يبتاعوا بالضرورة من هناك ، وسيستمر العمل والأجور كالمعتاد ، سواء تمت المشتروات من هذه الحوانيت ، أو من أى مكان آخر » .

وأثار هذا الإنتصار أشد صور البهجة عبر الطبقة العاملة الانجليزيه ، وجلب للاتحاد كتل من الأعضاء الجدد . وفى تلك الأثناء ، كان الإضراب فى الشمال يتقدم ، لم تتحرك يد واحدة للعمل ، وجردت « نيوكاسل » الميناء الرئيسى للفحم من بضاعتها ، حتى أن الفحم كان يؤتى به إليها من الساحل الاسكتلندى ، رغم الحكمه المأثورة* . فى البداية ، عندما كانت مدخرات « الاتحاد » صامدة ، سارت كل الأمور سيراً حسناً ، إلا أن الصراع باقتراب الصيف ، صار أكثر ايلاما لعمال المناجم . لقد ساد العوز الأكبر فيما بينهم ، لم يكن لديهم نقوداً ، لأن إعانات عمال كل فروع الصناعة فى إنجلترا كانت ذات نفع قليل أمام العدد الزاخر من المضربين ، مما اضطرهم إلى الاقتراض من أصحاب الحوانيت الصغيرة بخسارة وبيلة . لقد كانت الصحافة كلها ، ما عدا الصحافة البروليتارية القليلة ، ضدهم ، وحتى القليلين من البورجوازية ، والذين يحتمل أن يكون لديهم إحساس كاف بالعدالة كى يدعموا عمال المناجم ، كانوا لا يعرفون عنهم غير أكاذيب صحافة « المحافظين » و « الأحرار » العفنة . وحصل وفد مكون من إثنى عشر عاملا من عمال المناجم الذين ذهبوا إلى لندن على مبلغ من البروليتاريا هناك ، إلا أنه أيضاً لم يدم طويلا بين الجمهرة التى تحتاج للدعم . ومع هذا ورغم كل ذلك ، فإن عمال المناجم ظلوا ثابتين . إن الأمر الذى كان له مغزى أكبر — هو أنهم كانوا هادئين فى مواجهة كل الأعمال الاستفزازية والعدائية التى قام بها أصحاب المناجم وخدمهم المخلصين . لم ترتكب اى أعمال إنتقامية ، ولم تسىء معاملة أى مرتد ، ولم تقع عملية سرقة واحدة . وبذا إستمر الإضراب اربعة شهور على نحو جيد ، ومازال أصحاب المناجم بلا أمل فى أن تكون اليد العليا لهم . إلا أن طريقاً كان ما يزال مفتوحاً أمامهم ، على أى حال . لقد تذكروا نظام الكوخ ، لقد خطر

---

* فى الأصل الألمانى ، تستمر الجملة الأخيرة على النحو التالى « رغم أن نقل الفحم إلى نيو كاسل ، فى انجلترا ، يعطى نفس المعنى القائل ، « بنقل البوم إلى أثينا » ، فى اليونان ، أى أن تفعل شيئا لا لزوم له على الإطلاق » — ناشر الطبعة الانجليزية .

لهم أن منازل المتمردين إنما هى « ملكهم » الخاص . ونفذ الإجراء بوحشية تستثير الثورة . فقد أزيح المرضى وضعاف الصحة وكبار السن من الرجال ، والصبية الصغار وحتى النساء الذين هم فى حالة وضع ، من أسرتهم بلا رحمة . وألقى بهم فى الحفر الموجودة فى جانب الطريق ، لقد جر أحد العملاء إمرأة كانت فى فترة الوضع من شعرها ، من سريرها إلى الشارع . كانت هنالك حشود من الجنود ورجال الشرطة ، مستعدين لإطلاق النار عند أول بادرة للمقاومة ، عند أقل إشارة من قضاة الصلح ، الذين مهدوا السبيل لكل هذه الإجراءات الوحشية . كانوا يأملون فى أن يلجأ الرجال إلى العنف ، لقد كانوا يستفزونهم بكل أشكال القوة كى يخالفوا القوانين ، يجدوا مبرراً لإنهاء الإضراب بالتدخل العسكرى . إلا أن عمال المناجم الذين لا مأوى لهم ، ظلوا ساكنين صامدين ، وهم يتذكرون تحذيرات « مدعيهم العام » ، وقد وضعوا حاجياتهم المنزلية فوق الأرض السبخة أو الحقول التى تم حصادها . وحط البعض منهم ، والذى لا مأوى آخر له ، حط رحاله فى الحفر وعلى جانبى الطريق وحط آخرون فوق أرض مملوكة للغير ، ومن ثم فقد رفعت ضدهم الدعاوى ، وكانوا يغرمون جنيهاً مقابل كل «خسارة تسببوا فيها، يساوى قدرها نصف بنس» ، ولما كانوا عاجزين عن الدفع ، فقد عملوا على آلات تعذيب المدنيين بدلا من الغرامة ، وهكذا عاشوا هم وعائلاتهم ثمانية أسابيع وأكثر من أيام الصيف الأخيرة الرطبة، تحت السماء المكشوفة ، دون أى مأوى لهم ولصغارهم غير ستائر سررهم المصنوعة من البفتة ، ودون أى عون آخر غير المساعدات الزهيدة التى يقدمها « إتحادهم » ، والتعامل بالنسيئة مع صغار التجار ، وهو تعامل سريع الإنكماش ، ولذا هدد « اللورد ديرى » وهو مالك مناجم هائلة فى « دور هام » ، أصحاب الدكاكين الصغار فى « مدينته » من أعمال « سيهام » ، بأشد درجات غضبه إن هم إستمروا فى إقراض « عمالة » المتمردين . إن هذا اللورد « النبيل » قد جعل من نفسه المهرج الأول للإضراب ، بسبب الفرمانات المختالة المثيرة للسخرية ، والتى كان يوجهها إلى العمال دون أن يكون لها محل من الإعراب ، والتى كان ينشرها من حين لحين ، دون أية نتيجة غير إدخال البهجة على الأمة . وعندما لم تجدى كل تلك الجهود ، قام أصحاب المصانع بإستيراد أيدى عاملة من إيرلندا بتكلفة عالية ،

لقد إستوردوا العمال من الأجزاء النائية من ويلز والتى لم توجد بها بعد حركة عمالية . وبذا أعيدت منافسة العمال للعمال ، فإنهارت قوة المضربين . وإضطرهم أصحاب المناجم إلى التبرؤ من « الإتحاد » وإلا هجران « روبرتس » ، وقبول الشروط التى وضعها المستخدمون . وبذا إنتهت ، فى آخر سبتمبر ، معركة الشهور الخمس الكبرى ، لعمال مناجم الفحم ضد أصحاب المناجم ، معركه خاضها المضطهدون بجلد وشجاعة وذكاء وهدوء أعصاب يستحق أعلى درجات الاعجاب . أى قدر من التحضر الانسانى الحقيقى ، من الحماس ومتانة الخلق ، تضمنته مثل تلك المعركه ، من جانب الرجال الذين وصفوا حتى عام ١٨٤٠ ، بأنهم متوحشون غاية الوحشية وقاصرين فى حسهم الخلقى ! كما جاء فى « تقرير لجنة تشغيل الصبية » . ولكن ، كم من الضرورى أيضاً ، أن يكون هذا الضغط الذى دفع هؤلاء الأربعين ألفاً من عمال مناجم الفحم الحجرى قاسياً ، ليهبوا هبة رجل واحد ، وأن يقاتلوا المعركة ، ليس فقط كجيش متحمس أيضاً ، جيش يملك إرادة واحدة ، بأكبر قدر من هدوء الأعصاب ورباطة الجأش ، إلى نقطة تصبح المقاومة بعدها ضرباً من الجنون . وأية معركة ! إنها ليست معركة ضد أعداء الداء مرئيين ، لكنها معركة ضد الجوع والعوز والشقاء والتشرد ، ضد عواطفهم الخاصة التى تستفزها وحشية الثروة إلى حد الجنون . ولو حدث أن لجأ العمال إلى العنف من ثورتهم ، وهم العزل دون حماية ، لضربوا بالرصاص ، وكان يوم أو إثنان كافيان لحسم إنتصار أصحاب المصانع . إن هذا الاحتياط إلتزاماً بالقانون ، لم يكن خوفاً من أركان حرب الكونستبلات ، لكنه كان نتاج المداوله والتمعن ، وهو أفضل دليل على ذكاء العمال وسيطرتهم على أنفسهم .

وهكذا أجبر العمال مرة أخرى على الخضوع لبأس رأس المال ، رغم جلدهم الذى لا مثيل له . إلا أن القتال لم يكن عبثاً ، وأول شىء هو أن أسابيع الاضراب التسعة عشر تلك ، قد إنتزعت عمال مناجم شمال إنجلترا ، وإلى الأبد ، من الموات الذهنى الذى كانوا يرقدون فيه حتى الآن . لقد هجروا سباتهم ، وغدوا يقظين للدفاع عن مصالحهم ، ودخلوا حركة التحضر ، خاصة حركة العمال . إن الاضراب الذى وضع كل وحشية الملاك فى الضوء لأول مرة ، قد أسس معارضة العمال هنا وإلى الأبد ، وجعل ثلثى العمال على الأقل « ميثاقيين » إن

كسب ثلاثين ألف من أمثال هؤلاء الرجال ذوى العزم والخبره إلى « الميثاقيين » لهو أمر له بالقطع قيمته الضخمة ، كذلك ، فإن الالتزام بالقانون والجلد الذى ميز الاضراب كله ، مرتبطاً بالاثارة النشطة التى صاحبته ، قد ركز الانتباه العام على عمال المناجم . ولقد أثار « توماس دونكومب » العضو الوحيد « المؤكد ميثاقيته » فى « مجلس العموم » حال عمال المناجم ، بمناسبة مناقشة ضريبة التصدير على الفحم ، وقرأ إلتماساً لهم ، وبذا أجبر الصحافه البورجوازية بحديثه هذا ، على أن تنشر على الأقل بياناً صحيحاً عن الحالة ، فى تقاريرها عن الأعمال البرلمانية ولقد وقع انفجار فى « هاسويل » بعد الإضراب مباشرة ، وذهب « روبرتس » إلى لندن ، وطالب بإجتماع مع « بيل » ، وأصر باعتباره ممثلا لعمال المناجم ، على إجراء بحث دقيق للحالة . ونجح فى أن يعهد إلى البروفسورين « لييل » و « فاراداى » وهما أبرز مشهورين فى الجيولوجيا والكيمياء فى انجلترا ، بزيارة المكان . وحيث أن إنفجارات أخرى قد وقعت بعد ذلك فى تتابع سريع ، فإن « روبرتس » وضع التفصيلات مرة أخرى أمام رئيس الوزراء ، الذى وعد أن يقترح كل التدابير اللازمة لحماية العمال ، فى دورة البرلمان التالية ، أى الدورة الحالية لعام ١٨٤٥ ، إن كان ذلك ممكنا . ماكان كل هذا ليتم إن لم يكن هؤلاء العمال قد أثبتوا ، عن طريق الإضراب ، إنهم رجال محبون للحـرية ، ويستحقون كل احترام ، وإن لم يكونوا قد استخدموا « روبرتس » مستشاراً لهم .

ماكاد يصبح معروفا أن عمال مناجم فحم الشمال قد أجبروا على التبرىء من الاتحاد وعلى طرد « روبرتس » ، حتى كون عمال المناجم فى « لانكشاير » إتحاد من قرابة عشرة آلاف رجل ، وكفلوا « لمدعيهم العام » راتبا سنوياً قدره ١٢٠٠ جنيهاً إسترلينياً . لقد جمعوا فى خريف العام الماضى أكثر من ٧٠٠ جنيهاً إسترلينياً ، صرفوا منها أكثر من ٢٠٠ جنيهاً على الأجور ونفقات التقاضى ، وصرف الباقى أساساً فى دعم العاطلين ، بسبب إفتقادهم العمل أو بسبب نزاعاتهم مع مستخدميهم . وبذا فقد أخذ العمال يدركون بثبات وبصورة أوضح ، أنهم فى وحدتهم قوة تستحق الاعتبار أيضاً ، وأنهم فى وسعهم فى المدى الأخير ، أن يهزموا بأس البورجوازية أيضاً . إن كل ما اغتنمته كل الحركات العمالية من بعد نظر ، قد كسبه كل عمال المناجم فى انجلترا ، عن طريق « الاتحاد » والإضراب الذى تم عام ١٨٤٤ . إن التفاوت فى الذكاء والنشاط ، والموجود حالياً لصالح

عمال المصانع ، سوف تختفى فى زمن قصير للغاية ، ولسوف يصبح عمال المناجم فى المملكة ، قادرين على الوقوف معهم جنباً إلى جنب فى كل وجه من الوجوه* ، وبذا فإن قطعة وراء أخرى من الأرض التى تقف البورجوازية عليها تتقوض تحت أقدامها ، وأى قدر من الوقت سينقضى قبل أن ينهار صرحها الاجتماعى والسياسى بقواعده التى يستقر عليها ؟

إلا أن البورجوازية لن تأخذ حذرها . إن مقاومة عمال المناجم لا تفعل غير أن تزيد من إغاظتها . وبدلا من أن تعرف قيمة هذه الخطوة إلى الأمام ، فى الحركة العامة للعمال ، فإن الطبقة الممسكة بالملكية لا ترى فيها غير مصدر حنق وغضب ضد طبقة من الناس ، بلهاء إلى حد إعلان إنهم لن يذعنوا أطول من ذلك ، للمعاملة التى كانوا يتلقونها حتى الآن . إنها لا ترى فى مطالب العمال الذين لا يمتلكون ، إلا سخطا وقحاً ، وتمرداً معتوهاً ضد « النظام الإلهى والبشرى » ، وفى أحسن الأحوال نجاح (يجب أن تقاومه البورجوازية بكل بأسها) تحقق بواسطة « الديماجوجيين سيئى النية ، والذين يعيشون على الإثارة ، لأنهم أكسل من أن يعملوا » . لقد سعت دون نجاح بالطبع ، كى تصور للعمال أن « روبرتس » ووكلاء « الاتحاد » ، والذين على الاتحاد أن يدفع لهم بالتأكيد ، إنما هم نصابين وقحين ، يسحبون آخر مليم من جيوب العمال . عندما يسود مثل هذا الخلل العقلى فى الطبقة الممسكة بالملكية ، عندما يصيبها كسبها الوقتى بمثل هذا العمى ، حتى لم يعد لديها عيون ترى أكثر دلالات الأزمنة ظهوراً للعيان ، فإنه يجب بالتأكيد ، إنهاء كل أمل فى حل سلمى للمشكلة الاجتماعية فى انجلترا . إن الحل الوحيد الممكن هو ثورة عنيفة ، ثورة لابد من وقوعها .

* كان لدى عمال المناجم فى تلك اللحظة عام ١٨٨٦ ، ستة من جماعتهم يجلسون فى مجلس العموم .

البروليتاريا الزراعية

لقد رأينا فى المقدمة ، كيف تحطمت البورجوازية الصغيرة والاستقلال المتواضع للعمال الأول والفلاحون الصغار أيضاً ، فى آن واحد ، عندما فض « الاتحاد » السالف بين العمل الصناعى والزراعى ، وأدخلت المزارع المهجورة جملة فى مزارع كبيرة ، وألغت المنافسة الشاملة لكبار المزارعين ، صغار المزارعين . وبدلا من أن يكونوا ملاك أرض ومستأجرين كما كانوا من قبل ، أجبروا الآن على تأجير أنفسهم كعمال للمزارعين الكبار وأصحاب الأراضى . كان هذا الوضع محتملا إلى حين رغم سوئه إن قورن بوضعهم السابق . وساير إتساع الصناعه زيادة السكان ، حتى بدأت الصناعة تتخذ خطى أبطىء ، ثم غدا من المستحيل على الصناعة أن تمتص كل فائض السكان الزراعى بسبب التحسين المستمر فى الآلة . منذ ذلك الحين وما تلاه ظهرت المحنة . كانت حتى ذلك الحين موجودة فى المناطق الصناعية فقط وفى بعض الأحيان فقط ، ظهرت المحنه فى المناطق الزراعية أيضاً . فى هذا الوقت تقريباً ، جاءت نهاية الخمسة وعشرين عاما فى الصراع مع فرنسا . وأعطى الإنتاج المتناقص للركائز المختلفة للحروب ، وقطع الواردات ، والحاجة إلى تزويد الجيش البريطانى فى أسبانيا ، وأعطى للزراعة الانجليزية رخاء خادعا ، كما سحبت بالإضافة إلى ذلك ، أعداد هائلة من العمال ، من عملهم الطبيعى إلى الجيش . إن منع تجارة الوارد ، وفرصة التصدير والطلب العسكرى على العمال ، قد بلغ الآن نهايته فجأة ، وكانت النتيجة الحتمية لذلك ، ما أسماه الانجليز بالمحنة الزراعية . كان على المزارعين أن يبيعوا قمحهم بأسعار منخفضة ، وبالتالى لم يعد فى وسعهم إلا أن يدفعوا أجوراً منخفضة . وصدرت قوانين القمح عام ١٨١٥ بغرض المحافظة على الأسعار ، مانعة استيراد القمح

طالما ظل سعره أقل من ٨٠ شلنا للوزنة* . وعدلت تلك القوانين العظيمة بالطبع عدة مرات ، إلا أنها لم تنجح فى إصلاح النكبة فى المناطق الزراعية . لم يكن كل ما فعلوه غير تغيير المرض الذى كان من الممكن أن يتخذ شكلا حاداً فى ظل المنافسة الأجنبية الواردة من الخارج — ليبلغ أوجه فى سلسلة من الأزمات تتصل فى أزمة حادة ، تنوء بثقلها — وإن كان بطريقة متسقة — على عمال المزارع .

إن العلاقة الأبوية بين السيد والرجل ، والتى تحطمت مع الصناعة ، قد أدت هنا — ولفترة من الزمن بعد نشوء البروليتاريا الزراعية — إلى نمو نفس العلاقة بين المزارع وعماله ، إن تلك العلاقة ما تزال قائمة فى كل ألمانيا تقريباً . لقد كان فقر العمال أقل وضوحا ، طالما ظلت تلك العلاقة فى حالات الضرورة القصوى ، إلا أن كل هذا قد تغير الآن . إن الأيدى التى تعمل فى المزرعة قد تحولت إلى عمال يومية فى كل مكان تقريباً ، إنهم يدعون للعمل فقط عندما يحتاج المزارعون إليهم ، وبالتالى فهم لا يجدون فى الغالب عملا لأسابيع متصلة ، وخاصة فى الشتاء . كانت الأيدى العاملة وأسرها تعيش فى الفترة الأبوية على المزرعة ، حيث كان يشب أطفالهم هناك ، وكان المزارع يحاول إيجاد عمل للجيل القادم . وكان عمال اليومية إذن ، هم الاستثناء لا القاعدة وبالتالى كان هناك فى كل مزرعة ، عدد من الأيدى العاملة أكبر من الحاجة الفعلية بالضبط . وبذا أصبح من صالح المزارعين حل هذه العلاقة ، وطرد عامل المزرعة من المزرعة ، وتحويله إلى عامل باليومية لقد حدث هذا تقريباً وبشكل عام ، نحو عام ١٨٣٠ ، وكانت النتيجة هى إطلاق فائض السكان الذى كان كامنا حتى ذلك الحين ، فالزم معدل الأجور على الانخفاض وارتفع معدل الفقر بصورة هائلة ، ومنذ ذلك الوقت صارت المناطق الزراعية بؤراً دائمة للفقر ، مثلها فى ذلك مثل المناطق الصناعية والتى كانت بؤراً دورية للفقر منذ أمد بعيد . وكان تعديل « قانون الفقراء » هو أول معيار إضطرت « الدولة » إلى تطبيقه على حالة الإفقار المتزايد بصـــورة يومية فى إبراشيات الريف . يضاف إلى ذلك أن الاتساع المستمر لأعمال الزراعة على نطاق واسع ، وإدخال آلات الدراسة وغيرها ، وتشغيل النساء والصبية (والذى هو الآن ظاهرة عامة ، حتى أن آثارها قد فحصت مؤخراً بواسطة مندوب رسمى خاص)،

---

* الوزنة ٢٨ رطلا (المترجم) .

قد ألقت بعدد كبير من الرجال خارج نطاق العمل . من الواضح إذن ، إن نظام الإنتاج الصناعى قد شق طريقه هنا أيضاً ، بالزراعة على نطاق واسع ، وفسخ العلاقة الأبوية والتى لها هنا أهمية قصوى ، وذلك بإدخال الآلات والبخار وعمل النساء والصبية . وبهذا الفعل . فإن آخر جزء من البشرية العاملة وأكثرها سكونا قد شد إلى الحركة الثورية . إلا أنه بقدر ما طال سكون الزراعة ، بقدر ما غدا الحمل الآن ثقيلا فوق العامل ، بقدر ما ظهرت نتائج الإخـــلال بنظام النسيج الاجتماعى القديم بعنف . وظهر « فائض السكان » للتو إلى الضوء . لم يكن من الممكن امتصاصه عن طريق حاجات الإنتاج المتزايد ، كما يحدث فى المناطق الصناعية . إذ من الممكن دوما بناء مصانع جديدة ، إن كان هناك مستهلكين لمنتجاتها إلا أنه لا يمكن خلق أرض جديدة . إن فلاحة الأرض البور المشاعة ، كان فكرة جريئة للغاية بالنسبة للأوقات السيئة التى تلت نهاية السلام . إن المنافسة بين العمال بعضهم البعض — كنتيجة حتمية — قد بلغت أعلى درجات الحدة ، كما أن الأجور هبطت إلى أدنى حد . إن العمال يتسلمون إعانة من الضرائب المحلية ، مادام « قانون الفقراء »* القديم مازال قائماً ، وهبطت الأجور بالطبع إلى مستو أكثر إنخفاضاً ، حيث إضطر المزارعون أكبر عدد من العمال للمطالبة بالمعونة . إن المعدل الأكثر إرتفاعا للفقراء ، والذى يوجبه فائض السكان ، قد إزداد فقط بهذا الإجراء ، وشرع « قانون الفقراء » الجديد كعلاج ، وهو القانون الذى سنتحدث عنه فيما بعد . إلا أن هذا لم يحسن الأمور . لم ترتفع الأجور ، ولم يكن فى الاستطاعة التخلص من فائض السكان ، ولم تفعل وحشية القانون الجديد شيئاً غير تغييص الناس إلى أقصى حد . وحتى معدل الفقراء ، الذى تضاءل فى البداية بعد الموافقة على القانون الجديد ، إستعاد إرتفاعه القديم بعد سنوات قليلة . وكان تأثيره الوحيد ، أنه بينما كان يوجد من ثلاثة إلى أربعة ملايين من أنصاف المعوزين فيما سبق ، فقد ظهر الآن مليونين من المعوزين تمام العوز وظل الباقون نصف معوزين ، فقط دون إعانة . إن الفقر فى المناطق الزراعية قد إزداد كل عام . إن الناس يعيشون فى أكبر عوز وحاجة ، إن عائلات بأكملها يجب أن

* انظر أسفل صفحة ٣٢٨ من هذا الجزء — الناشر .

تكافح قدما بست أو سبع أو ثمان شلنات فى الأسبوع ، وفى بعض الأحيان لا يكون لديها أى شىء . دعونا نستمع إلى وصف لهؤلاء السكان ، قدمه عضو برلمان من « الأحرار » فى فترة مبكرة من عام ١٨٣٠* .

«عامل زراعى إنجليزى ومعوز إنجليزى إنما هى كلمات مترادفة. لقد كان أبوه معوزاً ، ولم يكن يحتوى لبن أمه على أى قوت . منذ طفولته المبكرة وغذاءه ردىء . إنه لا يتناول غير نصف ما يكفى لإسكات جوعه . ومع ذلك فإنه يعانى عضة الجوع الذى لم يشبع طوال يقظته ، إنه نصف مكتسى ، ليس لديه نار أكثر من تلك التى تكفى لطبخ وجبته الطفيفة . ولذا يلازمه البرد والرطوبة دوماً فى المنزل ، وهما لا يتركانه إلا إن تحسن الطقس . إنه متزوج ، لكنه لا يعرف شيئاً عن مسرات الزوج والأب . إن زوجته وأطفاله جوعى ، نادراً ما يدفأون ، مرضى وعاجزون فى غالب الأحوال تصيبهم المتاعب والهموم على الدوام . وهم بلا أمل مثله . إنهم بالطبع ممسكى اليد ، أنانيين ، مزعجين ، وبذا فإنه — طبقاً لتعبيره هو — يكره مرآهم . إنه يدخل كوخه فقط ، لأنه يقدم له مأوى من الريح والمطر ، أفضل بقدر ضئيل من ذلك الذى يقدمه سياج . عليه أن يعول أسرته ، رغم أنه لا يستطيع فعل ذلك ، وعندما تحل الفاقة ، فإنه يرتكب كل أنواع الغش والخداع ، منتهياً إلى الإحتيال الكامل التام . إنه وإن كان قد انحدر إلى هذا الحد ، فإنه ما يزال يملك الشجاعة التى تجعل ممن هم أكثر قوة وهمة فى طبقته ، لصوص صيد أو مهربين بالجملة . إلا أنه يسلب إن واتته الفرصة ، ويعلم أبناءه الكذب والسرقة. إن سلوكه الذليل المستسلم لجيرانه الأثرياء ليوضح أنهم يعاملونه بغلظة وريبة، وبالتالى فهو يخافهم ويكرههم، إلا أنه لن يضيرهم عنوة . إنه يفسد خلقياً على طول الخط ، لقد تمادى كثيراً ليمتلك قوة اليأس أيضاً . إن وجوده

---

* ا . ج . ويكفيلد ، م . ب « سوينج دون قناع ، أو سبب حرائق العمد فى الريف » لندن ، ١٨٣١ ، كتيب ربما توجد الاقتباسات السابقة فى الصفحات ٩ — ١٣ ، إن الفقرات التى تتناول ، فى الأصــل ، « قانون الفقراء » القديم والذى مازال قائماً ، قد حذفت هنا .

(لمعرفة « سوينج » ، أنظر صفحات ٣٠٧ ، ٣٠٨ من هذا الجزء — الناشر) .

التعس قصير ، إن الروماتيزم والربو يقودانه إلى دار تشغيل الفقراء ، حيث يلفظ أنفاسه الأخيرة دون ذكرى واحدة مفرحة ، ويفسح المجال لتعس آخر عديم الحظ ، ليعيش ويموت كما عاش هو وكما مات » .

ويضيف كاتبنا أنه إلى جوار تلك الطبقة من العمال الزراعيين ، ما تزال هنالك طبقة أخرى أكثر نشاط إلى حد ما ، إنها موهوبة صحياً وعقلياً وأخلاقياً بطريقة أفضل ، إنها مكونة بالتحديد من هؤلاء الذين يعيشون نفس الحياة التعسة ، إلا أنهم لم يولدوا على تلك الحال . إنه يقدمهم على أنهم أفضل فى حياتهم العائلية ، إلا أن المهربين ولصوص الصيد والذين يدخلون فى صدامات دموية عديدة مع حراس غابات الصيد وضباط السواحل يصبحون أكثر شعوراً بالمرارة . ضد المجتمع ، خلال حياة السجن التى غالباً ما يقاسونها . وهكذا يقفون جنباً إلى جنب مع الطبقة الأولى فى كراهيتهما للقابضين على الملكية ، ويقول الكاتب فى النهاية « إن كل هذه الطبقة ، تدعى من باب المجاملة ، فلاحو انجلترا الجسورين » .

ان هذ الوصف ، عند الوصول إلى الوقت الراهن ، ينطبق على الجزء الأكبر من العمال الزراعيين فى إنجلترا . فلقد أرسلت « التايمز » فى يونيو ١٨٤٤ ، مراسلا إلى المناطق الزراعية ليكتب تقريراً عن وضع هذه الطبقة . وقد إتفق التقرير الذى أعده الراسل ، تمام الإتفاق ، مع ما جاء فيما سبق . كانت الاجور فى بعض المناطق لا تزيد عن ست شلنات فى الأسبوع ، أى أنها لا تزيد عن تلك التى فى كثير من المناطق فى ألمانيا ، بينما تبلغ أسعار كل ضروريات الحياة ضعفها على الأقل . أى حياة تلك التى يحياها هؤلاء الناس أمر يمكن تصوره ، إن طعامهم طفيف وردىء ، ملابسهم مهلهلة ، مآويهم أكواخ يائسة صغيرة ، مكدسة وخربة ، ليس بها أى نوع من أنواع الراحة ، كما أنه يندر فصل الرجال عن النساء ، فى المنازل المؤجرة مفروشة للشباب ، مما يحرض على الجماع غير الشرعى . أن البقاء دون عمل مدة يوم أو يومين خلال الشهر أمر لابد وأن يدهم هؤلاء الناس الذين هم فى أشد حالات الحاجة بشاعة ، يضاف إلى ذلك ، أنهم لا يستطيعون الإتحاد لرفع أجورهم ، حيث أنهم متناثرين ، وإن حدث ورفض أحدهم بمفرده أن يعمل طبقاً للأجور المنخفضة ، فهنالك العشرات بلا عمل ،

أو ممن تعولهم ضرائب البلدية ، وهم حامدين شاكرين لأشد العروض تفاهة ، بينما يرفض القائمون على « قانون الفقراء » تقديم أي إعانة ، لهذا الذي يرفض العمل ، إلا أن يعمل فى « دار تشغيل الفقراء » الكريهة ، باعتبار أنه متشرد كسول ، حيث أن الأوصياء هم أنفسهم المزارعين الذين سيطلب منهم وحدهم أو جيرانهم أو معارفهم ، عملا . إن مثل تلك التقارير لم يرد فقط من منطقة أو منطقتين بعينهما فى إنجلترا ، بل على عكس ذلك ، الضيق عام ، تتساوى ضخامته فى الشمال والجنوب ، فى الشرق والغرب . إن وضع العمال فى «سوفولك» و « نورفولك » يتطابق مع ذلك الذى فى «ديفونشاير» «وهامبشاير» «وسوسكى». إن الأجور منخفضة فى « دورسيتشاير » و « اكسفورد شاير » ، كما هو الحال « كنت » و « سورى » و « باكينجهام شاير » و « كمبريدج شاير » .

إن « قوانين الصيد » تتضمن قساوة همجية ضد الطبقة العاملة بشكل خاص ، إنها هنا أشد تضييقاً عنها فى أى بلد آخر ، رغم وفرة الصيد بصورة تفوق كل تصور . إن الفلاح الإنجليزى الذى يرى فى سرقة البط فقط ، تعبيراً طبيعياً ونبيلا عن الشجاعة والجسارة ، طبقاً للعادة والتقليد الإنجليزى التليد ، ليستفزه أكثر وأكثر ، ذلك التناقض بين فقره ومسرات اللورد ، ذلك الذى يحافظ على آلاف الأرانب البرية وطيور الصيد لمتعته الخاصة . إن العامل ينصب الشراك ، أو يطلق النار هنا وهناك على قطعة من الصيد ، إن هذه القطعة لن تضير المالك فى الحقيقة ، إذ لديه فائض وفير ، فى حين أنها تقدم لسارق الصيد ، وجبة له ولأسرته الجائعة . إلا أنه لو أمسك لأرسل إلى السجن ، وفى حالة إرتكاب الجرم لثانى مرة ، فإنه ينال سبعة سنين فى المنفى على الأقل . إن قسوة « قوانين الصيد » تتسبب فى صدامات دموية عديدة مع حراس غابات الصيد ، وهى تؤدى كل عام إلى عدد من حوادث القتل ، ولذا فإن وظيفة حارس الصيد ، ليست مجرد وظيفة خطرة ، بل إنها سيئة السمعة أيضاً ومحتقرة . لقد حدث فى حالتين فى العام الماضى ، أن أطلق حارسا صيد النار على نفسيهما ، مفضلين ذلك عن الاستمرار فى عملهما . ذلك هو متوسط الثمن الذى تبتاع به أرستقراطية أصحاب الأراضى رياضة الصيد النبيلة ، لكن ماذا يهم سادة الأرض من ذلك؟ ماذا يهمهم إن مات واحد أو إثنان ، أكثر أو أقل من «الفائض » ، إن ذلك لا يغنى شيئاً ،

بل لو أمكن إزاحة نصف فائض السكان نتيجة « قوانين الصيد » ، فإن ذلك كله سيكون خيراً للنصف الآخر — وذلك طبقاً للنهج الذى يسير عليه أصحاب الأرض الإنجليز بذلا فى سبيل الإنسانية .

إن الفقر والحاجة يحملان ثمارهما حتى إلى هنا ، رغم أن أحوال الحياة فى الريف والمآوى المنعزلة ، وثبات البيئة والحرف ، وبالتالى الأفكار لابدوأن تكون غير مواتية لأى تطور . لقد أظهرت البروليتاريا الصناعية والتعدينية فى فترة مبكرة ، منذ المرحلة الأولى لمقاومة نظامنا الإجتماعى ، تمرداً فردياً مباشراً باقتراف الجريمة ، إلا أن الفلاحين فى وقتنا الراهن ، ما يزالوا فى هذه المرحلة . إن طريقتهم المفضلة فى الحرب الإجتماعية هى الحرق العمد . لقد غدت تلك الحرائق عامة ، خلال الشتاء الذى أعقب ثورة يوليو عام ١٨٣٠ — ١٨٣١ . لقد وقعت الإضطرابات فى أكتوبر ودخلت منطقة « سوسكى » كلها والأقاليم المجاورة لها فى حالة من الهياج ، وذلك على أثر زياده حرس السواحل (مما جعل التهريب أكثر صعوبة ، و « دمر الساحل » — كما جاء فى كلمات أحد المزارعين) ، والتغييرات التى أدخلت على «قانون الفقراء » ، والأجور المنخفضة وإدخال الآلات . لقد حرق تبن وأعواد قمح المزارعين فى الحقول ، وتحت نوافذ الزرائب والاسطبلات ذاتها . كان يشعل حريقان من أمثال تلك الحرائق كل ليلة تقريباً ، فينشران الذعر بين المزارعين وملاك الأراضى ، ونادراً ما كان يكتشف المذنبين ، ولقد نسب العمال الحرق العمد إلى شخص أسطورى ، أطلقوا عليه إسم « سوينج » * . لقد أجهد الرجال عقولهم لإكتشاف من يكون « سوينج » هذا ، ومن أين هذا الغضب بين فقراء المناطق الريفية . إن واحداً هنا أو هناك فقط ، قد فكر فى أن القوة الكبرى الدافعة لذلك ، إنما تكمن فى العوز والإضطهاد ، إلا أن الشىء المؤكد ، هو أن أحداً من هؤلاء لم يكن من المناطق الزراعية . ومنذ ذلك العام تكررت تلك الحرائق العمد كل شتاء ، مع كل فصل تتكرر فيه بطالة العمال الزراعيين . ولقد تكررت تلك الحرائق مرة أخرى ، وبطريقة أكثر غرابة فى شتاء عام ١٨٤٣ — ١٨٤٤ .

---

* الأرجوحة (المترجم) .

وأمامى الآن ، ترقد سلسلة فى أعداد « النورثن ستار » الصادرة فى ذلك الوقت ، إن كل منها تشتمل على تقرير عن حرائق عمد عديدة ، ذاكرة مرجعها فى كل حالة . إن الأعداد الناقصة فى القائمة التالية ، لم تكن فى متناول اليد ، إلا أنها تحتوى أيضاً ودون شك عدداً من الحالات . يضاف إلى ذلك ، أن مثل تلك الصحيفة ، ربما لا يمكنها أن تثبت كل ما يقع من حالات . ففى الخامس والعشرين من نوفمبر عام ١٨٤٣ وقعت حالتان ، وهنالك حالات عديده مبكره يتم بحثها . وفى السادس عشر من ديسمبر وقع هياج عام مدة أسبوعين ، أثر حرائق عمد متكررة ، كان يحدث العديد منها فى كل ليلة . لقد أحرقت خلال الأيام القليلة الماضية دارين فى مزرعتين كبيرتين ، وأحرقت فى « كامبريدج شاير » أربع دور فى مزارع كبيرة ، وواحدة فى « هرفورد شاير » ، وإلى جانب ذلك ، خمسة عشر حريق عمد فى مناطق مختلفة . وحدثت فى الثلاثين من ديسمبر ، حريقة واحدة فى « سوفولك » ، وإثنتان فى « اسكس » وواحدة فى « شساير » ، وواحدة فى « لانكشاير » ، وإثنتى عشر فى « دربى » ، لينكولن والجنوب . وكان المجموع الكلى للحرائق فى السادس من يناير ١٨٤٤ عشرة حرائق . وسبعة فى الثالث عشر من يناير ، وأربع حرائق عمد فى العشرين من يناير . وشملت التقارير ، منذ ذلك الوقت وما تلاه ثلاث أو أربع حرائق عمـــدية كل أسبوع ، ولم تتوقف الحرائق بمجىء الربيع كما كان فى الماضى . بل امتدت أيضاً إلى يوليو وأغسطس . إن هذا النوع من الجرائم فى إزدياد خلال الموسم القاسى المقترب لعام ١٨٤٤ — ٤٥ ، والذى أشارت إليه الصحف الإنجليزية بالفعل .

بماذا يفكر قرائى فى شئون هذا حالها ، فى مناطق ريفية فى انجلترا ، مناطق هادئة وبسيطة وساحرة ؟ هل هذه حرب إجتماعية أم لا ؟ هل تلك هى الأوضاع الطبيعية التى يمكن أن تدوم ؟ ومع كل ذلك فإن أصحاب الأراضى والمزارعين هنا أغبياء ذاهلين . إنهم عميان أيضاً عن كل شىء لا يضع المال فى جيوبهم مباشرة ، مثلهم فى ذلك مثل أصحاب المصانع والبورجوازية عموما فى المناطق الصناعية . وإن كان أصحاب المصانع يعدون العاملين لديهم بالخلاص عن طريق إلغاء « قوانين القمح » ، فإن ملاك الأراضى وجزء كبير من المزارعين يعدون العاملين لديهم بفردوس فوق الأرض عن طريق تعضيد نفس القوانين . إلا أن القابضين على الملكية فى كلا الحالين لم ينجحوا فى كسب العمال إلى هوايتهم المحببة .

إن العمال الزراعين ، مثلهم فى ذلك مثل الصناع ، غير مبالين بإلغاء « قوانين القمح » أو عدم إلغائها . ومع ذلك فإن السؤال هام لكليهما . أى يمكن القول أنه بإلغاء « قوانين القمح » والمنافسة الحرة ، فإن الاقتصاد الاجتماعى الحالى يسير إلى نقطته القصوى ، ويصل كل مزيد من التطور فى إطار النظام الحالى إلى نهايته ، وتصبح الخطوة الوحيدة الأبعد من ذلك ، هى التحويل الجذرى للنظام الإجتماعى* . بالإضافة إلى ذلك ، كان هذا السؤال يطرح على العمال الزراعيين ، تلك العلاقة الهامة التاليه : إن الاستيراد الحر للقمح ، يتضمن تحرر المزارعين من ملاك الأراضى وتحويلهم إلى « أحرار » (أما كيفية حدوث ذلك ، فليس فى وسعى أن أشرحها « هنا ») . لقد عاونت العصبة المعادية لقانون القمح فى الوصول إلى هذه النهاية . وتلك هى الخدمة الوحيدة الحقيقية التى قامت بها . إذ عندما يصبح المزارعون « أحراراً » فإن البورجوازيين الواعيين والعمال الزراعيين ، سيصبحون بالحتم « ميثاقيين » و « اشتراكيين » ، إن التغيير الأول يتضمن التغيير الثانى . لقد تحققت بداية فعلية لحركة جديدة بين العمال الزراعيين فى اجتماع دعا إلى عقده « إيرل راندور » — وهو مالك أراضى من الأحرار — فى أكتوبر عام ١٨٤٤ ، قرب « هاى وورث » ، حيث تقع أملاكه ، وذلك للموافقة على قرارات موجهة ضد « قوانين القمح » ، إلا أن العمال الذين لم يكونوا مهتمين على الإطلاق بهذه القوانين ، قد طالبوا فى هذا الإجتماع بشىء مختلف تمام الاختلاف ، طالبوا بمنحهم قطعاً من الأرض صغيرة بإيجار منخفض ملقين بكل أنواع الحقائق المرة ، فى وجه « ايرل راندور » . وبذلك تجد حركة الطبقة العاملة طريقها إلى المناطق الزراعية المائتة معنويا ، الساكنة النائية ، وشكراً للضيق العام ، الذى سيغدو فى القريب متأصلا بعزم ونشاط ، كما هو الحال فى المناطق الصناعية** .

---

* لقد تحقق هذا حرفيا ، إذ بعد فترة من إتساع لا مثيل له فى التجـارة ، أوقعت « التجارة الحرة » انجلترا فى أزمة بدأت عام ١٨٧٨ ، وما زالت فى تزايد نشيط فى عام ١٨٨٦ .

** ان للعمال الزراعيين الآن « اتحادات عمال » ، ان أكثر ممثليهم نشاطا هو « جوزيف آرك » ، والذى انتخب عضوا فى البرلمان عام ١٨٨٠ .

أما بالنسبة لحالة العمال الزراعيين الدينية ، فإنهم — وهذا حق — أكثر ورعا من العمال الصناعيين ، إلا أنهم — أيضاً — فى شجار مع الكنيسة ، حيث لا يكاد يوجد فى تلك المناطق إلا أعضاء مخلصين من « الكنيسة المعترف بها من الدولة » ، إن مراسلا لجريدة « المورنينج كرونيكل » ، يستخدم توقيع « الرجل الذى صفر على المحراث »* ، يكتب عن رحلته عبر المناطق الزراعية ، ويروى المحادثة التالية التى جرت مع بعض العمال بعد القداس ، ضمن ما يرويه من أشياء أخرى : —

« سألت واحداً من هؤلاء الناس ، إن كان واعظ اليـــوم هو كاهنهم الانجليكانى ، قال نعم ، لتصيبه الآفة ! انه راعى كنيستنا ، وهو يتسول طوال الوقت ، انه دائم التسول منذ عرفته (كانت الموعظة عن بعثه إلى الوثنيين) ، وأضاف آخر ، وأنا أيضاً لم أعرف القسيس فيه البتة ، طوال معرفتى به ، بل عرفت فيه ذلك الذى يتسول لهذا أو ذاك » ، وقالت امرأة كانت قد خرجت من الكنيسة لتوها ، « نعم أنظر كيف تهبط الأجور ، وانظر الى المتشردين الأثرياء الذين يأكل القسيس معهم ويشرب ويصطاد . ساعدنى يا الهى ، ان الموت جوعا فى «دار تشغيل الفقراء» لأمر أكثر مناسبة لنا من أن ندفع للقساوسة حتى يذهبوا الى وسط الوثنيين » . وقال آخر « ألا يرسلون القسس كدكور النحل كل يوم كاتدرائية سالسبورى ، أليس ذلك من أجل لا أحد غير الأحجار العارية ؟ لماذا لا يذهبون « هم » الى الوثنيين ؟ « انهم لا يذهبون » ، قال الرجل العجوز الذى سألته أولا ، « لأنهم أغنياء ، انهم يمتلكون كل الأراضى التى يحتاجونها ، انهم يريدون النقود حتى يتخلصوا من القسس الفقراء ، انى أعرف ما يريدون ، انى اعرفهم منذ زمن بعيد» . وتساءلت أنا « من المؤكد أيها الأصدقاء الطيبون أنكم لا تخرجون على الدوام من الكنيسة ، بمثل هذه المشاعر المرة تجاه الواعظ ؟ لماذا تذهبون على أى حال » . « لماذا نذهب » ، قالت المرأة ، « يجب علينا أن نذهب . ولقد علمت فيما بعد أنهم يمنحون ميزات محدودة . خاصة بخشب الحريق وأرض البطاطس (والتى يدفعون عنها !) على شريطة أن يذهبوا الى الكنيسة ».

---

* انه التوقيع القلمى « لالكسندر سومرفيل » — الناشر .

وينتهى المراسل ، بعد وصف فقرهم وجهالتهم ، إلى القول :

« والآن فإننى أؤكد بشجاعة ، أن حالة هؤلاء الناس ، فقرهم وكراهيتهم للكنيسة ، اذعانهم الخارجى ، ومرارتهم الداخلية ضد الرؤساء الكهنوتيين ، إنما هى القاعدة بين الابرشيات الريفية فى إنجلترا ، وأن عكسها هو الاستثناء »

إن كان فلاحو إنجلترا قد جعلها النتائج التى تتضمنها علاقة بروليتاريا زراعية كثيرة العدد ، بزراعة كبيرة ، أمراً واضحاً فى المناطق الريفية ، فإن « ويلز » توضح بالشواهد ، دمار صغار الملاك . وإن كانت الابرشيات الريفية الانجليزية تولد العداء بين الرأسمالى و ابروليتارى ، فإن حالة فلاحى « ويلز » تناظر الدمار

إن كان فلاحو إنجلترا قد جعلوا النتائج التى تتضمنها علاقة بروليتاريازراعية كثيرة العدد ، بزراعة كبيرة ، أمراً واضحاً فى المناطق الريفية ، فإن « ويلز » توضح بالشواهد ، دمار صغار الملاك . وإن كانت الابرشيات الريفية الإنجليزية تولد العداء بين الرأسمالى والبروليتارى ، فإن حالة فلاحى « ويلز » تناظر الدمار المطرد للبورجوازية الصغيرة فى المدن . إذ لا يكاد يوجد فى « ويلز » غير ملاك صغار ، لا يستطيعون بيع منتجاتهم رخيصة ، بنفس الربح الذى يحققه من هم أكبر منهم ، هؤلاء المزارعين الإنجليز الذين هم فى وضع أفضل ، والذين هم مضطرين إلى منافستهم على أية حال . يضاف إلى ذلك ، أن نوعية الأرض فى بعض الأماكن ، لا تسمح إلا بتربية المواشى فقط ، وتلك تكاد تكون قليلة الربح . كما أن مزارعى « ويلز » أكثر إستقراراً من المزارعين الإنجليز ، ومرجع ذلك إلى قوميتهم المنفصلة ، والتى يحافظون عليها بعناد . إلا أن المنافسة فيما بينهم هم ، وفيما بينهم وبين جيرانهم الانجليز (والرهونات المتزايدة على أرضهم نتيجة هذا) ، قد نزلت بهم إلى منزلة لا يكادوا يعيشون البتة فى ظلها . وحيث أنهم لا يعرفون السبب الحقيقى لما هم فيه من تعاسة ، فإنهم يرجعون ذلك إلى كل أنواع العلل الطفيفة ، مثل المكوس المرتفعة ... الخ ، والمكوس تعيق بالفعل تطور الزراعة والتجارة ، إلا أن كل من يأخذ قطعة أرض ، يضع المكوس فى الحسبان كرسوم دائمة ، وبذا فإن الذى يدفعها ، فى الحقيقة فى نهاية الأمر ، هو المالك . إن « قانون الفقراء » الجديد مكروه ، هنا أيضاً ، من صميم فؤاد

المستأجرين الذين يرتعدون من خطر دائم ، إن يقعوا تحت تسلط . لقد نشبت عام ١٨٤٣ إضطرابات ربيكا الشهيرة بين فلاحى « ويلز » لقد إرتدى الرجال ثياب النساء وسودوا وجوههم ، وإنقضوا فى جموع مسلحة على بوابات — المكوس ، وحطموها وسط إطلاق البنادق والتهليل الهائل ، كما دمروا منازل حراس ـ المكوس، وكتبوا خطابات تهديد بإسم «ربيكا» الخيالى. وتمادوا ذات مرة إلى حد إقتحام دار «كارمرش »لتشغيل الفقراء ، وعندما إستدعيت الميليشيا وعززت الشرطة فيما بعد ، قام الفلاحون بسحبهم فى مهارة تدعو للإعجاب وراء آثار مزيفة ، لقد دمروا بوابات المكوس عند إحدى النقط ، بينما الميليشيا تسير فى الاتجاه المعاكس ، بعد أن إستدرجتها أبواق الاشارة المزيفة . وعندما دعمت الشرطة دعماً كلياً ، إنصرف الفلاحون فى النهاية إلى الحرائق الفردية ومحاولات القتل . وكالمعتاد ، كانت تلك الجرائم الكبرى هى نهاية الحركة . لقد إنسحب الكثيرون بسبب الاستهجان ، وانسحب آخرون من الخوف ، وعاد السلام من تلقائه . وعينت الحكومة لجنة لتقصى الأمر ودوافعه ووضع نهاية لهذا الأمر . إلا أن فقر الفلاحين ، على أى حال ، سوف يستمر ، وهو الذى سوف ينتج يوماً ما مظاهر أكثر جدية من ذلك التنكر الهزلى « ربيكا » حيث أنه لا يمكن أن يضمر فى ظل الظروف الراهنة بل لابد وأن يزداد كثافة .

إن كانت إنجلترا تظهر نتائج نظام الزراعة على نطاق واسع ، « وويلز » على نطاق ضيق ، فإن إيرلندا تبين نتائج التقسيم الزائد عن الحد للأرض . إن الكتلة الكبيرة من سكان إيرلندا تتكون من مستأجرين صغار ، يشغلون أكواخاً كئيبة دون حواجز ، ورقعة بطاطس مساحتها تكفى إمدادهم بالبطاطس طوال الشتاء ، مع إستخدام أقصى درجات التقتير . ولقد بلغ إيجار الأرض حداً من الارتفاع لم يسمع به ، إنه ضعف أو ثلاث أضعاف أو أربع أضعاف ذلك الذى يدفع فى إنجلترا وذلك نتيجة المنافسة الشديدة التى تسود بين هؤلاء المستأجرين الصغار ، حيث يسعى كل عامل زراعى كى يصبح مزارعاً مستأجراً ، ورغم أن تقسيم الأرض قد سار شوطاً بعيداً ، إلا أن عدداً من العمال ما زال باقياً يتنافس على قطع الأرض . ومع أن بريطانيا تزرع ٣٢,٠٠٠,٠٠٠ أكرا * من الأرض ، وإيرلندا

* الأكر أقل من فدان (المترجم) .

۱٤,۰۰۰,۰۰۰ لا غير ، ورغم أن بريطانيا تنتج من المنتجات الزراعية ما تبلغ قيمته ۱٥۰,۰۰۰,۰۰۰ جنيهاً استرلينياً ، وأيرلنــدا ۳٦,۰۰۰,۰۰۰ جنيهاً استرلينياً لا غير ، فإنه يوجد فى أيرلندا ۷٥,۰۰۰ بروليتارياً زراعياً أزيد من الجزيرة المجاورة * . إن المدى الذى يجب أن تكون عليه المنافسة حول الأرض، لأمر واضح فى أيرلندا ، من هذا التفاوت غير العادى ، خاصة عندما يفكر المرء فى أن العمال فى بريطانيا العظمى يعيشون فى غاية التعاسة. إن نتيجة هذه المنافسة ، هى استحالة أن يعيش المستأجرون حياة أفضل كثيراً من حياة العمال ، وذلك بسبب الإيجارات العالية التى عليهم دفعها . وبذا فإن فقراً ساحقاً يمسك بالشعب الأيرلندى ، فقر لايستطيع أن يحرر منه نفسه فى ظل ظروفنا الإجتماعية الحالية. إن هؤلاء الناس يعيشون فى أشد الأكواخ الطينية بؤساً ، إنها بالكاد تصلح زرائب ماشية ، طعامهم طول الشتاء كله شحيح ، أو كما يتناول التقرير المقتبس عاليه الأمر ، بأن ما لديهم من بطاطس ، يكفى نصف حاجتهم طوال ثلاثين أسبوعاً فى العام ، ولا شىء باقى العام . وعندما يأتى الربيع ، الوقت الذى تصل فيه تلك المؤونة إلى نهايتها ، أو أنها تصبح غير صالحة للإستعمال حيث تكون قد نبتت ، فإن الزوجة والأطفال ينطلقون إلى التسول يجوبون الريف وأباريقهم فى أيديهم . فى تلك الأثناء ، يكون الزوج وقد زرع بطاطس العام القادم ، فيذهب إلى أيرلندا أو انجلترا بحثاً عن عمل ، ثم يعود إلى عائلته فى موسم جمع البطاطس. تلك هى الحالة التى يعيش فيها تسعة أعشار أهل الريف الأيرلندى. إنهم فقراء كفأر كنيسة ، يرتدون أشد الهلاهيل بؤساً ، ويقفون عند أدنى مستوى ممكن للذكاء ، فى بلد نصف متحضر . وطبقاً للتقرير المقتبس ، فإنه من بين سكان عددهم ۸,٥ مليوناً ، يوجد ٥۸٥,۰۰۰ رب أسرة فى حالة عوز كاملة . وطبقاً لبعض الهيئات الحكومية الأخرى التى استشهد بها العمدة «أليسون»**، بأنه يوجد فى أيرلندا ۲,۳۰۰,۰۰۰ شخصاً ، لا يستطيعون الحياة دون مساعدة عامة أو خاصة ، أى أن ۲۷ ٪ من السكان معوزين !

---

* تقرير لجنة قانون الفقراء عن أيرلندا « الموسم البرلمانى لعام ۱۸۳۷ (مضافة من النسخة الألمانية) » .

** مبادىء السكان . الجزء ۲ .

إن سبب هذا الفقر، يكمن في الحالة الإجتماعية القائمة، وخاصة في المنافسة الموجودة هنا، الموجودة في شكل تجزئة الأرض المجزأة. لقد بذل جهد كبير في البحث عن أسباب أخرى. فقد زعم أنها العلاقة بين المستأجر ومالك الأرض، الذي يؤجر أملاكه قطعاً كبيرة إلى مستأجرين، يكون لديهم بدورهم، مستأجرين أدنى، ثم مستأجرين أدنى وأدنى على التوالي، حتى أنه يوجد في غالب الأحوال عشرة وسطاء بين مالك الأرض والزارع الفعلي — ورغم أن الذي يلام على كل هذا الفقر، هو القانون المخجل الذي يعطي لمالك الأرض، حق نزع الأرض، من الزارع الذي يكون قد دفع الإيجار المستحق عليه في حينه، لأن المستأجر الأول عجز عن الدفع لمالك الأرض. إلا أن كل هذا يحدد فقط الشكل الذي يعلن به الفقر عن نفسه. إجعل المستأجر الصغير نفسه مالكا، ماذا تكون النتيجة؟ إن الغالبية منهم لن تستطيع الحياة على قطع أرضها، حتى وإن كانت لا تدفع عنها إيجاراً، وإن حدث تحسن ضئيل، فإنه سيضيع مرة أخرى في سنوات قليلة، نتيجة الزيادة السريعة في السكان. إن الأطفال الذين يموتون الآن في طفولتهم المبكرة نتيجة الفقر، سوف يعيشون حينذاك، لينموا في ظل الظروف التي تحسنت، ويجيء، من ناحية أخرى، زعم بأن الظلم الوقح الذي يفرضه الإنجليز هو سبب الإضطراب. إن هذا الظلم على نحو ما، هو السبب المبكر لهذا الفقر، إلا أنه ليس سبب الفقر ذاته. أو يلقي باللوم على «الكنيسة البروتستانتية»، المفروضة على أمة «كاثوليكية»، إلا أننا، إن قسمنا ما تأخذه الكنيسة من الإيرلنديين عليهم، فلن يصل نصيب الرأس إلى ست شلنات. فضلا عن ذلك، فإن العشور ضريبة على ملكية صاحب الأرض، وليست على المستأجر، رغم أن دفع المالك لها قد يكون اسمياً، إلا أنه منذ صدور «لائحة الفدية» لعام ١٨٣٨، فإن أصحاب الأرض يدفعون العشور مباشرة، ويحددون إيجاراً عالياً للغاية، حتى أن المستأجر ليس أفضل حالا. كما تقدم بنفس الطريقة، مئات الأسباب الأخرى التي تكمن وراء هذا الفقر، وكلها تبرهن على القليل، شأنها في ذلك شأن تلك السابقة. إن هذا الفقر إنما هو نتيجة أحوالنا الاجتماعية. أما الأسباب فيما عدا تلك الأحوال، فإنها يمكن أن توجد مع الكيفية التي يعلن الفقر بها عن نفسه، ولكنها ليست أسباب حقيقة وجوده. إن يعلن الفقر عن نفسه على هذا النحو وليس العكس، إنما يرجع إلى ماهية هذا الشعب، وإلى تطوره التاريخي.

إن الإيرلنديين إنما هم شعب ينتمي إلى الأمم اللاتينية في صفتـــه الكلية ، إلى الفرنسيين . وخاصة الإيطاليين ، إن السمات الرديئة في خلقهم ، والتي صورها كارليل ، قد تناولناها سابقاً . دعونا الآن نستمع إلى رجل إيرلندى ، رجل يقترب على الأقل من الحقيقـة عن « كارليـــل » الذى يتعصب للجنس التيوتوني *.

« إنهم قلقين ومع ذلك خاملين ، أذكياء وقليلي الفطنة ، سريعي الغضب ، نافذي الصبر وعديمي التبصر ، شجعان بالسليقة ، كرماء دون كثير تأمل ، يتأثرون في سرعة للإهانات ويغفرونها ، يقيمون الصداقات ويقلعون عنها ، موهوبين بإفراط عبقري وتقتير حصيف » .

يتسلط الإنفعال والعاطفة على الايرلنديين ، إن العقل يجب أن ينحني أمامهم. إن طبيعتهم الحسية سريعة الهيجان ، تمنع التأمل والهدوء والنشاط المثابر عن بلوغ التطور — إن مثل تلك الأمة كما تدار الآن ، غير لائقة للصناعة كلية . ومن ثم ، فقد أمسكوا بالزراعة ، وظلوا عند أدنى مستوى لها أيضاً . إن تحسين الأرض بتوظيف رأس المال ، لم يكن مطروحاً للتفكير فيه ، في ظل التقسيمات الصغيرة للأرض المقسمة ، ذلك الوضع الذى نشأ منذ عهد مفرط في القدم ، ولم ينشأ هنا بطريقة مصطنعة كما حدث في فرنسا وعلى نهر الراين ، وذلك بتقسيم العقارات الكبيرة**. إن ذلك التحسين ، طبقاً « لاليسون » ، يحتاج إلى ١٢٠ جنيهاً استرلينياً ، ليرتفع بالأرض إلى حالة من الخصوبة، ليست بالقدر العالي الذى بلغته بالفعل في انجلترا . إن الهجرة الانجليزية ، والتي ربما كان عليها أن ترفع مستوى الحضارة الايرلندية ، قد إكتفت بأشد صور النهب الوحشي للشعب الايرلندى .

---

* « حالة ايرلندا » لندن ، ١٨٠٧ ، الطبعة الثانية ١٨٢١ . كتيب .

** خطأ . لقد كانت الزراعة على نطاق صغير هي الشكل السائد للزراعة منذ العصور الوسطى . وبهذا فان مزرعة الفلاح الصغير قد ماتت قبل « الثورة » أيضاً . ان الشيء الوحيد الذى غيرته الأخيرة هو ملكيتها ، أى أنها أخذتها من ملاكها الإقطاعيين وحولتها بشكل مباشر أو غير مباشر الى الفلاحين (مضافة الى النسخة الألمانية لعام ١٨٩٢) .

وبينما وضع الايرلنديون بهجرتهم إلى انجلترا ، خميرة سوف تؤتى ثمارها فى المستقبل ؛ فإن ما يحمد الايرلنديون الهجرة الانجليزية عليه لقليل .

إن محاولات الأيرلنديين إنقاذ أنفسهم من دمارهم الراهن ، قد اتخذ من ناحية شكل الجرائم . إنها الطريقة المتبعة اليوم فى المناطق الزراعية ، وهى تكاد توجه دائماً إلى أكثر الأعداء مباشرة ، إلى عملاء أصحاب الأراضى ، أو خدمهم المطيعين ، إلى البروتستانت الدخلاء ، والذين تتكون مزارعهم الكبيرة ، من قطع أرض البطاطس ، التي تخص مئات العائلات التى طردوا منها . إن مثل تلك الجرائم ، متعددة بصورة خاصة فى الجنوب والغرب . ويأمل الأيرلنديون ، من ناحية أخرى ، فى الفرج ، عن طريق الإثارة من أجل إلغاء « الاتحاد التشريعى » مع انجلترا(٢١). يتضح من كل ما سبق ، أنه على الأيرلنديين غير المتعلمين ، أن يروا فى الانجليز أسوأ أعدائهم ، وأن أول أمل لهم فى التحسن ، هو أن يظفروا بالإستقلال الوطنى . إلا أنه من الواضح أيضاً ، وبنفس القدر ، أن الشقاء الأيرلندى ، لا يمكن إزاحته بأى « قانون » « للإلغاء » . إذ أن مثل هذا « القانون » ، على أى حال ، سيعرى للتو ، حقيقة سبب الشقاء الأيرلندى ، والذى يبدو الآن ، على أنه آت من الخارج ، فى حين أنه حقيقة ، موجود فى الداخل . فى تلك الأثناء ، هنالك مسألة مطروحة للبحث ، وهى إن كان تحقيق « الإلغاء » ضرورياً ، لجعل هذا الأمر واضحاً أمام الأيرلنديين ، وقبل ذاك ، لن يحقق « الميثاقيون » ولا « الاشتراكيون » نجاحاً ملحوظاً فى أيرلندا .

إننى أنهى بأكبر سرعة، ملاحظاتى عن أيرلندا عند هذه النقطة ، حيث كانت « الإثارة من أجل الإلغاء » عام ١٨٤٣ ومحاولة « أوكونل » وهى الوسائل التى جعلت الشقاء الأيرلندى معروفاً على نحو أكثر وأكثر فى ألمانيا .

لقد تعقبنا الآن بروليتاريا الجزر البريطانية عبر كل فروع نشاطها ، ووجدناها تعيش فى كل مكان ، فى حاجة وشقاء ، فى ظل ظروف غير إنسانية على الإطلاق . لقد رأينا السخط وهو ينشأ مع نشأة البروليتاريا ، ينمو ويتطور وينظم . لقد رأينا معارك مفتوحة للبروليتاريا ضد البورجوازية ، معارك دموية

وغير دموية . لقد بحثنا الأسس التى يتحدد طبقاً لها ، مآل وآمال ومخاوف البروليتاريا ، ولقد وجدنا أنه لا إمكانية لتحسين حالهم فى المستقبل .

لقد كانت لدينا الفرصة ، هنا وهناك . لملاحظة سلوك البورجوازية تجاه البروليتاريا . ولقد وجدنا أنها تراعى نفسها فقط ، إنها لا تضع فى إعتبارها إلا منفعتها الخاصة — وعلى أى حال ؛ وحتى لا نكون غير منصفين ، دعونا نبحث منوال فعلها ، بطريقة أكثر دقة ، إلى حد ما .

□

موقف البورجوازية تجاه البروليتاريا

عند الحديث عن البورجوازية، فإنني أتحدث ضمناً عما تسمى بالأرستقراطية، إذ أنها طبقة ذات إمتيازات ، والأرستقراطية تتضاد فقط مع البورجوازية ، ولا تتضاد مع البروليتاريا . والبروليتارى لا يرى فى كليهما غير ذلك الممسك بزمام الملكية — أى البورجوازى . إن كل الامتيازات الأخرى تختفى إزاء إمتياز الملكية . إن الفرق الوحيد ، هو أن البورجوازى الخلص ، يرتكز على علاقات نشطة مع البروليتاريين الصناعيين ، وبمعيار ما ، مع البروليتاريين التعدينيين ، وكمزارع مع العمال الزراعيين . بينما تتعامل ما تسمى بالأرستقراطية مع جزء من العمال التعدينيين والعمال الزراعيين .

إننى لم أر على الاطلاق طبقة فاسدة الآداب إلى حد بعيد ، طبقة حطت الأنانية من قدرها إلى حد لا يرجى منه شفاء ، متآكلة من الداخل إلى درجة كبيرة ، عاجزة عن التقدم إلى مدى بعيد ، مثل البورجوازية الانجليزية ، وإننى أعنى بذلك على وجه الخصوص ، البورجوازية الخالصة خاصة « الأحرار » ، تلك البورجوازية المطالبة بإلغاء « قانون القمح » . إذ بالنسبة لها ، لا شيء موجود فى هذا العالم . بما فيه ذاتها ، إلا من أجل المال . أنها لا تعرف نعيما غير الكسب السريع ، ولا ألما غير خسران الذهب* . إنه لمن المستحيل

---

* قدم « كارليل » من « الماضى والحاضر » (لندن ، ١٨٤٣) وصفاً رائعاً للبورجوازية الانجليزية وجشعها المقزز للمال [وقد ترجمت جزء من هذا الوصف فى « ديو ـش — فرانزوسيش جاربوشر » والتى أحيل للقارىء إليها (٢٢) . (مضافة فى الطبعة الألمانية)] .

ى ظل هذا الولع والشبق بالكسب ، أن تظل عاطفة إنسانية واحدة أو رأى واحد طاهر الذيل . حقاً أن هؤلاء البورجوازيين الانجليز أزواج طيبون وأرباب عائلات ، كما أنهم يتمتعون بكل أنواع الفضائل الخاصة الأخرى ، ويبدون أثناء عملية الجماع العادية محتشمين ومحترمين ، شأنهم فى ذلك شأن البورجوازيات الأخرى ، وحتى فى الأعمال ، فإنهم يتعاملون بطريقة أفضل من الألمان ، إنهم لا يساومون ولا يماحكون كثيراً كما يفعل تجارنا الحقراء ، لكن، من المستفيد من كل تلك الأمور ؟ إن ما يحدد ذلك فقط فى نهاية الأمر ، هو المنفعة الذاتية وخاصة كسب المال . لقد ذهبت إلى « مانشستر » مع واحد من مثل هؤلاء البورجوازيين ، وحدثته عن طريقة البناء السيئة غير الصحية ، والوضع المخيف للأحياء العمالية ، وأكدت له أننى لم أر على الاطلاق ، مدينة مبنية بطريقة رديئة مثل هذه المدينة ، واستمع الرجل فى هدوء إلى كلامى حتى النهاية ، وعند الناصية حيث إفترقنا ، قال « ومع ذلك ، فإن هذا المكان يدر قدراً كبيراً من المال ، صباح الخير ، سيدى ». إن البورجوازى الانجليزى لا يهمه على الاطلاق ، إن كان عماله يموتون جوعا أم لا ، ماذام يربح مالا . إن كل أحوال الحياة تقاس بالمال ، وذاك الذى لا يدر مالا ، إنما هو لغو فارغ ، غير عملى ومثالى . ومن ثم ، فإن الاقتصاد السياسى ، علم الثروة ، هو الدراسة المفضلة عند هؤلاء اليهود تجار المقايضة . إن كل واحد منهم رجل إقتصاد سياسى . لا يوجد شىء إنسانى فى علاقة صاحب المصنع بعماله ، إنها علاقة إقتصادية بحتة . إن صاحب المصنع إنما هو رأس مال ، وما العامل إلا عمل ، وإن لم يلزم العامل بهذا التجريد ، إن أصر على أنه ليس « عملا » ، وإنما هو « رجل » يمتلك من بين ما يمتلك ملكة قوة العمل ، إن وضع فى رأسه أنه يجب ألا يسمح لنفسه بأن يباع ويشترى فى السوق كسلعة « عمل » ، فإن عقل البورجوازى سيتوقف . إنه لا يستطيع إدراك وجود أية علاقة أخرى مع العمال ، غير علاقة البيع والشراء . إنه لا يرى فيهم بشراً ، بل أيدى ، كما يدعوهم فى وجوههم على الدوام . إنه يصر ، كما يقول « كارليل » ، على « أن الدفع نقداً ، هو الصلة الوحيدة بين الرجل والرجل » بل أن تسعة وتسعين فى المائة من العلاقة بينه وبين زوجته ، إنما هى أيضاً مجرد « الدفع نقداً » ، إن المال يحدد قيمة الرجل ، « هذا قيمته عشرة آلاف جنيه »

إن هذا الذى لديه مالا « هو أفضل نوع من الناس » ، « إنه ذو نفوذ » ، ومايفعله إنما يقوم به حسابا لشيء ما فى دائرته الإجتماعية . إن روح البائع المتجول تتخلل كل اللغة ، إن كل العلاقات إنما يعبرعنها باصطلاحات عمل ، بتصنيفات إقتصادية . إن العرض والطلب هى المعادلات التى يحكم المنطق « البورجوازى الإنجليزى » طبقاً لها كل حياة الإنسان . ومن هنا كانت المنافسة الحرة فى كل علاقة ، ومن هنا كان شعار « دعه يعمل» « دعه يمر»(٢٣) ، فى الحكومة وفى الطب وفى التعليم ، وعما قريب سيكون فى الدين أيضاً ، كلما تدهورت كنيسة الدولة أكثر فأكثر . إن المنافسة الحرة لن تعانى أى تقييد ، لا رقابة من الدولة ، إن الدولة كلها ماهى غير عبء عليها . إنها ستصل إلى قمة كمالها فى ظل مجتمع فوضوى لا حكومة له ، حيث يكون فى إستطاعة كل فرد أن يستغل الآخر بما يرضى هواه * . وحيث أن البورجوازية ، على أية حال ، لا تستطيع الإستغناء عن الحكومة ، بل يجب أن تملكها ، حتى تقمع الطبقة العاملة التى لاغنى لها عنها بالمثل ، فإنها توجه قوة الحكومة ضد البروليتاريا ، وتظل هى بعيدة عن طريقها قدر المستطاع .

لاتدع أحداً يصدق ، بأى حال ، أن « المثقف الإنجليزى يفاخر علنا بأنانيته إنه على عكس ذلك ، يخفيها تحت أدنى صورة من صور النفاق . ماذا ؟ أثرياء الإنجليز يعجزون عن تذكر الفقراء ؟ هم أولئك الذين أسسوا المؤسسات الانسانية ، على نحو لا يستطيع أى بلد آخر أن يباهى به ! مؤسسات إنسانية بكل تأكيد ! وكأنكم تقدمون للعمال معروفاً بأن تمتصون دم حياتهم ذاته فى البداية ، ثم تمارسون عليهم لطفكم وإنسانيتكم الزائفة ، واضعين أنفسكم أمام العالم كأفضل المدافعين عن الانسانية . عندما تعيدون إلى الضحايا المسلوبة واحداً فى المائة مما يخصها ! الصدقة التى تحط مقام هذا الذى يعطى أكثر من ذاك الذى يأخذ ، صدقة تدوس ذلك الذى وطأته الأقدام أعمق وأعمق فى التراب ، صدقة تطالب الذى جرد من مقامه والذى نبذه المجتمع خارجه ، بأن يسلم أولا آخر ما بقى له وبالذات حقه فى آدميته ، أن يستجدى الرحمة أولا قبل تنازلاتكم

* أضيفت الكلمات التالية إلى الأصل الألمانى « مثل ، (مجتمع) الصديق (ستيرنر) مثلا » — الناشر .

الرحيمه ، أن يوسم بميسم التحقير على جبينه فى صورة صدقة . لكن دعونا نستمع إلى البورجوازية ذاتها ، إذ لم يمض عام منذ قرأت فى « المانشستر جارديان » الخطاب التالى إلى رئيس التحرير ولقد نشر هذا الخطاب كوجهة نظر معتدلة وطبيعية تماما: السيد رئيس التحرير - منذ وقت مضى وشوارعنا الرئيسية مسكونة بحشود من المتسولين ، الذين يحاولون إيقاظ شفقه المارة ، فأكثر الطرق وقاحة وإثارة للضيق ، وذلك بعرض ملابسهم الرثة البالية ، وجراحهم وتشوهاتهم المقززة . وفى إعتقادى ، أن المرء عندما يدفع ، ليس فقط ضريبة الفقراء ، بل ويتبرع بسخاء أيضاً للمؤسسات الخيرية ، فإنه يكون قد فعل الكثير للحصول على حق عدم تعريضه لمثل هذه المضايقات الكريهة السليطة . ولماذا تدفع مثل هذه الضرائب العالية لإعاشة شرطة البلدية ، إن كانوا لا يقومون حتى بحمايتنا ، ليصبح الذهاب والإياب فى سلام من المدينة أمر ممكناً لنا ؟ آمل أن يكون نشر هذه السطور فى جريدتكم واسعة الانتشار ، عاملا لحمل السلطات على إزاحة هذا الازعاج ، وسأظل — خادمتكم المطيعة .

« سيدة »

ها هى أمامك ! البورجوازية الانجليزية خيرة بدافع من المصلحة الذاتية ، إنها لا تعطى شيئاً بصورة نهائية ، ولكنها تنظر إلى هباتها على أنها مسألة تجارية، إنها تساوم الفقراء قائلة : « إننى إن كنت أنفق الكثير على المؤسسات الخيريه ، فإننى بذلك أبتاع حق ألا أتعرض للمضايقه أبعد من هذا ، وإنتم بذلك مقيدون على أن تظلوا فى جحوركم المعتمه ، وألا تستثيروا أعصابى المرهقه بعرضى تعاستكم، ستقطعون الرجاء كما كنتم من قبل ، لكنكم ستقطعون الرجاء فى الستر دون أن أن يراكم أحد ، هذا ما أحتاج اليه وما ابتغيه بتبرعى للملجأ بعشرين جنيهاً ! » . إنها لشائنة تلك الصدقة التى يقدمها البورجوازى المسيحى ! وهكذا تكتب « سيدة » ، لقد فعلت حسناً بتوقيعها هذا ، حسنا أنها فقدت الشجاعة على أن تسمى نفسها إمرأة ! ولكن ، إن كانت « السيدات » هكذا ، فماذا يكون حال « السادة » ؟ سيقال إن تلك حالة فردية ، لكن لا ، إن الخطاب السابق يعبر عن الغالبية العظمى من البورجوازية الانجليزية ، وإلا لما كان رئيس التحرير قد قبله، وكان لابد من الرد عليه ، وهو الشيء الذى إنتظرته فى الأعداد التالية دون جدوى . أما بالنسبة لمدى فاعلية حب الخير هذا للإنسانية ، فإن « كانون

باركينسون ، نفسه يقول ، إن الفقراء يعيشون الفقراء أكثر بكثير مما تعيشهم البورجوازية ، ومثل تلك الإغاثة المعطاة من بروليتارى مخلص ، يعرف هو نفسه ماذا يعنى أن تكون جوعاناً ، كما تعتبر مشاركته فى وجبته الهزيلة تضحية حقيقية ، لكنها تضحية محتملة فى سعادة ، إن لمثل هذا العون رنينه المختلف تمام الإختلاف عن تلك الصدقة التى يقذف بها البورجوازى المترف فى لا مبالاة .

إن البرجوازية تتظاهر بالبذل الذى لا حد له فى سبيل الانسانية بطريقة مرائية فى أوجه أخرى أيضاً ، ان تطلبت مصالحها ذلك ، كما يحدث فى سياستها ، وإقتصادها السياسى . حتى مضت حتى الآن قرابة خمس سنوات ، وهى تعمل كى تثبت للعمال أنها تكافح من أجل إلغاء « قوانين القمح » ، من أجل مصالحهم فقط . إلا أن خلاصة الموضوع هو كما يلى : إن قوانين القمح تحافظ على سعر الخبز مرتفعاً عن سعره فى بلدان أخرى ، وينتج عن ذلك بالتالى رفع الأجور ، إلا أن هذه الأجور المرتفعة ، تجعل منافسة أصحاب المصانع للأمم الأخرى التى يوجد بها الخبز بسعر أرخص وبالتالى الأجور ، أكثر صعوبة . أما عند إلغاء « قوانين القمح » ، فإن سعر الخبز سيهبط ، وتقترب الأجور من تلك التى فى البلدان الأوربية الأخرى ، ذلك هو الأمر كما يجب أن يكون واضحاً لكل امرىء ، من عرضنا السابق للمبادىء التى تحدد الأجور طبقاً لها . إن صاحب المصنع يستطيع أن يكون أكثر تأهباً للمنافسة ، ولسوف يزداد الطلب على البضائع الانجليزية ، ومعها الطلب على العمل . ونتيجة هذا الطلب المتزايد ، فإن الأجور فى الواقع لابد وأن ترتفع بعض الشىء ، ويعاد تشغيل العمال العاطلين ، ولكن إلى متى ؟ إن فائض السكان فى إنجلترا ، وخاصة فى ايرلندا ، لكاف لإمداد الصناعة الانجليزية بكل ما تحتاجه من عمال حتى إن تضاعف عددهم ، وتتوازن فى سنوات قليلة ، تلك الميزة المحدودة لالغاء « قوانين القمح » ، ويلى ذلك بالضرورة أزمة جديدة ، ونعود بالضرورة إلى النقطة التى بدأنا منها ، بينما يكون المحرك الأصلى للصناعة قد تسبب فى تلك الأثناء فى زيادة عدد السكان . كل هذا يعرفه البروليتاريون جيداً ، وهم قد قالوه لأصحاب المصانع وجهاً لوجه ، إلا أن أصحاب المصانع لا يرون أمامهم رغم ذلك ، إلا الميزة الفورية التى تعود عليهم بها « قوانين القمح » . إنهم لأضيق أفقاً ، من أن يروا ذلك ، حتى من أجل أنفسهم ، إذ لا يمكن أن تنشأ ميزة من إتخاذ هذا الاجراء ، حيث أن منافستهم لبعضهم

البعض سرعان ما تجبر ربح الفرد على العوده إلى مستواه القديم ، وبالتالى يستمر صراخهم فى العمال ، بأن ما يصبه أعضاء حزب « الأحرار الأثرياء » من مئات وآلاف الجنيهات فى خزينة « العصبة المعادية لقانون القمح » ، إنما هو من أجل الملايين الجائعة ، بينما يعرف الجميع أنهم يرسلون الجبن بعد الزبد فقط ، وأنهم يعتمدون على تحصيل كل ذلك مرة أخرى ، فى السنوات العشر الأولى بعد إلغاء «قوانين القمح» . إلا أن العمال لم يعودوا يخدعون بواسطة البورجوازية ، خاصة منذ عصيان عام ١٨٤٢ . إنهم يطلبون من كل من يقدم نفسه كمحب لما يعود عليهم بالخير ، بأن يعلن أنه فى جانب « ميثاق الشعب » كدليل على صدق معتقداته ، وهم بفعل ذلك ، إنما يحتجون ضد كل عون خارجى ، حيث أن « الميثاق » إنما هو طلب للقوة حتى يعاونوا هم أنفسهم . وكل من يرفض أن يعلن عن نفسه هكذا ، يعلنونه عدواً لهم ، وهم محقين تماماً فى عملهم هذا ، سواء كان هذا الشخص عدو صريح أو صديق زائف . إن « العصبة المعادية لقانون القمح » قد إستخدمت ، بالإضافة إلى ذلك ، أشد الخدع والافتراءات دناءة لكسب تأييد العمال . لقد حاولت أن تثبت لهم ، أن السعر النقدى للأجر ، يتناسب تناسباً عكسياً مع سعر القمح ، إن الأجور تكون عالية عندما تكون الحبوب رخيصة ، والعكس صحيح ، إنه زعم تظاهرت بإثباته بأشد الحجج سخفاً ، وهو فى حد ذاته أمر أشد سخفاً من أى أمر آخر صدر عن فم « مشتغل بالإقتصاد » . وعندما فشل هذا فى تحقيق الغرض ، وعد العمال بأقصى نعيم ممكن لزوم الطلب المتزايد فى سوق العمل ، وتمادى رجال بالفعل إلى حد حمل نموذجين من أرغفة الخبز عبر الشوارع ، كتب على أكبرهما « رغيف الثمانى بنسات الأمريكى ، الأجور أربع شلنات فى اليوم » ، وعلى أصغرهما « رغيف الثمانى بنسات الإنجليزى ، الأجور شلنان فى اليوم » . إلا أن العمال لم يضللوا . إنهم يعرفون سادتهم ورؤسائهم حق المعرفة .

إلا أنه يجب وضع خبرة البورجوازية فى الإعتبار ، حتى يمكن قياس زيف هذه الوعود قياساً صحيحاً . لقد رأينا من خلال تقريرنا كيف تستغل البورجوازية العمال بكل طريقة يمكن للعقل أن يتصورها ، من أجل منفعتها الخاصة . ورأينا ، حتى من قبل ذلك ، على أى حال ، كيف يسىء البورجوازى

الفرد معاملة البروليتارى لحسابه الخاص . دعونا نرجع الآن إلى الطريقة التى تتصرف بها البورجوازية كحزب ، كسلطة الدولة تجاه البروليتاريا . من الواضح غاية الوضوح أن المقصود من كل التشريعات إنما هو حماية هؤلاء الذين يحوزون الملكية ضد هؤلاء الذين لا يحوزون . إن القوانين ضرورية فقط ، لأن هنالك أشخاص فى الوجود لا يمتلكون شيئاً ، ورغم أن هذه الضرورة معبر عنها مباشرة فى « قوانين قليلة » فقط ، مثل تلك القوانين ضد المتشردين والصعاليك ، والتى تعتبر البروليتاريا فيها مهدرة الحقوق بالمثل ، إلا أن كراهية البروليتاريا هى بالتأكيد أساس القانون ، حتى أن القضاة وخاصة قضاة الصلح ، الذين هم أنفسهم بورجوازيين ، وهم الذين غالباً ما يحتك بهم البروليتارى ، يجدون هذا المعنى فى القوانين دون حاجة إلى مزيد من الحيثيات . وأن حدث واستقدم أو حتى إستدعى رجل ثرى للظهور أمام المحكمة ، فإن القاضى يعتذر لإضطراره لفرض مثل ذلك الإزعاج الشديد عليه ، وهو يتناول المسألة بطريقة ودودة قدر الإمكان ، وأن إضطر لادانة المتهم ، فإنه يفعل ذلك وهو فى غاية الأسف . . . الخ الخ ، ونهاية كل ذلك غرامة هزيلة ، يلقيها البورجوازى بازدراء فوق المنضدة ثم ينصرف . ولكن إن وقع بائس فقير فى مثل ذلك الوضع ، كأن يتورط فى الظهور أمام « قاضى الصلح » ، فإنه دائماً على وجه التقريب — ما يقضى الليلة فى المخفر مع حشد من أقرانه — إنه يعتبر مذنباً منذ البداية ، إن دفاعه ينحى بازدراء جانباً « أوه ! إننا نعرف السبب » ، وتوقع عليه غرامة يعجز عن دفعها ويصبح عليه أن يعمل بقيمتها على الآلة الدوارة لتعذيب المذنبين عدة شهور . وإن لم يكن مستطاعاً إثبات شىء ما ضده ، فإنه يرسل إلى الآلة الدوارة لتعذيب المذنبين ، ولا شىء دون ذلك ، باعتباره محتالا ومتشرداً . إن تعصب « قضاة الصلح » وخاصة فى الريف ، أمر يفوق كل وصف . إن الوضع السائد اليوم ، وبصورة كبيرة ، هو نشر كل القضايا ، غير الفاضحة إلى حد كبير ، عن طريق الصحف دون تعقيب . ولا شىء آخر غير ذلك يمكن توقعه . إن هؤلاء الأوغاد لا يفعلون ، من ناحية ، شيئاً غير تأويل القانون طبقاً لمرام المزارعين ، وهم أنفسهم ، من ناحية أخرى ، بورجوازيون ، يرون أساس النظام الحقيقى كله ، إنما هو فى مصالح طبقتهم . كما أن سلوك الشرطة ، يماثل سلوك « قضاة الصلح » . ربما يفعل البورجوازى ما يشاء ، ويظل رجل الشرطة مهذباً على

الدوام معه ، متشبثاً بالقانون في دقة ، إلا أن البروليتاري يعامل بغلظة ووحشية ، إن فقره يلقي عليه شبهة إرتكاب كل أنواع الجرائم ، كما يعزله عن العدالة الشرعية في مواجهة أي نزوة من نزوات المختصين بالقانون ، ومن ثم ، فإن أشكال الحماية القانونية غير قائمة بالنسبة له ، إن الشرطة تشق طريقها عنوة إلى داخل منزله دون أي مرسوم ، تقبض عليه وتسبه . ولا يتضح مدى ضآلة وجود الجانب القانوني بالنسبة للعامل ، وكيف عليه أن يتحمل عادة كل أثقال القانون دون أن يتمتع بمزاياه ، إلا عندما يكون هنالك إتحاد للعمال قبل إتحاد التعدين ، ويكون هنالك رجل مثل « روبرتس » في خدمة هذا الإتحاد .

إن الطبقة القابضة على الملكية ، ما زالت حتى ساعتنا الراهنة ، تناضل ضد المشاعر الأفضل التي توجد عند هؤلاء الذين لم يعفوا بعد ضحية للأنانية ، وتسعى لاستعباد البروليتاريا أكثر فأكثر . إن اليد توضع على قطعة بعد قطعة من الأرض المشاع ، ثم تبدأ زراعة تلك الأرض ، إنها عملية تؤدي إلى تقدم الزراعة عامة ، إلا أن البروليتاريا تضار من ذلك بصورة كبيرة ، إذ كان في وسع الفقراء أن يرعوا حماراً أو خنزيراً أو أوزا ، حيثما توجد أرض ما تزال على المشاع ، كما كان هنالك مكان للأطفال والشباب ، حيث يمكنهم أن يعيشوا ويلعبوا في الهواء الطلق ، إلا أن هذا قد إنتهى بالتدريج . لقد قلت إيرادات العامل ، وأخذ الشبان في الذهاب إلى حوانيت البيرة ، بعد أن حرموا من ملاعبهم . إن البرلمان يوافق في كل دورة من دوراته ، على عدد من القرارات الخاصة بتسوير الأرض وزراعتها . ولقد حدث خلال دورة ١٨٤٤ عندما قررت الحكومة أن تجبر كل محتكري السكك الحديدية ، على جعل السفر للعمال ممكناً ، وذلك بتناسب تكاليفه مع دخولهم ، بواقع بنس عن كل ميل ، واقترحت الحكومة لذلك تسيير قطار يومي للدرجة الثالثة فوق كل سكة من السكك الحديدية ، حدث خلال تلك الدورة أن أقترح « الأب الموقر » ، « أسقف لندن » إستثناء يوم الأحد من هذه القاعدة ، في حين أن يوم الأحد هو اليوم الوحيد الذي يستطيع فيه العمال الذين يعملوا ، أن يسافروا ، وبذا يترك السفر مفتوحاً أمام الأثرياء ، مغلقاً في وجه الفقراء . إلا أن هذا الإقتراح قد أسقط ، على أي حال ، حيث كان سافراً ومباشراً إلى حد لا يمكنه من المرور في البرلمان . ليس لدي متسع لسرد الهجمات المستترة العديدة ضد البروليتاريا ، حتى تلك الهجمات الخاصة

بدورة واحدة . إن عرض واحدة منها وقعت فى دورة ١٨٤٤ ، لابد وأن يكون كافياً . إن عضواً خاملا من أعضاء البرلمان ، شخصاً ما يدعى « مستر ميلز » ، قد إقترح لائحة بدت مقبولة نسبياً ، تنظم العلاقة بين المالك والأجير . واهتمت الحكومة بهذه اللائحة التى أحيلت إلى لجنة . فى تلك الأثناء نشب الإضراب بين عمال التعدين فى الشمال . وقام « روبرتس » بمروره الظافر عبر إنجلترا ، بصحبة عماله الذين أطلق سراحهم . واكتشف عندما كتبت اللجنة تقريرها عن اللائحة ، أن شروطا معينة شديدة الظلم قد دست فيها ، وخاصة أحد هذه الشروط ، والذى ينعم على المستخدم بسلطة إستدعاء أى عامل ، يكون قد تعاقد شفاهة أو تحريراً على القيام بأى عمل كان ، أمام « قاضى الصلح » فى حالة رفضه العمل أو فى حالة سلوكه أى سلوك آخر سيء ، وأن يحكم عليه بالسجن شهرين أشغال شاقة ، بناء على قيام المستخدم بحلف اليمين ، أى بناء على قيام الشاكى بحلف اليمين . ولقد أثارت هذه اللائحة ثائرة العمال إلى أقصى درجاتها ، زد على ذلك أن « لائحة العشر ساعات » كانت تعرض فى ذات الوقت على البرلمان ، وكانت باعثاً على الجهر بحالة من الهياج الشديد . لقد عقدت مئات الإجتماعات ، وأرسلت مئات العرائض التى كتبها العمال إلى لندن ، إلى « توماس دنكومب » ممثل مصالح البروليتاريا . كان هذا الرجل ، بإستثناء « فراند » ممثل « إنجلترا الشابة » ، هو المعارض الوحيد النشط ضد اللائحة . إلا أن الراديكاليين الآخرين ، ما أن رأوا الشعب يجهر بالعداء ضد اللائحة ، حتى بدأوا فى الزحف إلى الأمام واحداً بعد الآخر ، كلا يأخذ مكانه إلى جانب « دوكومب » وحيث أن « البورجوازية الليبرالية » لم تكن تمتلك الشجاعة اللازمة للدفاع عن اللائحة فى مواجهة الاضطراب السائد بين العمال ، فإنها قد فشلت فشلا مشيناً .

فى تلك الأثناء ، كان قانون « مالتوس للسكان » و « قانون الفقراء الجديد » الذى صيغ بناء عليه ، هما ابرز إعلان لحرب البورجوازية ضد البروليتاريا . لقد أشرنا مرات عديدة إلى « نظرية مالتوس » ، ويمكننا إجمال نتيجتها النهائية فى الكلمات المعدودة التالية ؛ إن الأرض مسكونة دائما بعدد من السكان أكثر مما يلزم ، لذا لابد وأن يسود الفقر والشقاء والضيق والفجور ، ذلك هو القضاء والقدر الأبدى للجنس البشرى ، قدره فى أن يوجد فى أعداد كبيرة للغاية ، ومن

ثم فى طبقات متباينة ، بعضها ثري متعلم وعلى خلق ، والبعض الآخر فقير تقريباً ، مكرب جاهل وبلا خلق . ومن ثم يلى ذلك فى التطبيق ، أن الصدقات وضرائب الفقراء — حتى نتكلم كما يجب — إنما هى هراء ، وقد استخلص « مالتوس » نفسه هذه النتيجة ، إذ أنها تفيد فقط فى المحافظة على الزيادة فى فائض السكان وإنعاشه ، هذا الفائض تسحق منافسته أجور الذين يعملون ، وأن تشغيل الفقراء عن طريق « الأوصياء على قانون الفقراء » إنما هو أمر غير مرغوب فيه بالمثل ، حيث أن كمية محدودة من منتجات العمل يمكن إستهلاكها ، كما أن كل عامل عاطل يعطى عملا بهذه الطريقة ، يدفع بعامل آخر مازال يعمل حتى الآن ، إلى بطالة إجبارية ، ولذا فإن المشروعات الخاصة تعانى من تكلفة الصناعة الناتجة عن « قانون الفقراء » ، أى أن المشكلة برمتها فى كلمات أخرى ، هى ليست فى كيفية إعالة فائض السكان ، ولكن فى كيفية كبحه إلى أبعد مدى ممكن . إن «مالتوس» يعلن فى إنجليزية واضحة ، أن حق الحياة — وهو حق زعم فيما سبق أنه من صالح كل إمرىء فى العالم — إنما هو لغو وهراء . إنه يقتبس كلمات أحد الشعراء الذى يقول ، أن الفقير يأتى إلى وليمة «الطبيعة» فلا يجد بساطاً ممدوداً من أجله ، ويضيف أن الطبيعة «تأمره بأن يغرب عنها» ، لأنه لم يسأل المجتمع قبل مولده ، إن كان هو مرغوبا فيه أم لا ، تلك النظرية الآن ، هى النظرية المفضلة عند كل بورجوازى إنجليزى صادق مع نفسه ، وهذا أمر طبيعى للغاية ، حيث أنها تقدم لهم أشد الأعذار تضليلا ، كما أن لها بالإضافة إلى ذلك ، نصيب وافر من الصحة فى ظل الظروف القائمة . إذن ، لو كانت المشكلة ، ألا يجعل « فائض السكان » هذا مفيداً ، ألا يحول إلى سكان نافعين ، أن يترك فقط للجوع حتى الموت بأقل طريقة مثيرة للإعتراض ، وأن يمنع من أن يكون لديه أطفال عديدين للغاية ، لكانت هذه المشكلة بالتأكيد ، مشكلة بسيطة للغاية ، شريطة أن يشعر فائض السكان هذا ، بأنه زائد عن الحاجة ، وأن عليه تحمل الموت جوعا ، فى وداعة . لكن ، كيفما كان الأمر ، فليس هنالك من أمل مباشر ، فى نجاح البورجوازية الرحيمة ، فى إدخال هذه النزعة بين العمال ، رغم ما تبذله من جهود عنيفة . إن العمال مقتنعون بأنهم ، بأيديهم المجتهدة ، إنما هم الشىء اللازم والضرورى ، وأن الرأسماليين الأثرياء ، والذين لا يفعلون شيئاً ، إنما هم فائض السكان .

وحيث أن الأثرياء ، على أى حال ، هم الذين يقبضون على كل السلطة ، فإنه من المحتم على البروليتاريين أن يذعنوا ، وإن هم لم يقروا بذلك عن طيب خاطر ، فإن القانون سيقوم بإظهار أنهم شيء زائد عن اللازم بالفعل . لقد تم هذا عن طريق « قانون الفقراء الجديد » . إن « قانون الفقراء الجديد » قد استند إلى لائحة ١٦٠١ (الثالث والأربعين « لاليزابيث ») ، والتى إنطلقت — بحسن نية — عن تصور بأن من واجب الأبرشية أن تتهيأ لاعالة الفقراء . إن كل من لا عمل له يتلقى معونة ، واعتبر الفقير أن الأبرشية كفيلة بحمايته من المجاعة . لقد طالب بمعونته الأسبوعية كحق له ، وليس كمنة ، وغدا هذا فى النهاية أكثر بكثير مما تحتمله البورجوازية . وفى عام ١٨٣٣ ، عندما وصلت البورجوازية بالضبط إلى السلطة عن طريق « لائحة الإصلاح » . وعندما كان العوز فى المناطق الريفية قد بلغ بالضبط قمة تطوره ، بدأت البورجوازية فى إصلاح « قانون الفقراء » طبقاً لوجهة نظرها . وعينت لجنة لدراسة « قانون الفقراء » فكشفت عن العديد من أشكال إساءة إستخدام تلك القوانين . لقد اكتشف أن كل الطبقة العاملة فى الريف فى حالة عوز ، وأنها تعتمد بصورة أو أخرى ، على الضرائب التى يتسلمون منها المعونة عندما تنخفض الأجور ، لقد وجد أن هذا النظام الذى يعال به العاطلون ، ويخفف به عن سيء الأجور ، ووالدى الأسرة الكبيرة ، وآباء الأطفال غير الشرعيين الذين يلزم دفع نفقة لهم ، وجد أن الفقر عامة ، قد إعترف به كأمر يحتاج حماية ، وجد أن هذا النظام كان يدمر الأمة . وجد أنه —

« قيد على الصناعة ، مكافأة عن زيجة مغامرة ، حافز على تزايد السكان ووسيلة لموازنة تأثير تزايد السكان على الأجور ، وجد أنه إحتياط قومى لتثبيط الأمين والمجتهد ، لحماية الكسول والفاسد والمغامر ، وأنه قصد به تحطيم روابط الحياة العائلية ، وتعويق تراكم رأس المال بشكل منسق ، وبعثرة ذلك الذى تراكم بالفعل ، وتحطيم دافعى الضرائب . يضاف إلى ذلك ، تشجيعه إنجاب الأطفال غير الشرعيين ، وذلك من أجل الحصول على زاد من الغذاء » .

(كلمات تقرير مندوبى « قانون الفقراء »)*

---

* إقتباسات من بلاغ تم تسلمه من « مندوبى لجنة قانون الفقراء » ، نشرته السلطة . لندن ، عام ١٨٣٣ .

إن هذا الوصف لتأثير « قانون الفقراء القديم » لصحيح تمام الصحة ، إن المعونة تحتضن الكسل ، وتزيد من « فائض السكان » . من الواضح تمام الوضوح أن الفقير مجبر فى ظل الظروف الراهنة ، على أن يكون أنانيا . وعندما يصبح فى وسعه أن يختار ، فإنه سيفضل ألا يفعل شيئاً عن أن يعمل ، طالما سيحيا نفس الحياة فى كلتا الحالتين . لكن ماذا ينتج عن ذلك ؟ إن ماينتج عن ذلك، هو أن أوضاعنا الإجتماعية الراهنة ستكون عديمة الجدوى ، وليس كما ينتهى مندوبو اللجنة المالتوسيين ، إلى أن الفقر جريمة ، وإلى أنه ما دام كذلك ، فيجب أن يبتلى بالعقوبات البشعة ، التى ربما تكون نذيراً للآخرين .

إلا أن هؤلاء المالتوسيين العقلاء، كانوا مقتنعين تمام الإقتناع بصدق نظرتهم، حتى أنهم لم يترددوا ولو للحظة واحـــدة ، فى إلقاء الفقراء فى السرير « البروكروستيانى » * لمفاهيمهم الإقتصادية ، ومعاملتهم بأشد صور الوحشية إثارة للإشمئزاز . أن إقتناعهم « بمالتوس » والمشايعين للمنافسة الحرة ، التى ترى أنه من الأفضل أن ندع كل أمرىء ليعتنى بذاته ، ليجعلهم يفضلون محو « قوانين الفقراء » محواً كلياً . إلا أنهم على أى حال ، لا يملكون الشجاعة أو السطوة لفعل هذا ، ولذا فإنهم قد اقترحوا « قانوناً للفقراء » يقوم قدر المستطاع على مذهب « مالتوس » ، ومع ذلك ، فإن هذا القانون أشد همجية من همجية « دعه يعمل » ، حيث يتدخل بنشاط ، فى الحالات التى يكون فيها هذا الأخير مستكيناً . لقد رأينا كيف وصف « مالتوس » الفقر ، أو على الأصح الحاجة إلى العمل بجريمة ، تحت عنوان «الزائد عن اللزوم» ، وأوصى أن يعالج بالتأديب جوعاً حتى الموت . لم يمكن أعضاء اللجنة همجيين إلى هذا الحد ، فالموت الناتج عن المجاعة مباشرة ،كان شيئاً رهيباً للغاية حتى بالنسبة لأعضاء لجنة « قانون الفقراء » أنهم يقولون : « حسناً ، لقد وهبناكم أيها الفقراء حق الوجود ، حق الوجود فقط ، لكنكم ، لم تحصلوا على حق التكاثر ، ولا على حق الوجود كما يليق البشر ، انتم

* المقصود هنا ، هو أنهم يحجمون الفقراء طبقاً لمقاييسهم ، و « بروكروستيان » هذا كان قاطع طريق ، يضع ضحاياه فى سريره ، ويقطع ما طال من أطرافهم ، أو يشد ماقصر، حتى يناسبوا سريره (المترجم) .

وباء ، وإن لم نستطع التخلص منكم كما نتخلص من الأوبئة الأخرى فإنكم ستشعرون على الأقل بأنكم وباء ، كما يجب على الأقل ، أن تمنعوا من تقديم « فائض » آخر إلى العالم ، إن ذلك سيحدث . إما بشكل مباشر وإما عن طريق ترغيب الآخرين فى الكسل والبطالة . ستعيشون ، ولكن عيشوا كإنذار مخيف لكل هؤلاء الذين يمكن أن تجول بخاطرهم رغبات فى أن يصيروا فائضاً » .

وطبقاً لذلك ، قدموا « قانون الفقراء الجديد » ، والذى وافق عليه البرلمان عام ١٨٣٤ ، وما زال سارى المفعول حتى يومنا هذا . لقد ألغيت كل معونة نقدية أو فى صورة مؤن . إن المعونة الوحيدة التى سمح بها ، هى الإدخال فى دور تشغيل الفقراء ، والتى تم تشييدها فى الحال . ووضعت القواعد المنظمة لدور تشغيل الفقراء هذه ، أو كما أطلق الناس عليها « باستيلات* قانون الفقراء » ، بصورة تفزع كل إمرىء لديه أقل من أمل فى الحياة ، دون الحاجة إلى هذا الشكل من الصدقة العامة ، ولتؤكد أن المعونة ستطبق فى أشد الحالات ضرورة ، وبعد فشل كل جهد آخر . لقد أقيمت دور تشغيل الفقراء ، كابشع أماكن للإقامة ، يمكن أن يبتكرها الذكاء « المالتوسى » الرائق . إن الطعام أردأ من طعام أسوأ العمال أجراً أثناء إشتغاله ، والعمل أشد قسوة ، وإلا فضل العمال دار تشغيل الفقراء عن وجودهم التعس خارجها . إن تلك الدور نادراً ما تقدم اللحم ، وخاصة اللحم الطازج ، إنها تقدم البطاطس أساساً ، كما تقدم أسوأ ما يمكن من الخبز وحساء الشوفان ، وقليل من البيرة أو لا بيرة . إن طعام السجناء المجرمين كقاعدة أفضل من طعام تلك الدور ، حتى أن المعوزين غالباً ما يرتكبون جنحة ما حتى يزج بهم فى السجن . حيث أن دار التشغيل سجن أيضاً ، إذ أن ذلك الذى لا ينهى ما كلف به من عمل ، لا ينال شيئاً يأكله ، وهذا الذى يود الخروج ، لا بد وأن يطلب إذناً ، وهو إذن ربما يمنح له أو لا يمنح ، وذلك طبقاً لسلوكه أو هوى المفتش ، الدخان ممنوع وكذا إستلام العطايا من الأقارب والأصدقاء من خارج الدار ، إن المعوزين يرتدون بزة خاصة بدار تشغيل الفقراء ، وهم يسلمون —

---

* نسبة إلى سجن الباستيل (المترجم) .

عاجزين ودون أن يمنحوا ما يعوضهم — إلى مزاج المفتش الشاذ . إنهم يكلفون بأعمال لا جدوى منها على وجه التقريب ، حتى لا ينافس عملهم تلك المشروعات التى فى الخارج ، إن الرجال يحطمون الأحجار ، والقدر المطلوب منهم ، هو ذلك « القدر الذى يستطيع رجل قوى أن ينجزه بالجهد فى يوم » ، وتقوم النساء والصبية والمسنون بجمع نسالة حبال القنب ، التى لا أعرف لأى غرض تافه تجمع . وتفرق العائلات لمنع « الفائض » من التكاثر ، ولمنع الوالدين « فاسدى الأخلاق » من التأثير على أطفالهم ، إن الزوج يوضع فى جناح ، والزوجة فى جناح آخر ، والأطفال فى جناح ثالث ، ولا يسمح لهم برؤية بعضهم البعض إلا فى أوقات محددة وعلى فترات طويلة ، وإلا عندما يكونوا ، فى رأى المسئولين ، قد سلكوا سلوكا طيباً . كما لا يسمح للنزلاء بالزيارة إلا بموافقة المسئولين وفى حجرات الإستقبال ، ولا يتم إتصالهم عامة بالعالم الخارجى ، إلا بعد إذن وتحت إشراف ، وذلك لفصل العالم الخارجى عن دنس العوز الموجود داخل تلك الباستيلات .

ومع هذا ، فالمفروض رغم كل ذلك ، أن يكون الطعام صحياً والمعاملة إنسانية . إلا أن قصد القانون صريح للغاية بالنسبة لهذا التكليف والكيفية التى ينفذ بها . إن « مندوبى لجنة قانون الفقراء » وكل البورجوازية الإنجليزية يخدعون أنفسهم إن هم صدقوا أنه فى الإمكان تنفيذ هذا القانون دون هذه النتائج . إن المعاملة التى يشير بها الخطاب المصاحب للقانون ، لتتناقض تناقض مباشراً مع روحه . إذ طالما أن القانون فى جوهره ، ينادى بأن الفقراء مجرمون ، وأن دور تشغيل الفقراء سجون ، وأن نزلاءها إنما هم خارج حظيرة القانون ، خارج حظيرة الإنسانية ، عناصر مثيرة للإشمئزاز والقرف ، فإن كل الأوامر المناقضة لذلك تصبح أموراً لا جدوى منها . إن روح القانون ، وليس الخطاب المصاحب له ، هى التى تتبع فى التطبيق عند معاملة الفقراء ، كما هو موضح فى الأمثلة القليلة التالية :

« عوقب صبى فى الخامسة من عمره ، فى دار تشغيل الفقراء فى «جرين ويش» فى صيف عام ١٨٤٣ ، بالحبس فى حجرة الموتى ، حيث كان عليه أن ينام على أغطية التوابيت . وفرضت نفس العقوبة على فتاة صغيرة ، فى دار تشغيل الفقراء

فى « هيرن » لأنها بللت السرير ليلا ، ويبدوا أن هذا الأسلوب من العقاب هو الأسلوب المفضل . إن دار تشغيل الفقراء تلك ، والتى تقع فى واحدة من أجمل مناطق « كنت » لدار غريبة، إلى حد أن نوافذها لا تطل إلا على الفناء فقط، ماعدا نافذتين تم فتحهما منذ عهد قريب ، فأمدا النزلاء بلمحة على العالم الخارجى » .
إن الكاتب الذى يروى هذه الوقائع فى « الأيليوميناتد ماجازين » ، ينهى وصفه بالكلمات التالية « إن كان الله يعاقب الرجال عن جرائمهم ، كما يعاقب الإنسان الإنسان لفقره، إذن فالويل لبنى آدم » .

مات فى نوفمبر ١٨٤٣ رجل من « ليسستر » . كان هذا الرجل قد طرد من دار تشغيل الفقراء فى « كوفنترى » ، قبل ذلك بيومين . إن تفاصيل معاملة الفقراء فى هذه المؤسسة تثير الاشمئزاز. لقد كان الرجل «جورج روبسون» مصاباً بجرح فى كتفه ، وقد أهمل علاج هذا الجرح إهمالا تاماً . كان يعمل على المضخة مستخدما ذراعه السليمة ، وكان يعطى له طعام دار تشغيل الفقراء المعتاد فقط ، وكان هو عاجز تمام العجز عن هضمه بسبب جرحه غير الملتئم وضعفه العام ، مما جعله بالضرورة يزداد ضعفاً ، وكان يعامل بوحشية أكثر كلما اشتكى أكثر . وعندما حاولت زوجته أن تحضر له نصيبها من قطرات البيرة ، وبخت وأجبرت على أن تشربها بنفسها فى حضور واحدة من السجانات . لقد أصابه المرض ، إلا أنه لم يتلق معاملة أفضل . وفى النهاية ، وبناء على طلبه ، طرد من الدار تصحبه زوجته بعد أن أهين وحقر أشد تحقير . ومات فى « ليسستر » بعد ذلك بيومين ، نتيجة الجرح الذى أهمل ، والطعام الذى أعطى له ، والذى كان عسير الهضم بالنسبة لإمرىء تلك حالته، كما شهد بذلك الطبيب الجراح الذى حضر التحقيق فى سبب الوفاة . وعندما طرد سلمت له خطابات تحوى نقوداً ، وكانت تلك الخطابات قد ظلت على حالها ستة أسابيع، ثم فتحها أحد المفتشين طبقاً لواحدة من قواعد المؤسسة ! إن مثل تلك الوقائع الفاضحة تحدث فى « برمنجهام » أيضاً ، حتى أنه أرسل أخيراً فى عام ١٨٤٣ ، بموظف رسمى لتحقيق الحالة هناك ، فوجد أن أربعا من المتشردين قد حبسوا عرايا فى حجرة مظلمة تحت بئر السلم، لمدة تتراوح من ثمانية إلى عشرة أيام . كانوا يحرمون من الطعام ، فى غالب الأحوال ، حتى الظهيرة ، وقد حدث هذا فى ظل أقسى فصول السنة . كما وجد أن صبياً صغيراً قد

مر بكل درجات العقـــاب المعروفة فى المؤسسة ، فقد حبس أولا فى حجرة الكراكيب الرطبة المقباة الضيقة ، ثم حبس فى جحر الكلاب مرتان ، كانت الثانية منهما لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليالى ، ثم حبس نفس المدة الزمنية فى جحر قديم للكلاب ، وكان هذا الجحر أسوأ من الجحر الآخر ، ثم حبس فى حجرة المتشردين ، وهى جحر قذر كريه الرائحة ، به دكك خشبية للنوم ، حيث وجد الموظف الرسمى ، أثناء تفتيشه ، صبيين آخرين يرتعدان من البرد وهما فى أسمال بالية ، وكان عليهما أن يقضيا هناك ثلاثة أيام . كان يحبس فى جحر الكلاب هذا فى غالب الأحوال ، سبعة أفراد ، وفى حجرة المتشردين عشرون رجلا ، مكدسين معاً . كانت النسوة أيضاً ، توضع فى جحر الكلاب ، لأنهن يرفضن الذهاب إلى الكنيسة ، ولقد حبست إحدى النسوة فى حجرة المتشردين أربعة أيام ، والله يعلم فى أية صحبة كانت ، حدث ذلك بينما كانت المرأة مريضة وتتعاطى دواء كما وضعت إمرأة أخرى فى قسم المجانين لتأديبها ، رغم أنها كانت عاقلة تمام العقل . ولقد كشف تحقيق مماثل ، أجرى فى دار تشغيل « باكتون » فى « سوفولك » فى يناير من عام ١٨٤٤ ، عن أن إمرأة ضعيفة العقل قد أستخدمت كممرضة ، وبالتالى كان عليها أن ترعى ، بينما كان المصابون الذين يعانون ، والذين يقضون الليل فى غالب الأحوال قلقين ، أو الذين يحاولون القيام ، كانوا يربطون بقوة بحبال تمرر من فوق الأغطية وتحت السرر ، حتى توفر على الممرضات مشقة السهر ليلا . ولقد وجد أحد المرضى ميتاً ، وهو مقيد على تلك الحال ، ومات فى دار « سانت بانكراس » لتشغيل الفقراء فى لندن (حيث تصنع القمصان الرخيصة كما ذكرنا آنفاً) أحد المصابين بالصرع مختنقاً ، عندما أصابته أزمة وهو فى السرير ، ولم يخف أحد لنجدته . وينام فى السرير الواحد ، فى نفس تلك الدار ، من أربعة إلى ستة صبية ، بل وثمانية فى بعض الأحيان . وفى دار « شورديتش » لتشغيل الفقراء ، وضع رجل مع آخر ، مصاب بالحمى ومريض للغاية ، فى سرير واحد ترتع فيه الحشرات . وحبست إمرأة فى دار « بثنال جـــرين » لتشغيل الفقراء ، وهى فى الشهر السادس من حملها ، ومع طفلها البالغ من العمر عامين فى حجرة الإستقبال ، من ٢٨ فبراير حتى ٢٠ مارس ، دون السماح لها بدخول دار التشغيل ذاتها ، ودون أن يكون بالحجرة أى أثر لسرير أو وسائل إشباع أشد الضرورات الطبيعية . ولقد توسل زوجها ، والذى كان هو نفسه قد أحضر إلى دار التشغيل ، لإطلاق

سراح زوجته من هذا السجن ، فسجن هو أيضاً أربع وعشرين ساعة على الخبز والماء ، جزاء له على وقاحته . وفى دار « سلو » لتشغيل الفقراء قرب «وندسور» كان يرقد رجل يعانى سكرات الموت فى سبتمبر ١٨٤٤ . وسافرت زوجته إليه ، فوصلت فى منتصف الليل ، وأسرعت إلى دار التشغيل فرفض السماح لها بالدخول . لم يسمح لها برؤية زوجها إلا فى صباح اليوم التالى ، وفقط فى حضور سجانة ، وكانت السجانة تفرض وجودها على الزوجة فى كل زيارة لاحقة ، طاردة إياها بعد مرور نصف ساعة على الزيارة . وفى دار تشغيل الفقراء فى « ميدلتون » فى « لانكشاير » ، كان ينام إثنى عشر ، وفى بعض الأحيان ثمانية عشر ، معوزاً من كلا الجنسين فى غرفة واحدة . إن هذه المؤسسة ليست خاضعة لقانون الفقراء الجديد ، لكنها تدار طبقاً للائحة قديمة خاصة (لائحة جيلبرت) ، ولقد أقام المفتش فى هذه الدار مصنعاً للبيرة لحسابه الخاص. وأحضر من« ستوك بورت »، فى ٣١ يوليو ١٨٤٤ ، رجل فى الثانية والسبعين من عمره أمام قاضى الصلح ، لرفضه تكسير الأحجار، وإصراره على ذلك ، بسبب كبر سنه وركبته المتصلبة، لم يكن لائقاً لهذا العمل . وعبثاً عرض القيام بأى عمل يناسب قدرته الجسدية ، لقد حكم عليه بالعمل أسبوعين على الآلة الدوارة لتعذيب المذنبين. ووجد موظف رسمى يقوم بالتفتيش فى دار تشغيل الفقراء فى « باسفورد » أن الملاءات لم يتم تغييرها منذ ثلاثة عشر أسبوعاً ، والقمصان منذ أربعة أسابيع ، والجوارب منذ عشرة شهور ، حتى أنه لم يكن هنالك غير ثلاثة صبية من خمسة وأربعين لديهم جوارب ، وكانت كل قمصانهم مهلهلة ، والسرر مكتظة بالحشرات، وأدوات المائدة تغسل فى دلو قذر المياه . وأصاب بواب فى دار تشغيل للفقراء فى غرب «لندن»، أربع فتيات بالزهرى ولم يطرد ، واحتجز آخر فتاة طرشاء بكماء فى سريره أربعة أيام وليالى ، وما زال مبقياً عليه .

وفى الموت كما فى الحياة ، يلقى بالفقراء إلى الأرض كمواش مصابة . إن أرض « سان بريدس » فى لندن ، لدفن المعوزين ، هى أرض غرق ، تستخدم كمقبرة منذ أيام « تشارلس الثانى » ، وهى مليئة بأكوام العظام ، أن المعوزين يلقى بهم كل يوم أربعاء فى حفرة يبلغ عمقها أربعة عشر قدما ، عليها قسيس يثرثر باللاتينية بأقصى سرعة، وتغطى الحفرة بغطاء مفكك ، حتى تفتح فى الأربعاء القادم، وتملأ بالجثث طالما فى الإمكان حشر واحدة أخرى فيها ، ولذا يلوث العفن المتولد كل

الجوار . وتقع مدافن المعوزين في « مانشستر » أمام « المدينة القديمة » على نهر « الايرك » ، وتلك هي أيضاً مكان وعر موحش ، شقت سكة حديدية عبره منذ عامين تقريباً . ما مدى صراخ البورجوازية ورجال الدين على هذا التدنيس ، إن كانت تلك المقبرة ، مقبرة محترمة ! إلا أنها كانت مدافن المعوزين ، مكان راحة راحة المنبوذين والفائض ، ولذا لا يشغل أحد نفسه بها . إن أحداً لم يفكر ولو لبرهة ، في نقل الأجساد التي تعفنت جزئياً إلى الجانب الآخر من المقابر ، كانت تكدس حيث هي ، وكان يدفع بالأكوام منها إلى قبور جديدة ، حتى أن المياه كانت تنشع من الأراضي الموحلة ، حبلى بالمواد العفنة ، وتملأ الجوار بأشد الغازات خطراً وإثارة للإشمئزاز . إنني لاأستطيع أن أصف الوحشية المتمززة التي صاحبت ذلك الأمر بتفاصيل أكثر من تلك .

هل يمكن أن يندهش أي إمرىء ؛ من أن الفقراء يعتـــذرون عن قبول المعونة العامة في ظل تلك الظروف ؟ من أنهم يموتون جوعا ولا يدخلون هذه الباستيلات ؟ من أن لدى تقارير حالات أفراد ماتوا جوعا بالفعل ، إذ عندما رفض الأوصياء أعطاءهم معونة وهم خارج دور التشغيل ، عادوا إلى منازلهم التعسة ، وماتوا جوعاً ، بدلا من أن يدخلوا هذا الجحيم . إلى هذا الحد حقق مندوبو لجنة قانون الفقراء غرضهم . وفي نفس الوقت ، فإن دور تشغيل الفقراء قد كثفت على أي حال ، أكثر من أي إجراء آخر اتخذه الحزب الحاكم ، كراهية الطبقة العاملة للقابضين على الملكية ، والذين هم بشكل عام ، معجبون أشد الإعجاب « بقانون الفقراء الجديد » .

لا يوجد من « نيوكاسل » إلى « دوفر » إلا صوت واحد بين العمال . هو صوت الكراهية ضد القانون الجديد . لقد قننت البورجوازية في هذا القانون مفهومها عن واجباتها قبل البروليتاريا بوضوح تام ، حتى أن أغبى الأغبياء قد عرف قدر هذا القانون حق المعرفة . إن هذا المفهوم ، والذى يحدد أن الطبقة التي لا تملك إنما توجد فقط بغرض إستغلالها ، وأن عليها أن تموت جوعاً عندما يصبح القابضين على الملكية في غير حاجة لإستخدامها ، هذا المفهوم لم يقنن من قبل بمثل هذه الصراحة والجسارة . ومع ذلك ، فإن ذلك القانون نفسه ، هو الذى عاون إلى حد بعيد ، في زيادة سرعة الحركة العمالية ، وخاصة في نشر الميثاق ،

وحيث أنه ينفذ فى الريف على أوسع نطاق ، فإنه ييسر بذلك تطور الحركة البروليتارية الناشئة فى المناطق الزراعية .

دعنى أضيف قانوناً مماثلا ، يسرى مفعوله فى إيرلنده منذ عام ١٨٣٨ ، إنه يقدم مأوى لثمانين ألف معوز . هنا أيضاً ، جعل القانون من نفسه أمراً كريهاً ، وكان من الممكن أن يكون مكروهاً بصورة أكثر كثافة ، لو حظى بوضع يماثل فى الأهمية ، ما لوضع القانون فى انجلترا . إلا أنه فى بلد يوجد به مليونان ونصف من لبروليتاريين ، ما هو الفرق الذى يفعله سوء المعاملة لثمانين ألف منهم ؟ أما فى اسكتلندا ، مع إستثناءات محلية ، فلا توجد « قوانين للفقراء » .

إننى آمل بعد هذه الصورة عن « قانون الفقراء الجديد » ونتائجه ، ألا يرى أحد فيما قلته عن البورجوازية الإنجليزية ، أية خشونة أو قسوة زائدة . إن البورجوازية التى تتجسد فى هذا الإجراء العام ، بإعتبارها القوة الحاكمة ، تتمن نواياها الحقيقية ، وتكشف عن الغرض من تلك المعاملات الأقل شأناً مع البروليتاريا ، والتى يلقى اللوم فيها بوضوح على الأفراد . ان كون هذا الإجراء لم ينبع عن أى قطاع بمفرده من البورجوازية ، وأنه يتمتع بموافقة الطبقة كلها ، أمر تثبته المناقشات البرلمانية لعام ١٨٤٤ . لقد صدق « حزب الأحرار » على « قانون الفقراء الجديد » ، ويدافع عنه « حزب المحافظين » وعلى رأسه رئيس وزرائه ، الذى لم يغير فى «لائحة إصلاح قانون الفقراء» لعام ١٨٤٤ ، إلا بعض الصغائر التافهة. إن أغلبية من «الأحرار» قد دعمت للائحة، وأغلبية من المحافظين قد وافقت عليها ، وقد أعطى « للوردات النبلاء » موافقتهم فى كل مرة. وبذلك يتم صراحة إبعاد البروليتاريا عن الدولة والمجتمع ، وبذلك ينادى علناً بأن البروليتاريين ليسوا بشراً ، ولا يستحقون أن يعاملوا كما يعامل البشر . دعونا نترك لبروليتارى* الإمبراطورية لبريطانية أن يظفروا من جديد ، بحقوقهم الإنسانية * .

---

* منعا لسوء الفهم والاعتراضات المترتبة عليه ، كان على أن راءى الحديث عن البورجوازية كطبقة ، وأن كل تلك الحقائق المنسوبة إلى الأفراد ، إنما تخدم فقط كدليل على طريقة تفكير وعمل « الطبقة » ومن ثم فاننى لم أدخل فى الفروق بين الأقسام المختلفة ، فى جزئيات وأحزاب الطبقة ، والتى لها دلالة تاريخية ونظرية فقط • وفى وسعى لنفس السبب =

ذلك هو حال الطبقة العاملة الإنجليزية كما عرفتها خلال واحد وعشرين شهراً، عن طريق الرؤية، من خلال التقارير الرسمية، وتقارير أخرى موثوق بها. إنني عندما أسمى هذه الحالة، بالحالة التي لا يمكن إحتمالها البتة، كما فعلت كثيراً في الصفحات السابقة، فإنني لست الوحيد الذي يفعل ذلك. لقد أعلن «جاسكال» مبكراً عام ١٨٣٣، أنه قد يأس من مخرج سلمي، وأن ثورة تلي ذلك أمر ممكن الحدوث. وفسر «كارليل» عام ١٨٣٣، «الميثاقية» والنشاط الثوري للعمال، على أساس أنه أمور ناشئة عن الشقاء الذي يعيش العمال فيه، وأن الذي أدهشه فقط، هو جلوسهم هكذا ساكنين ثماني سنوات طوال إلى «وليمة البراسكة»(٢٤)، تلك التي أتحفتهم بها البورجوازية الليبرالية بوعود فارغة. وأعلن، عام ١٨٤٤، أن مهمة تنظيم العمل يجب أن تبدأ على الفور.

=أن أذكر، ولكن بشكل عرضي، العدد القليل من البورجوازيين الذين ظهروا كاستثناءات شريفة. هؤلاء، من ناحية، هم «الراديكاليين» البـارزين، والذين هم في الغالب «ميثاقيين»، مثال بعض أعضاء «مجلس العموم» القليلين، أصحاب المصانع «هيندلي» عن (أشتون) و (فييلدن) عن (تودموردون) (لانكشاير)، ومن ناحية أخرى (أعضاء حزب المحافظين) الإنسانيين، والذين نظموا أنفسهم منذ عهد قريب «كانجلترا الشابة»، ومن بينهم «أعضاء البرلمان» «ديزرائيلي»، «بورث ويك»، «فيراند» و «لورد جون مانرز»... الخ. إن «لورد أشلي» أيضاً يتعاطف معهم. إن أمل «إنجلترا الشابة» هو إرجاع «انجلترا المرحة» بسماتها المتألقة وإقطاعها الرومانسي. إن هذه المسألة باتت كيد أمر مضحك ولا يمكن تحقيقه، إنه قدح في كل التطور التاريخي الا أن النية الطيبة والشجاعة، في مقاومة الأوضاع القائمة والإجحاف السائد، وادراك دناءة حالتنـا الراهنة، لأمر يستحق شيئاً ما، على أي حال. ويقف على حدة تماما «توماس كارليل». ذلك الرجل الانجليزي نصف الألماني، والذي هو أصلا من «حزب المحافظين»، والذي يذهب أبعد من كل هؤلاء الذين ذكروا من قبل. لقد سبر غور الفوضى الاجتماعية بطريقة أكثر عمقا من أي بورجوازي انجليزي آخر [آمل أ «كارليل» الذي وجد الطريق الصحيح، أن يكون قادراً على اتباعه. وله مني ومن عديد من الألمان الآخرين أطيب الأمنيات (محذوفة من النسخة الانجليزية المصرح بها)] [الا أن ثورة فبراير صيرته رجعيا تماما. ان سخطه العادل ضد «المعادين»، قد تحول الى عداء غاضب يتأفف من هذا التـاريخ الذي ألقى به الى الشاطيء (أضيفت الى النسخة الألمانيه عام ١٨٩٢)]

« إن ظلت أوربا ، أو انجلترا على الأقل ، مسكونة أمداً طويلا » .

وتقول « التايمس » ، « أول جريدة في أوربا » في يونيو ١٨٤٤ :

« الحرب للقصور ، السلام للأكواخ ، تلك معركة ، صرخة رعب يمكن أن تدوى في كل مكان من بلدنا . فليحذر الأثرياء ! » .

* * *

دعونا في تلك الأثناء ، نستعرض فرص البورجوازية . إن إمكانية نجاح الصناعة الأجنبية وخاصة الأمريكية أمام المنافسة الإنجليزية ، حتى بعد إلغاء قوانين القمح ، أمر لابد منه ، خلال سنوات قليلة في أسوأ الأحوال . إن الصناعة الألمانية تبذل الآن جهوداً ضخمة ، وتلك الأمريكية قد تطورت بخطى عملاقة. إن أمريكا بمواردها التي لا تنضب ، وحقول فحمها وحديدها التي لم تمسح بعد ، وثروتها من الطاقة المائية التي لا مثيل لها ، وأنهارها الصالحة للملاحة ، وهي على وجه الخصوص ، بسكانها النشطين ذوى العزم إن قورنوا بما عليه الانجليز من لكاعة وفتور — قد خلقت في أقل من عشرة أعوام ، صناعة تنافس إنجلترا بالفعل في السلع القطنية السميكة ، وهي قد أخرجت الإنجليز من أسواق أمريكا الشمالية والجنوبية ، وأصبح لها أسواقها في الصين جنباً إلى جنب مع إنجلترا . وإن كان هنالك بلد مهيأ للإمساك باحتكار للصناعة ، فإن ذلك البلد هو أمريكا . وإن حدث وقهرت الصناعة الإنجليزية نتيجة ذلك — وهو أمر لا مفر منه في غضون العشرين سنة القادمة ، إن إستمرت الأوضاع الحالية دون تغيير — فإن غالبية البروليتاريا لابد وأن تصبح فائضاً إلى الأبد ، ولن يكون أمامها من إختيار سوى الموت جوعاً أو التمرد . هل تفكر البورجوازية الإنجليزية في هذا الأمر المحتمل ؟ العكس صحيح ، إذ أن إقتصاديها المفضل « ماك كولك » ، يدرس طلابه ، أن بلداً شاباً مثل أمريكا ، وهي بلد غير مسكونة كما يجب ، لا يمكنها أن تدير صناعة ناجحة ، أو تحلم بمنافسة بلد صناعي قديم مثل إنجلترا . وأنه كان جنونا من الأمريكيين أن يقوموا بتلك المحاولة ، لأنها لن تعود عليهم إلا بالخسارة ، وأنه من الأفضل كثيراً لهم ، أن يثابروا على

زراعتهم ، وعندما يكونون قد وضعوا بلدهم كله تحت المحراث ، فربما يأتى حينئذ وقت يستطيعون فيه إدارة صناعة مربحة . هذا ما يقوله الإقتصادى الحكيم ، والبورجوازية كلها تمجده ، بينما يضع الأمريكيون أيديهم على سوق بعد الآخر ، وفى الوقت الذى قام فيه مضارب أمريكى جسور ، بإرسال شحنة من السلع القطنية الأمريكية إلى إنجلترا ، حيث بيعت كواردات مصدرة .

ولكن إلى ما يقود الزعم بأن إنجلترا قد إحتفظت باحتكارها للصناعات ، وبأن مصانعها تتضاعف بصورة أبدية ؟ إن ذلك الزعم يقود إلى إستمرار الأزمة التجارية ، ونموها بصورة أكثر عنفاً ، وأكثر بشاعة ، مع إتساع الصناعة وتضاعف البروليتاريا . إن البروليتاريا سوف تزداد بنسبة مطردة ، نتيجة الدمار المتصاعد للطبقة الوسطى الدنيا ، وللخطوات العملاقة التى يركز بها رأس المال نفسه فى أيدى القلة ، ولسوف تشمل البروليتاريا كل الأمة بإستثناء عدد قليل من المليونيرات ، إلا أنه سوف تأتى مرحلة فى هذا التطور ، تدرك فيها البروليتاريا مدى سهولة الإطاحة بالسلطة القائمة ، وحينئذ سوف تلى هذا الإدراك ثورة .

إلا أنه من غير المتوقع ، على أى حال ، إحتمال قيام أى واحد من تلك الأوضاع المفترضة . إن الأزمات التجارية ، وهى أعظم مرتكزات كل تطور مستقل للبروليتاريا ، ستقصر فى الغالب أمد العملية ، إنها تفعل فعلها فى توافق مع المنافسة الأجنبية ، والدمار المستحكم للطبقة الوسطى الدنيا . إننى أعتقد أن الشعب لن يحتمل أكثر من أزمة واحدة أخرى . إن الأزمة التى ستقع فى عام ١٨٤٦ أو عام ١٨٤٧ ، ستجلب معها فى الغالب ، إلغاء «قوانين القمح» * وفرض «الميثاق» . إن أى حركات ثورية يمكن أن تنجم عن الميثاق إنما هى أمر يمكن إدراكه . ولكن ، عندما يحين زمن الأزمة التاليه ، والتى يجب أن تنشب عام ١٨٥٢ أو عام ١٨٥٣ قياساً على الأزمات التى سبقتها ، ما لم تعطل ، ربما بإلغاء «قوانين القمح» ، أو تعجل بتأثير مؤثرات أخرى كالمنافسة الأجنبية — فإن

---

* وقد فعلت ذلك بالفعل .

الشعب الإنجليزى سيكون قد عانى ما يكفى من نهب الرأسماليين له ، وتركه للموت جوعاً حين يصبح الرأسماليون فى غير حاجه لخدماته . إن البرجوازية الإنجليزية ، إن لم تتوقف حتى ذلك الحين لتفكر — وتشير كل الدلائل إلى أنها لن تفعل ذلك بالتأكيد — فإن ثورة لا يمكن مقارنتها بأى ثورة حدثت من قبل ، سوف تلى ذلك . إن البروليتاريين وقد دفع بهم إلى اليأس ، سوف يمسكون بالمشعل الذى بشرهم به « ستيفنس » ، وسيحل إنتقام الشعب فى غضب شديد . لن يكون هياج ١٧٩٣ بقادر على إعطاء فكرة حقيقية عن هذا الإنتقام . إن حرب الفقراء ضد الأغنياء ستكون أشد حرب دموية قامت على طول المدى ، حتى أن ائتلاف جزء من البورجوازية مع البروليتاريا ، وحتى إصلاح البورجوازية بشكل عام ، لن يكون مجدياً . وإلى جانب ذلك ، فإن تغيير لب البورجوازية ، يمكن أن يمضى فقط ، إلى الحد الذى يماثل بالضبط فتور الوسط المحيط ، إن أشد الإئتلافات تصميماً بين البورجوازية والعمال ، سيشكل فقط « جيروند » جديد ، يموت خلال مجرى التطور الهائل. إن إيذاء طبقة كاملة أمر لا يمكن أن يوضع جانباً كمعطف قديم ، على أقل تقدير بالنسبة لهؤلاء البورجوازيين المتمكنين ، ضيق الأفق ، الأنانيين . تلك هى كل الاستنتاجات التى يمكن استخلاصها بأكبر قدر من اليقين ، إنها نتائج ، مقدماتها حقائق لا يمكن نكرانها ، جزئياً من التطور التاريخى ، وجزئياً من الحقائق الفطرية فى الطبيعة الإنسانية . إن إمكانية التنبوء فى إنجلترا ، حيث كل العناصر المكونة للمجتمع محددة بشكل واضح ، ومنفصلة بشكل حاد ، أسهل من إمكانية التنبؤ فى أى مكان. لابد للثورة أن تجىء ، إن الوقت بالفعل قد تأخر تماماً للسعى إلى حل سلمى ، إلا أنه يمكن للثورة أن تكون أكثر ليناً مما تم التنبؤ به فى الصفحات السابقة . إن هذا يتوقف على أى حال ، على تطور البورجوازية أكثر مما يتوقف على البورجوازية . إنها مسألة نسبية ، فبقـــدر ما تستوعب البروليتاريا المبادىء الإشتراكية والشيوعية، بقدر ماتقلل الثورة من سفك الدماء والإنتقام والوحشية. إن الشيوعية تقف فى الأساس، فوق الشق الذى بين البورجوازية والبروليتاريا، إنها تدرك فقط دلالاته التاريخية بالنسبة للحاضر ، لكنها لا تسلم بما يبرر به من أجل المستقبل : إنها ترغب ، فى الحقيقة ، فى إجتياز تلك الهوة ، من التخلص من

كل العداوات الطبقية ، ومن ثم فإنها تدرك كما ثبت سخط البروليتاريا نحو مضطهديها كضرورة ، طالما ظل الصراع قائماً ، كأهم مرتكز لحركة عمالية فى بدايتها ، إلا أنها تتجاوز هذا السخط ، لأن الشيوعية هى قضية الإنسانية وليست قضية العمال وحدهم . يضاف إلى ذلك ، أن أى شيوعى لا يرغب فى الإنتقام لنفسه من الأفراد ، أو يؤمن بشكل عام ، أن فى مكنة البورجوازى الفرد أن يفعل خلافا لما هو فاعل بالفعل ، فى ظل الظروف القائمة . إن الإشتراكية الإنجليزية أى الشيوعية ، ترتكز مباشرة على عدم مسئولية الفرد . وبالتالى ، فإنه كلما استوعب العمال الإنجليز الأفكار الشيوعية كلما بدت مرارتهم الحالية أزيد مما يجب - إذ لو استمرت تلك المرارة على عنفها الراهن فهى لن تنجز شيئاً - كما يفقد فعلهم المعادى للبورجوازية عنفه الوحشى بصورة أكثر . وفى الحقيقة ، لو كان فى الإمكان جعل البروليتاريا كلها شيوعية قبل أن تنشب الحرب ، فإن النهاية ستكون سلمية للغاية ، إلا أن ذلك لم يعد ممكناً ، فقد فات الوقت . إننى أعتقد ، أنه خلال ذلك ، قبل نشوب الحرب المكشوفة المعلنة للفقراء ضد الأغنياء ، سيتوفر بين البروليتاريا إدراك ذكى كاف للمسألة الإجتماعية ، يمكن الحزب الشيوعى ، وبمساعدة الأحداث ، من هزيمة العنصر الوحشى للثورة ، وأن يمنع حدوث « ثيرميدور تاسع » . إن الخبرة التى عاناها الفرنسيون لن تكون عبثاً على أى حال ، كما يضاف إلى ذلك أن غالبية قادة « الميثاقيين » هم شيوعيون بالفعل . وحيث أن الشيوعية ، تقف فوق النزاع بين البورجوازية والبروليتاريا ، فإنه سيكون من الأيسر على العناصر البورجوازية الافضل (والتى هى على أى حال قليلة بصورة محزنة ، وفى الإمكان القيام بالبحث عن مجندين ، وسط الجيل الصاعد فقط) ان تأتلف معها ، عن أن تأتلف مع الميثاقية البروليتارية الخالصة .

إن كانت تلك النتائج لم ترسخ ، خلال العمل الحالى ، بصورة كافية ، فربما تكون هنالك فرصاً أخرى ، لإثبات أنها نتائج ضرورية للتطور التاريخى لانجلترا . إلا أننى أزعم ، أن هذه الحرب ، حرب الفقراء ضد الأغنياء ، والتى تجرى حالياً بالقطاعى وبشكل غير مباشر ، سوف تصبح حرباً مباشرة وعامة . إن الوقت متأخر للغاية بالنسبة لحل سلمى . إن الطبقات تتسم بصورة

حادة أكثر فأكثر ، إن روح المقاومه تتخلل العمال ، والمرارة تتكاثف ،
إن مناوشات حرب العصابات قد تركزت فى المعارك الأكثر أهمية ، وعما
قريب ، سيكفى باعث طفيف على تحريك الإنهيار الثلجى . وحينئذ ، سوف
تدوى حقاً صرخة الحرب عبر الأرض : « الحرب على القصور ، السلم
للأكواخ » — إلا أن الوقت حينذاك ، سيكون قد فات على الأغنياء ،
فليحذروا .

□

ملحوظات

١ — كتب « انجلز » هذا الكتاب فى « بارمن » ، فى المدة ما بين سبتمبر ١٨٤٤ ومارس ١٨٤٥ . لقد درس « انجلز » حال البروليتاريا الإنجليزية عندما عاش فى إنجلترا من نوفمبر ١٨٤٢ إلى أغسطس ١٨٤٤ . كان ينوى فى بادىء الأمر أن يتناول هذا الموضوع فى فصل واحد ، فى عمل عن التاريخ الاجتماعى لإنجلترا ، والذى كان بصدد كتابته ، وعلى أى حال ، فإن إدراك الدور الخاص للبروليتاريا فى المجتمع البورجوازى ، إقتضى من « أنجلز » أن يكتب كتاباً منفصلا ، يتقصى حال الطبقة العاملة فى انجلترا .

لقد نشر الكتاب أول ما نشر فى « ليبزيج » عام ١٨٤٥ ، وظهرت الطبعة الألمانية الثانية عام ١٨٩٢ . وفى تلك الأثناء ، رخص رسميا بنشر طبعتين مترجمتين إلى الإنجليزية ، واحدة منهما فى نيويورك عام ١٨٨٧ ، والأخرى فى لندن عام ١٨٩٢ . ولقد كانت كلا الطبعتين الأمريكية والإنجليزية معنونة بـ « حال الطبقة العاملة فى انجلترا ، فى عام ١٨٤٤ » . ولم يدخل انجلز أى تغييرات جوهرية على النص الأصلى عندما كان يعد طبعات جديدة من كتابه ، إلا أنه رأى ، أنه من الضرورى الإشارة فى ملحق الطبعة الأمريكية (١٨٨٧) ، والذى يكاد يكون متضمنا بالكامل فى مقدمات الطبعات الانجليزية والألمانية لعام ١٧٩٢ ، إلى أن «حال الطبقة العاملة فى انجلترا» لا يمكن إعتباره عملا ماركسيا ناضجاً . كتب يقول « إن هذا الكتاب يظهر فى كل موضع ، إنحدار « الاشتراكية الحديثة » ،

---

* دار التقدم ، ١٩٧٣

* ترجمه الى الإنجليزية ناشروا التقدم ، ١٩٧٣ .

من واحد من أسلافها ، من الفلسفة الألمانية . ومن هنا وضع ثمل كبير على الرأى الخاص بأن الشيوعية ليست مجرد عقيدة حزب الطبقة العاملة ، ولكنها نظرية تحيط بتحرير المجتمع ، بوجه عام ، من أوضاعه الحرجة الحالية ، بما فى ذلك الطبقة الرأسمالية ، إن هذا الأمر صحيح فقط من الناحية النظرية ، إلا أنه باطل تمام البطلان ، بل وأحيانا أسوأ من ذلك ، فى التطبيق . إذ طالما أن الطبقات الثرية لا تشعر ، ليس فقط ، بالحاجة إلى أى تحرر ، بل إنها تعارض بنشاط ، تحرير الطبقة العاملة لنفسها ، فإن الثورة الاجتماعية لابد وأن تعد وأن تحارب بواسطة الطبقة العاملة وحدها » . ويمضى « إنجلز» مفسراً لماذا ثبت خطأ نبوءته فى عام ١٨٤٥ ، عن ثورة إجتماعية وشيكة . إنه يشهد سبب إنحطاط « الميثاقية » بعد عام ١٨٤٨ ، والانتصار المؤقت للإنتهازية فى حركة الطبقة العاملة الإنجليزية فى الاحتكار الصناعى البريطانى فى السوق العالمى ، ويقول فى ثقة « ستكون هنالك إشتراكية مرة أخرى فى إنجلترا » ، بمجرد أن تفقد إنجلترا وضعها الاحتكارى .

٢ — إن المناشدة التى وجهها انجلز« إلى الطبقة العاملة فى بريطانيا العظمى» ، كتبت بالإنجليزية ، حيث أنه كان ينتوى نشرها ككتيب منفصل ، وإرسالها إلى بعض قادة الأحزاب السياسية الإنجليزية ، رجال الأدب وأعضاء البرلمان . وقد تضمنت الطبعات الألمانية لكتاب « حال الطبقة العاملة فى إنجلترا » (١٨٤٥ و ١٨٩٢) النص الأصلى الإنجليزى للمناشدة ، إلا أنها لم تكن متضمنة فى الطبعة الأمريكية (١٨٨٧) والطبعة الإنجليزية (١٨٩٢) .

٣ — إشارة إلى هبة نساجى « سيليزيا » من ٤ — ٦ يونيو عام ١٩٤٤ ، وهى أول معركة طبقية بين البورجوازية والبروليتاريا فى ألمانيا ، وإلى الاضطرابات التى نشبت بين عمال بوهيميا ، مشتملة النساجين فى ضواحى «براج» فى صيف ١٨٤٤ .

٤ — نشر تقرير « الستون » أول ما نشر فى الـ « ويكلى ديسباتش » ، جريدة البورجوازية الراديكالية ، ثم أعيد طبعه فى ١٠ أغسطس عام ١٨٤٤ ، فى العدد رقم ٣٣٨ فى الـ « نورثن ستار » ، جريدة « الميثاقيين » .

٥ — نشر تقرير اللجنة ، التى عينها اجتماع مواطنى « هودر سفيلد » من ١٩ يوليو عام ١٨٤٤ ، من أجل مسح المدينة فى ١٠ أغسطس عام ١٨٤٤ فى العدد رقم ٣٥٢ من « النورثن ستار »

٦ — « كيرسال مور » — تل قرب « مانشستر » حيث كان العمال يعقدون اجتماعاتهم عادة . ويطلق « انجلز » على هذا التل اسم الجبل المقدس ، قياساً على « الجبل المقدس » فى روما القديمة ، والذى إنسحب إليه العوام عام ٤٩٤ قبل الميلاد ، بعد ثورتهم ضد النبلاء، كما تقول بذلك القصة المروية عن القدماء .

٧ — إن الرسوم المنسوخة فى هذا الكتاب وكذا النصوص المناسبة مأخوذة عن الطبعة الألمانية لهذا الكتاب .

٨ - إن تقرير المبجل « د. شامبنيس » ، عن حال العاملين فى مرفأ لندن ، قد نشر أول ما نشر فى الـ « ويكلى ديسباتش »، ثم أعيد طبعه فى ٤ مايو ١٨٤٤ فى العدد ٣٣٨ من الـ « نورثن ستار » .

٩ — نشرت مقالة دكتور «كوين» ، « إحصائيات ضرورية عن «جلاسجو» ، تبين حال السكان الصحية » فى أكتوبر ١٨٤٠ فى « جـــريدة جمعية الإحصاء بلندن » .

١٠ — تبنى البرلمان البريطانى ، « لائحـــة مبانى العـاصمة » ، فى عام ١٨٤٤ .

١١ — « قوانين القمح » هى التى أدخلت تعريفة عالية على الحبوب ، بغرض تقييد أو حظر واردات الحبوب ، وقد أقرها البرلمان البريطانى لصالح كبار ملاك الأراضى ، وقد انتهى الصراع بين البورجوازية الصناعية وأصحاب الأراضى الإرستقراطية ، حول قوانين القمح بإلغائها عام ١٨٤٦ . إن هذا الإجراء ، والهبوط الناتج عنه ، فى أسعار الحبوب ، قد أدى إلى تخفيض معين فى تكاليف الحياة ، وفى النهاية ، إلى تخفيض الأجور ، وزيادة أرباح البورجوازية . إن إلغاء قوانين القمح قد وجهت لطمة إلى أصحاب الأراضى الإرستقراطيين، وعجلت بتطور الرأسمالية فى انجلترا .

١٢ — إن « قانون ١٨٠٢ » قد قيد ساعات العمل للصبية الأحداث إلى ١٢ ساعة ، ومنع تشغيلهم ليلا ، وعلى أى حال ، فإن تطبيقه قد قصر على الصناعات القطنية والصوفية فقط . ولم يوفر رقابة عن طريق معاينة المصنع . وما حدث فى الواقع ، هو أن أصحاب المصانع لم يكترثوا بهذا القانون .

١٣ — منع « قانون ١٨١٩ » كل تشغيل للأطفال دون سن التاسعة ، فى مصانع غزل القطن ونسجه ، كما منع التشغيل الليلى للصبية وحديثى السن دون السادسة عشر . لقد تقرر أن يكون يوم عملهم ، هو إثنتى عشر ساعة ، لا تحتسب فيها فترات إستراحة لتناول الوجبات ، حيث كان أصحاب المصانع أنفسهم هم الذين ينظمون هذه الفترات ، وبذا إستطال يوم العمل من الناحية الفعلية إلى أربعة عشر ساعة وأكثر .

ولقد قرر « قانون ١٨٢٥ » أن فترات الإستراحة الخاصة بالوجبات يجب ألا تزيد فى إجمالها عن ساعة ونصف ، وبذا يجب ألا يزيد يوم العمل عن ثلاثة عشر ساعة ونصف . إلا أن هذا القانون أيضاً ، مثله فى ذلك مثل قانون ١٨١٩ ، لم يوفر عملية الرقابة على المصنع ، كما لم يراع أصحاب المصانع .

١٤ — « نشرات الأسطول » كتيبات أسبوعية كتبها « أوستلر » — الذى كان محبوساً فى « سجن الأسطول » بسبب ما عليه من ديون — فى صورة رسائل وقد ظهرت تلك النشرات فيما بين عام ١٨٤١ و ١٨٤٤ .

١٥ — الـ « نورثن ستار » — جريدة بريطانية أسبوعية ، وهى الجريدة المركزية « للميثاقيين » . صدرت أول ما صدرت فى « ليدز » من عام ١٨٣٧ إلى عام ١٨٥٢ ، وصدرت فى « لندن » عام ١٨٤٤ . كان مؤسسها ورئيس تحريرها هو « فيرجس أوكونور » . كما رأس تحريرها أيضاً « جورج هارنى » فى الأربعينيات . وقد راسل « انجلز » هذه الجريدة من سبتمبر ١٨٤٥ إلى مارس ١٨٤٨ .

١٦ — إن ترجمة « انجلز » الألمانية لهذا الشعر متضمنة فى الطبعة الألمانية

فى هذا الكتاب . أن النص الإنجليزى الحالى مأخوذ من الـ « نورثن ستار » الصادرة فى ١١ فبراير عام ١٨٤٣ .

١٧ — تقول أسطورة « السناتور الرومانى مينينيوس أجريبا »، أنه أغرى العوام المتمردين عام ٤٩٤ قبل الميلاد بالإستسلام ، وذلك بأن قص عليهم حكاية تمرد أجزاء من الجسم البشرى على المعدة .

١٨ — الإشارة هنا إلى الصدامات التى وقعت بين « الميثاقيين » والشرطة ، والتى دبرتها العناصر الاستفزازية فى « شيفيلد » ، « براد فورد » ومدن أخرى ، ولقد نتج عن تلك الصدامات عمليات قبض عديدة على قادة الحركة وأعضائها .

١٩ — معاهد الميكانيكا — مدارس ليلية يدرس فيها العمال موضوعات معينة عن المهارات الفنية والعلوم الأدبية . ولقد ظهرت تلك المدارس أول ما ظهرت فى عام ١٨٢٣ فى جلاسجو ، وفى عام ١٨٢٤ فى لندن . وفى أوائل الأربعينيات كان هنالك أكثر من مائتى مدرسة من هذه المدارس، أساساً فى مدن « لانكشاير » و « يوركشاير » الصناعيتين . ولقد إستخدمت البورجوازية هذه المدارس فى تدريب العمال الصناعيين المهرة التى تحتاج إليهم ، وبالتالى فى التأثير عليهم .

٢٠ — وافق البرلمان فى ١٠ أغسطس عام ١٨٤٢ على القانون الخاص بإلغاء تشغيل النساء والصبية الذين تقل أعمارهم عن عشر سنوات ، فى العمل تحت الأرض .

٢١ — فرضت الحكومة الإنجليزية الاتحاد الأنجلو — أيرلندى على أيرلندا بعد قمع هبة الأيرلنديين عام ١٧٩٨ . ومحا الإتحاد الذى غدا معمولا به منذ ١ يناير ١٨٠١ ، آخر بقايا الحكم الذاتى فى إيرلنده ، وألغى البرلمان الأيرلندى . إن شعار إلغاء الاتحاد كان أكثر الشعارات شعبية فى أيرلنده منذ العشرينيات . ولقد تأسست « جماعة الداعيين لفسخ الاتحاد » عام ١٨٤٠ .

٢٢ — يشير « أنجلز » إلى مقالته ، « وضع انجلترا . الماضى والحاضر بقـــلم « توماس كارليل » . (أنظر أعمال ماركس / أنجلز الجزء الأول صفحة ٥٢٥ — ٥٤٩) .

٢٣ — دعه يعمل ، دعه يمر ، شعار الداعيين إلى « حرية التجارة » ، أى الاقتصاديين البورجوازيين المدافعين عن حرية التجارة وعدم تدخل الدولة فى العلاقات الاقتصادية .

٢٤ — تلميح إلى القصة الواردة فى « ليالى العرب » ، والتى تتحدث عن شحاذ كان يستهزأ به بتقديم العديد من الأطباق الفارغة له .

محتـــــويات *

صفحة

(*) ان فهرس المحتويات الموجود هنا ، انما يرجع الى ذلك الذى أعده انجلز للطبعة الألمانيه الأولى « لحال الطبقه العاملة الإنجليزية » صدرت عام ١٨٤٥ . أرقام الصفحات الموجودة بين الأقواس تشير الى صفحات الكتاب الحالى .

رقم الايداع ٤٠٥٨ / ١٩٨٠

مطبعة عابدين
٩ ش المقاولى ت ٩٠٢٧٧٤

هذا الكتاب

كتب انجلز هذا الكتاب فى الفترة ما بين سبتمبر ١٨٤٤ ومارس ١٨٤٥ . لقد درس انجلز حال الطبقة العاملة الانجليزية عندما كان يعيش فى انجلترا من نوفمبر ١٨٤٢ إلى أغسطس ١٨٤٤ . كان ينوى فى البداية أن يتناول هذا الموضوع فى فصل واحد ضمن كتاب عن التاريخ الاجتماعى لانجلترا . إلا أن الدور الخاص للطبقة العاملة فى المجتمع البورجوازى جعل لزاماً على انجلز أن يكتب هذا الموضوع فى كتاب منفصل .

ويرى انجلز أن هذا العمل لا يمكن النظر إليه كعمل ماركسى ناضج . إنه ، من وجهة نظره ، يظهر فى كل نواحيه آثار إنحدار الاشتراكية الحديثة من الفلسفة الألمانية التى هى واحدة من أسلافها .

ويشرح انجلز لماذا أخطأت نبوءته عن الثورة الاجتماعية فى انجلترا . إنه يرى أسباب إنحدار الميثاقية بعد عام ١٨٤٨ والانتصار المؤقت للانتهازية فى صفوف حركة الطبقة العاملة . ويعود فيؤكد انتصار الاشتراكية فى انجلترا عندما تفقد انجلترا وضعها الاحتكارى .

إن كتاب حال الطبقة العاملة فى انجلترا يجسد المنهج العلمى فى تقصى الواقع ودراسة مشاكله وقضاياه . كما أنه يقدم منهجاً شجاعاً مسئولا فى مواجهة الخطأ وإرجاعه إلى مسبباته .

إن هـذا الكتاب يشكل ضرورة قصوى لكل باحث اجتماعى يستهدف الحقيقة . إنه يقدم الواقع كما هو حقاً ، دون فرض أطر خاصة عليه . إنه يقول فى بساطة وأمانة ، إن اردنا أن نحل قضايا الواقع ، فعلينا أن نفهمها أولا ، وكى نفهمها جيداً ، علينا أن نعيش فيها ونعايش أصحابها .

الثمن ١٨٠ قرشا